

249

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

اختلاق اسرائيل القديمة

إسكات التاريخ الفلسطيني

تأليف: كيث وايتلام

ترجمة: سحر الهنيدي

مراجعة: د. فؤاد زكريا



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

249

اختلاق اسرائيل القديمة

إسكات التاريخ الفلسطيني

تأليف: كيث وايتلام

ترجمة: سحر الهنيدي

مراجعة: د. فؤاد زكريا



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

مقدمه المترجم

نظرا لأهمية هذا الكتاب بالنسبة للثقافة العربية المعاصرة، ولاسيما في فترة الصراع الحالية مع الصهيونية، فإني أود في البداية أن أنبه القارئ إلى وجود بعض جوانب الصعوبة في قراءة هذا الكتاب. ذلك أن المؤلف، وهو على وعي بأن اتجاهه جديد ومخالف للتيارات السائدة في هذا الميدان من البحث التاريخي، يخوض صراعا دائما ضد مجموعة من الباحثين يسميها بالمدرسة التوراتية، أو الباحثين التوراتيين (biblical scholars)، وهو اتجاه بدأ بين المؤرخين منذ نهاية القرن التاسع عشر عند ظهور الفكرة الصهيونية وفكرة البحث عن وطن قومي لليهود. وأرجو من القارئ أن يقرأ هذه المقدمة بإمعان قبل الشروع في قراءة الكتاب، حيث إنها تساعد على إيضاح كثير من جوانب الغموض التي سوف أقوم بتحديدها في الصفحات التالية.

يركز كيث وايتلام في هذا الكتاب على أنه تعاقبت على فلسطين القديمة عدة حضارات، وعلى أن إسرائيل القديمة لم تكن إلا «خيطا رفيعا في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني»، (وبعد أن جُرّد الفلسطينيون من أرضهم) فإن خطاب الدراسات التوراتية متورط في عملية تجريد الفلسطينيين من ماضيهم أيضا، وذلك من خلال بحث هذه الدراسات المتواصل عن إسرائيل القديمة وتكرارها لعدد من الادعاءات التي تربط الماضي بالحاضر، وتجاهلها للمعلومات الأثرية الجديدة التي تعطي

صوتا للتاريخ الفلسطيني. فالمعلومات الأثرية تستجلي المعلومات من البقايا المادية للإنسان، ولأن الشعب الفلسطيني كان موجودا على أرض فلسطين منذ أقدم العصور، لابد أن تكشف التنقيبات الأثرية عن مثل هذه الآثار المادية. وقد أسفرت هذه الكشوف بالفعل عن جوانب متعددة من التراث الثقافي والروحي الضخم الذي خلفته الشعوب العربية القديمة (السامية) وبخاصة الكنعانية، التي استقرت في فلسطين مع مطلع العصر التاريخي. ولكن السلطات اليهودية المهيمنة الآن على الكشف الأثري، تعمل على طمس معالم الحضارة العربية الكنعانية.

إن الإحساس بالماضي، كما يرى مؤلف هذا الكتاب، مرتبط تماما بالهوية السياسية والاجتماعية في الحاضر، وخطاب الدراسات التوراتية طالب ولا يزال يطالب بهذا الماضي لمصلحة إسرائيل. أما الفكرة الجوهرية التي تركز عليها الدراسات التوراتية فهي اعتبار «مملكة إسرائيل القديمة» حقيقة تاريخية لاجدال فيها، ومن ثم التأكيد على وجود استمرارية تاريخية «مباشرة» بين مملكة إسرائيل القديمة في بداية العصر الحديدي وبين دولة إسرائيل الحديثة. ولا يقتصر الأمر على تأكيد هذه الاستمرارية التاريخية، بل إن الدراسات التوراتية تؤكد التوازي بين التاريخين، بحيث توظف أحداث التاريخ القديم في خدمة الأطماع السياسية الصهيونية المعاصرة. وفي المقابل، يتم طمس أي مفهوم مماثل لأي استمرارية لتاريخ الشعب الفلسطيني بين الماضي والحاضر. ويركز مؤلف الكتاب على ادعاء الباحثين التوراتيين التقليديين أن التوراة مصدر أساسي للتاريخ، أي بمنزلة سجل للتاريخ. وبما أن التوراة كتاب مقدس لليهود، فإن الوقائع التاريخية التي تَرِد فيها لا تناقش، من وجهة نظرهم، ولهذا فإن التاريخ المستخلص منها لابد أن يكون منحازا لليهود. ويؤكد المؤلف، في صفحة (204) و (216) وعلى الأخص، أنه لن يتم التسليم بأن «إمبراطورية داود» هي ضرب من الخيال إلا بعد بحث وتحقيق وفهم تاريخ فلسطين في أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي، وهي الفترة التي شهدت نشوء مملكة داود حسب تلك الروايات التوراتية التقليدية.

وبما أن الباحثين التوراتيين يعتقدون بأن فترة نشوء إسرائيل القديمة كانت في هذه الفترة (أي حوالي سنة 1200 ق.م) فقد استحوذت هذه الفكرة

تماما على تفكيرهم مما دفعهم إلى بذل الجهود المضنية، التي تتخذ شكلا علميا زائفا، وتركيز تنقيباتهم الأثرية على هذه الفترة بالتحديد. وتفجر الحماس الصهيوني لعلم الآثار القديمة ما هو إلا وسيلة لاكتشاف وتأكيد المطالبات الصهيونية «بالحق» في الأرض. وعلى هذا النحو لا تعود فلسطين مجرد قطعة من الأرض، بل هي «جزء من التراب الذي عاش فوقه أجدادهم قبل أكثر من ألفي سنة». وأصبح علم الآثار، منذ الخمسينيات، أكثر من مجرد تسلية للهواة والباحثين، بل أصبح هاجسا وطنيا. ويلفت كيث وايتلام النظر إلى أن اكتشاف المواقع الأثرية «الإسرائيلية» في هذه المنطقة الحساسة سياسيا له نتائج سياسية غاية في الخطورة في الوقت الحاضر وأن التاريخ الفلسطيني من الفترة التوراتية (هذه التسمية متعارف عليها في الغرب)، وهي الفترة التي سبقت الفترة اليونانية الرومانية والبيزنطية، قد تم التخلي عنه لمصلحة وجهات النظر الغربية والإسرائيلية. ويرى وايتلام أن الفلسطينيين إذا لم يتمكنوا من استعادة تاريخهم في الماضي البعيد (وليس فقط في التاريخ الحديث) من قبضة الدراسات التوراتية فلن يتمكنوا من إسماع صوتهم واستعادة حقهم وتاريخهم. لقد اختلق هؤلاء الباحثون التوراتيون كيانا يدعى «إسرائيل القديمة » وصوّروها على أنها قوة عظمى أو حتى «إمبراطورية»، وهذه الأفكار لها دوافع سياسية واضحة في الحاضر.

يرتكز معظم الكتاب على تسليط الضوء على أعمال هؤلاء الباحثين التوراتيين، وتضمين أقوالهم كما وردت بألسنتهم. وتيسيرا للقارئ، فسوف نقوم بعرض سريع لأسماء هؤلاء العلماء التوراتيين والاتجاهات التي يمثلونها حتى يتعرف على كل فريق منهم. لكن قبل الشروع في ذلك يجدر بنا إيراد ملاحظة لتوضيح أسلوب الكاتب في عرضه للمراجع التي استخدمها، وهي طريقة أصبحت شائعة في الدراسات الغربية في السنوات الأخيرة. إذ يكتفي المؤلف بعد ذكر اسم مؤلف المرجع بكتابة سنة الطبع والصفحة المشار إليها في متن الكتاب (لأن المؤلف الواحد في قد يكون له أكثر من كتاب أو بحث). وتوجد في نهاية الكتاب قائمة بالمراجع مرتبة حسب الترتيب الأبجدي لأسماء المؤلفين، ويمكن معرفة الكتاب المطلوب الإشارة إليه عن طريق الرجوع إلى سنة الطبع في القائمة الأخيرة بعد اسم المؤلف.

يمثل الفريق الأول من العلماء التوراتيين كل من: أولبرايت وبرايت

(Albright&Bright)، آلت ونوث (Alt& Noth)، ومندنهول وغوتفالد (Mendenhall & Gottwald) وغيرهم كثير. وهؤلاء اعتبروا التوراة كتابا تاريخيا، فجاءوا إلى فلسطين و«الكتاب المقدس في يد والمجراف في اليد الأخرى». وهذه الفئات الثلاث بدت في الظاهر مختلفة، وبدا أن الجدل بينها كان حامي الوطيس. فمثلا ظلت أعمال أولبرايت وبرايت تعتبر لمدة طويلة نقيضا مباشرا لأعمال آلت ونوث، وبدا أن مندنهول هدم نظريات الفئة الثانية من أساسها. لكن وايتلام يبين أن هذا وهم، وأن هذه الفئات الثلاث لم تختلف إلا في تفسير أسباب نشوء إسرائيل القديمة. فقد اعتقدت فئة - أولبرايت وبرايت - بأن إسرائيل القديمة نشأت عن طريق قيام جماعات إسرائيلية بغزو هذه الأرض، (conquest) وروّجت فئة أخرى (آلت ونوث) لفكرة الهجرة أو التغلغل السلمي إلى فلسطين (Peaceful infiltration)، أما الفئة الثالثة (مندنهول وغوتفالد) فأرجعت نشوء إسرائيل إلى حدوث ثورة داخلية. وجميع هذه الفئات صادرت التاريخ الفلسطيني لمصلحة إسرائيل، وتصورت إسرائيل القديمة على شكل الدول القومية الحديثة التي ينتمون إليها.

ثم ظهر في الثمانينيات فريق آخر مكون أيضا من علماء توراتيين حاول تحدي أفكار الفريق التقليدي، وكان هذا الفريق مكونا من: آلستروم Ahlstrom، ليمكِه Lemche، فنكلشتاين Finkelstein، كوت ووايتلام Coote & Whitelam، طومسون Thompson وديفر Dever وغيرهم. ويذهب مؤلف الكتاب إلى أنه، على الرغم من أن الفريق الثاني اعتقد أنه تحرر من قيود الدراسات التوراتية في بحثها عن إسرائيل القديمة ونجح في تفكيكه للنظريات السائدة، وبخاصة في تركيزه على إظهار أن الفريق الأول لم يعمل حسابا للمعلومات الأثرية المتزايدة من المنطقة، واستمر في اعتبار التوراة كتابا تاريخيا لا يقبل الجدال، فإنه لم يتمكن من الإفلات من قبضة الدراسات التوراتية التقليدية فظل سجينا لها، مما ساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني وطمسه بدلا من إيجاد فضاء له لكي يعبر عن نفسه كموضوع قائم بذاته. وينتقد المؤلف نفسه في أعماله السابقة لأنه وقع في هذا الفخ وهو يفعل ذلك بأمانة شديدة ودقة بالغة في طيات الكتاب. أما أبرز الباحثين ضمن هذا الفريق فهو طومسون Thomas L. Thompson، الذي حورب بسبب آرائه المعارضة للتوراتيين التقليديين. فقد طرد البروفسور طومسون أستاذ علم الآثار في

جامعة «ماركويت» في ميلووكي من منصبه في العام 1992، لأنه أوضح في كتابه الذي صدر في العام نفسه (وعنوانه: Early History of the Israelite People from the Written & ¨Archaeological Sources الذي نشرته دار Brill في هولندا، أقدم دور النشر التاريخية العالمية) أن مجموع التاريخ الغربي لإسرائيل والإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم من صنع الخيال[1].

ومن الواضح أن المهمة التي تصدى لها طومسون، في إنكاره صحة المبررات الأساسية لإيجاد دولة إسرائيل، تشكل خطرا شديدا على الادعاء بعودة اليهود إلى «الأرض الموعودة» التي يقال إنهم نزحوا عنها قبل أكثر من ألفي سنة. ومع أن نائب رئيس جامعة ماركويت التي طردته أقر في حينه بالمكانة العلمية لطومسون، الذي يُعد من أبرز علماء الآثار المختصين بالتاريخ القديم لمنطقة الشرق الأوسط، فقد صرح بأن الجامعة تحصل على دعم من الكنيسة و«المهم في نظرها ليس أن تكون للنصوص التاريخية قيمة تاريخية فحسب، بل أن تتفق أيضا مع وجهة نظر نواميس العقيدة». واعتبر طومسون الذي سارعت جامعة كوبنهاغن في الدنمارك إلى تعيينه أستاذا فيها، أن قرار الجامعة الأمريكية «انكار تام للحرية الأكاديمية التي تدعيها». ومن ناحية أخري، اعترف جوناثان تاب Jonathan Tubb الذي يعد من أكبر علماءد الآثار في تاريخ المنطقة العربية القديم في المتحف البريطاني، بأن «طومسون دقيق جدا في بحثه العلمي الكبير وشجاع في التعبير عما كان كثير منا يفكر فيه حدسا منذ زمن طويل، وإن كانوا قد فضلوا كتمانه»[2]. فماذا عسى أن يحدث لمؤلف جريء فاق طومسون كثيرا في شجاعته؟

وكنموذج من تفكير المدرسة التوراتية التقليدية (الفريق الأول) التي يقف ضدها بعنف مؤلف هذا الكتاب، نورد فيما يلي آراء واحد من أهم شخصيات هذه المدرسة وهو وليام أولبرايت William Foxwell Albright (1889 ـ 1971). وأولبرايت مؤرخ وعالم آثار عمل مديرا للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية في القدس American School of Oriental Research، (1921 ـ 1929

---

1 ـ آخر كتبه هو: The Bible in History, How Writers Create a Past، الناشر Jonathan Cape، «التوراة في التاريخ، كيف يختلق الباحثون ماضيا»، 1999 لندن.

2 ـ الحياة ـ محمد عارف 1993/6/30 مقال بعنوان «طرد أحد أكبر علماء الآثار الأمريكيين لأنه دحض تاريخ إسرائيل».

و1933 ـ 1936) وكان قبل ذلك أستاذا للدراسات السامية في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins منذ عام 1929. يقول أولبرايت في كتابه: «آثار فلسطين» The Archaeology of Palestine[3] ـ في حديثه عن التنقيبات الأثرية في فلسطين ابتداء من القرن التاسع عشر ـ إنه في سنة 1920 عندما بدأت حكومة الانتداب عملها في فلسطين، أنشأت «دائرة الآثار» Department of Antiquity، وكان على رأسها عالم آثار مشهور هو جون غارستانغ John Garstang من جامعة ليفربول Liverpool البريطانية. ويضيف أنه في ظل السياسة الليبرالية نحو التنقيب عن الآثار ازدهرت أعمال الحفر الأثري كما لم يحصل في أي من الفترات السابقة، وفي فترة الخمسة عشر عاما من 1921 حتى 1936 (أدى اندلاع الثورة في 1936 إلى إبطاء أعمال التنقيبات الأثرية) لم تكد تمر سنة واحدة إلا وقد أجريت تنقيبات عديدة وازداد عدد المواقع الأثرية بشكل ملموس حتى وصل إلى الذروة في بداية الثلاثينيات. ويعتبر أولبرايت نفسه «سعيد الحظ» لأنه كان في فلسطين في تلك الفترة، وكان له دور فعال في أعمال التنقيب الأثري وفي تفسير نتائج تلك التنقيبات. ويضيف: «كانت هذه سنوات مثيرة لم يمر فيها شهر واحد إلا وشهدنا تقدما ملموسا نحو هدفنا البعيد لإنجاز مسح أثري شامل لتاريخ فلسطين». ويقول إن التقدم الرائع الذي حصل في علم الآثار الفلسطيني كان في مجال ما قبل التاريخ (Prehistory)، وأن هذا النوع من العلم لم يكن متطورا على الإطلاق. إلا أنه بعد سنة 1920 تغيّر الوضع، وفيما بين (1923 ـ 1928) تم من خلال عدة حملات تنقيب، اكتشاف أوان فخارية ومبان حجرية تعود إلى فترة العصر البرونزي والحديدي. وكانت هذه الاكتشافات، على حد تعبير أولبرايت، «كافية لتأكيد كونها بداية مملكة داود». إلى هذا الحد يعتبر أولبرايت بداية الانتداب وما وفره من دعم وعون لأعمال التنقيب الأثري فترة مهمة للغاية في المشروع الصهيوني، وهي الفترة التي ابتدأت مع وصول أول مندوب سام إلى فلسطين (1920 ـ 1925) وهو اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل.

وكان صك الانتداب، الذي تضمن وعد بلفور ينص في المادة الثانية من

(3) Penguin, London 1960. Revised and Reprinted والطبعة الأولى من هذا الكتاب صدرت سنة 1949.

مواده الـ (28)، على مايلي: «سوف تهيئ حكومة الانتداب الظروف السياسية والإدارية والاقتصادية التي تؤدي إلى إنشاء وطن قومي لليهود، وكذلك تطوير مؤسسات الحكم الذاتي وحماية الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن عرقهم أو دينهم».أما المادة (21) من صك الانتداب فتنص على ما يلي: «خلال اثني عشر شهرا من تاريخه، سوف تؤمن حكومة الانتداب إصدار قانون الآثار Law of Antiquities وتتأكد من تنفيذه حسب القواعد التالية (ثم يسرد صك الانتداب 8 قواعد مفصلة)، وهذا القانون سوف يشترط المعاملة بالمثل فيما يتعلق بالتنقيب والبحث الأثري لجميع الدول الأعضاء في عصبة الأمم». وكان هربرت صموئيل قد اتخذ فور تسلمه الحكم المدني في يوليو 1920 خطوات عملية تمهد لتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود، وتوفير الظروف السياسية والاقتصادية والإدارية لتحقيق هذا الهدف بكل ما أوتي من طاقة، مما كان له أثر بعيد المدى في إرساء قواعد متينة تقوم عليها دولة إسرائيل سنة 1948.

يتضح إذن أن الصهيونية اعتبرت توفير المناخ الملائم للعمل في مجال التاريخ والتنقيب عن الآثار بالغ الأهمية، لا يقل أهمية عن توفير المناخ السياسي والإداري والاقتصادي لإنشاء الوطن القومي اليهودي. بل إن إشارة وعد بلفور ذاته إلى «الرابط التاريخي» (historical connection) بين اليهود المشتتين في العالم وبين «أرض آبائهم» كما سمّوها، كان أكبر نصر في مطلع القرن العشرين للصهيونية ولزعيمها حاييم وايزمن، الذي أصرّ على أن يتضمن وعد بلفور مثل هذه الإشارة، إيمانا منه بأن التركيز على الجانب «التاريخي» هو شرط أساسي لنجاح المشروع الصهيوني، ولضمان «عودة» اليهود إلى «أرض أجدادهم»، فكثيرا ما كان وايزمن يردد: نحن لسنا بقادمين ولكننا عائدون»، (We are not Coming, but returning).

وقبل الاستطراد في موضوعات الكتاب الأخرى والتعليق عليها، ينبغي إلقاء الضوء على بعض الصعوبات التي واجهتني أثناء الترجمة، حيث وردت في الكتاب بعض التعبيرات والمفاهيم التي دأب المؤلف على ترديدها لأنها تعتبر ركيزة أساسية في صلب موضوع الكتاب، مما دفعني من أجل توفير الجهد على القارئ غير المتخصص إلى تحديد هذه المفاهيم، ومن هذه التعبيرات:

اللحظة الحاسمة(*)

بالنسبة للدراسات التوراتية، هناك لحظتان حاسمتان (Two Defining Moments) في تاريخ إسرائيل. الأولى هي إنشاء المملكة الإسرائيلية القديمة (مملكة داود وسليمان باعتبارها قوة عظمى أو إمبراطورية)، وذلك في الفترة الزمنية التي تعتبر فترة انتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي كما أسلفنا، والثانية دولة إسرائيل الحديثة سنة 1948.

تحول في النموذج(2*)

يستعمل هذا التعبير في مجال مناهج البحث العلمي، إذ يشهد العالم بين الحين والآخر «تحولا في النموذج» Paradigm Shift بمعنى نقلة نوعية تحدث عندما تتغير إحدى الفرضيات الأساسية التي كانت سائدة لفترة طويلة من الزمان. فمثلا حدث تحول في النموذج عندما تغيرت نظرتنا إلى العالم من الاعتقاد بأن الأرض هي مركز الكون إلى القول بأن الأرض تدور حول الشمس. وحصل تحول آخر عندما اكتشف آينشتاين العلاقة بين الزمان والمكان وبين المادة والطاقة. كل من هذه التحولات أخذ وقتا طويلا لكي ينفذ إلى المجتمع العلمي ووقتا أطول لكي يصبح مقبولا من الجمهور العام.

يذهب وايتلام في هذا الكتاب إلى أن موضوع نشوء إسرائيل وجذورها التاريخية بحاجة إلى مثل هذا التحول في النموذج، أما النموذج السائد حتى الآن نتيجة لتزييف التاريخ القديم للمنطقة على يد الباحثين التوراتيين، فهو أنه كانت هناك «مملكة إسرائيلية عظمى» حكمها داود ثم سليمان في فلسطين حوالي سنة 1200 ق.م، وهي فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. لكن المؤلف يبين أن هذا مجرد وهم زائف، ويدعو إلى إحلال نموذج آخر محله، موضحا أن إسرائيل التاريخية هذه لم تكن إلا لحظة عابرة في مسيرة التاريخ الحضاري لفلسطين القديمة، وأن على الباحثين الاهتمام بتاريخ فلسطين القديم كموضوع قائم بذاته، وليس كخلفية لتاريخ إسرائيل كما هو حاصل في الدراسات العلمية اليوم، تلك

(*) (Defining moment)

(2*) Paradigm Shif

الدراسات التي أسكتت التاريخ الفلسطيني القديم ومنعته من التعبير عن نفسه. ومن ثم يدعوا المؤلف إلى ضرورة كتابة تاريخ فلسطيني قديم من منظور فلسطيني، لأن المنظور الفلسطيني لم يركز في صراعه مع الصهيونية إلا على الفترة الحديثة، لإثبات هويته القومية وللحصول على دولة خاصة به. فالتاريخ القديم، في رأي المؤلف، قد تم التنازل عنه لمصلحة الغرب ودولة إسرائيل الحديثة. ولهذه الدراسة انعكاساتها القوية على التاريخ الحديث، لأنها تهدم الحجة الأساسية للصهيونية وهي العودة إلى دولة الأجداد.

فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي (*)

نظرا لظهور مملكة إسرائيل القديمة المفترضة في هذه الفترة (حوالي 1200 ق.م) حسب خطاب الدراسات التوراتية، وهي الرواية التي يتصدى لها مؤلف هذا الكتاب بقوة، يجدر بنا توضيح المقصود بهذه الفترة.

تقسم فترات ما قبل التاريخ إلى ثلاث فترات، هي العصر الحجري والعصر البرونزي والعصر الحديدي، وذلك بناء على المواد والأسلحة المستعملة في كل فترة من تلك الفترات. وقد استنبط هذا التقسيم كريستيان تومسين Christian Thomsen (1788 ـ 1865)، أمين متحف الدانمرك كأسلوب لتصنيف مجموعات المتحف، وفيما بعد أدخلت تعديلات وتفصيلات وهذبت هذه العملية. لكن ينبغي الحذر من هذا التصنيف، إذ إنه لا يمثل دليلا دقيقا ولا يدل على تواريخ محددة أو أي حلقة واضحة المعالم في التطور الأساسي، وكذلك فإن هذه الفترات ليست ممثلة في جميع مناطق العالم.

فكثيرا ما نجد فاصلا زمنيا بين بداية ظهور المصنوعات المعدنية وبين الصناعة المعدنية المتطورة في المنطقة نفسها. وقبل استنباط هذا الأسلوب في التصنيف، لم يكن هناك أي هيكل أو إطار يمكن بموجبه تصنيف المكتشفات الأثرية بداخله، ولذلك ظلت هذه التصنيفات مستعملة لسهولتها. فالعصر البرونزي (3500 ـ 800 ق.م) بدأ في الشرق الأدنى وجنوب شرق أوروبا في هذه الفترة وتطورت فيه صناعة المعادن، وهو مرتبط أيضا

(*) Late Bronze Age & Early Iron Age Transition

بالحضارات الأوروبية الأولى وانتشار استعمال العجلة (Wheel) وإنشاء شبكات تجارية بعيدة المدى. تنتهي هذه الفترة في المناطق التي ظهرت فيها مع بداية استعمال الأدوات الحديدية، في القرن الثامن قبل الميلاد، ولكنها تنتهي في أوروبا الشمالية مثلا وفي اليونان وبحر إيجه حوالي سنة 1200 قبل الميلاد.

ويمثل العصر الحديدي (1200 ق.م ـ 330 ق.م) الفترة التي صنعت فيها الأسلحة والأدوات من الحديد، وانتشرت بحلول القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وينتهي استخدام هذا التعبير مع بداية الفترة الرومانية. ويوصف سكان العصر الحديدي عادة بالعدوانية والشراسة. والحضارات التي ازدهرت خلال العصر الحديدي ابتدأت بالعصر الهلنّستي ثم الروماني ثم البيزنطي ثم العربي (الإسلامي). أما الفترة الانتقالية بين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي فتقع على وجه التقريب فيما بين عامي 1200 ق.م و800 ق.م. هذا وتجدر الإشارة إلى أن التقسيم الثقافي للفترات التاريخية يعتبر أن عصور «ما قبل التاريخ»، هي منذ وجد الإنسان حتى عرف الكتابة والتسجيل، وما بعد ذلك يُعتبر «العصر التاريخي».

الفلِستيون(*)

في بداية العصر الحديدي، أي حوالي سنة 1200 ق.م. تعرضت فلسطين (أي كنعان) لغزوات من الفلِستيين والعبرانيين وغيرهم، وربما كان الغزو الفلِستي هو أول غزو أوروبي لفلسطين. ونظرا لأن الفلستيين تحاربوا مع الإسرائيليين وهزموهم في عدة معارك، وورد ذكرهم في التوراة، لذلك لابد من التوضيح حتى لا يلتبس الأمر ويتم الخلط بينهم وبين الكنعانيين، سكان فلسطين الأصليين.

«الفلِستِيون» مصطلح يُطلق على القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين (كنعان) الجنوبي الغربي من غزة إلى يافا شمالا، وهم من شعوب البحر Sea Peoples الذين جاءوا إلى فلسطين من بحر إيجه حوالي عام 1194 ق.م. وقد جاء ذكرهم في عدد من المصادر المصرية القديمة حيث أسموهم «بلست» وكذلك في مصادر آشورية حيث أسموهم «بلستو» أو بالستو» . ويدل الخزف

(*) Philistines

الذي أدخلوه إلى فلسطين على أصولهم الكريتية (من جزيرة كريت Crete قرب السواحل اليونانية). وكان المؤرخ هيرودوت (أبو المؤرخين) هو الذي أطلق على المنطقة التي احتلها الفلستيون اسم «فلستيا» Philistia، وكانت تشمل خمس مدن ساحلية أساسية: أشدود (العاصمة) وعسقلان وغزة وعقرون (عاقر) وجات. لكنهم استوطنوا أيضا مدنا داخلية وأسسوا مدينة اللد.

فاق الفلستيون اليهود، ألد أعدائهم، في التمدن والعمارة. إذ تدل بقايا منازلهم على فن رفيع في البناء، بينما كانت منازل اليهود بدائية صغيرة وسقوفها واطئة، وفاقوهم أيضا في الفنون الحربية. وقد اصطدم الفلستيون باليهود، فهزموا «القضاة» واستولوا على تابوت العهد[4]، وكذلك استولوا على أجزاء من المنطقة التي صارت فيما بعد المملكة الجنوبية. وقد نجح شاؤول لبعض الوقت في صد الفلستيين لكنه هُزم في النهاية. أما داود فقد نجح في تحقيق ما فشل فيه شاؤول وأنهى الهيمنة الفلستية بعد أن قتل البطل الفلستي جليات Goliath. خضع الفلستيون في القرن السابع ق.م. لآشور ثم لمصر. وبعد ذلك سيطرت عليهم الإمبراطورية البابلية فاختلطوا بالشعوب السامية المحيطة بهم واندمجوا معهم. وقد اندثرت معظم الآثار الفلستية، وكل ما وصلنا من معلومات عن هذا الشعب مستمد من الحضارات التي تعاقبت عليه. ولذلك فلا نعرف الكثير عن هذا الشعب أو عن حضارته سوى أن معرفتهم بالبحر كانت واسعة، وهذه المعرفة ورثها عنهم الفينيقيون. وكان لهم تأثير عظيم آخر في الكنعانيين، إذ أدخلوا معهم إلى البلاد صناعة الحديد التي أتقنوها. وبذلك رفع الفلستيون، حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد. مستوى حضارة أهل البلاد الأصليين من استعمال البرونز إلى درجة أرقى منها وهي استعمال الحديد. وليست هناك معلومات عن لغتهم إذ لا توجد أي وثائق مكتوبة بها، ويبدو أن الكنعانية حلّت محلها، ثم الآرامية ثم اليونانية. والشيء ذاته ينطبق على ديانتهم، فقد تأثروا كثيرا بعادات وتقاليد القبائل العربية الكنعانية، وكانت آلهتهم تحمل أسماء سامية، إذ عبدوا آلهة الكنعانيين التي كانت تتألف من ذكر وأنثى كما هي العادة عند الساميين. ومن آلهتهم «داجون»، إله الحبوب عند الكنعانيين. مما يدعم النظرية القائلة إنهم اكتسبوا هوية كنعانية في

فترة وجيزة للغاية. ومنذ أيام هيرودوت أصبحت المنطقة تسمى باسمهم، ثم أصبح هذا الاسم (فلسطين) هو اسمها رسميا أيام الإمبراطور الروماني هادريان [5].

وقد تطور معنى كلمة فلِستي Philistine عبر التاريخ وطرأت عليه تغيرات مهمة: فهي تعني بالنسبة للإنسان الغربي اليوم الفلسطيني القديم. وتجدر الإشارة إلى أن وصف Philistine يُستعمل لوصف الشخص المادي النزعة والفج المعادي للثقافة، وهو إنسان محدود الأفق وبعيد عن الثقافة الرفيعة كما يعرّفه قاموس أكسفورد. وهو تعريف ينم عن تأثير التفسير التوراتي للتاريخ لمصلحة اليهود. وقد بلغ التشويه إلى حد أن الدعاية الصهيونية روّجت للقصة التوراتية عن جلّيات وداود، حيث يصور انتصار داود الصغير بالمقلاع على جليات، وكان من جبابرة الفلستيين إذ بلغ طوله أكثر من تسعة أقدام، وكانت أدواته الحربية مناسبة لطوله وقوته. ويرى د. عبدالوهاب المسيري (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية) أن الدعاية الصهيونية نجحت في ترسيخ صورة داود رمزا لإسرائيل، الذي يستخدم ذكاءه ومهارته في هزيمة عدوه، مقابل صورة جليات رمزا للعربي الذي يتسم بضخامة الحجم وكثرة السلاح ولكنه لايستخدم عقله فيُمنى بالهزيمة.

ومن ناحية أخري، ينظر في الغرب عموما إلى الديانة التوحيدية على أنها «منبع» الحضارة الغربية في مقابل الديانات المحلية التي كانت سائدة في كنعان والتي ينظر إليها باعتبارها ديانات «لا أخلاقية وفاسدة»، ومن هنا نشأت فكرة البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منشأ الحضارة الغربية. وهذه فكرة متأصلة في الوعي والوجدان الغربي على جميع المستويات. فالشخص العادي ينشأ وهو يرتل منذ صغره التراتيل الدينية حول إسرائيل وبيت لحم والناصرة، وبالتالي يصعب استئصال مثل هذه الأفكار من الضمير الغربي. ولقد كان غرض صندوق اكتشاف فلسطين Palestine Exploration Fund ـ الذي أنشئ في عام 1865، بعد حوالي 25 عاما من افتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس وبدء التغلغل الأوروبي في فلسطين (والدولة العثمانية عموما)، وكان أول رئيس له هو أسقف يورك Archbishop of York ـ كان غرض هذا الصندوق هو البحث في آثار وجغرافية وجيولوجية تاريخ فلسطين الطبيعي لإثبات التراث الإنجيلي بطرق علمية.

وكان هذا البحث يهدف إلى التعرف على الأماكن لمحاولة الوصول إلى برهان علمي على المعتقدات الدينية. وكان أول أعمال هذا الصندوق المسح الجغرافي لفلسطين الذي جاء على شكل 26 خريطة مفصلة تفصيلا دقيقا، بمقياس يقرب من 1 إلى 000 ,60، كما وصل تصنيف الأماكن إلى 46 تصنيفا: مثلا مدينة، قرية، خربة، بير، مزار، تل، نبع، قلعة، نهر.... الخ، وصدرت مع الخرائط 10 مجلدات تشمل الجيولوجيا والنبات والحيوان والطيور والمياه والآثار والطوبوغرافيا وملاحظات عن المعنى التاريخي لقرى فلسطين. قام فريق مساحين بمسح (6000 ميل مربع) من فلسطين واستمر العمل من سنة 1871 ـ 1875 وانتهى بنشر المجلدات والخرائط في عام 1888[(6)].

وينبه مؤلف هذا الكتاب إلى أن الصهيونيين يعتقدون أن رسم الخرائط وأعمال المسح الميدانية (surveys)، وإطلاق الأسماء التوراتية على الأرض يعطيهم حق ملكيتها. ونرى اليوم بجلاء كيف أن الإسرائيليين يحاولون إعطاء شرعية لاحتلالهم قرى ومدنا فلسطينية، وذلك عن طريق تغيير أسمائها العربية وإعطائها أسماء توراتية بدلا منها، لمحاولة إثبات أن لهم حقا تاريخيا بها. والواقع إن هذه الأسماء هي أسماء فلسطينية كنعانية قديمة وهي التي كانت سائدة في فترة ما قبل وأثناء وبعد الوجود العبراني في فلسطين القديمة، وهذا الموضوع يحتاج إلى جهد كبير من الباحثين العرب لكي يستكملوا النقاط الناقصة فيه ويثبتوا تحيز الباحثين الغربيين واليهود في كتابة التاريخ القديم.

ونظرا لأنه قد وردت في هذا الكتاب أسماء للعديد من الأماكن التي لم أستطع أن أجد توضيحا لها إلا من خلال رجوعي إلى قواميس، مثل «قاموس الكتاب المقدس» وغيرها من القواميس الأجنبية المكتوبة من منظور يهودي، فإني أهيب بالقارئ ألا يأخذ كل ما جاء في هذه التفسيرات على علاته، بل أن يكون يقظا حذرا. فالعديد من الأسماء التي تُعتبر «عبرية» أو «إسرائيلية» كانت تحمل أسماء كنعانية قبل قدوم العبرانيين، وقد انتقلت إليهم، وربما دخل عليها بعض التحوير، لكنها في الأصل أسماء كنعانية أو سامية كانت موجودة قبل وجود العبرانيين بكثير. فاللغة العبرية من الفصيلة السامية التي تنتمي إليها العربية والفينيقية والآشورية والآرامية وغيرها. واللغات السامية هي جملة اللغات التي كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في آسيا

وأفريقيا وما تفرع منها، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الشرقي (الأكدي أو البابلي - الآشوري) والغربي (الكنعاني - الآرامي) والجنوبي (العربي - الحبشي). وتشمل اللغات السامية الغربية اللهجات الشمالية والجنوبية. فينقسم الفرع الشمالي إلى شعبتين: الكنعانية والآرامية. أما الشعبة الكنعانية فتتكون من الكنعانية القديمة والمؤابية والفينيقية، والعبرية والأوغاريتية (أي لغة مدينة أو غاريت القديمة شمال اللاذقية، في رأس شمرا). وقد أجمع العلماء الباحثون على أن أقدم اللغات السامية هي اللغة العربية القديمة والأكدية والكنعانية(7).

تطورت في الألف الثانية قبل الميلاد مجتمعات بلاد الشام والرافدين، وبقيت الكتابة في تعقيدها إلى أن حصلت ثورة في الكتابة، يرجع الفضل فيها إلى «أوغاريت». كانت أو غاريت مملكة صغيرة تمكّن عبقري فيها في القرن الرابع عشر ق.م. من استبدال تسعة وعشرين حرفا مسماريا يمكن أن تُكتب بها كل لغات العالم بالمئات من العلامات والمقاطع والألغاز. وبعد قرن استطاعت مدينة كنعانية أخرى (جبيل في شمال لبنان والمعروفة باسم بيبلوس) إبداع الأبجدية الخطية، التي كان عدد حروفها 22 حرفا فقط، وكل حرف من حروفها هو مطلع كلمة كنعانية: ألف (رأس ثور)، بيت (بيت) جمل (جمِّل) الخ. (هذه هي حروف اللغة العبرية نفسها المستعملة اليوم بطريقة النطق). وكان أهم تطور لأبجدية جبيل هو استخدام الآراميين لها في كتابة لهجتهم التي عمت العالم القديم، وكذلك اقتباس اليونانيين لها واستخدامها في كتابة لغتهم بعد إدخال الحروف المتحركة عليها، لأن حروف أبجدية جبيل كانت ساكنة. ومنذ حوالي القرن التاسع ق.م. بدأت كتابة جبيل تتفرع لتسجيل لغات أو لهجات أخرى كالمؤابية والآرامية والعبرية، وهي لهجة كنعانية(7).

هذه الصورة المشرقة والرائعة لتلك الحضارات السامية القديمة لم يعترف بها العلماء التوراتيون التقليديون الذين يتردد ذكرهم في صفحات هذا الكتاب. بل إنهم يدّعون أن هذه الحضارات كانت فاسدة على الرغم من إبداعاتها التي تجاهلوها تماما، ونسبوا إلى أنفسهم وإلى ديانتهم اليهودية القديمة كل تطور أخلاقي وفكري وحضاري، علما بأن الاكتشافات الأثرية الحديثة أثبتت أن الديانة اليهودية ارتكزت على الديانة الكنعانية ونمت من

روافدها.

يلاحظ إدوارد سعيد أن من الملامح المميزة لأي شعب صغير غير أوروبي الافتقار إلى الوثائق والتواريخ والسير الذاتية والتسلسل الزمني للوقائع (Chronology) وما إلى ذلك. ويلاحظ وايتلام من جانبه، أن سعيد عندما يتحدث عن استرجاع التاريخ للفلسطينيين، فإنه لايزال كما يبدو يفكر بلغة التاريخ الحديث وليس التاريخ القديم، ويؤكد أن التاريخ القديم «يحتاج إلى غربلته وتنقيته وإعطائه صوتا معبرا بعد أن حجبته عن الأنظار ثقافة صاغت رواية مؤثرة تحتفظ بالماضي لإسرائيل وحدها». ونجد أن إدوارد سعيد يوافق وايتلام في وجهة نظره، إذ عندما سئل عن أفضل كتاب قرأه عام 1996، كتب في مجلة Times Literary Supplement اللندنية في 29 نوفمبر 1996، يقول إنه كتاب «اختلاق إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني».

وقال عن الكتاب إنه «عمل أكاديمي من الطراز الأول، أسلوبه بالغ الدقة وكاتبه يتمتع بجرأة كبيرة في نقده للعديد من الفرضيات حول تاريخ إسرائيل التوراتي». وهذا وصف مفكر كبير لا يصدر رأيه إلا بتأن وروية.

وفي ختام هذه المقدمة أود أن أتقدم بالشكر العميق إلى الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا، مستشار سلسلة عالم المعرفة لتوجيهاته القيّمة ومراجعته الدقيقة لترجمة الكتاب ليسهل فهمه على القارئ.

ولا يفوتني أن أنــوه إلى أن الفضل في نقل هذا الكتاب إلى العربية يعود إلى الأمين العام السابق للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الدكتور سليمان العسكري، الذي اهتــم بهذا الكتاب، وإلى هيئة تحرير سلسلة «عالم المعرفة»، التي شجعت ترجمته، على الرغم من صعوبته بالنسبة للقارئ غير المتخصص، وذلك اقتناعا منها بأن معركتنا مع الصهيونية اليوم هي معركة حضارية وثقافية في المقام الأول. كما أود أن أشكر الدكتور سلمان أبو ستة لتوضيح مواقع بعض الأماكن المبهمة التي استعصت عليّ ولاسيما في الفصل الخامس.

ولانزال في أمس الحاجة إلى جهود حثيثة من الباحثين والعلماء العرب للقيام بدراسات متعمقة تعيد قراءة التاريخ القديم للمنطقة من منظور جديد. وكل ما أرجوه هو أن تستحث قراءة هذا الكتاب بعض المؤسسات العربية ذات النفوذ الواسع والتأثير العملي إلى التفكير في إقامة مركز

لدراسة التاريخ الفلسطيني القديم، تحقق لهذا المشروع الجليل هدفين أساسيين: الأول قومي، وهو انتزاع ركيزة أساسية من ركائز الصهيونية التي تقوم على ادعاء امتلاك التاريخ القديم ـ وهو ادعاء ليس له أساس في التاريخ الفعلي، كما يثبت هذا الكتاب بالتفصيل ـ والثاني علمي، ويتمثل في رد الاعتبار لجزء مهم من التاريخ العربي القديم، وهو التاريخ الفلسطيني، بحيث يدرسه أبناء البلد نفسه بدلا من أن ننتظر من الآخرين إلقاء الضوء على تاريخنا وتفنيد ادعاءات خصومنا.

سحر الهنيدي

الكويت يونيو 1999

الهوامش

1- آخر كتبه هو: The Bible in History, How Writers Create a Past، الناشر Jonathan Cape، «التوراة في التاريخ، كيف يختلق الباحثون ماضيا»، 1999 لندن.

2 ـ الحياة ـ محمد عارف 1993/6/30 مقال بعنوان «طرد أحد أكبر علماء الآثار الأمريكيين لأنه دحض تاريخ إسرائيل».

3ـ Penguin, London 1960. Revised and Reprinted والطبعة الأولى من هذا الكتاب صدرت سنة 1949.

4 ـ تابوت العهد هو الصندوق الذي صنعه موسى حسب رواية التوراة، وكان يحتوي على وصايا الله العشر، وعصا هارون والمن.

أما القضاة فهم المذكورون في سفر القضاة وفي سفر صموئيل الأول، وكانوا حكاما ذوي سلطة مطلقة وقوادا للعسكر. ولذلك عرفت الفترة التي حكموا فيها بعصر القضاة. وقد حكموا من موت يشوع إلى أيام صموئيل حسبما تذكر التوراة.

5 ـ مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، ج 1، (ط 2) 1973. انظر أيضا «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نموذج تفسيري جديد». د. عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة. الطبعة الأولى 1999.

6 ـ أعيد طبع هذه المجلدات والخرائط سنة 1998، أي بعد قرن من صدور الطبعة الأولى. الناشر هو: Archive Editions Ltd.

7 Ashley House, The Broad Way Farnham Commons

Slough, S12 3P Q UK

وعنوان المجلدات هو:

Survey of western Palestine, 1882-1888,

Archive Editions. In Association

With The Palestine Exploration Fund 1998.

7 ـ المعجم الحديث، عبري ـ عربي ـ د. ربحي كمال. دار العلم للملايين، ط 1 ـ 1975. (بيروت)

8 ـ عدنان الأسمر، مقال بعنوان: قصة الكتابة في الشرق العربي القديم: من كتل الطين إلى الأبجدية ـ الحياة 1999/3/6.

إسكات التاريخ الفلسطيني

بدأ هذا الكتاب كجزء من مشروع ضخم لإصدار جزأين عن تاريخ فلسطين القديم، يعالجان المكتشفات الأثرية المادية، والأيديولوجية والدين في المنطقة. أما الاهتمام بالقضايا الأعم للتاريخ ـ مثل الاستيطان، والديموغرافيا، والاقتصاد ـ فقد نظرنا إليه على أنه الطرف المضاد للدراسات التاريخية التقليدية لإسرائيل القديمة، والمستندة إلى التراث التوراتي الذي هيمن على الدراسات التوراتية منذ القرن التاسع عشر، والدواء الشافي منها. ولكن أثناء بحثي عن المعلومات الأثرية والأنثروبولوجية لإعداد الجزء الأول، أصبح جليا أن هذا المشروع الكبير محكوم عليه بالفشل.

أما المشكلة الأولى، فكانت حتما، أن أي محاولة لكتابة تاريخ فلسطين كبديل للتواريخ التقليدية لإسرائيل التي هيمنت على الدراسات التوراتية في القرنين التاسع عشر والعشرين، سوف تتعرض لخطر سوء الفهم على أساس أنها جهد يشوبه الغرور، إذ إنها ستظهر وكأنها تدعي القدرة على السيطرة على كمية هائلة من المواد تتجاوز طاقة معظم الباحثين وبالتأكيد تتجاوز قدراتي الخاصة. هذا هو العمل الكبير الذي كنت أطمح إلى القيام

به عندما ابتدأت العمل في هذا الكتاب. غير أن الفشل، ثم تحول هذا المشروع إلى شيء آخر، لم يكونا فقط بسبب عدم القدرة، أو حتي مجرد الحلم بالتمكن من هذا الكم الهائل من المعلومات الضرورية لهذه المهمة. المشكلة تعود إلى ما هو أهم من ذلك: وهو الإقرار بأن أي مشروع من هذا النوع عليه أن يواجه العقبات الضخمة لما يمكن تسميته «خطاب الدراسات التوراتية»، وأن يتغلب عليها. فهذا الخطاب يشكل جزءا من شبكة معقدة من الدراسات العلمية التى عرفها إدوارد سعيد بأنها «الخطاب الاستشراقي». لقد تجاهلت الدراسات التوراتية تاريخ فلسطين القديم وأسكتته نظرا لأن مجال اهتمام هذه الدراسات هو إسرائيل القديمة التي تم فهمها وتصويرها على أنها منبع الحضارة الغربية.

إن هذا العمل، إذن، ليس تاريخا آخر لإسرائيل القديمة، كما أنه ليس تاريخا لفلسطين القديمة. والكتاب الحالي يهتم بكلا التاريخين، ولكن لايمكن وصفه بأنه تاريخ لأي منهما. إن هذين التاريخين يحتلان مكانة مركزية فيه، وسوف يظهران بشكل واضح في طيات هذا الكتاب، ولكن، في النتيجة النهائية، لايمكن اعتبار هذا الكتاب تاريخا لفلسطين وإن كنت أتمنى عكس ذلك. إن كلمات أوليفر كروموميل Cromwell في البرلمان العائد (Rump Parliament)(*)، أثناء النقاش حول إعادة البناء بعد إعدام الملك تشارلز الأول، قد خطرت ببالي وأنا أجاهد ضد الصعوبات المنهجية والعملية لهذه المهمة الصعبة التي أخذتها على عاتقي:« أستطيع أن أبلغكم أيها السادة بما لم أكن أريد أن أفعله، ولكني لن أستطيع أن أقول لكم ما كنت أريد أن أفعله». كان جمهور كروموميل بالطبع، من الرجال. إن هذا العمل يحاول أن يروج لرؤية تاريخية تشمل الإنسانية بأجمعها وليست حكرا على بعض الذكور ذوي النفوذ. وخلال الكشف عن العقبات الثقافية والسياسية التي تعترض هذا الطريق، سأحاول أن أفتح الطريق أمام ما أسماه براكش Prakash تاريخا آخر من «التواريخ المستبعدة».

والكتاب أيضا محاولة لإيضاح معالم «فكرة»: هي الفكرة القائلة إن تاريخ فلسطين القديم موضوع قائم بذاته يحتاج إلى التحرر من قبضة

* المقصودبالبرلمان العائد Rump Parliament هنا هو إعادة اجتماع البرلمان الذي كان الملك تشارلز الاول قد حله قبل ثورة كروموميل، وذلك في عام 1659، (المترجمة)

الدراسات التوراتية. من الملائم أن نسمي هذه «فكرة» لأنها كذلك حتى الآن، وهي لم تدخل في مضمار الحقائق العلمية حتى الآن. ولفترة طويلة جدا، اعتبر التاريخ الفلسطيني فرعا (صغيرا) من الدراسات التوراتية التي هيمنت عليها الدراسات التاريخية المستوحاة من التوارة، وكذلك البحوث الأثرية المتعلقة بإسرائيل القديمة.

ولهذا، فإن تاريخ فلسطين ، وخاصة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي، لا وجود له عمليا إلا كخلفية لتواريخ إسرائيل ويهودا أو فترة الهيكل الثاني اليهودية. لقد صنف تاريخ فلسطين تحت بند التطورات الاجتماعية والسياسية والدينية ـ وهو الأهم ـ لإسرائيل القديمة.

إن البحث في موضوع إسرائيل القديمة، الذي سوف أدرج ضمنه تاريخ يهودية الهيكل الثاني بهدف الإيجاز، قد استهلك طاقات فكرية ضخمة وكذلك موارد مادية هائلة لجامعاتنا، وكليات اللاهوت والمدارس الدينية، وحلقات البحث وأقسام الآثار وخاصة في أمريكا وأوروبا وإسرائيل. وإن نظرة سريعة في النشرات الإعلامية وكتيبات هذه المؤسسات لتكشف عن وجود مواد عديدة حول تاريخ وآثار إسرائيل القديمة، تدخل في إطار دراسة التوارة العبرية من وجهتي النظر اليهودية والمسيحية. والشيء ذاته ينطبق على الجامعات «العلمانية» التي تحتوي على أقسام «للدراسات الدينية» (بدلا من كليات للاهوت). ومن الطريف، ومما له دلالة خاصة، أنني اكتشفت وجود عدد قليل جدا من المواد التي تدرس في الجامعات حول تاريخ إسرائيل القديم، ضمن برامج كليات وأقسام التاريخ والتاريخ القديم. يتضح من ذلك أن تاريخ إسرائيل القديم هو حكر على كليات الدين واللاهوت، ولكن ليس أقسام التاريخ.

أين يمكننا إذن أن نجد المواد حول تاريخ فلسطين القديم؟ هناك بالتأكيد عدد متزايد من المواد حول الآثار الفلسطينية التي تدرس في أقسام الآثار في الجامعات، وبخاصة في أمريكا . فقد انبثقت هذه من النقاش الحامي حول وجود فرع آثار سوري ـ فلسطيني، في مقابل «الآثار التوراتية» وهو ما دعا إليه ديفر W.G.Dever. ولكن يبدو أن تاريخ فلسطين القديم لا يقع ضمن تخصصات اللاهوت أو التاريخ في مؤسساتنا الجامعية. بل فعليا، كموضوع أكاديمي، يبدو تاريخ فلسطين غير موجود من الأساس: لقد أسكته

الخطاب التوراتي المهيمن واستبعده. إن تهميش تاريخ فلسطين القديم يمكن التدليل عليه من خلال الببليوغرافيا الممتازة للتواريخ المهمة لإسرائيل ويهودا، كما ظهرت في بداية كتاب ميللر وهيز Miller & Hayes، حيث توجد قائمة تتضمن خمسة وستين مرجعا تعود إلى الفترة الواقعة من القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن العشرين، بينما يوجد عنوانان فقط يعالجان تاريخ سوريا وفلسطين (وهما أولمستيد Olmstead 1931، وباتون Paton 1901) ، فضلا عن تاريخ إسرائيل، يهودا أو الشعب اليهودي/ العبري. علينا أن نعي أن سيطرة اللاهوت هذه، وما لذلك من مضامين وأبعاد سياسية وثقافية يجب أن تكون في أذهاننا كي نفهم كيف تمكنت الأوساط العلمية الغربية من اختراع إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني.

وفي مقابل هذا التهميش بل وعدم السماح للتاريخ الفلسطيني القديم بالوجود، بإمكاننا متابعة كيف تم اختراع «إسرائيل القديمة». فقد سيطرت على الدراسات التوراتية منذ نشأتها فكرة مؤداها أن فهم تاريخ إسرائيل القديمة جوهري لفهم التوراة العبرية. وكانت محل الاهتمام الأول أيضا بالنسبة للدراسات اللاهوتية المسيحية بالنظر إلى أن المسيحية هي أيضا دين يعتمد على الوحي في التاريخ. وقد بين فيليب ديفيس Philip Davies أن «إسرائيل القديمة» المذكورة في الدراسات التوراتية هي من اختراع عقول العلماء، وأن هذا الاعتقاد مبني على فهم خاطئ للتراث التوراتي بل إنه بعيد عن الحقيقة التاريخية. وقد أوضح إدوارد سعيد في نقده للاستشراق قوة النصوص العلمية، مثلا تلك المعالجات التقليدية لتاريخ إسرائيل القديم، وذلك حين قال:« لا يمكن صرف النظر بسهولة عن نص يزعم أنه يحتوي على معرفة شيء فعلي، أو أنه ينجم عن ظروف شبيهة بتلك التي تحدثت عنها قبل قليل. فالمهارة من صفاته. وثقل الأكاديميين والمؤسسات والحكومات يمكن أن تضاف إليه، مما يجعله محاطا بهالة أكبر من الشرف أكثر بكثير مما يستحقه نجاحه الفعلي. ولكن الأهم من ذلك هو أن هذه النصوص بأمكانها أن تخلق ليس فقط المعرفة بل الحقيقة التي تصفها.، ومع مرور الوقت، فإن هذه المعرفة وهذه الحقيقة تصبحان تقليدا، أو ما يسميه ميشيل فوكو خطابا (discourse)، يكون فيه مجرد وجودها المادي أو ثقلها، وليس ابتكار كاتبها، هو المسؤول الحقيقي عن النصوص التي ستنشأ عنها».

ينطبق الشيء ذاته على الدراسات التوراتية كما ينطبق على الاستشراق. إذن يوجد ما يمكن تسميته بخطاب الدراسات التوراتية، وهو عبارة عن شكبة متداخلة وقوية من الأفكار والتوكيدات التي يعتقد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعية، بينما في الحقيقة ما هي إلا ممارسة للقوة. وهنا تواجهنا معضلة اختلاق «إسرائيل القديمة» كما أوضح ديفيز Davies ، التي أضفت عليها الدراسات العلمية جوهرها وقوتها كبناء علمي، بينما يفتقر التاريخ الفلسطيني إلى هذا الجوهر وحتى إلى مجرد الوجود في مؤسساتنا الأكاديمية. وهكذا، فإن أي محاولة لتحدي الروايات المغروسة بقوة من المرجح أن يتم رفضها على أساس أن لها دوافع أيديولوجية، ولذلك تعتبر غير معقولة.

أما لماذا يكون الوضع كذلك، فهو مرتبط بقوة ـ في رأيي ـ بالسياق الاجتماعي والسياسي الذي انبثقت منه الدراسات التوراتية حديثا. وتأثير ذلك على دراسة إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني سوف يتم تناوله في الفصل الأول. أما استكشاف الميدان السياسي الذي تقدمت فيه تلك الدراسات التوراتية فهو ليس مفهوما بما فيها الكفاية، أو حتى معترفا به: إنه اهتمام لا يزال في بداياته الأولى. أما الجوهر الأساسي لمضمون الكتاب فهو محاولة لتفصيل تأثيرات التغيرات العميقة التي شهدتها الدراسات التوراتية خلال العقدين الأخيرين أو أكثر، في البحث التاريخي. فالتقارب القوي بين الأعمال الأدبية للنصوص التوراتية قد تحالف مع اتجاهات اجتماعية علمية لإنشاء التاريخ الإسرائيلي، وأدى إلى ما يمكن تسميته تحولا أو تغييرا كبيرا في النموذج Paradigm Shift في دراسة التوارة العبرية ـ غير أن هذا التحول يبدو ظاهريا أكثر من كونه حقيقيا فيما يتعلق بتمثيل التاريخ الإسرائيلي القديم، أو بإدراك التاريخ الفلسطيني القديم. وفي مناقشة هذا التحول، من المعتاد التركيز على التاريخ الروائي للتوارة العبرية وما له من تأثير في الدراسات التوراتية. ولذلك أصبحت الدراسات الأدبية في جميع أوجهها، وللعديد من الناس، إذا ما اقتبسنا تعبير ديفيد غن David Gunn، أصبحت بمنزلة «الأرثوذكسية الجديدة». لقد كان دارسو التوراة أكثر بطءا في إدراك التأثيرات العميقة لهذه التحولات فيما يتعلق بالدراسات التاريخية. وما بدأ بالظهور خلال السنوات القليلة الماضية، في

عدة أماكن مختلفة، هو فهم لحقيقة وجود تاريخ فلسطيني أشمل ، كموضوع قائم بذاته ولا يمت بصلة إلى الدراسات التوراتية. هذا يعني أن التاريخ الإسرائيلي، ويهودية الهيكل الثاني، اللذين كانا حكرا على الدراسات التوراتية حتى عهد قريب، يشكلان في الحقيقة جزءا من التاريخ الفلسطيني، بينما التاريخ الإسرائيلي، الواقع تحت هيمنة الدراسات التوراتية، قد سيطر على المشهد العام لفلسطين لدرجة أنه أسكت فعليا كل مظاهر التاريخ الأخرى في المنطقة من العصر البرونزي حتى الفترة الرومانية. هناك بعض الحالات التي يمكننا أن نوافق فيها مع بروديل Braudel على أن إسرائيل القديمة أو بشكل خاص، يهودية الهيكل الثاني، تندفع بقوة فارضة نفسها على المشهد العام، وكان هذا هو الفهم الوحيد لها في معظم الفترات في الدراسات التوراتية، ولكنها في أوقات أخرى تلعب دورا ثانويا، أو تظل مخفية أو حتى غير موجودة.

وإذا نظرنا من منظور أوسع وأطول زمنا، فان تاريخ إسرائيل القديم يبدو كلحظة قصيرة في التاريخ الفلسطيني الطويل. لذلك ، فإنه من المناسب طبعا للمؤرخين أن يركزوا على هذه الحقب القصيرة من التاريخ أو المجتمعات المعنية فيها. ولكن من الضروري أيضا أن نتوقف قليلا ونتأمل وذلك لتقديم منظور مختلف من خلال رؤية الصورة الأشمل. إن دراسة إسرائيل القديمة قد أصبحت مهيمنة بشكل كامل، لدرجة أنه ينظر إليها وكأنها تمثل الصورة الكاملة وليس مجرد تفصيل مهم في هذه اللوحة . من المهم، إذن، إعادة التوازن بالتركيز على تلك الحقبة من الزمان الواقعة في حقل الدراسات التوراتية والتي سيطر عليها تاريخ إسرائيل القديم، وذلك كي نبين كيف يمكن فهمها من منظور التاريخ الفلسطيني.

لهذا السبب ركزت في دراستي الحالية على فترتين حاسمتين، فترة ما اصطلح على تسميته بفترة «النشوء» أو «الجذور» الإسرائيلية في فلسطين، خلال الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي حتى بداية العصر الحديدي. والفترة اللاحقة وهي فترة تأسيس الدولة الإسرائيلية في العصر الحديدي. ويجب أيضا إضافة ما يعتبر فترة المنفى أو الهيكل الثاني أو، من زاوية التاريخ الطويل لفلسطين، التحرك بالتناوب إلى الأمام وإلى الوراء. لكن على كل حال، فإن فترات «النشوء» وإنشاء الدولة كانت لمدة

طويلة مركز اهتمام العلوم التوراتية في بحثها عن إسرائيل القديمة. وقد أصبحت هذه علامات محددة في تاريخ المنطقة بالنسبة لخطاب الدراسات التوراتية. فإذا ما تمكنا من تحرير هذه الفترات من قيود الخطاب التوراتي الذي أعاد تشكيل بناء الماضي، فإن كل الفترات الأخرى (السابقة واللاحقة) من تاريخ فلسطين سوف يسهل تحريرها من قيود ماض سيطرت عليه إسرائيل وتحكمت به. إن تحليلنا في الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس يأخذ شكل التعليق على العديد من الأعمال التقليدية التي تعتبر نماذج في ميدانها، والتي شكلت كما تشكلت هي نفسها بخطاب الدراسات التوراتية. والكتاب يحاول أن يوضح كيف أن مجموعة من الأفكار والفرضيات المتكررة باستمرار، وظفت نفسها لتقديم فهم للماضي قاوم عمليا كل المحاولات الأخرى لتصور بناءات بديلة لهذا الماضي. وقد تعمدت استخدام عدد كبير من الاقتباسات، كثير منها من أعمال مألوفة في هذا المجال، لكي أبين ماذا فعل خطاب الدراسات التوراتية ـ من فمه ـ بدلا من أن أشوه ما قاله العديد من الكتاب ذوي التأثير في هذا المجال.

غير أنه ينبغي التنبيه إلى عدم وجود الاهتمام الكافي بالعوامل التي أدت إلى الوضع الحالي. فالدراسات الأكاديمية الحالية تركز على محاولة فهم التأثيرات العملية التي أدت إلى هذه التحولات: المنافسات الأكاديمية حول طرق وأساليب قراءة التوراة العبرية أو كتابة التاريخ الإسرائيلي القديم. سوف يتضح للعديد من القراء أن هناك محاولات متزايدة لدراسة تاريخ فلسطين القديم، وذلك في أعمال آلستروم Ahlstrom، وكناوف E.Knauf وليمكه N.P. Lemche وطومسون L.T Thompson وويبرت H.Weippert وآخرين غيرهم. يمكن القول إذن إن هذه الدراسات ، بالإضافة إلى أعمال آلستروم Ahlstrom الضخمة حول تاريخ فلسطين، تنفي أي زعم بعدم وجود تاريخ لفلسطين القديمة في الدراسات الأكاديمية. إلا أنني أود التنويه إلى أن عمل آلستروم، كغيره من الأعمال، لايزال يقع تحت سيطرة افتراضات الدراسات التوراتية المستوحاة من التوراة العبرية. ويتضح هذا بشكل لايدع مجالا للشك في الترتيب الغريب لكتابه الذي يبدأ بفصل حول «زمان ما قبل التاريخ» (Prehistoric time) ، يمتد بين العصر الحجري القديم (Paleolithic) والعصر الجيري (Chalcolithic) ويليه العصر البرونزي الأول

ثم الوسيط والمتأخر، ولكنه يتحول بعد ذلك إلى فصل بعنوان «القرن الثاني عشر قبل الميلاد» ثم «زيادة الاستيطان في القرن 13 ـ 12 قبل الميلاد» و «عبر الأردن في القرنين العاشر إلى الثاني عشر قبل الميلاد» ثم فصل بعنوان «القضاة» ، وذلك قبل التركيز على نشوء الدولة. إن هذا التحول إلى تركيز أضيق على القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، بعيدا عن التقسيمات الآثارية، سببه اعتقاد قديم لدى دارسي التوارة وعلماء الآثار بأن هذه هي الفترة التي «نشأت» فيها إسرائيل في فلسطين. ولهذا فإن عمل آلستروم، بينما يدرس تاريخ فلسطين القديم، يظل منشغلا بالبحث عن تاريخ إسرائيل الأول الذي كان هدف الدراسات التوراتية منذ نشأتها. وعلى الرغم من أن آلستروم يعتبر رائدا في رد الاعتبار للتاريخ الفلسطيني، فإن در استه تظل مقيدة بخطاب الدراسات التوراتية. إن هذا السيل من الأعمال الحديثة قد ساعد في تهيئة الأجواء، وكان له أثر كبير في إحداث تغيير في الدراسات التاريخية، ولكنه يظل في الغالب على هامش الجدل إذا ما قيس بالأعمال السائدة. إضافة إلى ذلك، لم تتطرق هذه الأعمال بأي تفصيل إلى السؤال الجوهري حول ماهية العوامل الثقافية والسياسية التي قيدت التاريخ الفلسطيني القديم وجعلته أحد «التواريخ المستبعدة» التي أسكتها التعصب الأوروبي أو الرؤية الغربية للماضي.

إن أكبر المعوقات ضد تحقيق تاريخ فلسطين القديم هو أنه حتى لو تم تحريره من قيود الدراسات التوراتية، يظل حكرا على العلوم الغربية. لقد نبه إدوارد سعيد إلى العلاقة القوية بين الثقافة والإمبريالية في تطور الاستشراق والروايات الغربية. ما ينقصنا ، حسب تعبيره ، هو «القراءة بطريقة مقارنة» Contrapuntal reading (*) للتاريخ الفلسطيني من وجهة نظر غير غربية. إن المشروع المتفرع البديل المسمى سبالترن Subaltern مثلا هو أحد أكثر المشاريع المثيرة في محاولة استعادة التاريخ الهندي من قبل المؤرخين

(*) الكلمة الاصلية هي Contrapuntal وقد استعارها إدوارد سعيد من ميدان الموسيقى التي كانت له في دراستها إسهامات مهمه. ولكن المشكلة هي أنه لم يكترث بالقارئ المسكين، ولم يوضح له السبب الذي جعله يستعير مصطلحا موسيقيا في هذا السياق، وما هي العلاقة بين الميدانين. ولما كان مصطلح Contrapuntal (الذي يترجمه البعض بـ «الطباق») يدل في الموسيقى على توازي خطين موسيقيين يسيرلن معا ليكونا اللحن الموسيقي، فربما كانت أقرب الكلمات للتعبير عن هذا الاصطلاح هي كلمة «المقارنة». (المراجع)

الهنود، الذين يرغبون بتمثيل أنفسهم وتاريخهم في منافسة الروايات الأوروبية والاستعمارية المهيمنة منذ وقت طويل. إن نشوء هوية فلسطينية حديثة والتعبير عن تقرير المصير قد ركز على التاريخ الحديث وليس على التاريخ القديم. «فالتاريخ الفلسطيني» عني فقط بالقرنين الأخيرين وبصراعه مع الحركة الصهيونية وتحقيق دولة إسرائيل الحديثة. أما التاريخ القديم فقد بقي حكرا على إسرائيل حيث إن هذه هي الطريقة التي قدم به هذا التاريخ منذ نشوء الدراسات التوراتية في العصر الحديث. أما الدراسات الإسرائيلية الحديثة فقد عنيت بتاريخ إسرائيل القديم المكتوب من وجهة نظر غربية واستشراقية بوصفها التعبير القديم عن الدولة الحديثة وشعبها اليهودي. إن نمو الحركة الوطنية الفلسطينية لم يؤد إلى استرداد الماضي كما حصل في الهند وأفريقيا وأستراليا. والمشكلة هنا تكمن في أن مفهوم «التاريخ الفلسطيني» يقتصر على الفترة الحديثة، في محاولة لتوضيح القضية الوطنية في مواجهة النفي والتشريد، كما لو كان التاريخ القديم ترك لإسرائيل والغرب. يلاحظ إدوارد سعيد في خاتمة كتابه «لوم الضحية: البحث العلمي الزائف وقضية فلسطين» Blaming the Victims: Spurious Scholarships and the Palestine Question تحت عنوان: «نبذة عن الشعب الفلسطيني»، أن فلسطين كانت وطنا لحضارة لافتة للنظر «لقرون طويلة قبل هجرة القبائل العبرية إليها». ويبين أن طبيعة هذه الحضارة وإنجازاتها تذكر في جمل قليلة بينما فترة الهجرة الإسرائيلية ـ وهي نظرة عفى عليها الزمن كما سوف نرى بعد قليل ـ قد تركت لإسرائيل دون أي تعليق. ويركز الباحثون على تاريخ فلسطين منذ الفتح العربي والإسلامي في القرن السابع الميلادي حتى الوقت الحاضر. أما الفترة البرونزية المتأخرة بالتحديد، حتى الفترة الرومانية، فهي بحاجة إلى استعادتها وإعطائها صوتا في تاريخ فلسطين. وقد نبه أسد Asad إلى الأهمية الهائلة للتاريخ الغربي في تحديد رؤى الشعوب غير الغربية، والتي «وجدت نفسها ملزمة بقراءة تاريخ الغرب (لا تواريخها هي)، كما أن الغربيين بدورهم لايحتاجون إلى قراءة التواريخ غير الغربية». وعلى الرغم من أنني سأجادل من أجل فكرة فصل التاريخ الفلسطيني القديم عن محيط وقيود الدراسات التوراتية ، فإنه لايمكننا إنجاز هذه المهمة إلا بعد إجراء مقارنة في المنظور المختلف

للدراسات الغربية وغير الغربية. والآراء التي سنعرضها قد تشكل الوجه المقابل لخطاب مهيمن ضمن الدراسات التوراتية، ولكن ينقصه المنظور وقوة الدفع «للقراءة المقابلة» (Contrapuntal) من وجهة النظر الفلسطينية وغير الغربية.، أما المفارقة في هذا الوضع فتبدو واضحة: أن محاولة تحديد معالم تاريخ فلسطيني كموضوع قد تم تحريره من قيود الدراسات التوراتية أو الخطابات المتصلة به تظل تعبيرا أوروبيا عن تاريخ قديم مستبعد.

إن المحاولات المتعثرة لكتابة تاريخ أشمل لفلسطين ـ وأنا هنا أمتنع عن الإشارة إلى تاريخ «جديد» لفلسطين كما يشيع الآن ـ من الممكن أن تسلك مسالك خاطئة كما أنها قد تفتح، على ما نأمل، طرقا جديدة. أما الفشل فسوف يتمسك به بسرعة بالتأكيد أولئك الذين لا يوافقون على هذا المشروع كدليل على أنه ليس هناك بديل عن التاريخ التوراتي التقليدي. لكن فات الوقت الذي كان يمكننا فيه الاكتفاء بتدقيق أساليب الدراسات التوراتية وطرقها في البحث. والمطلوب الآن هو تغيير أساسي في معالجتنا لتاريخ المنطقة. وأنا آمل ألا تؤثر نواقص هذا الكتاب ومواضع الإخفاق فيه سلبيا في الآخرين لاستكشاف القضايا والأمور التي سوف تقودنا إلى فهم أعمق لتاريخ المنطقة. فالدراسات التوراتية قد ظلت، ولمدة طويلة، بعيدة عن الخطاب النقدي الذي أثير في تخصصات التاريخ والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والاقتصاد، مما أدى إلى تعرية طرق العلوم الغربية التي اتسمت بالموضوعية وبينت كيف كانت هذه جزءا من شبكة معقدة من الأفكار والارتباطات المرتبطة بعلاقات القوة.

أما الأدوات التي ينبغي علينا استعمالها في البحث التاريخي فتبدو غير دقيقة وفجة، إذا ما قارناها بدقة المشتغلين بالقياس الدقيق (Cliometricians) وما يقومون به من إحصاءات وأبحاث تستند إلى الأرقام والمعلومات القابلة للقياس. يتمتع مؤرخو القرون الوسطى والحديثة ـ بشكل نسبي ـ برفاهية وجود كمية كبيرة من المعلومات القابلة للقياس، والتي بقيت مخبأة أو غير مستعملة في دور الوثائق ومكاتب السجلات لعشرات السنين أو حتى القرون. أما المكتشفات الأثرية الجديدة في فلسطين فقد زادت من معرفتنا بشكل كبير حول مناطق وفترات معينة في فلسطين القديمة مما أدى إلى تحول في النموذج Paradigm shift. غير أن المعلومات التي يمكن أن نلتقطها من

هذه الدراسات لاتزال تنقصها الدقة بالمقارنة مع المصادر المتوافرة لزملائنا دراسي تاريخ القرون الوسطى والحديثة. فالمؤرخ المتخصص في تاريخ فلسطين القديم ينبغي عليه أن يرضى بفهم «عام» للتاريخ. قد يكون هذا شيئا غير مريح لأولئك الذين نشأوا على المستوى العالمي للدراسات التوراتية، والتي تفضل حقائق التاريخ السياسي وتصويرها المغري للشخصيات العظيمة على أنها هي التي تشكل التاريخ والقدر.

إن هذا النمط من كتابة التاريخ لايزال يهيمن على مكتباتنا والأقسام الأكاديمية على الرغم من وجود أعمال بروديل وماكنيل Mc Neill ومدرسة الحوليات (Annalistes) الفرنسية، كما نجد أن عبادة الفرد تهيمن على جميع أشكال السياسة المعاصرة في الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا وغيرها، بفضل التليفزيون والفيديو والأقمار الصناعية وتؤكد الأفكار المتحاملة التي تذهب إلى أن رجالا عظماء ونساء قليلات هم الذين يتحكمون في مصير الإنسانية. وأي محاولة للبحث عن التيارات التحتية التي ساعدت على تكوين الأفكار المسبقة لهؤلاء الأشخاص أو تساعد في فهم نجاحهم في «إقناع» الجماهير بمساندتهم، يتم رفضها بوصفها مادية فجة أو تعبيرا عن قراءة ماركسية غير محنكة للتاريخ. ومع ذلك فقد، أصبحت، شأني شأن الكثيرين غيري في مجال الدراسات التوراتية، غير راض عن هذه التواريخ اللاهوتية والسياسية التي هيمنت على علمنا هذا (يقصد التاريخ) لوقت طويل جدا. إن أعمال بروديل، التي تحتل مكانة السيادة والمليئة ببصيرة نافذة تلهب الخيال، قد علمتني أن هناك عدة مظاهر للتاريخ لم تخاطبها تواريخنا السياسية واللاهوتية. وهذا هو ما ألهب خيالي لكي أضطلع بهذا المشروع الضخم في محاولة كتابة تاريخ فلسطين القديم. ولكنني لم أر الصعاب الكامنة التي واجهت هذا المشروع إلا بالتدريج، وهذه الصعاب كانت بحاجة إلى أن تربط بالسياق السياسي والاجتماعي الأوسع لعلوم القرن العشرين. إن تاريخ فلسطين ، وقد نقول التاريخ القديم بشكل عا م، يهيمن عليه النمو أو التناقص السكاني (الديموغرافي) مقترنا بالتوسع والانكماش الاقتصادي والتجاري. وإذا لم نفهم هاتين الدعامتين (الركيزتين) المتلازمتين للمجتمع القديم، أي السكان والاقتصاد ، أو العوامل المؤثرة فيهما، فلن يكون بإمكاننا فهم هذا التاريخ. فالعديد من المعلومات التي

تتعلق بهذه المجالات لاتزال غير منشورة، مما يعيق استكمال البحث. غير أن شبكة العلاقات المسيطرة على هذه الأبحاث العلمية هي التي تشكل العائق الأكبر. في الماضي، تم تجاهل العديد من هذه الأفكار، وبخاصة في التواريخ التوراتية، ليس فقط لأن المعلومات كانت ناقصة، ولكن السبب الأهم هو الاعتقاد السائد بأن هذه المعلومات غير مهمة. لقد حالت العوامل الثقافية والسياسية التي هيمنت على خطاب الدراسات التوراتية في دراسة تاريخ إسرائيل القديم دون تطور استراتيجية للتحقيق في هذه القضايا. ومما يدعو إلى السخرية أن العديد من أعمال التنقيب الأثرية، والاستطلاعات المحلية ومواقع التنقيب ، التي أدت إلى هذا التحول في النموذج ، تهيمن عليها فكرة البحث عن إسرائيل القديمة، وعن الوقائع المادية التي يفترض أنها سوف تلقي الأضواء على التوارة العبرية. من المهم تحديد مفهوم دقيق وواضح لتاريخ فلسطين ومن ثم تخطيط استراتيجيات للبحث عن هذا التاريخ القديم، لاتكون تحت سيطرة الباحثين المهتمين صراحة أو ضمنا بالبحث عن تاريخ إسرائيل فقط. إن الكتاب الذي بين أيدينا هو مجرد البداية في محاولة تحديد معالم هذه الفكرة: أما تجسيد هذه الفكرة على شكل تاريخ لفلسطين القديمة فيجب أن ينتظر أعمالا أخرى أكثر معرفة وكفاءة من كتابي هذا. لقد كانت إثارة الأفكار أكثر أهمية بالنسبة إليّ من تحقيق الهدف. وكان من الصعب إماطة اللثام عن المؤثرات السياسية والأيديولوجية الخفية التي هيمنت على البحث التاريخي للدراسات التوراتية، أو توثيق هذه المؤثرات بالقدر الكافي. ودون شك سيكون كثيرون سعداء لفشل تاريخ «اجتماعي» آخر. بينما لا يوجد في الواقع، كما يشير بروديل دائما، سوى تاريخ فحسب. إنني لا أعتبر هذه الدراسة تاريخا لفلسطين ولكنها تبيّن كيف وضعت الدراسات التوراتية العقبات أمام إنجاز هذا التاريخ. وأنا على يقين تام بأن التاريخ الفلسطيني، ومعه تاريخ إسرائيل القديم يجب أن نتعامل معهما بشكل أكثر جذرية من معالجتنا التقليدية، وهو ما كان دافعنا الدائم للاستمرار في هذا المشروع. كل ما أتمناه هو أن يولي الآخرون في هذا الميدان اهتماما بنوعية الأسئلة التي أثرتها، إن لم يكن بالتفسيرات التي قدمتها، وكذلك العلاقة بين المجال السياسي والدراسات التوراتية كموضوع أكاديمي وهي مسألة بدأت تتضح ببطء.

١ نصوص منحازة وتواريخ متصدعة

نصوص منحازة

إن تصور الماضي وتمثله أمر تكتنفه الصعوبات، ليس لمجرد غموض المعلومات التاريخية وقلّتها، ولكن لأن إعادة بناء التاريخ ـ الماضي أو الحاضر سواء أكان مكتوبا أو شفاهيا ـ هو عمل سياسي بالدرجة الأولى. فالجدل القديم العهد حول إمكانية كتابة التاريخ القديم لإسرائيل، التي قامت بمحاولات عديدة لاكتشاف جذورها وكيفية نشوئها، قد دأب، بطبيعة الحال، على التركيز على الصعوبات التي جابهت تفسير الشواهد التاريخية، وضمنها السؤال الجوهري حول طبيعة ما يمكن أن نسميه دليلا أو شاهدا. غير أن هذا النقاش المحتدم له مضامين سياسية عميقة قلما كانت تظهر على السطح. أما السبب الدقيق لاحتدام هذا النقاش فهو يتعلق بالعناصر السياسية والثقافية والدينية المتضمنة في إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديمة. وهذه العناصر تكون دائما غير ظاهرة في الجدل القائم، وقلما تطفو على السطح شأنها شأن معظم المسلمات الأساسية في هذا الميدان. إن مشكلة

تاريخ فلسطين القديم هي أنه مازال غير مصرّح به، محتجبا في الخطاب السائد في الدراسات التوراتية، تلك الدراسات التي تهتم أساسا بالبحث عن تاريخ إسرائيل القديم على أساس أنه هو الميدان الذي يُعين على فهم تراث التوراة العبرية وهو في نهاية المطاف، المنبع الأول للحضارة الغربية والأوروبية.

من الممكن تقديم مثلين مفيدين لإيضاح كيف يمكن تحطيم الهيكل الذي يقوم عليه هذا الخطاب التوراتي، وبالتالي لإعطاء الفرصة لهذه المسائل كي تبرز إلى السطح: المثال الأول مقتبس من جدل دار في حلقة نقاش إلكترونية[*] ـ تعرف بـ IOUDAIOS ـ قامت فيها مجموعة بمناقشة فترة «الهيكل الثاني». كذلك فإن كتاب فيليب ديفيز Philip Davies «البحث عن إسرائيل القديمة» Insearch of Ancient Israel أثار جدلا واسعا حول ما إذا كان التراث التوراتي يمثل رؤية للماضي، مطابقة للواقع. وأخذ أحد المشاركين موقفا حادا من الاتجاهات التي تتخذ موقف الشك الصريح، عبّر عنه بقوله: «لقد انتزع مني تاريخي». من الواضح إذن أن رؤيتنا للماضي هي شيء سياسي بالدرجة الأولى، كما أن لها تداعيات مهمة في العالم الحديث لأن هذه التمثلات الذهنية تؤكد الهوية الشخصية أو الاجتماعية أو تنكرها (تونكن Tonkin 1992 :6) ولإيضاح ذلك، يكفي التدليل على ردود فعل السكان الأصليين لكل من أستراليا والأمريكتين في مناسبة الاحتفالات بمرور مائتي عام على الاستيطان الأوروبي لأستراليا، وخمسمائة عام على اكتشاف كريستوفر كولومبس لـ «العالم الجديد»، والاستيطان الأوروبي التالي لهذا الاكتشاف. لقد كانت تلك الاعتراضات موجهة ضد التاريخ «الرسمي» الذي يؤكد «المركزية الأوروبية»، وضد تمثيل الماضي بشكل لا يخلو، في كثير من الأحيان، من إنكار تاريخ السكان الأصليين لهاتين القارتين[1]. فالروايات التي تأتي بها الثقافات المهيمنة (التي هي عادة أدبية)، كثيرا ما تُسكت الروايات الأخرى لجماعات هامشية موجودة في تلك المجتمعات فتُحرم بذلك أن يكون لها صوت مسموع في التاريخ. إن التحديات المتزايدة للكتابات التاريخية التي تُسمى وضعية (Posivistic) في القرنين التاسع عشر والعشرين، والمتعلقة بما يسمى الدراسات التوراتية «العلمية»، هذه الاعتراضات تُرفض بوصفها «تحريفية» Revisionist وقد يطلق عليها وصف ازدرائي آخر،

كالماركسي أو المادي، لأنها تقوّض البحث عما أطلق عليه بيرك لونغ Burke Long «الرواية الأصل» (master story)، وهي الرواية المعتمدة لتاريخ إسرائيل، والتي كانت خطوطها العريضة تبدو راسخة بشكل معقول حتى عهد قريب[2]. إن المسألة التي تحتاج إلى البحث والتحري تتعلق بالعوامل الثقافية والسياسية التي تُضفي طابعا خاصا على هذا البحث وسرد «الرواية الأصل» (master story)، المتعلقة بتاريخ إسرائيل القديم في إطار الدراسات التوراتية الحديثة.

أما المثال الثاني فهو مأخوذ من دراسة مقارنة لأعمال فنكلشتاين Finkelstein (1988)وكوت ووايتلام Coote and Whitelam (1987)، قام بها كرستوفر إيدن Christopher Eden (292 ـ 289: 1989) وركز فيها على السؤال الرئيسي التالي: «كيف تظل تلك البنية القوية التي تشكلها المعتقدات الدينية الشخصية، والمواقف السياسية، والتوجهات الأكاديمية، وكذلك الخبرات التاريخية والأيديولوجية للمجتمع الواسع موجودة باستمرار سواء بشكل صريح أو ضمني، وذلك في ميدان العمل التاريخي بوجه عام، والتاريخ التوراتي بوجه خاص (وكذلك علم الآثار التوراتي)، وفي العرض الذي قدمه لهذين العمليين التاريخيين (291: 1989)[3]، وفي معالجة إيجابية بشكل عام لهاتين الدراستين، يضيف تقييما سلبيا يتعلق بمضامين دراسة فنكلشتاين Finkelstein بالنسبة إلى العصر الحاضر، وتقييما إيجابيا حول مضامين دراسة كوت ووايتلام Coote and Whitelam. أما اعتراض إيدن Eden على دراسة فنكلشتاين فتتلخص في قوله:

> يشدد فنكلشتاين... على أهمية انفراد وعزلة الإسرائيليين عن الشعوب الأخرى، وتحررهم من تأثير العوامل الخارجية. وهذه المواقف تزداد تعقيدا بسبب عدم الحساسية الإثنية (العِرقية) والتاريخية المثيرة للقلق، والتي تنظر إلى استيطان الفلسطينيين لأرضهم وإنتاجهم الزراعي في الماضي القريب باعتباره ناتجا عن أحوال البلد الطبيعية وحدها (ص 130)، وهو رأي يتجاهل الظروف الخاصة أثناء فترة الحكم العثماني والمتعلقة بقوانين تملك الأرض ودفع الضرائب، بينما يحكم على السكان العرب بأنهم غير قادرين على الاستجابة لهذه العوامل الطبيعية. إن موقفا من هذا النوع ينذر بمستقبل كئيب وعنيف للمنطقة.

(إيدن Eden **292: 1989)**.

أما رد (فنكلشتاين 1991: 51) على ذلك فهو أن تعليق إيدن يتجاهل

تماما دراسته الاستطلاعية حول استخدام العرب للأرض واقتصادهم الزراعي، القائم على المحاصيل الزراعية اللازمة للمعيشة في القرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين. أما رفض فنكلشتاين لانتقادات إيدن بسخرية ووصفه إياها بأنها مثيرة للسخط ومنحازة سياسيا، فتفوته النقطة الجوهرية المتعلقة بالطريقة التي تعمل بها مواقفنا السياسية، ولو على مستوى اللاوعي، على تشكيل البحث التاريخي برمته. وبعد ذلك يختم إيدن Eden المناقشة بقوله:

المسألة الجوهرية هنا ليست استخدام التاريخ التوراتي لإثبات صحة مواقف سياسية معاصرة، وإنما هي دس قيم شكلتها التجارب المعاصرة والأماني الحديثة في قلب البحث الأكاديمي «الموضوعي». صحيح أن من المستحيل محو هذه القيم، ولكنها قطعا يمكن، بل يجب، أن تُفهم على أنها جزء من الخطاب التاريخي، وهو فضلا عن ذلك جزء يحدد بشكل مباشر طبيعة الأسئلة المطروحة والإجابات المقدمة، ولو تجاهل القارئ وجود هذه القيم، لكان الثمن الذي يدفعه على هذا التجاهل هو أن يكون النص مجتزأ ومنحازا.

(**إيدن** Eden**292: 1989**).

من الواضح إذن أن أحد العوامل المهمة في محاولتنا لفهم «تاريخ إسرائيل القديم»، وتواريخ الكيانات الأخرى، وإن كان هذا العامل غير مصرح به دائما، هو أن كتابة التاريخ هي عمل سياسي، وكيف أن تلك المواقف والآراء السياسية تحدد برنامج البحث وتؤثر بشكل قوي في نتائج أبحاث المؤرخين، وأن هذا البرنامج، يؤدي إلى كتابة «نصوص منحازة» كما يقول إيدن. أما في حالة الدراسات التوراتية، فقد ركزت على ـ بل إنها اختلقت ـ «كيان»، وذلك الكيان هو «إسرائيل القديمة»، بينما تجاهلت حقيقة التاريخ الفلسطيني بشكله المتكامل. ويمكننا تحديد مهمتنا القادمة بالاقتباس من إدوارد سعيد الذي كتب يقول: «إن المهمة التي تواجه المثقف المفكر هي إذن ليست قبول سياسة الهوية The politics of idendity كما هي، بل إيضاح كيف تنشأ جميع هذه التصورات، ولأي غرض، ومِمَّن، وما هي مكوناتها» (380: 1993).

يجب ألا يدعو هذا الكلام للدهشة إذا كان المرء على دراية كافية بطريقة استخدام التاريخ منذ الأزمنة القديمة وحتى العصر الحاضر. ويقدم نيل سيلبرمان Neil Silberman (1989 ، 1982) لنا مجموعة من الأمثلة الدالة

على مدى التداخل بين علوم التاريخ وعلم الآثار والسياسة في الشرق الأوسط الحديث. إذ يبين كيف أن الدول القومية الأوروبية، ابتداء من الثورة الصناعية فصاعدا، قد أنشأت تواريخ قومية، لتبرير مكانتها في العالم، وجعلها مثالا يُحتذى.

وهذا ينطبق بشكل خاص على بريطانيا حيث «اتخذ الماضي شكلا أكثر تركيزا» وذا مغزى حديث، كمصدر للرموز والمُثل السياسية. ففي أساطير قدماء البريطانيين وتواريخهم ومبانيهم الأثرية الباقية، وكذلك الأمر بالنسبة للشعوب الأنجلوسكسونية فيما بعد، يجد السياسيون والأثريون معاني حية «للطابع القومي لهذا الشعب الفريد، وهذه المعاني تفسر وتبرر مكانة بريطانيا الفريدة في العالم» (سيلبرمان Silberman 2 : 1989). فهذه الأمم، ولاسيما بريطانيا، جعلت خطاب الدراسات التوراتية الكلاسيكية شيئا مقبولا. وهذا عكس الاهتمام المتزايد من قبل القوى الغربية في شرق البحر المتوسط والشرق الأوسط. إن أصول دراسات علم الآثار الحديثة، منذ تدخل نابليون في شؤون مصر، هي قصة المؤامرة الدولية، حيث إن التاريخ التوراتي، والكشف عن الكنوز الأثرية في المنطقة، قد استخدمتها القوى الغربية لمصلحتها في صراعها على الهيمنة السياسية وإضفاء الشرعية على طموحاتها الاستعمارية. وقد جادل كل من إدوارد سعيد (1993 , 1985) وأسد Asad (1973) وكثيرون غيرهم بشكل مقنع كيف تطورت الدراسات الأكاديمية مثل الاستشراق، والتاريخ، والأنثروبولوجيا وكيف سخرتها تلك القوى الغربية الاستعمارية لمصلحتها.

ومن المفارقات التي ينطوي عليها هذا الوضع، مفارقة نبّه إليها كثير من المعلقين، وهي أن الخطاب الاستعماري ذاته ساهم أيضا في تشكيل الخطابات القومية التي نشأت في الأساس لمجابهة هذا الاستعمار. فعملية التأريخ التي أخذت بالمنظور القومي في كتابة التاريخ قد تشربت العديد من المسلّمات المتضمنة في كتب التاريخ الاستعمارية والتي كان من المفترض أن ترفضها تلك التواريخ القومية. وهكذا يذهب إندن Enden (402: 1986) إلى أنه على الرغم من حصول الهند على الاستقلال السياسي رسميا، فإنها لم تتمكن حتى الآن من استعادة قدرتها على فهم ماضيها وحاضرها بعيدا عن هذا الخطاب. كما يبين براكش Prakash (388: 1990) كيف أن

القومية الهندية، على الرغم من رفضها للروايات الاستعمارية البريطانية حول تاريخها، قبلت، في نهاية الأمر، النماذج التي وضعتها اتجاهات البحث العلمي البريطانية، حتى أنها قبلت تقسيم التاريخ الهندي إلى الحقبة الهندوسية والحقبة الإسلامية، والحقبة البريطانية، وهذه التقسيمات الزمنية أصبحت فيما بعد مرادفة للتاريخ القديم، وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث، بينما تم قبول نظام المنبوذين (Caste system)(*) على أنه نظام اجتماعي وليس سياسيا، إلى جانب فكرة وجود حضارة هندية سنسكريتية. وأُرجعت أصول الدولة القومية الحديثة إلى التاريخ الهندي القديم، تماما كما فعل المستشرقون عندما تتبعوا أثر الحضارة الأوروبية في النصوص الهندية القديمة. غير أن فان در فير Van Der Veer (23: 1939) يرى، خلال تقييمه لأعمال إدوارد سعيد، أن الادعاء بأن إنتاج المعرفة المتعلقة بالشرق هو أمر تنفرد به الحضارة الغربية، هذا الادعاء يتجاهل الطرق التي استخدمها الشرقيون، ليس فقط لتشكيل عالمهم الخاص بل لتشكيل آراء هؤلاء المستشرقين أيضا: «إنه من الخطأ الفادح أن ننكر دور الشعوب المستعمرة في غمار محاولتنا لإبراز قوة الخطاب الاستعماري». ويضيف فان در فير (25: 1993) أن سمة أساسية لمأزق فترة ما بعد الاستعمار تتمثل في أن اتجاهات البحث العلمي في الغرب، وكذلك الحركات السياسيات الهندية ذاتها، تحتفظان بعناصر الفهم الاستشراقي للمجتمع الهندي.

وكما أوضح براكش (390: 1990) فإن تركيز التأريخ القومي كان دائما على الأمة: «علينا إذن أن نعترف بأن هذه هي إحدى الطرق التي يكتب بها العالم الثالث تاريخه». أما سيلبرمان Silberman (1990) فإنه يقوم بتوثيق الطرق التي استخدمتها الدول الناشئة حديثا في أثناء إدراكها المتزايد لأهمية استملاك تاريخها الخاص كرمز لشرعيتها أو لرفض الهيمنة الاستعمارية. ويُظهر الجدل المستمر حول امتلاك، أو إعادة امتلاك «رخاميات إلغن»(2*) Elgin Marbles وآثار يونانية أخرى مثلا أهمية مطالبة الدول القومية بتاريخها الماضي حتى تلقي الضوء على حاضرها وتبرره. إضافة إلى ذلك، فقد أدت هذه المسألة إلى صدام مع الحكومة البريطانية كانت نتيجته توحيد جميع القوى السياسية في اليونان من أقصى اليمين

إلى أقصى اليسار. سيلبرمان (8: 1990) أما النزاع الحالي في دول البلقان فإنه يقدم لنا برهانا إضافيا على ما سبق ذكره، ولكن بشكل أكثر خطورة، وذلك في الصراع الدائر حول مقاطعة مقدونيا[*3] المعلنة حديثا في يوغسلافيا (السابقة)، والتي يعبر اسمها ذاته عن مطالبة بماض معين، وهكذا يتم إنكار عناصر مهمة في الهوية القومية في شمال اليونان. وعلى الرغم من وجود مفاهيم تاريخية قومية مهمة في البلدان الحديثة المختلفة في الشرق الأوسط، وهذه المفاهيم توفر فهما مقابلا وأساسيا للمفاهيم الغربية وتمثلها لتاريخ المنطقة، فإن ما يلفت الانتباه هو غياب تاريخ فلسطيني للماضي، أي، تاريخ مكتوب من منظور فلسطيني. من الطبيعي أن يكون ذلك المنظور الفلسطيني قد ركز على الفترة الحديثة في صراعه (مع الصهيونية)، لإثبات هويته القومية وللحصول على دولة خاصة به[4] غير أن التاريخ القديم، على ما نعتقد، قد تم التنازل عنه لمصلحة الغرب ودولة إسرائيل الحديثة.

إن استملاك الماضي هو جزء من سياسة الحاضر، وكما أوضح سيلبرمان، يمكن تطبيق هذا المبدأ على جميع دول المعمورة. وهناك مثال آخر ذو أهمية خاصة لدراستنا الحالية، وهو كيف أصبح علم الآثار والتاريخ التوراتي بالغي الأهمية بالنسبة لدولة إسرائيل الحديثة. إن هذا المزيج هو الذي أسكت التأريخ الفلسطيني بقوة. وحركة التأريخ القومي الإسرائيلي الحديث، مثلها مثل غيرها من حركات التأريخ القومي، في بحثها عن جذور قوميتها في الماضي قد استمرت في مسايرة نهج اتجاهات البحث العلمي الأوروبية الاستعمارية وكرست فرضياتها واهتماماتها. لقد عالج تريغر Trigger (1984) مسألة التنوعات في بلدان مختلفة لمشكلة المكتشفات الأثرية، وتحديد ما يعتبر جديرا بالبحث والدراسة من هذه المكتشفات، وكذلك أصناف التفسيرات التي تعتبر دلائل وإثباتات مقبولة. وتلعب الدولة القومية (nation state) دورا بالغ الأهمية لتحديد متغيرات البحث العلمي. وفي مناقشته «لعلم الآثار الوطني» يشير تريغر إلى أنه: «في دولة إسرائيل الحديثة، يلعب علم الآثار دورا مهما في تأكيد الصلات بين سكان دخلاء وتاريخهم القديم، وبعمله هذا فإنه يؤكد حق هؤلاء السكان الدخلاء في تلك الأرض». (358: 1984)[5].

وأكبر مثل صارخ على اكتشاف وتأكيد الحاضر القومي من خلال الماضي السحيق يتمثل في تنقيبات يادين Yadin للبحث عن المساداة[*4]، والاستملاك السياسي لهذا الموقع لإضفاء صفة رمزية على الدولة المنشأة حديثا في وجه الصعوبات الضخمة لإسرائيل، وإمكانية استمرارها وبقائها وسط محيط معاد. فقد عبّر يادين عن أهمية المساداة بالكلمات التالية:

كانت أهميتها العلمية كبيرة. ولكن الأهم من ذلك هو أن المساداة تمثل بالنسبة إلينا جميعا في إسرائيل وخارج إسرائيل، سواء من علماء الآثار أو الناس العاديين، رمزا للشجاعة، ونصبا لأبطالنا القوميين، هؤلاء الأبطال الذين اختاروا الموت على حياة العبودية المادية والمعنوية.

(يادين Yadin 13: 1966).

يتلخص المغزى السياسي من وراء أسطورة المساداة في كونها موقع مراسم حلف اليمين السنوية للجيش الإسرائيلي، وقد عبر عن ذلك الشعار القومي المقتبس من أشعار لامدان Lamdan التي تتضمن أن «المساداة لن تسقط أبدا مرة أخرى»[6]. أما الجدل اللاحق لتفسيرات يادين حول بعض المكتشفات الأثرية وقراءته لرواية المؤرخ اليهودي يوسيفوس[*5] Josephus، فتوضح كيف أن المواقف السياسية والدينية توجه البحث التاريخي وتتحكم في نتائجه. لقد أثبتت زروبافل Zerubavel (1994) بشكل مقنع، كيف تطورت أسطورة المساداة من مجرد حادثة غامضة في التاريخ، أهملها التلمود[*6] والآداب اليهودية منذ القرون الوسطى، وكيف أنه على الرغم من النقاش النقدي لما أورده يوسيفوس في عرضه لقصة حصار المساداة وسقوطها، فإن الثقافة الشعبية الإسرائيلية لاتشك أبدا في مصداقية هذه القصة. ومع ذلك فإن قصة المساداة لم تصبح مركز اهتمام الباحثين إلا في القرن التاسع عشر عندما ظهرت الحركة الصهيونية، وهي بهذا أصبحت عاملا رمزيا مهما للمستوطنين الجدد. كان سقوط المساداة بالنسبة للرومان علامة لنهاية الثورة اليهودية ضد الهيمنة الاستعمارية، أما بالنسبة للإسرائيليين، فقد جسدت تلك الحادثة روح البطولة وحب الحرية التي فقدها اليهود في المنفى زروبافل (75: 1994). وقد تتبعت زروبافل كيف تم بناء هذا «السرد التذكاري» من خلال قراءة انتقائية لرواية يوسيفوس ركزت على نواح معينة وأهملت نواحي أخرى[7]. وقد تعززت هذه العملية من جراء تطوير عملية «الحج» إلى هذا الموقع التي كانت تقوم بها حركات الشبيبة الصهيونية

السرية في الفترة التي سبقت قيام الدولة اليهودية، والتي توّجت بعد عام 1948 باختيارها الموقع الذي يقوم فيه الجيش الإسرائيلي باحتفالات حلف اليمين. تستنتج زروبافل أن «تفسير يادين Yadin أن عمليات التنقيب هي عمل وطني لا يختلف عما حصل في أماكن أخرى حينما سُخّر علم الآثار لترويج أيديولوجية وطنية معينة». (1994:84) ومما يثير الاهتمام بشكل خاص كيف تمكن يادين من ربط حادثة المسادادة التاريخية بالحاضر:

ليس مبالغة أن نقول إنه بفضل بطولة مقاتلي المسادادة ـ مثلها مثل غيرها من الأمثلة الأخرى في سلسلة البطولات في تاريخ هذه الدولة ـ فإننا نقف هنا اليوم، شعب فتي ـ قديم، محاطون بأطلال معسكرات أولئك الذين قضوا علينا. وإذ نقف هنا، فإننا لم نعد عاجزين في وجه بأس أعدائنا، وحربنا ضدهم ما عادت حربا يائسة، ولكننا أشداء واثقون من أنفسنا، وروح إسرائيل التي أحياها أجدادنا الأبطال... نحن، أحفاد هؤلاء الأبطال، نقف هنا اليوم لإعادة بناء أطلال شعبنا.

(زروبافل Zerubavel **84 : 1994**)

إن ربط يادين[*7] بين الماضي السحيق والحاضر السياسي (لاحظ عبارته «شعبا فتيا ـ قديما»)، وإشارته إلى سلسلة البطولات في تاريخ شعبه، هو أسلوب بلاغي في خطاب الدراسات التوراتية، وقد لعب دورا حاسما في إسكات التاريخ الفلسطيني. وتستشهد زروبافل (88: 1994) بالقول المأثور للكاتب الإسرائيلي أ.ب. يهوشوع A.B.Yehoshua ، باعتباره تلخيصا لفكرة الاستمرار التسلسلي بين الماضي والحاضر: «لم تعد المسادادة هي الجبل التاريخي بالقرب من البحر الميت فقط، بل إنه جبل متنقل نحمله فوق ظهورنا أينما ذهبنا». إن هذا الفهم التسلسلي للتاريخ مهم جدا لأي ادعاء بامتلاك الأرض، وهذا الادعاء هو الذي يسكت أي مطالبة بالتاريخ الفلسطيني وبالتالي بالأرض ذاتها[8].

لقد اهتمت اتجاهات البحث العلمي عند الأوروبيين قبل سنة 1948، وفيما بعد ذلك، بالبحث عن جذور الدولة القومية في التاريخ التوراتي القديم. ومنذ إنشاء دولة إسرائيل الحديثة أعيد فرض ذلك في خطاب الدراسات التوراتية عند الإسرائيليين التي اهتمت وشغلت نفسها بالبحث عن جذورها في تاريخ إسرائيل القديم، كما يوضح ذلك مشروع المسادادة بجلاء. لقد سيطر السعي وراء تلك الجذور القديمة على البحث التاريخي

والأثري في المنطقة بشكل عام[8*]. وما يشير إليه فنكلشتاين (1988) في عمله المهم حول تعبير «الاستيطان الإسرائيلي» يعزز هذا الرأي. فاكتشافاته الأثرية وأعمال المساحة التي قام بها قد ركزت على منطقة التلال في وسط فلسطين حتى يتمكن من وصف طبيعة «الاستيطان الإسرائيلي» خلال فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. ولكن المغزى الحقيقي لذلك، حتى وإن بشكل غير مباشر، كان البحث عن هوية قومية، شأنه شأن غيره من علوم الآثار القومية، يساعد على «زيادة كبرياء الشعوب والجماعات العرقية ورفع معنوياتها». (تريغر 360 : 1984). أما العمل الأصلي فكان مقيدا بشكل خاص في مجال هذا البحث: فقد ذهب فنكلشتاين (22 ـ 2 : 1988) إلى أن تلالا كنعانية كبيرة لم تكن ذات فائدة كبيرة في فهم عملية «الاستيطان الإسرائيلي»[9]. فالبحث عن إسرائيل القديمة قد ركز على منطقة الضفة الغربية المتنازع عليها، والتي يسميها الإسرائيليون اليوم «يهودا والسامرة». أما منطقة السهول، المتفق على أنها أرض كنعان، فهي ذات قيمة قليلة في عملية البحث هذه عن إسرائيل القديمة. ومرة أخرى، فإن الاهتمام «بإسرائيل القديمة» ancient Israel يطغى على مسائل أعم وأوسع في تاريخ فلسطين القديم إلى درجة أن الحقيقة الأوسع قد أُسكتت، أو في أحسن الأحوال، أصبحت ثانوية في عملية البحث عن تلك الكينونة القومية «إسرائيل» في الفترة الانتقالية من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي.

لقد بذلت معظم الدول القومية الحديثة جهودا كبيرة في سعيها لفهم ماضيها: والروايات الرسمية لأمة من الأمم تؤكد مظاهر معينة في الهوية القومية وهي في الوقت نفسه تُنكر صوتا مسموعا لروايات بديلة. وإسرائيل شأنها شأن غيرها من الدول القومية الحديثة، قد بذلت الجهد والمال الهائلين في البحث عن تاريخها القديم. ولكن من المهم ألا يغرب عن أذهاننا أن الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكلت في سياق تكوين وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية نفسه وقد انتقل ذلك إلى الشرق الأوسط، وبخاصة عند إنشاء دولة إسرائيل الحديثة وانتشار قوميات منافسة في المنطقة[10]. إن صمتنا على هذه الأمور وتجاهلنا لها عند تقديمنا تاريخ إسرائيل إنما يؤكد بشكل كبير الطبيعة المنحازة للنصوص

التي نقدمها حول هذا التاريخ. ولم يُثر ذلك اهتمام أحد، ولكن نوث Noth لاحظ في بداية كتابه «تاريخ إسرائيل» The History of Israel ما يلي:

صحيح بالطبع، أنه من رحم «اليهودية» قد ولدت في التاريخ الحديث كينونة جديدة اسمها «إسرائيل»، سعت للمطالبة بوطنها مرة أخرى في أرض إسرائيل القديمة (التشديد لمؤلف الكتاب الحالي) تحت رعاية الحركة الصهيونية ومن ثم أنشأت دولة إسرائيل الجديدة. وعلى الرغم من الصلات التاريخية الموجودة من غير شك، فإن «إسرائيل» الجديدة هذه يفصلها عن إسرائيل القديمة ليس فقط 2000 عام، ولكن أيضا تاريخ طويل مليء بالتقلبات، وقد ظهرت للوجود وسط ظروف تاريخية مختلفة تماما. ولذلك فإنه من غير الملائم أن نوسع دائرة بحثنا التاريخي لكي يمتد من «إسرائيل» القديمة حتى «إسرائيل» الحديثة.

(**نوث** Noth **7: 1960**).

يرى نوث Noth تواصلا بين الماضي والحاضر يربط بين دولة إسرائيل الحديثة وبحثه عن التاريخ القديم لإسرائيل(11). وعلى الرغم من أنه يدعي أنه من غير الملائم أن يوسع دائرة بحثه بشكل متواصل من الماضي إلى الحاضر، فإنه لا يعترف بأن وجود الدولة القومية ذاته في الوقت الحاضر هو الذي شكل كثيرا من افتراضات البحث التاريخي في هذا المجال. إن الافتراض السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة والدولة الإسرائيلية الحديثة ـ والذي تلخص في اعتقاده ـ بعودة هذا الشعب إلى «وطنه» في «أرض إسرائيل القديمة» ـ هو الذي يحدد مسبقا نتيجة البحث. إن اختيار تعبير «الوطن» homeland له دلالات مهمة في سياق وعد بلفور الذي وعد اليهود «بوطن طبيعي» (natural home) في فلسطين(9*). وكذلك فإن الاهتمام الهائل بالبحث عن جذور «إسرائيل القديمة» لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة، هو الذي يسيطر على الخطاب التاريخي ويُسكت البحث عن تاريخ أعم للمنطقة.

بعد أن انطلقت حركة القوميات في القرن الثامن عشر، وانتصرت على غيرها من الحركات الأخرى أصبحت القوة السياسية المهيمنة في القرنين التاسع عشر والعشرين. (تايلور Taylor 125 : 1985). فالدولة القومية، وما تنجبه من رجال دولة عظماء، وموظفي الدوائر الحكومية، وحفظها لسجلات الدولة، وأنظمتها التعليمية، قد ألقت ظلالها على الدراسات التوراتية الحديثة منذ بدايتها. إن فكرة التاريخ ذاتها، المشتقة من فون رانكي Von Ranke،

والتي دعمت حركة التأريخ التوراتي، ترجع جذورها إلى بسمارك في كفاحه لتوحيد ألمانيا. وكان للبحث عن جذور الدولة القومية وتعزيز قوتها بما في ذلك أعمال رجال الدولة العظماء أهمية مركزية في القرن التاسع عشر من خلال أعمال آلت Alt وأولبرايت Albright ونوث Noth وبرايت Bright وحتى الوقت الحاضر. يجادل إدوارد سعيد (51 ـ 50:1993) بوجود تأثير مماثل في مفهوم حركة التنوير للتاريخ باعتباره مختلفا عن العلوم الطبيعية، إذ يقول:

يجب ألا نعتبره ابتذالا للتاريخ إن قلنا إن سببا رئيسيا لانتشار هذه النظرة حول الثقافة الإنسانية وشيوعها في أوروبا وأمريكا، واتخاذها أشكالا مختلفة في القرنين الماضيين بين 1745 و1945، كان الصعود اللافت للنظر للقوميات في نفس تلك الفترة. أما التداخل بين العلوم المختلفة (وحتى الأدب) ومؤسسات الحركات القومية فلم تتم دراسته بشكل جدي، ولكن مع ذلك يتضح أنه حينما كتب معظم المفكرين الأوروبيين حول الإنسانية أو الحضارة، فإنهم اهتموا بالمقام الأول بالأفكار والقيم التي نسبوها إلى ثقافتهم القومية، أو إلى أوروبا باعتبارها متميزة عن الشرق وأفريقيا وحتى الأمريكتين.

(إدوارد سعيد 51: 1993).

ويضيف إدوارد سعيد أن فروع المعرفة المختلفة كالدراسات الإغريقية والرومانية، والتاريخ والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، شأنها شأن الاستشراق، كانت تقوم على المركزية الأوروبية (Eurocentric)، وأنه بازدياد حدة التنافس القومي والدولي بين القوى الأوروبية في القرن التاسع عشر «ازدادت أيضا حدة التنافس بين فروع المعرفة القومية المختلفة»[12].

توضح أعمال ساسون (Sasson: 1981) التمهيدية كيف أن الدراسات التوراتية الأمريكية والألمانية قد تأثرت بالمضمون السياسي الذي نشأت فيه، وبهذا فرضت نماذجها الخاصة بشكل قوي على فهمنا للماضي، إذ كتب يقول:

بالنظر إلى أن الدراسات التوراتية تجري على نطاق دولي، فإن النماذج السائدة في إعادة إنشاء المراحل التكوينية لتاريخ إسرائيل تختلف اختلافا واضحا. ويرجع ذلك إلى أنها صممت بالأساس لشرح ظروف مغايرة بشكل جذري كانت سائدة في الدول الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كما يرجع إلى أن هذه النماذج مبنية على تفسيرات تنافسية ومتنوعة.

(ساسون 8Sasson : 1981)[13]

ثم يضيف ساسون أن المنظور القومي في كتابة تاريخ إسرائيل القديمة

ارتكز على محاولات مماثلة في كتابة التاريخ القديم لكل من اليونان وروما واتخذها نموذجا. وقد اتخذت دراسة تلك العصور القديمة «زخما يدعم مصداقيته من ذاته» (self - authenticating momentum) (1981:4). أما (فريك Frick 28 : 1985) فإنه يلقي الضوء على أهمية تلك المقولة وذلك من أجل فهم الكثير من القضايا التي تشغل بال الباحثين في الدراسات التوراتية الحديثة: فأغلب مصادر الروايات التوراتية تحمل طابع الدولة بل وقد تبنتها الدولة ذاتها. بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم الباحثين في الدراسات التوراتية في القرن العشرين جاءوا من أوروبا الغربية، وإسرائيل، وأمريكا الشمالية. وهكذا، فإنهم يرفعون من شأن «الدولة» سواء بشكل واع أو غير واع. ومجال البحث هذا، الذي حدده ساسون منذ أكثر من عقد من الزمان، لم ينل الاهتمام الكافي. ولكن من حسن الحظ فإن أطروحة كري Kray (1991) أمدتنا بمعلومات قيمة جدا حول طبيعة ومضمون الدراسات التوراتية الألمانية، ابتداء من فلهاوزن Wellhausen حتى فون راد Von Rad خلال القرن الذي تأسست فيه تلك الدراسات من 1870 حتى 1971. فالسياق التاريخي لأعمال فلهاوزن له دلالات مهمة، وليس مجرد دلالات رمزية. يقول سمند Smend (8: 1982) إن «سيرته النشيطة (أي فلهاوزن)، التي ابتدأت منذ حصوله على الدكتوراه سنة 1870، تزامنت تماما مع الفترة التي أسس فيها بسمارك الدولة الألمانية، وقد توفي في 7 يناير 1918، في السنة نفسها التي تأسست فيها الدولة». ومنظور حركة التأريخ الألماني، فيما يتعلق بمفهوم الدولة في القرن التاسع عشر، قد حدد مسار الأبحاث الخاصة بتاريخ إسرائيل القديم منذ بداية نشوء هذه الدراسات وحتى اليوم. وقد قوّى الاعتقاد أن الدولة القومية هي تعبير عن أعلى درجات الثقافة المتقدمة من الإحساس بضرورة تطوير فكرة الدولة الإسرائيلية الحديثة. وتضافرت كل هذه العوامل بشكل معقد لتشكيل دراسة تاريخ إسرائيل القديم والسيطرة عليه، مما أدى إلى إنتاج نموذج أنكر شرعية أي محاولات أخرى لفهم التاريخ الفلسطيني القديم وكتابته.

إن النموذج المهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلي كان، ولايزال، ذلك التاريخ الذي يتخذ شكل الكيان القومي الموحد الذي يبحث عن مساحة قومية من الأرض، وهو يكافح من أجل الإبقاء على هويته القومية وعلى

الأرض من خلال الأزمات التاريخية. فمفهوم الماضي يعكس تماما فهمنا للحاضر. والحركة الصهيونية، التي نشأت في القرن التاسع عشر بعد صعود حركة القوميات الأوروبية، قد ادعت باستمرار أن «رسالتها التاريخية» هي العودة إلى أرض خالية، وصحار قاحلة، تلك الأرض التي تنتظر وصول التكنولوجيا الأوروبية حتى تصبح قابلة للسكن والازدهار. وكما يبين شوحاط Shohat (24 : 1992)، فإن دولة إسرائيل الحديثة تم تصويرها باستمرار على أنها جزء لا يتجزأ من «العالم المتحضر»، وعلى أنها «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط». أما كيف تم اتخاذ نموذج الدولة الأوروبية القومية كنموذج يُحتذى في البحث التاريخي والأثري، فيمكن التدليل عليه من خلال عدد من الأعمال المهمة التي صدرت حديثا. كما ذكرنا من قبل، فدراسة فنكلشتاين Finkelstein (1988) حول «الاستيطان الإسرائيلي» هي تأويل لمعلومات أثرية (أحفورية)، من العصر البرونزي المتأخر حتى العصر الحديدي، وهذه تفترض وحدة إسرائيل ووجود هوية خاصة بها في تلك الفترة، مما يعني في الواقع وجود دولة قومية ناشئة في المرتفعات الفلسطينية. هكذا نجد أن مفهوم القومية والإثنية ethnicity يسيطران حتى الآن بشكل بالغ على الدراسات التوراتية، كما أنهما حددا مسار العديد من الكتب المدرسية حول تاريخ إسرائيل القديم.

وهكذا، فإن اهتمامات الدراسات التوراتية، وبخاصة ما يتعلق بطبيعة أبحاثها التاريخية، بحاجة إلى أن تُفهم ضمن السياق السياسي والثقافي الأوسع. كما أن خطاب الدراسات التوراتية يجب أن يوضع ضمن الخطاب الاستشراقي الأشمل. لقد كشف إدوارد سعيد (1993) عن التداخل بين الثقافة والإمبريالية في الغرب. وما قاله عن الأعمال الأدبية العالمية الكبيرة ينطبق أيضا على الدور الذي يقوم به السرد التاريخي:

> لقد ركز العديد من الأعمال النقدية الحديثة على الأعمال الأدبية الخيالية، ولم يُعط أي اهتمام كاف لدورها في التاريخ وفي الاستعمار. سوف يكتشف قراء هذا الكتاب على الفور أن الرواية شيء حاسم لإثبات وجهة نظري، وأن الفكرة الأساسية التي أود إثباتها هنا هي أن الروايات ما هي إلا تعبير عما يعتمل في قلب المكتشفين والروائيين، وما يقولونه عن أماكن غريبة من العالم، وهذه الروايات أيضا هي الطريقة التي يستعملها الخاضعون للاستعمار من أجل تأكيد هويتهم الخاصة وتاريخهم الخاص. فمعركة الاستعمار الرئيسية تدور حول الأرض، ولكن عندما

نأتي إلى مسألة مَنْ له الحق في استيطانها والعمل فيها، ومن جعلها تستمر في العطاء، ومن استعاد ملكيتها، ومن يخطط للمستقبل الآن - هذه المسائل تنعكس، ويُتنازع عليها، ويقرر مصيرها في بعض الأحيان في الأعمال الروائية. وكما أشار أحد النقاد، فإن الأمم ذاتها هي سرد روائي. والقدرة على سرد الروايات، أو إعاقة سرد روايات أخرى بديلة ومنعها من التشكل والظهور هي عامل مهم جدا بالنسبة للثقافة والإمبريالية، بل تشكل أحد أهم الارتباطات بينهما.

(إدوارد سعيد 1993: المقدمة xiii)

وهذا يؤكد ما قاله هومي بابا Homi Bhabha (1990 :1) من أن «الأمم، مثل الروايات، تفقد جذورها في خضم الزمان وأساطيره، ولا تستعيد أفقها إلا في الخيال». وكلاهما (إدوارد سعيد وهومي بابا) متأثر بتعريف بنديكت أندرسون Benedict Anderson (1991 :6) للأمة بأنها «مجتمع سياسي خيالي». وهذا لا يعني أن الأمم الحديثة هي مجتمعات خيالية. ولكن هذا التخيل قد تم إسقاطه على الماضي لإضفاء الشرعية عليه ولتبرير الحاضر(14). وقد أدى ذلك إلى تشييد ماض خيالي احتكر خطاب الدراسات التوراتية، وهيمن على التاريخ الفلسطيني بل وأنكر وجوده من الأساس. لم يكتب تاريخ شعوب المنطقة بأغلبيتها الساحقة حتى الآن لأنه لم ينسجم مع مصالح واهتمامات اتجاهات البحث العلمي في الغرب(15).

ليس من السهل إقامة هذه الروابط بين الدراسات التوراتية والمضمون السياسي الذي نشأت فيه تلك الدراسات. وفي معظم الأحيان، نجد أن هذه الروابط - أي بين الأبحاث العلمية وميدان السياسة - هي روابط ضمنية وليست ظاهرة للعيان. كما أن هذا الربط سوف ينكره الكثيرون، وسوف يحكمون على أي تحليل من هذا النوع بأن وراءه دوافع سياسية، ويقولون إنه جزء من «الموضة» الجديدة في تفكيك التاريخ ومراجعته (deconstruction and revisionism) أو سيوصف بأنه هجوم شرس على موضوعية اتجاهات البحث العلمي في مجال الدراسات التوراتية، التي وصفت بأنها نوع من الغيتو الأكاديمي، منعزل عن الحركات الكثيرة المعاصرة التي انتشرت بشكل واسع في الأوساط الأكاديمية، والتي أثارت الأسئلة حول موضوعية هذه الدراسات التوراتية وشككت في ادعائها بأنها غير منحازة. لاتزال دراسة المضمون الاجتماعي والسياسي الذي نشأت فيه الدراسات التوراتية، والذي سوف يميط اللثام - من غير شك - عن ادعائها بالموضوعية، لاتزال في

مراحلها التكوينية الأولى. والكشف التدريجي عن العلاقة القائمة بين الدراسات التوراتية والسياسية سوف يؤدي إلى فهم أعمق للعوامل التي ساعدت على تشكيل تصورنا للماضي، هذا التصور الذي احتكر تاريخ المنطقة.

تزودنا الأمثلة التي ضربناها هنا بدلائل كافية ووافية عن كيفية إنشاء ماض معين كعمل سياسي، وأن تصور تاريخ إسرائيل بصفة خاصة تترتب عليه نتائج سياسية مهمة لا يمكن تجاهلها. وينبهنا إيدن Eden إلى ضرورة الاهتمام بذلك الإطار الحاسم الذي يضم في داخله السياسة والدين والأيديولوجيا، والمجتمع، لكي نتمكن من فهم اتجاهات البحث العلمي الحديثة. ولكننا في المقابل، لا نمتلك إلا نصا منحازا إذا تجاهلنا هذا الإطار أثناء محاولتنا فهم التصورات الإسرائيلية لماضي إسرائيل. إذن نستطيع القول إنه في هذه النقطة على وجه الخصوص تتآمر اتجاهات البحث العلمي على التاريخ القديم للمنطقة، وذلك بصمتها وعدم اعترافها بالماضي الآخر، ونحن بحاجة ماسة إلى اكتشاف السبب: لماذا يكون الوضع كذلك، وماذا يمكن أن يترتب على الكشف عن هذه الأمور[16].

تخيل إسرائيل القديمة وسياستها في الماضي

لا يعدو تصور تاريخ إسرائيل القديم كما ورد في القسم الأكبر من التوراة العبرية أن يكون قصة خيالية، وهو بمنزلة اختلاق للتاريخ شأنه شأن معظم رؤى الماضي التي كونتها المجتمعات القديمة بل والحديثة أيضا[17]. وينطبق القول المأثور بأن أي إعادة بناء للماضي يحددها الحاضر، على تصورات الماضي التي انحدرت إلينا من العصور القديمة مثلما ينطبق على ما دوّنه مؤرخو التاريخ الحديث والمعاصر[18]. والسؤال الجوهري الذي يجب أن يكون في الذهن هو الآتي: «ما الغرض الذي يؤديه تصور معين للماضي، وما التصورات الممكنة الأخرى للماضي التي ينكرها تصور معين»؟

فإقحام السياسة في ميدان كتابة تاريخ إسرائيل القديم لم يثر جدلا واسعا لأن معظم دارسي التوراة كانوا متفقين على المبادئ الأساسية لمشروعهم، وكانت ثقتهم بالمصادر التوراتية وإيمانهم بها وبصحتها التاريخية ثقة كبيرة، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوعية الباحث التوراتي الحديث الذي

كان بدوره موضع ثقة كبيرة[19]. وعلى الرغم من بعض التحولات المهمة خلال العقد الأخير فيما يتعلق بالمشاكل التي تعترض إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم، فإن الرؤية التي لاتزال مهيمنة هي أن التراث التوراتي يوفر القاعدة، والمصدر الأساسي للمؤرخ في شؤون إسرائيل. ومهما تكن المكاسب والبصيرة التي يتمتع بها أولئك الذين يدرسون التركيب المراوغ للسرد التوراتي، فإن قول فون راد Von Rad إن «العهد القديم هو كتاب تاريخ» يظل شيئا مسيطرا على الباحثين في تاريخ إسرائيل، أو الذين يدرسون المواد المختلفة في كليات اللاهوت وعلوم الدين، وحتى أقسام الدراسات الدينية. وقد اقترن ذلك بنموذج للبحث العلمي يزيد من قوة الاعتقاد بأننا نتعامل مع ناقلي تراث يمكن الوثوق بهم وأن الباحثين المحدثين هم ورثة للموضوعية العلمية. ويوفر لنا النموذج «التشريحي» في البحث التاريخي (forensic model) المنبر الذي تتقاطع فيه طرق البحث القديمة والحديثة، لطمأنة القارئ على أن رواية إسرائيل لماضيها هي رواية موضوعية وجديرة بالثقة.

تتسم دراسة هالبرن Halpern (1988) بالأهمية لأنها أوضح مثال على محاولة أحد الكتّاب التعرض لهذا الموضوع المهم، ألا وهو مدى الموضوعية والثقة التي يمكن أن نضفيها على التراث التوراتي. وفي محاولته الدفاع عن المؤرخين الإسرائيليين القدماء في وجه ناقديهم المحدثين الذين يصفون المؤرخين القدماء بأنهم «لا منطقيون، ولا يتمتعون بالذكاء وكاذبون» (1988: المقدمة xvii)، وهو يتخذ لنفسه مبدأ موجها من الرأي القائل إن بعض الكتاب التوراتيين «قد كتبوا أعمالا تاريخية معترفا بها، وأن دوافعهم كانت تاريخية أصيلة. كما أن همهم الأكبر كان تزويدنا بتصور دقيق ومنصف للتاريخ الإسرائيلي القديم». (1988:3)[20]. ويرى هالبرن أن الاقتصاد في سرد الأحداث التاريخية هو المؤشر الذي يدل على أننا بصدد بحث تاريخي وليس قصة خيالية. وحتى يفلت من الانتقاد الحتمي بأن الاقتصاد في سرد الروايات لا يمكن اعتباره معيارا كافيا لإطلاق حكم من هذا النوع، فإنه يضيف بأن هذا الاقتصاد في السرد لا يكفي بحد ذاته: فالنية التاريخية للكاتب تتضح من خلال مقارنة للرواية مع مصادرها. (1988:61). ولكن لسوء الحظ، وكما يعترف هو نفسه، فإن المصادر لم تعد موجودة، ولذلك

لابد له أن يلجأ «إلى الطبيعة المرجحة للمصادر». ويمكن استخدام دراسة مفصلة لرواية إيهود Ehud في التوراة (سفر القضاة3) كمثل لإيضاح كيف أن المؤرخ الذي يتعامل مع هذه القصة قد قام «بجهد مضن» (هذه الكلمة استخدمها هو) في الرجوع إلى مصادر أخرى مثل تصميم القصر كما عرفه الجمهور اليهودي، وكذلك الاطلاع على أحوال الحاشية، أو معرفة طوبوغرافية وادي نهر الأردن. وهو يقر بأن اعتماده على هذه المصادر لا يضمن دقة الرواية، لكنه يعني أن «المؤرخ يبني روايته في إعادة بناء الماضي ـ بقدر الإمكان ـ على حقيقة الحياة الإسرائيلية، واهتمامه الأول ينصب على إعادة بناء الأحداث الحقيقية التي عاشها أناس حقيقيون في زمن حقيقي. إن رواية إيهود، بما تتصف به من فجاجة وإيجاز، هي أقرب شيء إلى ما يمكن أن يكون عليه البحث التاريخي في العالم القديم. ماذا ينبغي للمرء أن يختصره أو يضيفه على هذه الرواية حتى تتحول إلى تاريخ؟ بالكاد كلمة واحدة». (1988:67). وليس واضحا ما يعنيه هالبرن بكلمة «تاريخ»، أو إلى أي مدى يعتقد أن هذا التاريخ يتوافق مع حقائق موضوعية في الماضي، أو أن التاريخ هو ما أراده الكاتب أن يكون. ويتابع نقاشه بدراسة مفصلة حول رواية ديبورا، حيث يكتشف دلائل في سفر القضاة (4 و5) تؤكد أن المؤرخ كان يعتمد على مصادر مكتوبة.

ولذلك فإنه يستنتج (82: 1988) أنه «في واقع الأمر لا توجد أي معلومات في سفر القضاة[4] من دون مصدر معلوم، فمعظم مصادره آتية من القصيدة، ومن إعادة بناء المؤرخ للماضي المبني على تحليله الدقيق للقصيدة. توفر لنا هذه الحالة فرصة استثنائية لتشريح إعادة بناء السرد التاريخي التوراتي». وهناك مبدأ موجه آخر لأعمال هالبرن Halpern هو أن «الحقيقة التاريخية مبنية على الأدلة (evidence) بالطريقة نفسها التي تمحص بها هيئة المحلفين الأدلة والشواهد في قضيتهم». (13 : 1988).

هذا النموذج «التشريحي» في كتابة التاريخ واسع الانتشار ومن الجائز أنه الأسلوب المهيمن على منهج بحث المؤرخين[21]. وهذا هو الأساس الذي قام عليه منهج رامزي Ramsey (23 ـ 3 : 1982) في استعراضه لإعادة بناء التاريخ الإسرائيلي، حيث ساوى بين عمل المحامي والمؤرخ. يوضح فوجل Fogel كيف أن «دليل هارفارد للتاريخ الأمريكي» The Harvard Guide to

American History يوفر أحسن مثال لهذا النوع من المنهج الذي يكون فيه تمحيص شهادات «الشهود» (witnesses) عاملا أساسيا:

يجب أن ترتكز الحقيقة التاريخية على «شهادة شاهدين حول عمل مشهود، شأنها في ذلك شأن الخيانة في الدستور، أو الاعتراف الصريح في المحكمة»

(فوجل 14: 1983)

أو أيضا:

إن القاضي وهيئة المحلفين، يفقدون صوابهم إذا وجدوا أن عليهم أن يأخذوا قرارا حول القضايا المعروضة عليهم بناء على الدليل الذي يبدو في أغلب الأحيان أكثر من مقبول بالنسبة للمؤرخ. ولكن لا مفر، فالمؤرخ، إذا كان سيقدم التأويلات، يحاول أن يصدر أحكامه بناء على دلائل لا تعتبرها المحكمة مقبولة بل ظرفية (cirumstantial evidence) أو مجرد إشاعات، ومما يعوض ضحايا العملية التاريخية عن ذلك أن التاريخ يوفر لهم إجراء استئنافيا أكثر مرونة. فأحكام المؤرخين تخضع لإعادة النظر بشكل مستمر، وقليل جدا من أحكام المؤرخ هي أحكام نهائية قاطعة.

(فوجل14 . 15: 1983)

لاحظ استعمال لغة المحاكم في كل ما سبق: القاضي، هيئة المحلفين، الدليل، الشهادة، الاعتراف، التعويض، وهكذا. والتأكيد ينصب على العدالة والحياد حتى يطمئن القارئ، وبشكل مستمر، إلى أن بإمكانه أن يضع ثقته في المؤرخ ويقتنع بروايته للماضي. لا أحد يتحدث عن استخدام السياسة في كتابة التاريخ، أو في الروايات التاريخية القديمة والحديثة، لأن هذه العملية صممت خصيصا لغربلة الحقيقة وذلك باتباع أسلوب استجواب شاهد الخصم (crossexamination). وهكذا تصبح الأسئلة المتعلقة بالمضمون الاجتماعي والسياسي للتاريخ الذي نقوم بدراسته وكذلك الأسئلة المتعلقة بمصادر هذا التاريخ، تصبح شيئا غير ضروري، وذلك في إطار هذا النموذج لأنها تؤكد حياد المؤرخ الحديث وتصر على أن نظراءه القدماء جديرون بالثقة ويمكن الاعتماد على روايتهم التاريخية لأن الشهود غير الجديرين بالثقة يمكن تحديدهم ومن ثم إخراج شهادتهم من المحكمة[22]. على الرغم من ذلك فإن العبرة من القضايا المشهورة في تاريخ المحاكم الإنجليزية الحديثة، ينبغي أن تكون مدعاة للتفكير والتأمل قبل أن نتقبل بحماس ودون مناقشة حياد العملية التي وصفناها ها هنا. يلقي خطاب الدراسات التوراتية

بعباءته على العوامل الثقافية والسياسية التي تشكلها، وذلك بواسطة فصل عملية إنتاج المعرفة عن السياق الذي نشأت فيه تلك العوامل.

وهالبرن Halpern مثال للمؤرخ المتخصص في الشؤون الإسرائيلية الذي لا يختلف كثيرا في مواقفه العملية أو في ممارساته، عن نظرائه المحدثين في هذا المجال. وقد تصوّر المؤرخين الإسرائيليين القدماء على هيئة نظرائهم المحدثين، أي على هيئة موظفي الحكومة وحافظي سجلات الدولة في الدول الحديثة، ولكن ذلك يتم بطريقة تجعلنا نعتقد أن قوة الدفع الأساسية نابعة من عبقرية إسرائيل القديمة. حتى أن المؤرخين التوراتيين المحدثين في الغرب يُنظر إليهم وكأنهم الأحفاد المباشرون لهؤلاء المؤرخين القدماء[23]. قد يكون هالبرن مصيبا في افتراضه أن المؤرخين المحدثين ونظراءهم الإسرائيليين (القدماء) لا يختلفون كثيرا في طريقة معالجتهم لموضوعهم. ولكن السبب ليس أنهم يتعاملون مع هذا النموذج على أنه نموذج «تشريحي» (forensic model)، بل بالأحرى أن الرؤية السياسية للتاريخ هي التي تجمعهم معا، ولأن تصوراتهم متفقة دائما مع حاضرهم وهي في الوقت نفسه في صراع مع تصورات أخرى محتملة للماضي. كثيرا ما ينظر إلى ثوسيديدز Thucydides وهيرودوت بإكبار على أنهما مؤسسا التاريخ الحديث: وكل ما كان ينقص منهجهما الأساسي هو أن يصقله المؤرخون المحدثون. إلا أن موميليانو Momigliano (44 ـ 41: 1990) يشير إلى أن تاريخ ثوسيديدز كان ذا أهمية قليلة بحد ذاته، وأن أهميته جاءت من أنه يُعد بمنزلة مقدمة للحاضر. يهتم هذا النموذج «التشريحي» أولا وأخيرا بمعضلة ما إذا كانت أي رواية معينة للماضي يمكن اعتبارها جديرة بالثقة. وحتى نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعرف كيف ولماذا كتبوا التاريخ في المجتمعات القديمة. وهل الصورة التي يقدمها هالبرن تجسد لنا صورة واقعية عن كيفية كتابة التاريخ عند إسرائيل أو العالم القديم؟ وماذا كان الوضع الاجتماعي لهؤلاء المؤرخين الإسرائيليين الذين أنتجوا الروايات عن الماضي؟ ومتى كتبوا؟ وكيف؟ وأين؟ ماذا كانت مصادرهم؟ ومن كان جمهورهم؟ وكيف تمكنوا من إطلاق تصورهم للماضي وإيصاله إلينا؟ وهل كان تاريخهم شفاهيا أم مكتوبا ـ أم أنه كان مكتوبا يتم إلقاؤه شفاهيا أمام الجمهور؟ وإلى أي مدى كانت المعرفة بالقراءة والكتابة في فلسطين ـ إن كانت تلك المعرفة شاملة أو

وظيفية ـ ذات تأثير في فهمنا للماضي وإنتاج معرفة به؟[24]

أما في السياق المعاصر فقد فُرضت علينا عقبات إضافية أساسية أعاقت البحث في مدى التأثير الذي لعبته الرؤى السياسية في كتابة تاريخ إسرائيل القديم. وإحدى هذه العقبات هي الطريقة الحالية ـ ويقول البعض إنها السائدة ـ في النظر إلى الماضي على أنه شيء غريب ينبغي تجاوزه، أو التخلص منه (باترسون Paterson 3 ـ 4: 1991). وفي هذا الصدد يمكن أن نشير إلى تحليل بيلا Bellah الشهير (1976) حول «أزمة الحداثة»، والتي يُقصد بها أن المجتمعات الغربية تمر في مرحلة تسودها حالة متزايدة من عدم الرضا إزاء حركة التنوير، فقد تراجعت سلطة الكنيسة، ونمت الحركات الدينية الجديدة. وفي خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية خاضت المجتمعات الغربية تجربة ما يمكن تسميته «خصخصة» الدين (privatization of religion). ومن أهم العوامل التي أدت إلى تدهور سلطة الكنيسة وحلول هذه الديانات الجديدة محلها هو التركيز على مبدأ أهمية الفرد والشخص: وهكذا نجد أن السياق الذي تشكلت فيه تواريخ إسرائيل الحديثة قرئ في الغرب على أنه انتصار للفردية أيضا. وهذا المفهوم يؤدي إلى فهم للتاريخ على أنه تاريخ أعمال الأفراد والشخصيات الفذة والفريدة، أو على أنه مسرح الأحداث التاريخية الفريدة. في مثل هذا السياق، فإن الفرد يُنظر إليه على أنه عصامي ومستقل يعتمد على نفسه بدلا من أن يكون نتاج عملية لها دور محدد في التاريخ. (انظر باترسون Patterson : 3 ـ 4 : 1991). لقد تجلى انتصار الفردية فيما عبّرت عنه مارغريت تاتشر في تصريحاتها الشهيرة من أنه «ليس هناك شيء يدعى (مجتمع) ولكن هناك (أفراد) فقط»[25].

إن مشكلة فهم عملية إنتاج واستخدام التاريخ في العصور القديمة قد زادها تعقيدا اكتشاف جون ماكفي John Mcphee لعبارة «الزمن الغابر» deep time[26]. وقد تركت لنا أعمال جيمس هاتون James Hatton وشارلز لايل Charles Lyell، وشارلز دارون وغيرهم تراثا متعلقا بمفهومنا للزمن في سياق جيولوجي كان من الجسامة بحيث إن العديد اعتبروه غير مفهوم، بل ومهددا لهم. فاكتشاف فكرة «الزمن السحيق» قد أدت إلى التركيز على تسلسل الأحداث وعلى اتجاه الزمان time's arrow، وهذه الفكرة كثيرا ما

كانت تنطوي علي فكرة وجود تقدم في التاريخ وهو مفهوم يتماشى مع الغائية المسيحية teleology. غير أن هذا الفهم لا يعير إلا القليل من الاهتمام لدورة الزمن في التصورات التقليدية للماضي والتي يتم إنزالها عادة إلى مستوى ما قبل التاريخي (prehistoric)[*10] أو «التاريخ الأسطوري». وينظر الكثيرون في نهاية القرن العشرين إلى الماضي، على أنه عالم غريب (a foreign country) إذا ما اقتبسنا عنوان كتاب لوفنتال Lowenthal (1985) الشهير، باعتباره نائيا وبعيدا جدا عن التجربة المعاصرة. وحتى نتمكن من جعل الماضي شيئا مفهوما أو طيّعا لابد ـ إذا ما أخذنا «النموذج التشريحي» مثالا ـ من فصل المؤرخ عن عمله، مثل فصل المنتج عن منتجه، عن طريق استبعاد العوامل الذاتية، وذلك كي نتمكن من إنتاج رواية أصيلة وجديرة بالثقة، ويمكن إثباتها في سياق اتجاه الزمان time's arrow، رواية مرتبة بأناقة ومقسمة حسب التسلسل الزمني والمراحل الزمنية. إن هذه «القصة الأصل» (master story) هي نفسها تماما ما أنتجته الدراسات التوراتية في القرنين التاسع عشر والعشرين، التي لم يُثر الخلاف فيها إلا على التفاصيل، وفي الآونة الأخيرة، على نقطة البداية، ولكن من الواضح أن هذه «القصة الأصل» قد تشكلت وتأثرت بالمضمون السياسي الذي نشأت فيه. وهي أيضا «قصة أصل» اختلقت إسرائيل القديمة على هيئتها هي، أي على هيئة الدولة القومية في الغرب، وهي في الوقت نفسه تُسكت أي روايات أخرى محتملة لتاريخ فلسطين القديم. تخفي الموضوعية المفترضة لهذه الروايات الانحياز السياسي للروايات التوراتية، وهي في واقع الأمر، تساندها وتقف إلى جانبها في إسكات أي روايات أخرى منافسة حول ماضي المنطقة.

ينبغي التنبيه إلى أن الماضي في العديد من المجتمعات «التقليدية»، ليس محددا ومقسما بهذا الشكل الواضح باعتباره مختلفا أو منفصلا عن الحاضر. إنه ديناميكي ومباشر في طريقة معالجته للحاضر وما يتعلق به. ففي التاريخ البولينيزي مثلا نجد أن «الماضي والحاضر ليسا بالضرورة فصولا متتابعة في حبكة تسير بخط مستقيم، ولكنهما أوجه مرتبطة عضويا في مسار متصل. (بروفسكي Berofsky128 : 1987)[27]. وكما هو معروف فإن علم الأنساب في حالة إعادة نظر مستمرة في مجتمعات عديدة وذلك كي

يعكس الحقائق السياسية والاجتماعية للحاضر، بدلا من أن يكون مجرد تتبع للأصول في خط مستقيم أو علاقات دم تاريخية. وبالطريقة نفسها فإن روايات أخرى بديلة عن الماضي يتم إعادة صنعها باستمرار. وهكذا، فإن المؤرخ، سواء أكان يسرد التاريخ كتابيا أو شفاهيا، يعمل في سياق اجتماعي معين في لحظة معينة من الزمان: فالرواية يتم إنتاجها في «ظروف اجتماعية واقتصادية معينة بواسطة كُتاب يتأثرون بقرّائهم المحتملين، وهذا الإدراك يؤثر في الطريقة التي يكتب بها هؤلاء المؤرخون مادتهم». (تونكن Tonkin 38 : 1992)[28] وهذا ينطبق على المجتمعات الحديثة مثلما ينطبق على المجتمعات القديمة أو «التقليدية».

أما الاختلاف بين تصورات الماضي بالنسبة للمجتمعات القديمة والحديثة فهو يُعرض عادة على شكل ثنائية «الأسطورة» و«التاريخ». ولكن هذه ثنائية زائفة تساعد على تأكيد ثقة القارئ في موضوعية المؤرخ الحديث في مقابل ذاتية الأسطورة[29]. وقد نسأل: «أين تنتهي الأسطورة ويبدأ التاريخ»؟ فيما يتعلق بالتوراة العبرية، كما تمت الإشارة إليه بشكل متكرر، لا يوجد تفريق واضح بين سفر التكوين Genesis (١ ـ ١١) وما يليه، حتى نهاية الكتاب المقدس أو حتى نهاية جزء (الملوك 2) (2 Kings). وهكذا، يستنتج هيوز Hughes (96 : 1990) في دراسته الحديثة حول التسلسل الزمني التوراتي أن التسلسل الزمني في سفري القضاة وصموئيل هو خيال محض اخترعه اليهود في المنفى لكي يمدونا بمشروع تاريخ عمره 1000 سنة يغطي تاريخ وجود إسرائيل في أرض كنعان. وهكذا، لا يمكن الاعتماد على هذه الرواية لتزويدنا بتسلسل تاريخ إسرائيل.

ولا تقل «الأسطورة» عن «التاريخ» في كونها إدراكا للماضي يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياق الذي وُجد فيه وصمم من أجل تعزيز أيديولوجية معينة. ويذهب صامويل وطومسون (Samuel and Thompson 20 : 1990) إلى أن التراث يمكن إعادة تشكيله في سياقات متغيرة مثلما يمكن اختراعه من جديد[30]. وقد أدت طرق التفكير الحديثة في الأساليب التي يتم بها اختراع التراث أو إعادة تشكيله (بعد معالجته) إلى هدم الافتراض الأساسي المتضمن في الدراسات التوراتية. وأعني به أن هذا التراث، على الرغم من الفاصل الزمني الكبير بينه وبين الأحداث التي يصفها، يحتفظ حتما بنوع من

الجوهر التاريخي الثابت ـ أو الذاكرة التاريخية التي يمكن استخراجها من الرواية لتمد المؤرخ الحديث بالمعلومات الخام. وهذه الروايات للماضي، سواء اتفق على تسميتها «أسطورة» أو «تاريخا»، ليست نتيجة الذاكرة الجماعية collective memory، ولكنها نتاج مجموعات معينة من الناس في المجتمع، وهذه النقطة أكدها (فان سيترز Van Seters 34 : 1992 , 1975) بقوة في مقابل النظرة التقليدية في فهم تطور الدراسات التوراتية. فما يطلق عليه «ذاكرة تاريخية» من المحتمل أنه يعبر عن إحساس فئة معينة أو أفراد معينين يتقاسمون خلفية مشتركة ووضعا اجتماعيا مشتركا (تونكن Tonkin 132 ـ 131 : 1992). ودور هذه الفئات في تشكيل هوية معينة وإنكار مطالب أخرى منافسة بالماضي هو دور بالغ الأهمية. نجد مثلا، أن الأشعار الملحمية و«أعمال ومآثر السير وليام والاس» The Acts and Feeds of Sir William Wallace[(11*)] من القرنين الرابع عشر والخامس عشر على التوالي، تم تأليفها، (الثانية برعاية ملكية) في وقت كان فيه روبرت ذي بروس Robert the Bruce[(12*)] والسير وليام والاس William Wallace رموزا مهمة في الهوية الوطنية (القومية). وكانت رغبة الطبقات العليا في المجتمع، في خلق «هوية بريطانية» في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تعني أن هذه القصائد والأشخاص المعادين للإنجليز قد تم نسيانها بما يتناسب تماما مع التصور الجديد (آش Ash : 1990). إنه سرد للماضي تم إنعاشه مع صعود حركة القوميات الحديثة، ويوفر رواية بديلة للروايات «الرسمية» لتاريخ سكوتلندا.

بإمكاننا القول، إذن، إن الروايات المتعلقة بالماضي في حالة صراع، قد يكون ضمنيا أو صريحا. لقد كُتبت هذه الروايات أو سُمعت في لحظة معينة من التاريخ، وكان جمهورها جمهورا معينا وكانت له توقعات بعينها (قد نكون جاهلين بطبيعتها) ، وكانت مصممة خصيصا للإقناع بوجهات نظر معينة. هذه النقطة الأخيرة مهمة، وكما بيّن تونكن (1992) فإن التاريخ الشفهي لا يقل أهمية عن التاريخ المكتوب في أنه صمم بإتقان وله شاعريته الخاصة التي ينبغي دراستها وفهمها بعناية. وقد نبهتنا الدراسات الأدبية الحديثة إلى أنه لم يعد بإمكاننا أن نُمعن النظر في العمل الروائي لاستخلاص بعض المعلومات المنتقاة التي توفر لنا أساس الرواية الحديثة العامة، بينما

يتم إهمال باقي الرواية باعتبارها ثانوية أو غير ذات أهمية. «لقد أصبحت هذه الحقائق جزءا لا يتجزأ من تصورات الماضي حتى أنها توجه تفسير هذه التصورات» (Tonkin 6: 1992)، وبدلا من توفير الدليل حول حقيقة تاريخية معينة، فإنها توفر دليلا على سياسة الحاضر، مثل الكثير غيرها من الروايات الخاصة بالمجتمعات الحديثة والتقليدية. ولكن السؤال العويص يظل دون جواب: حاضر من؟[31]

تزودنا الطرق التقليدية في معالجة سفر القضاة في التوراة بإيضاح مفيد، ولو أنه وجيز، عن المشاكل التي أشرنا إليها فيما سبق والتي مفادها أن إعادة بناء تاريخ إسرائيل قد تمت من منظور غربي معاصر. وكذلك يوفر لنا أسلوب برايت (Bright 169 : 1972) في معالجة هذا النص مقياسا ملائما لفهم اتجاهات البحث العلمي السابقة في هذا المجال. فقد كان برايت مقتنعا بأن سفر القضاة كان المصدر الوحيد لتاريخ إسرائيل منذ بداياته الأولى في فلسطين. وعلى الرغم من أنه ينتبه إلى أن مجموعة الأحداث المغلقة على ذاتها (self - contained) لم تسمح بكتابة تاريخ متسلسل لهذه الفترة، فإنه اتبع الخطوط العريضة لسفر القضاة وذلك في تصويره لهذه الفترة على أنها فترة صراعات متقطعة، تخللتها فترات سلام، وأزمات داخلية وخارجية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرواية قد وفرت، في نظرة، دليلا أصيلا على وجود جماعة يربط بينها ميثاق معين ظلت متماسكة بفضل القوة الروحية للدين. إن فكرة الدولة القومية، أو في هذه الحالة الدولة القومية الناشئة، توفر الافتراض المهيمن الذي يتغلب على أي عقبات أو أي تحفظات علنية على النص.

وإذا ما عدنا إلى ميلر وهيز Miller and Hayes (1986) بهدف المقارنة، باعتبار أن أعمالهما تمثل ذروة الدراسات التوراتية حديثا، نجد أن تحفظات برايت المبدئية قد انتقلت إلى مرحلة أبعد. فهما يفصحان عن رأيهما بأن سفر القضاة هو المرجع المباشر والوحيد لهذه الفترة من التاريخ الإسرائيلي واليهودي، ولا يمكن استخدامه في إعادة البناء التاريخية لأن الإطار المحرر اصطناعي وغير مقنع، ولأن «التفاصيل المتعلقة بالروايات الفردية... تنقصها المصداقية» (87 : 1986). على أي حال، فإن الروايات المختلفة الواردة في سفر القضاة، عندما تُعرّى من العناصر ذات الطابع الإعجازي، توفر الأساس

لوصفهما فترة «ما قبل الملكية». وحتى يتمكنا من القيام بذلك، فإن ميلر وهيز يقومان بعمل يسعى لاستعادة النص، أو على الأقل ما يسميانه «الروايات الأساسية» والتي لها «نكهة أكثر أصالة» من الإطار (90: 1986). وقد لا توفر الروايات «الأساس لتسلسل مفصل للأحداث التاريخية» (91: 1986)، ولكنها «ربما تعرض انطباعا دقيقا إلى حد معقول للظروف الاجتماعية والسياسية والدينية بشكل عام، التي كانت منتشرة فيما بين القبائل الإسرائيلية الأولى» (91: 1986).

وميلر وهيز ليسا الوحيدين اللذين يتبنيان هذا الرأي الذي تشاركهما فيه الأغلبية الساحقة من المؤرخين والمعلقين، وبالأخص أنصار ما يدعى بـ «المنظور السوسيولوجي»[32]. وهكذا، فإن النقاش يدور حول طبيعة العائلة الكبيرة (extended family) والعشائر، والقبائل، والتركيبات القبلية، والمجتمعات المجزأة على أنها الأجزاء المكونة لإسرائيل في فترة «ما قبل الملكية». غير أن هذا المنحى لا يختلف إلا اختلافا بسيطا عن نظرية برايت المشار إليها سابقا (76: 1972)، والتي تفيد أن الروايات المتعلقة بفترة عصر الآباء (Patriarchal narratives) تمدّنا بالمعلومات التاريخية الموثوق بها، لأنها حسب قول برايت، «تتلاءم تماما، ودون أي شك، مع محيط الألف الثاني قبل الميلاد، ولا تتلاءم مع أي فترة لاحقة أخرى». ومثلما تم التخلي بالتدريج عن هذه النظرية لفهم سفر التكوين وذلك تحت وطأة نقد طومسون Thompson (1974)، وفان سيترز Van Seters (1975) وغيرهما، فإننا نستطيع القول إن هذا الفهم لمادة سفر القضاة يعاني من نقاط الضعف نفسها.

لا تكاد تكفي نوعية المعلومات المتعلقة بالبناءات الاجتماعية والتي يمكننا استخلاصها من النص للدلالة على صدق الرواية لفترة «ما قبل الدولة». فالرواية «لا تتطابق مع النص على نحو له مصداقيته ولا يرقى إليه الشك»، إذا ما اقتبسنا تعبير برايت، وذلك بالنسبة للقرنين الثاني عشر أو الحادي عشر قبل الميلاد وليس في أي فترة أخرى. فقد كانت فلسطين طوال تاريخها الطويل مجتمعا زراعيا في الأساس مع عنصر رعوي مهم وذلك ابتداء على الأقل، من العصر البرونزي حتى القرن الحالي. فالعناصر المكونة لهذا المجتمع كما حددها سفر القضاة يمكنها بسهولة أن تتلاءم مع

أي مرحلة تاريخية في هذه الفترة الزمنية الهائلة.

وهكذا، فإن محاولة إنقاذ نص سفر القضاة من أجل استعماله في إعادة تكوين الماضي - سواء أكان ذلك بهدف الحفاظ على نواة التاريخ، أو بوصفه مستودعا للمعلومات حول التنظيم الاجتماعي لإسرائيل في فترة «ما قبل الدولة» - يجب أن نفهمها في سياق البحث عن الدولة القومية وأصولها. بل يمكننا أن نقول إن انتصار الدولة القومية الأوروبية كان انتصارا كاملا لدرجة أن ما سبقها قد تم إسقاطه على الفترة السابقة لتكوين الدولة الإسرائيلية.

نعرف حق المعرفة النقاش العلمي المطول حول التاريخ المنقح لسفر القضاة من خلال تحليلات نوث Noth (1981 والأصل الألماني 1943) الأساسية، منذ نصف قرن وذلك عن طريق المراجعات العديدة التي قام بها سمند Smend (1971) وديتريش Dietrich (1972) وكروس Cross (1973) ونلسون Nelson (1981) وميز Mayes (1983) وغيرهم كثير. أما تفاصيل التحليلات التي أتى بها هؤلاء فلا تهمنا هنا بشكل مباشر، ولكن ما يهمنا هو الخيط المشترك الذي يتجلى بوضوح فيما بينها جميعا: وأعني به صورة المؤرخ أو المحرر (redactor) الذي يتعامل بعناية مع المصادر المختلفة. يصور نوث (77: 1981) المؤرخ الذي يبحث في سفر التثنية (Deuteronomistic Historian) على هيئة حافظ وثائق الدولة، يرتب هذه الوثائق وينظمها ويؤول المواد المكتوبة الباقية بعناية فائقة. أما نوث، فإنه لا يعتبر ما جاء في سفر التثنية تاريخا مختلقا ولكنه يعتبره عرضا موضوعيا لتاريخ إسرائيل القديم مبنيا على مصادر موثوقة. وهذا هو نموذج المؤرخ الموضوعي الذي يدافع عنه هالبرن Halpern ضد كل الذين يحطون من قدره: وهذا النموذج هو نموذج الناسخ الذي يقارن وينسق المصادر بعناية فائقة، بينما يعمل نظراؤه المحدثون بعناية مماثلة لكي يميطوا اللثام عن تلك المصادر ذاتها، حتى يتمكنوا من وضع أساس حديث وموضوعي لتاريخ إسرائيل.

من مفارقات القدر في كيفية استخدام سفر القضاة لإعادة بناء الماضي، تلك الطريقة التي فرضت على المؤرخين المحدثين أن يفرضوا بدورهم مفهوما معينا لاتجاه الزمان time's arrow على هذا النص (أي سفر القضاة)، في حين أن جميع المعلقين يسلّمون بأن التكوين المحدد لهذا

العمل بشكل عام قد تشبع بالطريقة الدورية في النظر إلى دورة الزمان. وبالنسبة للمؤرخ الحديث فإن استخدام النص في إعادة تكوين الماضي يتطلب نكرانا، أو في أحسن الحالات تجاهلا، للتكوين الأساسي لهذا العمل الذي يحدد فهمه للماضي وإحساسه به. أما النظرة الدورية للتاريخ فهي نظرة لا يقبلها معظم المؤرخين المحدثين. فالزمن الذي يسير في خط واحد (linear time) هو جوهر التاريخ، أو كما يقول البعض «إن التسلسل الزمني هو العمود الفقري للتاريخ». غير أن الطرق الأدبية في معالجة التاريخ قد قامت في الآونة الأخيرة بالكشف عن تلك الوسائل الجمالية والبلاغية المتممة للعمل ككل ولتصوره للماضي. وقد جادل وب Web (177 : 1987) بشكل خاص من أجل فهم وحدة الكتاب المبنية على «شبكة كثيفة من العناصر المتشابكة»، والتي تتقاطع فيها المواد الموروثة مع الأطر التي يضعها المحررون. وهكذا، فإن سفر القضاة كوحدة واحدة يوفر لنا لمحة مغرية عن إحدى الطرق التي يتم بها الاستحواذ على الماضي وإعادة تشكيله.

تواريخ متصدعة

إن الاعتراف بأننا نتعامل باستمرار مع نصوص منحازة، سواء أكانت هذه النصوص قديمة أو حديثة، وكذلك فإن إدراك أن روايات الماضي هي دائما نتاج نخبة قليلة من الناس، وأنها في حالة تنافس مع روايات أخرى ممكنة قد لا يتوافر لنا دليل عليها، ينبغي أن يؤدي إلى مراعاة الحذر الشديد في الاعتماد على هذه الروايات لإعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم. أما قيمتها بالنسبة للمؤرخ فهي تُعزى إلى ما تشي به من الاهتمامات الأيديولوجية لهؤلاء الكُتّاب. ولكن ما لم يكن في إمكاننا تحديد هذه الاهتمامات في الزمان والمكان، فإن المؤرخ لا يملك إلا أن يعتمد على نصوص منحازة، محاولا إثارة الأسئلة التي تقع وراء النص، والتي اعتبرت حيوية فيما يتعلق بالادعاء بملكية الماضي وإعادة تكوين التاريخ. فالابتعاد المتزايد عن النصوص التوراتية بوصفها مستودعات للمعلومات التاريخية الواضحة، سواء أكانت تتعلق بنشوء إسرائيل أو الملك داود أو النبي جوشيا (Josiah) أو إرميا (Jeremiah) أونحميا (Nehemiah)، لها أصداء واضحة فيما يتعلق بالطرق

التقليدية لدراسة تاريخ إسرائيل. وكي نكمل هذه المهمة، في وقت نجد فيه أن المزيد من النصوص يتم إزالته من قبضة المؤرخ، فإن ذلك يُختزل إلى ما يمكن أن نسميه «كتابة تاريخ الفجوات»: ليس فجوات في المعلومات، وهذا شيء بديهي بالنسبة للمؤرخ، ولكن «تاريخ الفجوات» التي هي متشابهة مع «علم لاهوت الفجوات» (theoloty of the gaps)، والتي حاول المؤرخون ورجال الدين في القرن التاسع عشر، بلا جدوى، إعادة تكوينها أثناء صراعهم لفهم المكتشفات العلمية الحديثة، والتي كان من ضمنها حتما اكتشاف «الزمن السحيق القديم».

ولما كانت الدولة الوطنية الحديثة تشكل الإطار الاجتماعي والسياسي الذي تدور فيه البحوث التاريخية التوراتية الحديثة، بما فيها من مناهج نقدية ومن تشققات وتحولات، لذلك ففي وسعنا أن نتوقع هجمات أشد حدة على النموذج الذي فرضته على الماضي. ومن المرجح أن يؤدي ذلك إلى تباعد متزايد بين النص والعمل النهائي بدل التقارب الذي كان العديد من دارسي التوراة يتمنونه. وقد حدد ديفيز Davies معالم الطرق التي توضح كيف تصدع الإجماع من داخل الدراسات التوراتية في السنوات الأخيرة. ويستخلص بعض النتائج العميقة التي تؤثر في بعض الدراسات التوراتية المستخلصة من الدراسات الأدبية الحديثة للتوراة العبرية، والعمل التاريخي التصحيحي في أوائل وأواخر الثمانينيات من القرن العشرين. وكما ذكرنا سابقا، فإن هذه التحولات ليست مقتصرة على الدراسات التوراتية وحدها ولكنها تذهب إلى أبعد من ذلك لتتضمن الدراسات التاريخية بمعناها الأوسع. وإنه لشيء جوهري أن نحاول الاعتراف بالعوامل الثقافية والسياسية التي حددت مسار الدراسات التوراتية، والتي تضافرت مع تمثلات قديمة للماضي لكي تمدنا «برواية أصل» master narrative تشكل بدورها «التواريخ التوراتية» المتعارف عليها، وذلك بالنسبة لتاريخ إسرائيل القديم. أما النقد التوراتي، شأنه شأن الاستشراق، فقد نشأ نتيجة لعصر الاستعمار الأوروبي وهو يرتبط به ارتباطا وثيقا. وكما أشار يونغ Young (١١٩ : 1990)، فإن أهم حقيقة منذ الحرب العالمية الثانية كانت ذبول الاستعمار الأوروبي وبالتالي وضعه موضع المساءلة التاريخية. إن استبصار ساسون Sasson حول الإطار الذي تقوم فيه الأبحاث الثقافية والسياسية فيما يتعلق بتاريخ إسرائيل

القديم، هو شيء مهم بشكل خاص حيث قال: «وفي الربع الأخير من هذا القرن، فإن الإحساس التاريخي المتغير في ألمانيا مثلا في فترة ما بعد الحرب، وكذلك في أمريكا بعد حرب فيتنام، قد أسهم في كسر النماذج التي هيمنت حتى ذلك الوقت على إعادة بناء تاريخ إسرائيل الأولي (Sasson 17 : 1981). وهكذا، فإن نتيجة هذا الهدم لمثل تلك النماذج، قد ساعد على تعرية الافتراضات السياسية والدينية التي عززت بناء تاريخ الدراسات التوراتية، وهذا شيء رئيسي لموضوع الدراسة الحالية.

تساعد أزمة الثقة التي رافقت إنتاج التواريخ الرئيسية، فيما يتعلق بتاريخ إسرائيل القديم في السنوات الأخيرة، على توضيح مدى تصدع هذا الإجماع في فترة تقل عن عقد من الزمان. والشك في الذات الذي كان مميزا لمحاولة سوغن Soggin:1984)) لإنتاج «رواية أصل» (master story) أو على أقل تقدير، الشكوك حول فترة «ما قبل الدولة» (19 : 1984) كانت في تعارض واضح مع الأعمال الأخرى منذ الخمسينيات والستينيات والتي اتسمت بالثقة المفرطة بالذات. وهذه المحاولة الجادة لمعالجة بعض الصعوبات المنهجية التي تواجه البحث التاريخي حول تاريخ إسرائيل القديم قد انطلق بها ميلر وهيز Miller and Hayes (1986) إلى آفاق أبعد. فإن عملهما هذا كان نقطة تحول رئيسية في كتابة تاريخ إسرائيل من منظور توراتي. فهما يعترفان بالمشاكل المتعلقة بالنصوص التوراتية والمرتبطة بفترة ما قبل المرحلة الملكية، حتى أنهما غير مستعدين للخوض في البناءات التاريخية لهذه الفترات. وحتى عندما يبدآن بإعادة بناء فترة الملك داود، فإنهما يعترفان بأن هذه النظرية لا تزيد عن كونها «أحسن تخمين» ميلر وهيز Miller and Hayes (26: 1986)، وبذلك، فهما يقوضان «مسلمات سوغن» Soggin (332: 1977) وفترة حكم الملك داود، على أنها نقطة البداية للمشروع التاريخي. إن صراحة ووضوح عرضهما للمشاكل التي واجهاها وما قدماه من أسباب للاختيارات التي قاما بها، قد ضمنت أن دراسة ميلر وهيز أصبحت الدراسة الحديثة المعتمدة حول تاريخ إسرائيل ويهودا. إنه عمل جاء، كما يعترف المؤلفان، عمل جاء ثمرة عملهما في إطار المعايير المتعارف عليها، و«جذوره مغروسة بقوة في تراث فلهاوزن Wellhausen - آلت Alt - نوث Noth - أولبرايت Albright» (Hayes 7: 1987).

فهذا العمل إذن، يمثل ذروة الأعمال التاريخية التي هيمنت على الدراسات التوراتية خلال القرن الحالي. (هيز Hayes 6 ـ 7: 1987) . على الرغم من ذلك، وعند النظر إلى ما مضى، فإن هذه الدراسة تدلل بوضوح على المشاكل المتزايدة المتعلقة بتاريخ إسرائيل القديم باعتباره تاريخ الفجوات، ذلك التاريخ الذي يجد نفسه مضطرا باستمرار لهجر «مسلماته» والقواعد الثابتة التي انطلق منها. لقد تساءل (لونغ Long 10 : 1987) أثناء مراجعته لدراسة ميلر وهيز بأقصى ما يمكن من الجدية: «هل ينبغي للمرء حتى أن يحاول كتابة تاريخ نقدي حديث لإسرائيل مبني على أساس صيغة موحدة لذلك التاريخ تمتزج فيها عناصر كثيرة، ولها أهداف ثقافية تخدم البلد المعني نفسه، وهي في الأساس رواية تتسم بخصوصية شديدة؟».[33] إن إعادة النظر في الروايات التوراتية، التي استمرت بحيوية وثقة متزايدة بالنفس، قد ظلت تسهم في تحطيم هذا الإجماع.

إن إحدى النتائج الأساسية للبحث التاريخي كانت إيذانه بموت «التاريخ التوراتي»، الذي يتم استبداله بشكل تدريجي بالاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته[34]. وهو فهم لتاريخ المنطقة يزداد ابتعادا وانفصالا عن الدراسات التوراتية: كما أنه مفهوم موضوعي لتاريخ ذو قاعدة عريضة، يهتم بالاقتصاد والسكان (الديموغرافيا) والاستيطان والأديان والأيديولوجيات الخاصة بفلسطين بشكل عام. إن تاريخا للمنطقة يهتم بتواريخ البيئات الصغيرة (micro environments) وتحتل فيه إسرائيل ويهودا مكانة مهمة، دون أن تكون قطعا العامل المهيمن وحده على التاريخ، هو ما ينبغي أن يكونه مثل هذا التاريخ. وإذا كانت الأعمال التي عالجت موضوع تاريخ إسرائيل القديم من منتصف الثمانينيات حتى نهايتها، وبخاصة أعمال ليمحى Lemche (1985)، وآلستروم Ahlstrom (1986) وكوت ووايتلام Coote and Whitelam (1987) وفنكلشتاين Finkelstein (1988)، قد علمتنا شيئا، فإنما هو أن جميع افتراضاتها لم تكن جذرية بما فيه الكفاية. فمعظم هذه الدراسات مضللة لأنها لا تُظهر شيئا عما يسمى بنشوء إسرائيل، إذ إننا غير قادرين على إطلاق الأوصاف العرقية على الثقافة المادية لهذه المنطقة في تلك الحقبة الزمنية، ولكننا مهتمون أساسا بالاستيطان وبتحول المجتمع الفلسطيني بشكل عام: فهؤلاء الباحثون أيضا ضللوا في خضم بحثهم عن

الدولة الوطنية في صورة إسرائيل وهو ما فرضته الدراسات التوراتية في سياقها العام. وعلى هذا، فإن اعتراضنا على حلقة النقاش الإلكتروني في الإنترنت IOUDAIOS هو اعتراض صحيح وهو أن تاريخ شعب معين سوف يتم انتزاعه، وأنا لا أعتقد أن هذا التاريخ هو تاريخ موضوعي حصل بالفعل، ولكنه تصور للماضي تخيلته عقول بعض الكتّاب «التوراتيين» وواصل الأخذ به «مؤرخو التوراة» المحدثون، وهو يتوارى تحت عباءة المحايد. ومع ذلك من المهم أن ننتبه إلى أنه، مهما كان المؤرخ ناقدا أو متأملا لنفسه، فإنه لا يتعامل فقط مع نصوص منحازة، بل إنه حتما ينتج نصا منحازا. والكتاب الحالي أيضا عمل منحاز يحاول أن يفهم السياق الحديث الذي ظهر فيه، وفي الوقت نفسه يحاول أن يحرر الحقائق التاريخية المتعلقة بتاريخ فلسطين القديم، من العصر البرونزي المتأخر حتى الفترة الرومانية، من قبضة ماض خيالي فرض علينا بواسطة خطاب الدراسات التوراتية.

وهكذا نعود إلى المعضلة العميقة التي طرحها سيزار Cesaire، والتي رددها يونغ Young (1990)، وهي كيف نكتب تاريخا جديدا، في حين أن التاريخ برمته هو تاريخ أوروبي، وذكوري، وينتمي إلى العرق الأبيض[35]. لا يمكن أن تؤدي محاولة إيجاد فهم للماضي بديل عن ذلك الذي نشأ من خطاب الدراسات التوراتية خلال القرن الماضي أو أكثر، إلا إلى آراء منحازة ضد هؤلاء السكان الذين تم إسكاتهم بواسطة أبحاثنا الحديثة. ومن الجلي أن أي تاريخ مضاد سيكون هو الآخر غير نهائي وغير قاطع ومنحازا. ولكن الأهم من ذلك هو الكشف عن المضامين الواسعة النطاق التي ينطوي عليها البحث عن تاريخ إسرائيل القديم من القرنين التاسع عشر والعشرين. وكما قال إندن Inden (1986 : 445)، في مجال حديثه عن التاريخ الهندي، إن هدم الخطاب الذي استُدرج إليه دارسو تاريخ الهند هو الخطوة الأولى التي لا غنى عنها: بعد أن يُعرّى مثل هذا الخطاب وما يترتب عليه، بعد ذلك فحسب يُمكن للمختصين في تاريخ الهند أن يأملوا في الخروج من ذلك المأزق. أما المشكلة المتعلقة بالتاريخ الفلسطيني فهي أنها ظلت مشكلة غير مصرح بها في نطاق الدراسات التوراتية، وقد أسكتتها تلك الدراسات التي اخترعت تاريخ إسرائيل القديم على هيئة الدولة القومية الأوروبية. ولن يستطيع التاريخ الفلسطيني أن يتحرر من قيود الدراسات التوراتية، ومن

ذلك الخطاب الذي ساهم في تكوينها إلا بعد أن نكشف عن ملابسات اختلاق مثل هذه الكينونة.

الحواشي

(*) أي على الإنترنت (المترجمة).

(*2) يشير المؤلف هنا إلى الارتباط التاريخي لاسم هذه المقاطعة بأمجاد الإسكندر المقدوني الذي كان أعظم الفاتحين في العالم القديم.

(*3) آثار يونانية موجودة في المتحف البريطاني وتطالب الحكومة اليونانية بها. (المترجمة)

(*4) مساداة: أو «مسعادة» كلمة آرامية تعني القلعة. وحسب الأساطير والخرافات اليهودية هي آخر قلعة سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي ضد الإمبراطورية الرومانية، وهي تقع على أعلى قمة صخرية عند البحر الميت. وقد حاصر الرومان القلعة من كل الجهات لعدة سنوات مما دفع بالقائد اليهودي إلى إقناع رفاقه بالانتحار الجماعي بدلا من الوقوع أسرى في أيدي الرومان، وتحولت المساداة إلى رمز القوة العسكرية المحاصرة، ولكن هذه القصة أثارت شكوكا لدى العديد من المؤرخين الذين أعلنوا أن قصة مساداة خرافة وأسطورة. وقد ركزت الصهيونية كثيرا على هذه الأسطورة وحولتها إلى أسطورة قومية وإلى رمز لوحدة الشعب اليهودي. وفي كل عام يقيم الجيش الإسرائيلي احتفالات يرد فيها أن «مساداة لن تسقط ثانية». ويتم تنظيم رحلات لأفواج السياح اليهود إلى هناك. (انظر: د. عبدالوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - المترجمة).

(*5) يوسيفوس فلافيوس Josephus Flavius (38ق.م - 100م). تقول «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية» إن اسمه العبري الأصلي هو يوسف بن متاتياهو هاكوهين، وهو سياسي وقائد عسكري ومؤرخ يهودي وصف بأنه كان شخصا شديد الطموح ولا ضمير له، كان واسع الاطلاع، وقد سافر إلى روما وتعرف على مدى قوتها واستنتج عدم جدوى الوقوف أمامها، وحينما نشبت الثورة اليهودية عينت الحكومة الجديدة يوسيفوس قائدا عسكريا لمنطقة الجليل عام 66م. وحينما وصل الرومان سرعان ما تساقطت التحصينات والمدن اليهودية، فحاول يوسف هاكوهين الهرب، ولكنه لم يفلح إذ أبقاه جنوده على الرغم منه، وبعد ذلك تمكن الجنود والقائد من الفرار إلى أحد الكهوف، حيث قرر الجنود الانتحار بطريقة جماعية. فقام هاكوهين بعمل القرعة بنفسه بطريقة كفلت له أن يكون آخر المنتحرين، ثم أشرف على عملية الانتحار، وحينما لم يتبق إلا اثنان: هو وشخص آخر، أقنعه يوسيفوس بالاستسلام للرومان بدلا من الانتحار. وحينما مثل هاكوهين بين يدي القائد الروماني فلافيوس فسبسيان ادعى العرافة وتنبأ للقائد الروماني بأن له مستقبلا باهرا وأنه سيتبوأ عرش روما، وبعد هذا روج هاكوهين لنبوءته وغير اسمه من يوسف إلى يوسيفوس واتخذ اسم القائد الروماني اسما ثانيا له وأصبح يعرف بهذا الاسم فيما بعد. ويقول د. عبدالوهاب المسيري إنه برغم كل الشكوك التي تحيط بيوسيفوس سواء من الناحية الأخلاقية أو النفسية أو العملية، فإن الحركة الصهيونية قد روجت للقصة التي نشرها عن المساداة والانتحار الجماعي، على الرغم من أنه المصدر الوحيد لها، وعلى الرغم من شك كثير من العلماء اليهود وغير اليهود في صحة هذه القصة. انظر ص 459 - 460 «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية» للدكتور عبدالوهاب المسيري، (المترجمة).

(*6) التلمود هو أحد كتب اليهود الدينية، وهو عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية وكثيرا غيرها، ويتضمن أيضا فصولا عن الزراعة وفلاحة الأرض والصناعة والمهن الأخرى الخ، بل إنه يغطي كل جوانب الحياة الخاصة باليهود (للمزيد انظر أيضا عبدالوهاب المسيري «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية». المترجمة).

(*7) من كبار قواد الجيش الإسرائيلي في حرب 1967، واشتغاله بالآثار هو ذاته دليل على القضية التي يريد المؤلف إثباتها، وهي تسخير التاريخ من أجل تدعيم مطالب معينة متعلقة بالسياسة الحاضرة، ويُلاحَظ أن أشهر من جمع بين القيادة العسكرية والتخصص في علم الآثار هو القائد والسياسي الإسرائيلي الشهير «موشى ديان»، ولا جدال في أن أمثال هؤلاء لا يستطيعون أن يكونوا محايدين عندما يفسرون الآثار ويكتبون التاريخ القديم، فهذا في نظرهم أحد «الأسلحة» التي يستخدمونها في حروبهم. (المراجع).

(*8) بإمكان القارئ المهتم بهذا الموضوع الاطلاع على كتاب بعنوان: Re-Inventing the Jewish Past: European Jewish Intellectuals and the Zionist Return to History. (إعادة اختراع التاريخ اليهودي: المثقفون الأوروبيون اليهود والعودة الصهيونية للتاريخ) لمؤلفه ديفيد مايرز David Myres والصادر عن Oxford University Press سنة 1995، والذي يبين فيه المؤلف، للمرة الأولى، الدور البالغ الأهمية الذي لعبه الجيل الأول من المؤرخين اليهود في الجامعة العبرية في القدس (قسم الدراسات العبرية) ابتداء من العشرينيات من هذا القرن، وكيف أعادوا كتابة التاريخ اليهودي (أو اختلاقه كما يقول المؤلف) ضمن التصور الصهيوني، وكيف تمكن هؤلاء الأساتذة الجامعيون من اختراع هوية قومية جماعية جديدة للشعب اليهودي وإطلاق عنانها. والكتاب غير مترجم إلى العربية. (المترجمة).

(*9) يبدو أن الأمر التبس على مؤلف الكتاب، لأن ما ورد في وعد بلفور هو «الوطن القومي» (national home) وليس (natural home) لذلك وجب التنويه. وتجدر الإشارة إلى أن الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن كان له الدور الأكبر في إقناع المسؤولين الإنجليز في إدخال تعبير «الوطن القومي» في صيغة الوعد لما له من دلالات مهمة في المشروع الصهيوني. ولقد كان أيضا لتركيز وايزمن على مفهوم «الارتباط التاريخي» historical connection بين اليهود و«أرض إسرائيل» أهمية كبرى في إصدار وعد بلفور. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن أول من صاغ تعبير «الوطن القومي» heimstatte هو الزعيم الصهيوني ماكس نوردو Max Nordeau عام 1903 وذلك بدلا من استعمال تعبير الدولة اليهودية Jewish State، تجنبا لمعارضة اليهود المناوئين للصهيونية في ذلك الحين. (المترجمة).

(*10) عصور ما قبل التاريخ تمتد من 500,000 إلى 3000 ق.م، أما العصر التاريخي فهو الذي توصل فيه الإنسان لمعرفة التدوين ثم الكتابة منذ بداياتها السمارية والهيروغليفية الأولى، ويبدأ العصر التاريخي في حوالي سنة 3000ق.م. (المترجمة).

(*11) السير وليام والاس William Wallace (1270 ـ 1305) أحد الأبطال القوميين الإسكوتدلنديين. وقد هزم الجيش الإنجليزي سنة 1297. (المترجمة).

(*12) هو الملك روبرت الأول Robert I المعروف بـ Robert the Bruce (1274 ـ 1329) وقد قاد المقاومة ضد الإنجليز بعد موت السير وليام والاس، وتمكن من إعادة العرش الإسكوتدلندي وإنشاء مملكة إسكوتلندية، وقد استمر حكمه من 1306 حتى 1329. (المترجمة).

2 إنكار المكان والزمان على التاريخ الفلسطيني

مقدمة

إن مفهومي المكان والزمان في غاية الأهمية للمؤرخ، ولكنهما مألوفان لديه لدرجة أنه لا يكاد يرى أنهما يستحقان أي بحث مفصل، فالرأي السائد هو أن هذه أمور لا ينبغي أن يتوقف عندها المؤرخ أو القارئ طويلا، إذ إنها من المسلمات التي تساعد على تحديد المسألة من الناحية الزمنية والجغرافية فقط. وكثيرا ما يقال إن التسلسل الزمني هو العمود الفقري للكتابة التاريخية. أما الحقائق المتعلقة بالمكان فهي بمنزلة المسرح الذي تؤدى عليه أحداث التاريخ. ولكن يجب التنبيه إلى أن دراسة مسألتي المكان والزمان ليست أمرا يسيرا بالنسبة للمؤرخ، بحيث يمكنه المرور عليها مرورا سريعا باعتبارها مقدمة للعمل الذي ينوي دراسته. والمكان والزمان هما محصلات اجتماعية، ومثل إعادة تكوين الماضي، فهما مرتبطان بمفهومي الهوية والسلطة. أما الاختلافات حول مفهوم الزمان بين الديانات المسيحية واليهودية والإسلام والهندوسية فهي أكبر مثال لما لهذه المسألة من مضامين

عقائدية. نجد مثلا أن الخلاف القديم في دول البلقان حول استعمال اسم «مقدونيا» يُظهر بشكل حاسم أهمية ارتباط المكان بالهوية. بإمكاننا القول إذن إن هذين المفهومين التوأمين (الزمان والمكان) حاسمان في محاولتنا سبر غور التاريخ الفلسطيني القديم، وكذلك كي نفهم لماذا لم يعط هذا التاريخ القدر الكافي من الاهتمام في المناقشات الأكاديمية.

يقول روبرت أولتر Alter (١٩: 1973)، وهو يناقش أهمية الرمزية في مسألة المساداة Masada، إن الربط بين التاريخ القديم والسياسة المعاصرة فيما يتعلق بإسرائيل هو «شيء ملائم إذا ما أخذنا في الاعتبار خصوصية موقع إسرائيل في التاريخ والجغرافيا». ولكنه لا يسترسل في شرح هذه «الخصوصية»، إذ يبدو له أن مجرد ذكرها كاف تماما لأن القارئ سوف يسلم بأننا بصدد كينونة متميزة جدا، إن لم تكن فريدة من نوعها في التاريخ البشري. أما هيرمان Herrmann، فإنه يعبّر عن خصوصية وضع إسرائيل بشكل أكثر تحديدا إذ يقول:

هذا هو المسرح الذي دارت فيه أحداث تاريخ إسرائيل القديم. ومساحة إقليم إسرائيل وإمكاناتها كقوة عالمية كانت بالضرورة محدودة. أما قدرها، فكان مرتبطا بشبكة من العلاقات الحتمية المتداخلة، ولكن ما حصل تاريخيا في ركن صغير من العالم كان من المقدر له أن يؤثر في التاريخ العالمي بشكل أكبر بكثير مما كان متوقعا. إن إسرائيل الصغيرة، الضعيفة تاريخيا وغير ذات التأثير، قد أطلقت قوى كانت أشد تأثيرا من أي حسابات في السياسة العالمية. وأصبحت إسرائيل هذه ظاهرة أبعد من ذاتها ونموذجا يُحتذى، وأثارت السؤال الأساسي المتعلق بطبيعة الوجود التاريخي. أما الإجابة عن هذا السؤال فإنها تستعصي على أي ذهن.

(**هيرمان** Herrmann **22: 1975**)

يكشف حديث هيرمان عن ذلك «الركن من العالم» عن نزوعه إلى المركزية الأوروبية. إضافة إلى ذلك، فإن قوله إن إسرائيل تشير إلى «أبعد من ذاتها» - بغض النظر عما يمكن أن يعنيه مثل هذا القول - إنما يدل على افتراض لاهوتي ضمني، يربط مباشرة بين تاريخ إسرائيل وبين الفعل الإلهي في العالم الدنيوي. وهناك عبارات مماثلة، تعبر عن مكانة إسرائيل الخاصة في المكان والزمان، يمكن أن نجدها في العديد من الأعمال الأكاديمية وكذلك الكتابات الأكثر شعبية، مما يوحي بأن هيرمان يكرر آراء واسعة

الانتشار عن علاقة إسرائيل الفريدة بالزمان والمكان. وكما ذكرنا سابقا، فإن أهمية طرق إدراكنا للماضي فيما يتعلق بتشكيل الهوية، والطبيعة التنافسية لطرق الإدراك هذه، تعني أن مفهومي الزمان والمكان هما في غاية الأهمية لعملنا هذا. إن هذين المفهومين، هما تماما، «كالماضي»، بناءات فكرية كثيرا ما يتم تداولها بوصفها جزءا من خطاب خفي (غير معلن) في تشكيل الهوية الاجتماعية، في الوقت نفسه الذي يتم فيه إنكار الهويات المنافسة التي تطالب بالزمان والمكان نفسهما. وفي السياق الراهن، لا يمكننا أن نفصل هذه الآراء عن الصراع الحالي بين إسرائيل المعاصرة والفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال داخل إسرائيل وأولئك الموجودين في المنفى. ولهذا السبب ذاته، فإن استعمال كلمة «فلسطين» أو عبارة «التاريخ الفلسطيني» في المجال الأكاديمي لا بد أن يكون مثيرا للجدل. ولذلك، يقول إدوارد سعيد (30 : 1986) إنه «لا يوجد حياد، لا يمكن أن يكون هناك حياد وموضوعية فيما يتعلق بفلسطين».

يدّعي خطاب الدراسات التوراتية في إعادة تكوين ماض يؤثر في المواقف الإيجابية أو السلبية التي تتخذ في الحاضر أنه يظل خارج أو فوق مستوى الصراعات السياسية المعاصرة. ويصبح الأمر جليا إذا ما تمت المقارنة بين التاريخ المحلي لفلسطين القديمة، وبين التواريخ التوراتية. أو على الأصح إذا ما وضع كل من التاريخين في منافسة مع الآخر. خطاب الدراسات التوراتية يعلن أنه قد بقي بعيدا عن الوضع السياسي الحالي، بينما استمر في إنكار المكان والزمان على الفلسطينيين مهما طالبوا بحقهم في الماضي. وهذا الخطاب التوراتي قد أعطى الزمان - وبخاصة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي - وكذلك المكان الجغرافي، لإسرائيل فقط: أما الكنعانيون والفلستيون Philistines أو أي فئة محلية أخرى من سكان البلاد الأصليين، فيمكن لها، حسب الخطاب التوراتي، أن تعيش في هذا المكان والزمان، ولكن حسب الشروط التي تمليها إسرائيل فقط.

إنكار المكان على الفلسطينيين

مفهوم المكان في المجال التاريخي ليس أكثر جمودا وثباتا من مفهوم

الزمان الذي يعتبر في صميم البحث التاريخي. فقد أصبح من المسلمات أن تعريف المكان والسيطرة عليه كانا من العوامل الأساسية في تحديد أوروبا لذاتها «وللآخر»، وهو الوجه المضاد لما تراه أوروبا في نفسها من عقلانية وقوة وثبات. فاستعمال تعبير «فلسطين» هو بالضرورة مسألة ذات علاقة وطيدة بالخطاب الاستشراقي نفسه وتكوينه لصور الماضي. أما الدراسات التوراتية فلم تبق في معزل عن هذه الأفكار الاستشراقية وتكوينها للشرق، بما فيها فلسطين، على أنها «الآخر» الضروري لأوروبا. ويمكننا تتبع هذه الافتراضات الاستشراقية من خلال عدد من الأعمال المهمة في مجال الدراسات التوراتية في القرنين التاسع عشر والعشرين. «فالتاريخ التوراتي التقليدي» الخاص بإسرائيل دائما يبدأ بفصل مخصص للجغرافيا، وتعريف المكان، زاعما أن عرضه هو عرض موضوعي للمعلومات الجغرافية يهدف إلى تزويد القارئ بالمعلومات العامة الأساسية حول الموضوع. يجب أن تنبهنا العلاقة المتبادلة بين تنقيب الدراسات التوراتية عن «إسرائيل القديمة» وصعود الدول القومية الأوروبية إلى بعض المشاكل التي تعترض محاولة تحديد الأبعاد ذات العلاقة بالمكان والمتعلقة بموضوعنا هذا. فاختيار المصطلحات الخاصة بالمنطقة، وما تتضمنه من معان، سواء بشكل ضمني أو صريح، ينكر أي تفسير مغاير للماضي والحاضر. وهذه الأمور كلها متداخلة إلى درجة أن الحاضر تكون له الأولوية فيما يتعلق بتحديد الماضي وفهمه. فالمشكلة التي يواجهها المؤرخ ليست هي وصف الحدود المادية للمكان، وإنما تسمية هذا المكان.

يحمل اختيار الاصطلاح في طياته كل هذه المضامين وهذا القدر الكبير من إنكار الحقوق أو تأكيدها، وهي أمور حاسمة ومثيرة للجدل. فالاحتلال الإسرائيلي الطويل للضفة الغربية وغزة، والانتفاضة الفلسطينية، والكفاح الفلسطيني لتقرير المصير وللحصول على وطن خاص بهم، كل هذا يجعل من هذه المصطلحات شيئا خلافيا. والتطورات المفاجئة التي حصلت في بداية سبتمبر 1993 بعد توقيع المعاهدة بين إسحق رابين وياسر عرفات، وما تبعها من تطبيق صعب وتدريجي لسياسة غزة ـ أريحا أولا، كل هذه الأمور أدت إلى ازدياد أهمية ومغزى معضلة التعريف بالمكان[1]. فمسألة «فلسطين» و«التاريخ الفلسطيني» في مقابل «إسرائيل» و«التاريخ الإسرائيلي»، لا يمكن

فصلها عن الادعاءات المعاصرة وكذلك الادعاءات المضادة المتعلقة بالماضي. فالمحاولات الكثيرة لتحديد الحدود الفعلية لفلسطين أقل أهمية من استعمالها كصورة في الكتابات الأكاديمية والشعبية.

توظف الدراسات التوراتية عددا مذهلا من التعبيرات للدلالة على المنطقة: «الأرض المقدسة»، «أرض التوراة»، «إرتس يسرائيل» - أو «أرض إسرائيل» - «إسرائيل»، «يهودا»، «كنعان»، «شرق الأردن»، «فلسطين السورية»، «فلسطين»، «الشرق». وفيما يتعلق بالعديد من الأعمال الأساسية في التاريخ الجغرافي والدراسات التاريخية حول المنطقة، تبدو كل هذه التعبيرات للقارئ العادي مترادفة بل وحتى حيادية. إلا أن تسمية الأرض تتضمن معاني السيطرة على هذه الأرض: فتعبيرات مثل «الشرق» و«الشرق الأوسط» أو«الشرق الأدنى» تدل على فهم أوروبي ضيق للعالم. وقد أوضح أندرسون (1991) كيف لعبت الخارطة دورا حاسما في فهم وهيمنة أوروبا على مستعمراتها. وبالقدر ذاته فإنه من المهم أن ندقق كيف أن تعبيرا «إرتس يسرائيل» («أرض إسرائيل») و«فلسطين» قد استغلا، أو جُرِّدا من معانيهما في الخطاب الغربي. فعلى الرغم من أن البحث العلمي الغربي قد استعمل تعبير «فلسطين» بشكل مستمر، فإن هذا التعبير قد جرد من أي معنى حقيقي في خضم البحث عن تاريخ إسرائيل القديم[2].

يمكن تتبع أثر المضامين السياسية للمصطلحات والتعبيرات المستعملة للدلالة على هذه المنطقة من خلال بعض الأعمال الكلاسيكية حول التاريخ الجغرافي والتي شكلت الأساس الذي اعتمدت عليه الدراسات التوراتية خلال القرن الماضي. ويمكن أن نجد أول تناول لتلك الأعمال الكلاسيكية لمسألة التاريخ الجغرافي في كتاب جورج آدم سميث «الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة» The Historical Geography of the Holy Land الذي صدر لأول مرة في 1894. أما العنوان الفرعي لهذا الكتاب فله دلالات مهمة: «وخاصة فيما يتعلق بتاريخ إسرائيل والتاريخ المبكر للكنيسة» Especially in Relation to the History of Israel and of the Early Church. يستعمل آدم سميث تعبير «فلسطين» كتعبير مرادف «للأرض المقدسة»، بينما يوضح في المقدمة بشكل لا يدعو للشك أن دافعه الأساسي هو إلقاء الأضواء على التوراة، إذ يقول:

يرغب دارسو التوراة في معرفة الخلفية التاريخية كما يرغبون في الشعور بالجو الذي دارت فيه الأحداث. ويرغبون من خلال الاطلاع على مسار هذه الأرض في معرفة لماذا سار التاريخ في اتجاه معين، وكيف اتخذت النبوءة والإنجيل أشكالا معينة، ويريدون أن يعرفوا ما هي الإسهامات التي تستطيع الجغرافيا القيام بها في موضوعات النقد التوراتي، ولكن فوق هذا كله، يريدون أن يقفوا على حقيقة الفرق بين ما أسهمت به الطبيعة بالنسبة للتطور الديني لإسرائيل، وما كان ناتجا عن القوى الروحية والأخلاقية المحضة.

(سميث Smith . المقدمة vii :1894)

وعلى هذا الأساس، فليس هناك أي معنى جوهري لفلسطين بحد ذاتها، بل إنها تستعمل فقط لكونها الخلفية الأساسية لفهم التطور الديني الذي هو أساس الحضارة الغربية. في هذا السياق، لا تملك فلسطين تاريخا خاصا بها، إن تاريخها هو تاريخ إسرائيل الذي هو تاريخ الغرب. وهذا الغياب للتاريخ تتوافق معه فكرةغياب السكان من هذه الأرض. أما فلسطين فهي مجرد معرض للمقتنيات الدينية النادرة، أو ما يطلق عليه سميث Smith (المقدمة viii :1894) «متحف لتاريخ الكنيسة»، حيث يعدد المواقع الأثرية القديمة حتى الوقت الحاضر. ويشير سميث (المقدمة X :1894) إلى أنه بعد اقتفاء أثر حملة نابليون ثم تقهقهره، نجد أنه «بعد هذا الصمت الطويل، وانهيار كل شيء محلي، لا تزال هناك كنائس حية اليوم، وطوابير الحجاج القادمين إلى القدس من جهات العالم الأربع. لا يساور القارئ أي شك في حيوية الثقافة الأوروبية في مقابل الانهيار والانحطاط الذي حدث تحت مظلة السكان المحليين».

أن الأرض تبدو فارغة ومجردة من أي اهتمام فيما عدا الآثار القديمة التي تهمنا في فهم تطور الحضارة الغربية. وهذا الرأي تعزز في أيام سميث عند «احتلال الغرب لسوريا» (19 : 1894). ويتابع سميث واصفا هذا الاحتلال في سوريا وفلسطين، ليصل إلى الرأي القائل بأهمية إنشاء السكك الحديدية:

إنها (أي السكك الحديدية) لن تفتح المناطق الخصبة فحسب، وتعيد الحضارة الأوروبية إلى ذروة سيطرتها السابقة في شرق الأردن، ولكن إذا ما عادت الأسلحة الأوروبية إلى هذه المنطقة في وقت من الأوقات، في حالة الصراع مثلا على مصر أو على الأراضي المقدسة، فإن هذه السكك الحديدية التي ستمر في معظم المناطق الساحلية عبر ميادين المعركة في فلسطين سيكون

لها أهمية استراتيجية بالغة.

(سميث Smith **21 . 20: 1894**)

تعكس نظرة سميث للحضارة الأوروبية رؤيته أن الثقافة والتاريخ الخاصين بالشعوب الأصلية لا يتمتعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي. وهو يرى أن الأرض ملك شرعي للقوى الغربية إذا ما قررت ذلك: ومقياس التفوق هنا هو القوة العسكرية.

وعندما يتابع ليناقش مكانة سوريا ـ فلسطين في التاريخ العالمي، فإنه يفعل ذلك فيما يتعلق «بانتهاز الفرص» و«النفوذ»، وهذا يعني أن اهتمامه ديني في الأساس (21: 1894). إن رواية سميث للأحداث هي تعبير استشراقي عن «الآخر» في مفهوم أوروبا لذاتها. وفي وصفه للتطور الديني للساميين وعزل الجزيرة العربية، يصرح بما يلي:

مواهبهم الوحيدة هي في الحرب وفن الكلام ـ وهذه الأخيرة تم صقلها بشكل متميز بسبب الطبيعة الساكنة (للصحراء) وأوقات الفراغ الطويلة فيها. إنه الجو الملائم لترعرع العرافين والشهداء والمتعصبين. تصوروا شعبا تعرض لهذه المؤثرات لآلاف السنين! أعطوا هذا الشعب عقيدة، ومن المؤكد أنه سيكون شعبا مخلصا يؤمن بالرسل.

(سميث Smith **29: 1894**)

وبالنسبة لآدم سميث، كما للكثيرين غيره من علماء الدين وإخصائيي التوراة، فإن سبب عبقرية إسرائيل ـ أي سبب بروز ديانتها في الوقت الذي انحطت فيه ديانات جيرانها إلى مستوى عبادة الخصوبة ـ يعود إلى دوافع أخلاقية في معتقداتها. ومع أنه تم إثبات زيف مثل هذه الآراء في تفسير الديانات المحلية، أو تلك المجاورة لإسرائيل، فإن هذا التأثير قد بقي قويا للغاية في الدراسات التوراتية، وظل متحكما في الخيال الشعبي(3). إحدى نتائج ذلك هي أن الثقافة الإسرائيلية أصبح يُنظر إليها على أنها ذروة التطور الحضاري، بينما بالإمكان تجاوز ـ بل إزاحة ـ الثقافة الكنعانية التي تعبد الخصوبة. فالتاريخ الإسرائيلي يحل محل، بل إنه يُسكت، التاريخ الكنعاني ـ أي التاريخ الفلسطيني الأصيل ـ. وهكذا فإن أي اهتمام بالبلاد راجع لكونها مهمة للثقافة الغربية وأصول ديانتها التوحيدية: فالقوى الأوروبية تعود لتحمي الأرض التي أمدتها بمنبع حضارتها(4).

تبرهن المعالجات الحديثة لتاريخ إسرائيل على مدى نفوذ مثل هذه

الأفكار وكيف تسنى لها البقاء والاستمرار خلال هذا القرن. يبدأ مارتن نوث Martin Noth كتابه الشهير «تاريخ إسرائيل» The History of Isreal، (الصادر 1960)، بقسم عنوانه «أرض إسرائيل». وكغيره من المتخصصين في التوراة، يصرح بأن تاريخ إسرائيل كان مشروطا بمكانتها الجغرافية لدرجة أن المعرفة الجغرافية للمكان هي أحد الشروط الأساسية من أجل فهم حقيقي لتاريخها. على الرغم من ذلك، فإنه حين يدخل في نقاش حول تسمية المنطقة، يعترف بأن عبارة «أرض إسرائيل» قد وردت مرة واحدة فقط في التوراة العبرية (صموئيل الأول: 13 ـ 19). وأن الاسم الأصلي للمنطقة قد ضاع. ويتابع قائلا:

> كظاهرة طبيعية، لم تكن إسرائيل في أي وقت من الأوقات متجانسة، ولم يقطنها شعب متجانس قط، وكانت هناك بالكاد في كل وقت من تاريخها، مجموعة سياسية متوافقة مع الأرض التي تقطنها. ولذلك، فإن تعبير «أرض إسرائيل» قد يكون وصفا مرنا للمناطق التي استوطنت فيها هذه القبائل الإسرائيلية.
>
> **(نوث** Noth **8: 1960)**

لقد أسكت نوث تاريخ القبائل الأخرى التي استوطنت فلسطين والتي لم تكن ضمن هذه القبائل الإسرائيلية نتيجة اهتمامه بإسرائيل. ما يهمه فقط هو الانسجام. أما تاريخ فلسطين عامة فقد أدرج تحت بند «إسرائيل» على الرغم من اعترافه بأنه كان يُطلق على هذه الأرض اسم «فلسطين» بشكل اعتيادي. ومن ثم فإن تأثير ذلك هو تجريد «فلسطين» من أي معنى، وذلك باختزالها إلى إحدى مترادفات إسرائيل. وهكذا، يصبح الشيء موضع الدراسة هو إسرائيل وليس فلسطين وسكان فلسطين. ثم يتابع نوث فيقول:

> باعتباره تاريخا حقيقيا وأصيلا، فإن تاريخ إسرائيل كان دوما وبشكل عميق، متأثرا بالأرض التي نشأ فيها. لذلك فإن معرفة الجغرافيا الطبيعية لفلسطين تُعد أحد الشروط الأساسية لفهم حقيقي لتاريخ إسرائيل. وتفسير تاريخ إسرائيل يجب أن يكون مسبوقا بعرض مختصر لخصائص الأرض ذاتها.
>
> **(نوث** Noth **8: 1960)**

ليس للأرض التي يمكن تسميتها «فلسطين» أي قيمة كامنة في ذاتها، ولكنها تصبح ميدانا «للتاريخ الحقيقي والأصيل» لإسرائيل.

أما وصف نوث للأرض ذاتها، فهو صورة لمناظر طبيعية غريبة: الأرض

جرداء وخالية من الوجود الآدمي. أما السكان الموجودون، فهم مجهولون لا اسم لهم، وأهم ما يميزهم هو عدم الاتحاد (10 : 1960). أما وصفه «الموضوعي» للطوبوغرافيا، فيصور فيه الأرض وكأنها خالية تنتظر أن يملأها شعب إسرائيل، ومن هنا يبدأ نوث بدراسة التاريخ. ومما يكشف عن نوايا نوث غير المعلنة في وصفه لهؤلاء السكان المجهولين، أنه لا يصفهم قط «بالفلسطينيين». إن عمل نوث هذا لهو مثال على الافتراضات والبرنامج الخفي للدراسات التوراتية، والتي تسكت عمليا التاريخ الفلسطيني على حساب البحث عن تاريخ إسرائيل القديم. لقد جردت هذه الدراسات تعبير «فلسطين» من أي معنى وتجاهلت تاريخ السكان الأصليين للمنطقة.

يبدأ هيرمان (1975) سرده للتاريخ الإسرائيلي بفصل عنوانه «المشهد» يقول فيه إن:

> تاريخ إسرائيل مرتبط عضويا بالأرض ذاتها، أو بالأحرى الأراضي التي حدث فيها هذا التاريخ. وهذا هو بالفعل ما حدث مع شعب إسرائيل في العهد القديم. بإمكاننا أن نرى بدايات إسرائيل الأولية في شمال سوريا والعراق القديمة من جهة، وفي شمال غرب مصر من جهة أخرى، قبل أن تجد إسرائيل وطنا في فلسطين، «أرض الميعاد»، وهي ملكها الخاص الذي هو ليس محل نزاع إطلاقا.
>
> **(هيرمان Herrman 6: 1975)**

يلاحظ أن فلسطين تختزل مرة أخرى، لمصلحة «أرض الميعاد» هذه المرة، للدلالة على وطن إسرائيل: إنها ليست وطن الفلسطينيين أو الشعوب الأصلية. وكما ذكرنا سابقا، فإن اختيار تعبير «الوطن» يأخذ مغز مضاعفا في ضوء استعمال هذا التعبير في وعد بلفور. فمعالجة هيرمان لموضوع البحث، والتي تنحو منحى الدراسات التاريخية التوراتية الألمانية نفسه، تسير على خطى آلت ونوث نفسهما، وهي أيضا تصوِّر الأرض على أنها جرداء وخالية: أما إذا ذكر أي شعب آخر عن طريق المصادفة، فإنه شعب مجهول إلى حد كبير. أما فلسطين، فتقدم إلى القارئ فقط على أنها «مشهد تاريخ إسرائيل (6: 1975)، وتصبح مأهولة وذات أهمية في حالةواحدة فقط، وهي تحقيق الوعد ودخول إسرائيل على مسرح الأحداث. وبهذا يكشف عن حلقة مهمة بين التاريخ القديم والحديث أثناء استعراضه لإنجازات إسرائيل القديمة، وهذا ادعاء في غاية الأهمية من الناحية

السياسية إذا ما أخذنا في الاعتبار الصراع الحالي حول فلسطين. وينكر هيرمان حدوث أي تغيير في المناخ الطبيعي للبلاد قديما وحتى العصر الحاضر، مستنتجا أن قحل الأرض ومقاومتها للزراعة يمكن التغلب عليهما فقط بجهد غير عادي، «كالذي قامت به دولة إسرائيل الحديثة»[5]. إن الاستمرارية بين الماضي والحاضر تعني أن هذه الأرض الصعبة يمكن جعلها خصبة بالجهود غير الاعتيادية لإسرائيل فقط. وبالنسبة إليه، يبدو أنه لا أحد غيرها يمتلك هذه القدرة. كما أن الادعاء بأن إسرائيل - وإسرائيل وحدها - هي التي جعلت الأرض تثمر، كان دائما جزءا من الخطاب السياسي الصهيوني في تبريره للهجرة اليهودية إلى فلسطين وإنشاء دولة إسرائيل. وتصوير الصهيونيين لهذه الأرض على أنها «فارغة» له ما يوازيه في العلوم التوراتية في تكوينها للماضي، الذي يتجاهل وجود شعوب محلية في مراحل عديدة من التاريخ. ومرة أخرى، فإن وضع إسرائيل «الفريد» هو الذي يسمح لها بتجاوز هذه الأوضاع الشاذة: فالتاريخ الفلسطيني ببساطة غير موجود، أو غير ذي أهمية بالمقارنة مع تاريخ إسرائيل.

أما الدراسات التوراتية الأمريكية، ممثلة بكتاب جون برايت John Bright الشهير، «تاريخ إسرائيل» The History of Israel (1972) فقد فاقت دراسات أولبرايت Albright، لما لها من تأثير على الدراسات التوراتية. وعلى الرغم من أن دراسات أولبرايت ونوث تعتبر مداخل بديلة لتاريخ إسرائيل القديم، فإن من اللافت للنظر أنهما يتقاسمان افتراضات أساسية مع برايت تسيطر في الدراسات التوراتية الحديثة. يصور برايت، شأنه شأن نوث، إسرائيل القديمة على أنها جزء من الشرق، ذلك التعبير الذي قام إدوارد سعيد بتعرية مضامينه الأيديولوجية. وعلى الرغم من ذلك، فإن برايت لا يبدأ بالوصف الجغرافي المعتاد في كتابه هذا، مفضلا استعمال تعبير «فلسطين» دون أي إشارة إلى المعاني المحتملة لهذا التعبير. ونكرر أنه على الرغم من أن برايت يعالج تاريخ المنطقة قبل ظهور إسرائيل، فإنه لا يشير إلى سكانها على أنهم فلسطينيون. يمكن أن تدعى الأرض فلسطين، ولكن سكانها إما عموريون، أو كنعانيون أو إسرائيليون.

وعلى النقيض من ذلك، فإن ميلر وهيز Miller and Hayes (1986) اللذين يصفان دراستهما بأنها تسير على خطى آلت، نوث، أولبرايت، برايت نفسها،

يقدمان عرضا تاريخيا زمنيا وجغرافيا لدراستهما لتاريخ إسرائيل ويهودا. وهما يصوران تلال فلسطين على أنها «مسرح» لهذا التاريخ (30: 1986)، معترفين بأن فلسطين «تقاسمتها عدة أقوام متباينة». أما الاعتراف بأن هذه المنطقة لم تكن مُلكا وحيدا للإسرائيليين واليهود ولكنها كانت مأهولة بمجموعة مختلفة من «سكان فلسطين القديمة» (33: 1986)، فلا يعني تعريف هؤلاء السكان «كفلسطينيين». فالسكان لا يزالون يُنظر إليهم في الغالب على أنهم مجهولون، وتصبح لهم هوية فقط عندما يكونون إسرائيليين أو يهودا. إن ميلر وهيز يتطرقان إلى عدة ألقاب وتسميات للمنطقة في نصوص قديمة، وهذه الأسماء تشمل رتنو(*) (Retenu)، حورو (Hurru)، عمورة (Amurru)، كنعان، فلسطين (Philistia) وغيرها كثير، ولكن وصفها للمنطقة يظل محكوما في إطار تضاريسها الطبيعية والطوبوغرافية. فمن الممكن - من وجهة نظرهما - الإشارة إلى «الساحل الفلسطيني»، أو «الزراعة الفلسطينية»، أو «الاقتصاد الفلسطيني» (51: 1986)، ولكن أبدا لا يوصف السكان أنفسهم بالفلسطينيين.

يمكن مضاعفة الأمثلة المأخوذة هنا من الدراسات التوراتية أو من الكتابات المتخصصة في تاريخ إسرائيل القديم مرات عديدة. لكن النقطة المهمة تم توضيحها بما فيه الكفاية في المقاطع المذكورة سابقا، من عدد من الأعمال المختارة حول تاريخ إسرائيل القديم والتي هيمنت على الدراسات التوراتية. فمجرد إشارة كل هذه الدراسات إلى المنطقة الجغرافية على أنها فلسطين، مع عدم الإشارة مطلقا إلى السكان على أنهم فلسطينيون، إنما هو إنكار وإسكات للتاريخ الفلسطيني. إن ما يقدم دوما إلينا هو وصف للأرض ذاتها، أما سكانها فمجهولون أو غير موجودين. يبدأ تاريخ فلسطين عمليا بالنسبة لهؤلاء الكتاب - فقط عند بدء تاريخ إسرائيل وعندما تصبح فلسطين في وفاق وانسجام تامين مع إسرائيل. والسبب في ذلك لا يمكن أن يكون أن بؤرة التركيز هي على تاريخ إسرائيل، أو الادعاء بأن سرد هؤلاء المؤرخين للتاريخ يبدأ عند ظهور إسرائيل على مسرح الأحداث، ذلك لأنهم جميعا يعالجون فترات ما قبل ظهور إسرائيل أو الإسرائيليين. ولكنهم جميعا يرفضون بثبات استعمال تعبير «الفلسطينيين» للدلالة على المكان، حتى وإن استعملوا تعبير فلسطين للدلالة على أشياء جامدة مثل المكان

المادي والاقتصاد. إن رفض استعمال صفة واحدة لنعت سكان المنطقة هو إذن إنكار للوجود وللتاريخ الفلسطيني. ولهذا فإن فلسطين توصف على أنها منطقة صغيرة وفقيرة ومعزولة ـ وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية ـ ثم يتغير هذا الوضع وتصبح فلسطين مرموقة فقط بسبب الوجود التاريخي لإسرائيل فيها. وعلى هذا، فإن الدراسات التوراتية متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم. ولهذا مقابل سياسي معاصر متمثل في السيطرة الصهيونية على الأرض وسلب الشعب الفلسطيني من أرضه وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ أو تجريده من هذا التاريخ. وهكذا نرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعبا غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود. إنه تفسير قدم على أنه بحث علمي موضوعي، وهو يحمل وراءه ثقل المؤسسات الفكرية الغربية، وهي أسيرة الفهم الشائع للحاضر الذي جعلت فيه دولة إسرائيل المعاصرة الأرض «الفارغة» و«القاحلة» تثمر.

هذا الافتراض المتأصل في أعمال بعض دارسي التوراة، وبخاصة الألمان والأمريكان، كما رأينا سابقا، كان له تأثير قوي في أعمال التنقيب عن الآثار خلال هذا القرن. ويوضح الدستور الخاص «بصندوق استكشاف فلسطين» Palastine Exploration Fund، الذي أنشئ عام 1865، بجلاء تام، الافتراض الشائع الذي مفاده أن فلسطين لم تكن مهمة في ذاتها، بل لأسباب أخرى متصلة بالتوراة. فالأهداف المعلنة لهذا الصندوق هي: «البحث الدقيق والمنهجي عن الآثار، والطوبوغرافيا، والجيولوجيا، والجغرافيا الطبيعية وعادات وتقاليد شعب الأرض المقدسة، بهدف فهم التوراة» (واردة في كنيون Kenyon ا : 1979). وبهذا تصبح فلسطين «الأرض المقدسة» كما كانت بالنسبة لسميث Smith، وتاريخها وتضاريسها لا قيمة لها في ذاتها، ولا تكتسب قيمتها إلا بقدر ما هي مهمة لفهم التوراة. تلك هي النظريات المسيطرة على الدراسات التوراتية في الغرب، بحيث إن التاريخ الفلسطيني نفسه يصبح غير موجود وتاريخ المنطقة ذاتها يصبح تاريخ إسرائيل القديمة، كما صورته صيغ التراث التوراتي.

تعترف كاثرين كنيون Katherine Kenyon بأن تاريخ المنطقة مهم لفهم جذور الحضارات القديمة، وليس فقط لتفسير التوراة: ولكن علينا التأكد

هنا أن كلمة «حضارة» هي اختصار لكلمة «الغرب»، هذا الغرب الذي هو وريث الحضارة اليهودية ـ المسيحية. وعلى الرغم من أن دراسة كنيون تزعم أنها دراسة للمكتشفات الأثرية في المنطقة، فمن الواضح أن أفكارها مسبقة وتعتمد على فهمها للمعتقدات التوراتية، وليس على قراءتها الجديدة للكشوف الأثرية. ومن هنا فإنها تقول:

هذه الفترة هي بلا شك تلك التي نما فيها الوعي الإسرائيلي القومي نموا ملحوظا. فالرواية التوراتية توضح كيف تجمعت هذه الجماعات بالتدريج في بوتقة واحدة، وتظهر محاولاتها في التوحد على أساس دنيوي تحت حكم القضاة وكذلك تحت تأثير الرباط الديني الأشد قوة، في وقت كان فيه الكاهن الأعظم يتمتع أحيانا بنفوذ دنيوي. خلال تلك القرون تمكنت هذه الجماعات التي يوحد بينها الرباط العنصري، وإن كان استيطانها قد حصل في أوقات مختلفة... في هذه الظروف تمكنت هذه الجماعات من جمع تقاليد أسلافها تحت مظلة واحدة وهي دين يهوه، وآمنت بأن جميع أسلافها شاركوا في الخروج من مصر. هكذا بدأت الأمة بالظهور، ولكن ثقافتها كانت لا تزال بدائية. مستوطناتها كانت عبارة عن قرى، فنونها كانت فجة، وأدواتها المنزلية اليومية كانت مصممة للاستخدام العملي لا على أسس جمالية.

(كنيون Kenyon **23: 1979)**

من الصعب معرفة كنه المكتشفات الأثرية التي مكنت كنيون من الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى أن «الوعي القومي لشعب إسرائيل» كان يتنامى خلال تلك الفترة. وكما سنرى فيما بعد، فإن مسألة لصق بطاقات عرقية على الآثار المادية لهذه الفترة، قد أصبحت عاملا حاسما في المساعدة على تحرير تاريخ المنطقة من المسلمات التي قُبلت دون مناقشة والتي كانت مهيمنة على الوعي منذ زمن طويل. إن تفسير كنيون للمكتشفات الأثرية يرجع أساسا لتأثرها بفهم مسبق للقصص التوراتية. وآراؤها تشيع فيها تعبيرات مثل «قومي» و«قوم»: إنها الدولة القومية التي تمثل الحضارة الغربية (الأوروبية). وإسرائيل القديمة، كدولة قومية، أو دولة قومية ناشئة، تشكل همزة وصل مباشر مع أوروبا على أساس كونها جوهر الحضارة ذاتها. فأهمية المنطقة إذن تكمن في أهميتها لفهم أصول الحضارة الغربية (الأوروبية) والتقاليد التوراتية، التي هي أساس تطور التراث اليهودي ـ المسيحي في الغرب. ولكنها لا تشمل أي اهتمام حقيقي في تاريخ المنطقة أو سكانها الأصليين.

وتوضح كتابات وليام فوكسويل أولبرايت[*] William Foxwell Albright، ذات التأثير الكبير في هذا الفرع من المعرفة، كيف أن هذه الافتراضات الضمنية عادة ما تكون خفية ويصعب على القارئ اكتشاف كنهها بسهولة. ففي كتابه الشهير «آثار فلسطين» The Archaeology of Palestine (1949) يستعمل أولبرايت تعبيري «فلسطين» و«فلسطيني» طيلة الوقت. وحتى في دراسته للعصر الحديدي، العصر الذي يراه العديد من علماء الآثار الإسرائيليين على أنه «العصر الإسرائيلي»، فإن أولبرايت يشير باستمرار إلى آثار فلسطين». وهكذا، يُقدم تاريخ المنطقة بشكل متعقل يبدو ظاهريا أنه مهتم بتاريخ فلسطين لذاتها، مما أتاح له أن يقول في خاتمة كتابه:

إن دور علم الآثار في توفير المعلومات للدراسة الموضوعية لتاريخ فلسطين دور كبير للغاية، حتى أن أي باحث لا يستطيع أن يتجنبه دون حدوث كارثة فكرية. وعلى الرغم من مرور عشرين عاما بعد أن وصلت دراسة الآثار الفلسطينية إلى مرحلة ثابتة نسبيا، تسمح باستعمال هذه المعلومات من قبل المؤرخين بشكل متزن، فإنه يبقى أمراً في غاية الصعوبة على غير المختص أن يختار طريقه في خضم التواريخ والاستنتاجات المتناقضة لعلماء الآثار.

(أولبرايت Albright **1949: 252 . 353)**

ولكننا نستطيع أن نتعرف على آراء أولبرايت الدينية بشكل أفضل من خلال قراءتنا للأجزاء الأخيرة من دراسته، إذ يقول:

في غمرة الحماس للبحث الأثري، يقع المرء أحيانا في إغراء تجاهل السبب الدائم لأي اهتمام خاص بفلسطين - إذ إن معظم التوراة العبرية هي نتاج الأرض الفلسطينية والكتاب الإسرائيليين، بينما معظم الأحداث المكونة «للعهد الجديد» اليوناني قد حدثت في تلك الأرض المقدسة نفسها.

(أولبرايت Albright **1949: 218)**

وهنا نكتشف سبب أي «اهتمام خاص» بالمنطقة: إنها الساحة التي دارت فيها أحداث العهد القديم والجديد. يعترف أولبرايت بإسهامات الثقافات المحيطة في هذين الكتابين المقدسين، ولكنه يضيف أن الاستعمار الديني قد «حول» هذين الكتابين إلى شيء فاق كثيرا إسهامات الثقافات الأخرى المجاورة. ثم يحاول أن يدافع عن موضوعية الدراسات التوراتية ضد التهم الموجهة إليها بالانحياز الديني:

كثيرا ما يقال إن الطابع العلمي لعلم الآثار الفلسطيني قد شوته إلى حد بعيد الأحكام الدينية المسبقة للعلماء الذين نقبوا عن الآثار في الأرض المقدسة. ومن الصحيح أن الاهتمام الديني بالتوراة هو الذي جذب بعض علماء الآثار إلى فلسطين، وأن بعضهم الآخر كانوا في الأصل باحثين في الدراسات التوراتية أساسا. ويشهد الكاتب نفسه (أي أولبرايت) بأنه عرف العديد من هؤلاء الباحثين، ولكنه يستطيع أن يجزم بأنه لا يكاد يذكر حالة واحدة لمؤرخ لم تؤثر آراؤه الدينية تأثيرا بالغا فيما توصل إليه من نتائج. بعض هؤلاء العلماء كان نقده جذريا، وبعضهم الآخر كان نقده أكثر تحفظا، مثل أرنست سلين Ernest Sellin، أما البعض الآخر فكان متحفظا بشدة. إلا أن النتائج التي استخلصوها جميعا من هذه المكتشفات الأثرية كانت مستقلة عن آرائهم النقدية.

(**أولبرايت** Albright **219: 1949**).

لاحظ كيف أصبحت فلسطين هي «الأرض المقدسة» عنده الآن، إضافة إلى ذلك، فإن الموضوعية المزعومة للمنهج والبحث عن التاريخ والآثار الفلسطينية لذاتها قد افتضحت في استنتاجاته، التي حاول فيها أن يفسر أهمية فلسطين في التاريخ العالمي على الرغم من صغر حجمها وقلة مواردها وفيما يلي نص هذا الاستنتاج:

على الرغم من أن بإمكان علم الآثار إلقاء الأضواء على تاريخ وجغرافية فلسطين القديمة، فإنه لا يستطيع أن يفسر معجزة عقيدة إسرائيل الأساسية، التي تظل عاملا فريدا في التاريخ العالمي. ولكن علم الآثار بإمكانه أن يساعد إلى حد بعيد في جعل هذه المعجزة مفهومة بشكل معقول للإنسان الذكي الذي لم تضيّق النظرة المادية للعالم أفق رؤيته. كما أن بإمكانه أن يظهر سخف المواقف المتعصبة المتطرفة بدءا من عقيدة نزول الكتاب المقدس كوحي لفظي، وصولا إلى شطحات المؤمنين الغريبة في إضفاء صفات تنبؤية على الأرقام والمقاييس والرموز التوراتية. إن علم الآثار يشن حربا شعواء على أشكال الشعوذة هذه، القديمة منها والحديثة، فليس هناك ما يثير غضب عالم الآثار الرزين أكثر من أن يرى الإيمان الديني وقد أصبحت الشعوذات ملازمةله بتأثير دعاة المادية الرخيصة. أما الذي يؤمن برسالة فلسطين التاريخية، فإن آثارها تمتلك قيمة ترفعها إلى درجة أعلى بكثير فوق مستوى الآثار المادية التي يتعامل معها هذا العلم باستمرار، أعني، إلى مستوى يلتقي فيه التاريخ واللاهوت في إيمان مشترك بالحقائق الأزلية للوجود.

(**أولبرايت** Albright **256 . 255: 1949**)

هنا يصبح جليا أن تاريخ فلسطين بالنسبة لأولبرايت ليس مهما لذاته: «فرسالة فلسطين التاريخية» مستمدة من وجودها في «المكان المقدس»

الذي ظهر فيه العهد القديم والجديد. تحدد معتقدات أولبرايت الدينية بشكل واضح، على الرغم من إنكاره ذلك، فرضياته واستنتاجاته فيما يتعلق بالتاريخ الإسرائيلي. إضافة إلى ذلك، فإن هذا هو التاريخ الذي تحتل أوروبا فيه مركز الصدارة، كما أوضح أسد Asad وغيره في دراساتهم الحالية للماضي، وهي أخيرا محاولة للبحث عن جذور «الحضارة» الغربية.

وهناك مثال آخر لموضوع المصطلحات ومناهج البحث يظهر في مراجعة بالي Baly ذات التأثير لكتابه «جغرافية التوراة» The Geography of the Bible (الذي صدر عام 1957، وروجع 1974)، حيث يصرح بأن هدفه ذو شقين: أن يمد الباحثين بعمل يوفر لهم معلومات «متينة، مفصلة ودقيقة» في شكل عمل «جغرافي - توراتي جاد» (المقدمة xi : 1974)، وهو في الوقت ذاته عمل مبسط ومباشر للباحث المبتدئ والقارئ العام. بالي مدرك تماما للمشكلة التي يتضمنها مشروعه: مشكلة حدود الزمان والافتراضات الدينية المسبقة المفروضة على مثل هذه الدراسة. يقول بالي:

> عندما يكون البحث مقتصرا على المرحلة التوراتية، يصعب تجنب افتراض أن تاريخ فلسطين يبدأ مع إبراهيم وينتهي في العام 70 بعد الميلاد، وهو الانطباع المغروس بشدة في عقول العديد من الغربيين... لا يمكن أن ننكر أن أحداث الفترة التوراتية هي نفسها التي تهم أي قارئ أمريكي أو إنجليزي عادي، ولذلك يبدو هذا موضعا مناسبا لنبدأ به القصة، ولو أنه مجرد البداية.
>
> (**بالي** Baly **المقدمة** xiii: **1974**)

بإمكاننا أن نرى هنا أن مسألتي الزمان والمكان قد أصبحتا مرتبطتين ارتباطا وثيقا. على الرغم من ذلك، وكما هي الحال مع أولبرايت، فإن «تاريخ فلسطين» يتشكل باعتبارات لاهوتية تلغي كل الاعتبارات الأخرى، كما يعترف بالي Baly نفسه. وهو يشكو (المقدمة: XIV) من أن «رجال اللاهوت لا يهتمون بالجيولوجيا، والجغرافيين لا يريدون موضوع اللاهوت في كتب الجغرافيا». أما دفاعه فهو أنه من المهم أن نفهم حضارة وجو البلاد حتى نفهم طبيعة البيئة التي كان لها هذا الأثر العميق في سكانها. ويرتبط بذلك رأيه القائل إنه لا يقل عن ذلك أهمية فهم «الكتاب» الذي يدعو إلى الإيمان بإله واحد قادر وفعال. تعني الادعاءات الدينية أن تاريخ المنطقة لا يمكن فهمه إلا من خلال «التاريخ التوراتي»: وهذه الادعاءات

الدينية تحدد هذا التاريخ وتسيطر عليه. إنها ليست إذن تاريخ وجغرافية فلسطين، بل تاريخ وجغرافية «إسرائيل التوراتية». ولو نسبنا هذه الفترة من التاريخ إلى فترة إبراهيم لكنا بذلك نقبل تعريفا توراتيا لهذا التاريخ، وننكر أي تفسير آخر له. وهكذا فإن بالي في اختياره للمصطلحات يحاول أن يتجاوز مشكلات التعريف المرتبطة بالحاضر، والتي تخضع للفرضيات الدينية المسبقة:

> تبقى بعد ذلك مسألة الأسماء، وكما يعلم بعد تجربة مريرة كل من بحث في جغرافية الشرق الأوسط، فإن الأسماء كثيرا ما تأخذ مغزى سياسيا، كما أنها السبب في تبادل التهم الكثيرة. لذلك، ينبغي توضيح أننا لن نستعمل مطلقا أي اسم - سواء أكان هذا الاسم «إسرائيل» أو «فلسطين» أو أي اسم آخر - بمعناه السياسي المعاصر، ما لم يتم توضيح ذلك بشكل لا لبس فيه. سوف نستعمل لفظ «فلسطين» للدلالة على «أرض التوراة» على ضفتي الأردن، بالمعنى نفسه المستعمل في العديد من التفسيرات التوراتية. أما لفظ إسرائيل فسوف يقتصر على مملكة إسرائيل القديمة إلى الشمال من مملكة يهودا. وعندما نتحدث عن كلتا المنطقتين على جانبي الوادي الأردني الكبير للأردن وعرّابة - فسوف نشير إلى «عبر الأردن» (Trans - Jordan) و«شرق الأردن» (Cis - Jordan). أما الساحل بأكمله، الذي يمتد بين حدود تركيا الحديثة ومصر، فيمكن وصفه «بالساحل الشرقي».
>
> (بالي Baly 5 : 1974)[6]

المشكلة هنا هي أن الاسم الذي يطلق على «فلسطين» لا يزيد على كونه تعبيرا مختصرا عن «أرض التوراة». فالاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية هي التي تفرض نفسها على أي فهم لتاريخ المنطقة. والخريطة المدرجة في بداية كتاب يدعى «فلسطين العهد القديم» تؤكد ذلك، حيث نجد أن تسميات المناطق كلها تتبع أسماء القبائل التوراتية: فهناك «زبولون» و«منسّى» و«إفرايم» و«بنيامين» إلخ[*2]... وعلى هذا، فالادعاءات الدينية للتوراة العبرية كان لها الأفضلية في تحديد اسم الأرض، وبهذا الشكل تم إسكات أي ادعاء بديل لفهم المنطقة وفهم ماضيها[7].

أصبح لمشكلة إطلاق أسماء مختلفة على ذات الأرض، والصراع القائم حول هذه الادعاءات المختلفة في الماضي والحاضر، أهمية كبرى في الدراسات الإسرائيلية المعاصرة. فقد كان لكتاب يونان أهاروني Yohanan Aharoni «الأرض والتوراة: جغرافية تاريخية» (1962) :The Land and the Bible

A Historical Geography تأثير بالغ في توجيه هذا الفرع من المعرفة. ففي الكتاب بأكمله، يستعمل تعبير «أرض التوراة» The Land of the Bible بشكل مترادف مع تعبير «الأرض المقدسة» وفلسطين. للوهلة الأولى، لا تبدو هذه التعبيرات خلافية أو متعمدة، إلا أن العنوان العبري للكتاب، «أرض إسرائيل في العصر التوراتي» The Land of Israel in Biblical Times يوحي، ـ كما هي الحال مع بالي Baly ـ بأن تعبير «فلسطين» هو مجرد اختزال: فهو تعبير حُدد أساسا بناء على تعريف إسرائيل له وعلى الفهم التوراتي للماضي. أما الجزء الثاني من الكتاب وعنوانه «فلسطين عبر العصور» فيحتوي على فصل منفصل حول «الفترة الكنعانية» متبوع بعدة فصول تعالج موضوع التاريخ «الإسرائيلي» و«اليهودي». ومن الملاحظ أنه من المنظور الزمني، فإن لفظ «كنعاني» يُستعمل بوصفه تعبيرا منفصلا عن التاريخ الإسرائيلي، تاليا له أو بديلا عنه. فهذا التمييز الزمني بين الفترات «الكنعانية» و«الإسرائيلية» يتخلل الدراسات التوراتية، وهو أيضا تمييز أركيولوجي تاريخي مهم في الدراسات الإسرائيلية بشكل خاص. يتعارض هذا العرف الإسرائيلي بتسمية الفترات الأثرية «بالكنعانية» و«الإسرائيلية» مع الاستعمال الأمريكي في إطلاق اسم العصر البرونزي والحديدي على هذه الفترات، إلا أنه كما رأينا في أعمال أولبرايت، وعلى الرغم من الفروق بين التسميات الأثرية، فإن الافتراض التوراتي السائد هو أن الثقافة «الإسرائيلية» تتلو الثقافة «الكنعانية» وتحل محلها، بل وتتفوقها وتتجاوزها.

أما ريني Rainey، الذي يعد أحد الأعلام المعاصرين الرئيسيين في موضوع الجغرافيا التاريخية، والذي راجع الطبعة الثانية من كتاب أهاروني الشهير، فيصف أهمية هذا الموضوع على النحو التالي:

إن الأبحاث الغزيرة التي تجرى حاليا في أرض التوراة لها جذور في الاهتمامات التاريخية، والدينية للتراث اليهودي ـ المسيحي. فوفقا للتراث اليهودي (الهالاخي)(*3) لا يمكن لأحد أن يعبر عن إيمانه بشكل تام وعن التزامه بالوصايا العشر إلا إذا عاش في «أرض إسرائيل». فالاهتمام المسيحي بجغرافيا «الأرض المقدسة» له دوافع تتعلق بالرغبة في رؤية، وفي بعض الأحيان، في إعادة تمثُّل، تجارب الكتب المقدسة في المكان الذي حصلت فيه. والتراث التوراتي نفسه يستند على قدر لا بأس به من المعلومات الجغرافية. إن بنية إسرائيل كأمة مرتبطة بشكل قوي باحتلالها موقع «أرض كنعان». فالتجربة التاريخية والدينية لإسرائيل قد حصلت في سياق جغرافي محدد.

(ريني Rainey 353: 1988)

أما الدلالات السياسية لاختيار المصطلحات فتتجلى بشكل واضح في العبارة القائلة إن «احتلال الأرض وتسميتها، في الماضي وفي الحاضر، أصبحا محددين في هذا الفهم لطبيعة إسرائيل وملكيتها للأرض». يُنظر إلى إسرائيل هنا من منظور الدولة القومية، المرتبطة ارتباطا عضويا بالأرض القومية بقوة «الاحتلال». يقدم التبرير العقلاني لمسألة التاريخ الجغرافي على أنها المصالح التاريخية والدينية للتراث اليهودي ـ المسيحي. لا تُذكر المصالح الفلسطينية مطلقا: فهذه أُسكتت لمصلحة الاهتمام بتجربة إسرائيل التاريخية والدينية «في سياق جغرافي محدد».

يمكن التدليل على هذه الأفكار من خلال عمل أهاروني الشهير الآخر (1982)، وعنوانه «الآثار في أرض إسرائيل» The Archaeology of the Land of Israel. ونستطيع أن نرى كيف أُسكت التاريخ الفلسطيني أثناء البحث عن «تاريخ إسرائيل القديمة»، من خلال مقدمة ريني ـ كمترجم للكتاب ـ لطبعته الثانية، حيث يقول:

> في هذا الكتاب بأكمله، استعملنا تعبير «إرتس إسرائيل» أو «أرض إسرائيل». ونحن نعني بهذا التعبير المنطقة الكاملة التي قطنها الشعب الإسرائيلي، والمتطابقة إلى حد بعيد مع المنطقة التي حكمها الملك داود والملك سليمان. فقد برهن أهاروني على شرعية هذه المنطقة كمنطقة جغرافية خلال معظم الفترة التوراتية. وعلى الرغم من هذه المفارقة التاريخية بالنسبة لفترات ما قبل التاريخ والفترة الكنعانية، فإن القارئ لن يجدها أقل قبولا من تعبير «فلسطين». وربما يكون تعبير «إرتس إسرائيل» هو التعبير الوحيد بين التعبيرات غير السياسية المستعملة اليوم، إلا إذا استثنينا تعبير «كنعان»، الذي يعبر بدقة عن الأرض المتعارف عليها بالنسبة للفترة الإسرائيلية.

(ريني Rainey المقدمة xiii: 1982)

إن اللجوء إلى حدود مملكتي داود وسليمان «من دان إلى بير السبع»، كتعريف للحدود الجغرافية لأرض إسرائيل، هذا الادعاء الذي سندقق فيه في الفصول القادمة، يدل على أن المفهوم التوراتي للماضي هو الشيء المهيمن على التفكير. ومزاعم ريني التي يصرح بها بشكل يبدو معقولا وواقعيا، والتي تفيد بأن تعبير «إرتس إسرائيل» ليس فقط تعبيرا غير سياسي، وإنما التعبير غير السياسي الوحيد للدلالة على المنطقة، هو شيء مذهل. فتعبيري «فلسطين» و«إرتس إسرائيل» لا يمكن اعتبارهما تعبيرين

مترادفين، بل على العكس من ذلك، هما في حالة صراع، خاصة إذا ما أخذنا بالاعتبار الصراع الحالي على فلسطين. يبدو المضمون السياسي لتعبير «إرتس إسرائيل»، وخلافا لما يقول به ريني، واضحا من حيث إنه هو التعبير ذاته الذي افتتحت به دولة إسرائيل إعلان استقلالها في مايو 1948 واستعملته من أول هذا الإعلان إلى آخره Laqueur & Rubin (128 ـ 125 : 1984). وتصبح النتائج المترتبة على استعمال المصطلحات لتعريف المكان أكثر وضوحا عندما نعرف أن كتاب أهاروني صمم خصيصا ليحل محل كتاب أولبرايت الشهير الصادر قبل ثلاثين سنة (من كتاب أهاروني)، وعنوانه «البحث الأثري في فلسطين» The Achaeology of Palestine. وتماما كما تم استبدال فترات ما قبل التاريخ والفترة الكنعانية بالفترة الإسرائيلية، كذلك فقد حلت إسرائيل الحديثة محل فلسطين.

يعتبر ريني أن تعبير «إرتس إسرائيل» ينطوي على مفارقة عندما يطبقه على ما يسميه فترة «ما قبل التاريخ» و«الفترة الكنعانية»، إذ إن «الفترة البابلية» و«الفترة الإسرائيلية» هما محل اهتمامه الأول[8]. وهذا يكشف عن أمور مهمة لا سيما أن عنوان كتابه هو «آثار أرض إسرائيل»، وبالمقارنة مع مدى ما يعالجه هذا الكتاب من فترات تغطي العصر الكالكوليثي[4*] Chalcolithic والفترة الفارسية. وهكذا، فإن فترات زمنية ضخمة قبل ظهور ما يمكن تسميته إسرائيل أو ظهور دولة إسرائيلية، قد صنفت تحت بند «أرض إسرائيل». يصف أهاروني (9: 1982) العصر البرونزي المتوسط والمتأخر والفترة الكنعانية المتوسطة الثانية والمتأخرة (2000 ق. م ـ 1200 ق. م)، على أنها أول فترة تاريخية توجد عنها وثائق محفوظة، ولكنه يضيف: «إن تلك هي أيضا الفترة التي تغلغلت فيها القبائل العبرية في المناطق المختلفة من البلاد حتى تبلور شعب إسرائيل، الشعب الأول والوحيد الذي جعل من هذه الأرض وطنا له». وفي حين أن نظرياته حول نشوء إسرائيل في العصر البرونزي المتأخر قد أصبحت متقادمة الآن، مقارنة بالأبحاث الأحدث عهدا ـ كما سوف نرى بعد قليل ـ فإن ما يثير الانتباه هو أنه لا يقدم أي تفسير لنظرياته القائلة إن «شعب إسرائيل» هو «الشعب الأول والوحيد الذي اتخذ من هذه الأرض وطنا له». ولا يقدم للقارئ أيضا أي تفسير للسؤال: لماذا تكون إسرائيل وحدها هي التي بإمكانها أن تزعم أن

هذه الأرض هي وطنها «الطبيعي». إن اللغة التي يختارها ريني لها مغزى كبير، وهي تعكس تماما ما جاء في وعد بلفور الذي أعلنته الحكومة البريطانية في 2 نوفمبر 1917، والذي تعهدت فيه «بالنظر بعين العطف في إنشاء وطن طبيعي (Natural) في فلسطين للشعب اليهودي»[5*]. وعلى ذلك فمهما حاول الخطاب التوراتي أن يتصف بالموضوعية، تسهل رؤية كيف أنه متورط بالصراع السياسي المعاصر[9]. فادعاءات الدولة الحديثة ومطالبتها بالمنطقة كوطن «طبيعي» لها تعكس نظرتها التي حلت فيها إسرائيل في الماضي محل فلسطين، وحل التاريخ الإسرائيلي فيها محل التاريخ الكنعاني. ومرة أخرى، نجد أنه لا يوجد شعب فلسطيني قديم، بل يوجد فقط سكان ما قبل التاريخ، أو كنعانيون، لذلك، فإنه لا يمكن أن يكون هناك شيء يدعى تاريخ فلسطين.

إن جوهر الادعاءات بملكية الأرض، ومن ثم الحق في تسميتها، قائم على مفهوم القومية والدولة. وفي هذه المنطقة على وجه الخصوص يتطابق الصراع المعاصر حول فلسطين مع تصوير الدراسات التوراتية للماضي. فاختيار اللغة، وتسمية الأرض هي جزء من تلاعب القوة الذي من خلاله تؤكَّد العلاقة مع الأرض أو يتم إنكارها. وهذه التشعبات السياسية والطبيعية تسبب معضلة في تسمية المكان تجلت في النقاش الذي دار حول المصطلحات في مؤتمر علم الآثار في القدس عام 1984. فقد رفض موشي دوثان Moshe Dothan (136 : 1985) وزوجته ترود دوثان Trude Dothan (وهما مسؤولان بشكل كبير عن العديد من الاكتشافات الأثرية حول تاريخ فلسطين القديم وثقافته) استعمال تعبير «الأرض المقدسة» باعتباره تعبيرا ضيقا للغاية فيما يتعلق بتطبيقه على الجوانب التوراتية لدراسة الماضي والمناطق المقدسة. كذلك رفض دوثان استعمال اسم «فلسطين» على اعتبار أنه كان الاسم الرسمي للبلد «لمدة لم تتجاوز الثلاثين عاما أثناء الانتداب البريطاني في فلسطين» (137 : 1985)، مضيفا أن استعمال هذا الاسم في القرن الخامس قبل الميلاد كان مقصورا على الساحل الجنوبي فقط: أي أن دوثان يشير إلى هذه التسمية بوصفها المبسط أو العام الذي جاء به المؤرخ اليوناني هرودوت. فقد حلت كلمة يهود ويهودا محل فلسطين ولكن أعيد استخدامها في الفترة الرومانية واستعملت بعد الفتح العربي. وبعد القرن الحادي

عشر الميلادي، فإن اسم فلسطين، بالنسبة لدوثان، قد نُسي تماما، مما دعاه إلى القول:

وهكذا، لمدة سبعمائة عام، لم يكن اسم فلسطين Palaestina يستعمل بالكاد. وفي القرن التاسع عشر فقط، بعد يقظة المصالح الأوروبية الدينية والتاريخية والسياسية في المنطقة، ظهر اسم فلسطين من جديد. بإمكاننا استنتاج أن هذا الاستعمال الزمني المتأخر والمتناقض للفظ «فلسطين»، يبدو أنه لم يتم قبوله من أي فئة قومية محلية. ولذلك فإن اللفظ لا يكاد يكون له معنى بالنسبة للتاريخ الأثري لهذا البلد.

(دوثان Dothan **137: 1985)**

تجدر ملاحظة أن إنكار الاستمرارية بهذا الشكل بالنسبة لاستعمال لفظ فلسطين فيما يتعلق بتاريخها القديم(*6)، ينفي أي مطالبة بتاريخ فلسطين. غير أن هذا الإنكار هو إنكار لاسم ورد في المصادر الآشورية والهلّنستية، وكان هو الاسم المستعمل للدلالة على المنطقة في الفترة الرومانية، واستعمل فيما بعد بشكل واسع في المصادر العربية من القرن العاشر حتى الآن (ديفيز Davies 23: 1992 وسعيد Said 10: 1992). وهكذا، وكما ذكرنا سابقا، فإن العامل المسيطر هو الدولة القومية لكونها «الكيان المحلي القومي» الذي يعرِّف المكان. وبما أن دولة إسرائيل الحديثة هي ذلك «الكيان المحلي القومي» فإن «إسرائيل» هو الاسم الملائم لهذه المنطقة. أما دوثان فيضيف قائلا:

لقد كان الإسرائيليون كقوم هم الفئة الإثنية الوحيدة التي تمكنت من إنشاء دولة في هذه الأرض، دولة مستقلة لم تتبع أيا من الإمبراطورات الكبيرة ولم تنضم إلى أي كتلة فضفاضة من دول المدينة (city - States) كتلك التي كانت منتشرة أثناء الفترة الكنعانية.

(دوثان Dothan **139: 1985)**

في تحليل كهذا، يصبح لفظ «أمة» مترادفا مع «الأرض» حيث إن الأرض تمتلكها الأمة وتتوحد معها. يجب التأكيد، مرة أخرى هنا، أن «إسرائيل» الدولة القومية، هي التي حلت محل الثقافة الكنعانية التي وُصفت بأنها مجرد تجمع فضفاض لدولة المدينة (City - State). فتمثل إسرائيل أقصى ما يمكن أن يصل إليه التطور السياسي المتمثل في الدولة القومية الأوروبية، وذروة الحضارة التي تفوق، وتحل محل، الحضارات البدائية غير القابلة للتطور. هكذا حلت إسرائيل محل فلسطين، وأسكت التاريخ الإسرائيلي

تاريخ فلسطين. ويزعم دوثان أن التعبيرات الوحيدة التي «تنطبق بشكل صحيح» على هذه الأرض هي «آثار إسرائيل» أو «آثار أرض إسرائيل». ويرفض التعبير الأول على أساس أنه يستثني مناطق خارج حدود دولة إسرائيل الحديثة، وهكذا يتوصل إلى أن تعبير «آثار أرض إسرائيل» هو التعبير الأكثر ملاءمة. إن وجود الدولة الحديثة وادعاءاتها التي تزعم بوجود صلة مع تاريخ طويل استمر بشكل متواصل منذ العصر الحديدي، هو العامل الأساسي في اختيار المصطلحات. والادعاء بالاستمرارية يعني بالضرورة أن أي مطالبة أخرى بمجرد الوجود، أو أي تفسير مغاير للماضي، يتم إسكاته بقوة. وهكذا نجد أنفسنا في مواجهة تاريخ إسرائيلي فقط، في الماضي وفي الحاضر. أما فلسطين فغير موجودة، ولذلك لا يمكن أن يكون هناك تاريخ فلسطيني[15].

لقد جردت الدراسات التوراتية لفظ «فلسطين» من أي معنى كامن فيه، ولم يعد من الممكن فهمه إلا إذا أعيد تعريفه من خلال لفظ ديني أو لاهوتي آخر، كاللفظ المستعمل للدلالة على «الأرض المقدسة» أو «أرض إسرائيل». ولكن ما يلفت النظر أكثر من ذلك هو أنه في حين أن لفظ «فلسطين» قد يكون مستعملا بشكل واسع، على الرغم من تجريده من أي معنى لذاته، فإن لفظ «فلسطينيون» باعتبارهم سكان هذه الأرض هو استعمال نادر للغاية في الدراسات التوراتية. فإن كانت هناك أرض تدعى فلسطين، لماذا لا يمكن تسمية مواطنيها بالفلسطينيين؟[11]. وبالنسبة لما يطلق عليه فترات ما قبل التاريخ، فإن السكان لا اسم لهم، اللهم إلا فيما يتعلق بالفترات الأركيولوجية: ثقافة العصر الحجري الجديد (Neolithic) والعصر الكالكوليثي (Chalcolithic) أو ربما العصر الغسولي (Ghassulian). لا وجود لأي آثار مكتوبة لتحديد هوية السكان. ولكنهم ليسوا «بفلسطينيين» أو حتى «فلسطيني العصر الحجري الجديد «أو فلسطيني العصر الغسولي، أو فلسطينيين من «العصر الحجري الجديد أو العصر الكالكوليثي». وفي العصر البرونزي، يصبح الفلسطينيون سكان الأرض هم «كنعانيون». ويعترف علماء الآثار بإنجازات هؤلاء الكنعانيين، وخاصة بالنسبة للعصر البرونزي المتوسط والمتأخر. غير أنهم لا يضفون عليهم أي وعي قومي، ودياناتهم تُمثَّل على أنها مجرد عبادة خصوبة هابطة، تفتقر إلى الدافع الأخلاقي

المهيمن لدين يهوَه، وعلى هذا فهي ديانة لا أخلاقية. وهذا العرض يظهر تباينا واضحا مع فكرة الوعي القومي والإيمان الأخلاقي بإله واحد للحضارة الغربية. فقد تم استبدالهم «بالإسرائيليين» الذين يُنظر إليهم على أنهم «قوم» أو قوم ناشئ، وهم بالنسبة لأهاروني، يطالبون «بوطنهم الطبيعي» فقط. وهنا مفارقة لأن الثقافة «الكنعانية» كانت أرقى كما يعترف العديد من علماء الآثار، ولكن دياناتهم تصوَّر على أنها أدنى بكثير من الديانة المتفوقة عليها والتي هي أساس الدين اليهودي ـ المسيحي، وبالتالي أساس الحضارة الغربية. وبالطريقة نفسها، فإن إسرائيل ـ كدولة قومية ـ تصوَّر على أنها ذروة التطور السياسي على النقيض من تجمعات دول المدينة التي كانت سائدة في المنطقة في ذلك الوقت.

قد توجد فلسطين بالاسم فقط، ولكن لا حقيقة لها فيما يتعلق بتاريخها أو باعتبار أن سكانها فلسطينيون. هؤلاء السكان المعترف بهم كسكان العصر الحديدي موجودون بشكل مؤقت، وفي معظم الوقت هم بلا اسم، ينتظرون قدوم إسرائيل لتطالب بتراثها القومي. وحيث إنه يصعب إنكار وجود سكان قبل ظهور إسرائيل، فإن المعالجة التقليدية لهذه المعضلة كانت تشويه سمعة هؤلاء السكان أو إنكار حقهم في الوجود. ولهذا كان بإمكان أسقف سالزوبوري أن يخاطب أعضاء من «صندوق استكشاف فلسطين» عام 1903 قائلا:

> لا أعتقد أن أيا من المكتشفات الجديدة تجعلنا نندم على كتم الحضارة الكنعانية لمصلحة الحضارة الإسرائيلية... فالتوراة لم تحرف قط هذا القدر من البغض للحضارة الكنعانية والتي حلت الحضارة الإسرائيلية محلها.
>
> (وردت في سعيد Said **29: 1992**)(12)

تشبه الأوضاع في العصور القديمة كما صورتها الدراسات التوراتية إلى حد بعيد الأوضاع الحالية، التي أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل الحديثة. إذ يبدو أن هذا العلم قد عكس المفاهيم الصهيونية الخاصة بفلسطين والتي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر والذي رفع شعار: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». ما تصوره الدراسات التوراتية منذ بدايتها حتى اليوم هو تصوير «فلسطين» من دون سكان، أو على أكثر تقدير، كسكان مؤقتين، سريعي الزوال، ينتظرون قدوم ذلك الشعب الذي لا يملك الأرض.

وقد ركزت الدراسات التوراتية على هذه الآراء، وكذلك المكتشفات الأثرية التي فسرت التاريخ بناء على فهم مسبق للتوراة. فجذور الدولة الحديثة سيطرت على الدراسات العلمية لدرجة أن هذا الإسقاط على الماضي للدولة القومية في العصور القديمة، قد أدى إلى استمرارية حتمية ساعدت على تبرير وإضفاء شرعية على كلتا الدولتين القوميتين قديما وحديثا. ونتيجة ذلك كانت إنكار أي استمرارية أو شرعية للتاريخ الفلسطيني. فإذا لم يكن هناك فلسطينيون في العصور القديمة فلا يمكن أن يكون هناك تاريخ فلسطيني. أما فكرة الاستمرارية فيؤكدها الافتراض القائل إن الحضارة الغربية، وهي ذروة الإنجاز الحضاري الإنساني، لها جذورها في التراث اليهودي ـ المسيحي. فقد أسقطت أوروبا على الماضي فكرة الدولة القومية في العصور القديمة، وذلك لكي تتمكن من اكتشاف جذورها هي، بينما ساعدت في الوقت نفسه على ولادة الحركة الصهيونية التي أسست لها دولة «متمدنة» في الشرق الغريب، وبهذا تكون قد ساعدت على إبراز فكرة الاستمرارية الحضارية والثقافية. وما يدعو للسخرية في ذلك كله هو أن فلسطين في الماضي، كانت موجودة، ولكن الفلسطينيين أنفسهم لا وجود لهم، أما في الحاضر فإن الفلسطينيين موجودون، ولكن فلسطين غير موجودة[13]. ويؤكد هذا التلاعب السياسي بالدراسات العلمية قول مناحم بيغن سنة 1969: «إذا كانت هذه هي فلسطين وليس أرض إسرائيل، فإنكم محتلون ولستم فالحين للأرض، وفي هذه الحالة أنتم غزاة. إذا كانت هذه هي فلسطين، فإنها مُلك لشعب كان هنا قبل مجيئكم» (إدوارد سعيد 241: 1988). في دراسة الماضي، وفي حقيقة الحاضر، أصبحت فلسطين هي «أرض إسرائيل»، وأصبح تاريخ إسرائيل هو التاريخ الشرعي الوحيد الذي يستحق الدراسة. وكل ما عداه يصنف تحت فئة دراسة خلفية إسرائيل الحاضرة والتي تمد الحضارة الغربية بجذورها التاريخية.

إنكار الزمان على التاريخ الفلسطيني

إن مفهوم الزمان، مثله مثل المكان، هو مفهوم سياسي وهو «أداة القوة التي تستخدمها الأيديولوجيا»، (فابيان Fabian 144: 1983). وقد تم استغلاله من قبل الدراسات التوراتية لإنكار أي حقيقة زمنية للتاريخ الفلسطيني.

يشير فابيان إلى القبول الشائع للتصوير الإمبريالي للمكان على أنه في معظم الوقت «أرض خالية» ينبغي احتلالها لخير الإنسانية. ولكن كما يقول، فإن هذا التركيز على التصوير الإمبريالي والسياسي للمكان قد فشل في الاعتراف بأن القوى المهيمنة تتحكم في الزمان تماما، كما أنها توزعه في مقادير قياسية. كان اكتشاف «الزمن الغابر» Deep Time في صميم دراسة التاريخ في الغرب وفهمه لتطور الثقافة والتاريخ. وهذا التركيز على التقدم الجموح لاتجاه الزمان قد أدى إلى إدراك للتاريخ الإسرائيلي على أنه منبع الحضارة الغربية، الذي يحل محل كل مظاهر التاريخ الحقيقي لفلسطين وكأنه جزء من عملية التطور التاريخي الحتمي. ومما يؤكد ذلك أيضا القول المأثور لسيزار Cesaire إن أوروبا هي موضوع التاريخ برمته.

أما غاربيني Garbini (1988) فقد أنتج أحد أكثر الأعمال النقدية جذرية حول المفاهيم التاريخية للدراسات التوراتية خلال السنوات الأخيرة. غير أن لهجته تكشف بدورها عن تعصب أوروبي ورد في مقدمة دراسته حول فشل الدراسات التوراتية التقليدية، إذ كتب يقول إن:

> الشرق الأدنى القديم، بحضاراته وتاريخه، تم إنقاذه من النسيان منذ ما يزيد قليلا على المائة عام من العلم الأوروبي. وبهذا ظهرت الجذور الموغلة في القدم للحضارة الغربية: فقبل باريس وروما وأثينا والقدس، كانت هناك بابل وأوروك.

(غاربيني Garbini ١: 1988)

إذن، بناء على هذا الرأي، لا يوجد تاريخ من دون أوروبا كما أن التاريخ الذي تم إنقاذه من نسيان الزمان يكتسب أهمية من أنه يمد الحضارة الغربية بجذورها التاريخية. وعلى هذا، يستطيع غاربيني أن يتحدث عن «ذلك التاريخ الطويل الخاص بنا»، أو أن يدعي أن «القوة المبدعة لهذه الحضارة قد انتقلت من آسيا إلى أوروبا». هكذا تصبح إسرائيل القديمة مركز انتقال هذه الحضارة وكأنها «حلقة الوصل بين آسيا وأوروبا». إن الأهمية الخاصة لإسرائيل تنسب إلى توسطها بين الثقافتين المصرية القديمة والبابلية، بحيث إن «إسرائيل عادت إلى القدس وقد أثريت وتحولت بشكل كبير. وعند وصول الثقافة اليونانية هناك، كان الفكر العبري يمر في مرحلة إعادة تقييم، وكانت النتيجة النهائية هي انتقال هذه الثقافة إلى أوروبا بواسطة رجال أفذاذ. كان هذا هو الدور التاريخي لإسرائيل» (١:

1988). فالمنهج التطوري (evolutionary) الذي يربط بابل ومصر القديمة واليونان عبر إسرائيل، ليبلغ ذروته في انتصار الحضارة الغربية، مغروس بعمق في الوجدان، حتى أنه يتخلل نقدا بهذه الجذرية للدراسات التاريخية الحديثة حول إسرائيل القديمة في الدراسات التوراتية. أما ادعاءات غاربيني Garbini فهي أحسن مثال لإثبات نظرية أسد Asad (18: 1993) القائلة إن تاريخ الغرب هو استمرار عضوي من الشرق الأدنى القديم مرورا باليونان وروما حتى عصر النهضة والإصلاح، ليصل إلى ذروة الحضارة العالمية لأوروبا الحديثة. من هذا المنطلق، لا يوجد اعتراف بأن تاريخ المنطقة، سواء أكان هذا التاريخ إسرائيليا أم فلسطينيا، يمكن أن تكون له أي أهمية أو قيمة لذاته. فأوروبا هي موضوع التاريخ، ومفهوم أوروبا للزمان هو الذي يحدد مجرى هذا التاريخ. هذا التشابك بين علمي التاريخ والأنثروبولوجيا فيما يتعلق بالمشروع الاستعماري، كان السبب الأساسي في تصوير انتصار الغرب على هذا النحو ومن ثم إسكات أي ادعاء بديل لتاريخ الحضارات الأصلية. أما دراسة فابيان Fabian الحصيفة التي أوضح فيها كيف حددت الدراسات الأنثروبولوجية الزمان كجزء من التصوير الأوربي للآخر، فقد كشفت النقاب عن دور هذا الفرع من المعرفة في توفير التبريرات الفكرية للاستعمار:

لقد أعطت السياسة والاقتصاد - وهما العلمان المهتمان بالزمان الإنساني - قناعة قوية بفكرة الزمان «الطبيعي»، أي الزمان التطوري (evolutionary time). وروجت لفكرة الإسكات ليس فقط للحضارات الأخرى ولكن لجميع المجتمعات الحية، حيث وضعتها في منحنى زمني لا رجعة فيه، هو مجرى الزمان - فبعض الحضارات يسير مع المجرى الصاعد، والبعض الآخر يسير في المجرى الهابط. فالحضارة والتطور، والتقدم، والتنشئة الاجتماعية والتحديث (وأبناء عمومتهم التصنيع والمدنية) كلها تعبيرات تستمد مضمونها الفكري، بشكل ملموس، من فكر الزمان التطوري. لكل هذه التعبيرات بعد معرفي بصرف النظر عن أي نية أخلاقية أو غير أخلاقية يمكن أن تعبر عنها. فالخطاب الذي يستعمل تعبيرات مثل بدائي، همجي، (أيضا قبلي، تقليدي، عالم ثالثي، أو أي من التعبيرات الملطفة الدارجة) لا يفكر ولا يلاحظ ولا يدرس دراسة نقدية هذا «البدائي»، ولكنه يفكر، ويلاحظ، ويدرس من خلال هذا البدائي. فكلمة بدائي التي تستعمل بالمفهوم الزماني، هي مقولة من مقولات الفكر الغربي وليست موضوعا من موضوعاته.

(فابيان Fabian 17: 1983)

لقد تم بفعالية إنكار تاريخ فلسطين القديم وزمانها الخاص. بل إنه أصبح موضوعا لطغيان الزمان التوراتي من جراء تقسيم التوراة العبرية إلى فترات جامدة. وهذا التقسيم كان العامل الأساسي الذي حدد مجرى خطاب الدراسات التوراتية. فتم تقسيم تاريخ المنطقة بشكل متقن في «خانات» فكانت هناك مرحلة «الآباء»، ثم الخروج والغزو والاستيطان، ثم تبعتها مرحلة مملكتي داود وسليمان الموحدتين، وممالك إسرائيل ويهودا المنقسمة، ثم المنفى وبعد ذلك الإصلاح[14]. وعلى هذا الأساس، يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية في التراث التوراتي: إنه البحث التقليدي عن الشخصيات الكبرى والتاريخ الفريد. إن طغيان الزمان التوراتي هذا، يُسكت بفعالية التاريخ الفلسطيني وهذا ما دعمته وأكدته الدراسات الغربية.

لم يتغير هذا الوضع من جراء النقاش الحامي خلال السنوات الأخيرة والدائر حول نقطة البداية للتاريخ الإسرائيلي، ذلك النقاش الذي شهد ضياع فترة الآباء وفترة الخروج والغزو في ضوء الدراسات الأدبية والمكتشفات الأثرية. وبدلا من إعادة الاعتبار للزمان الفلسطيني ابتداء من القرن التاسع عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان ما حصل هو مجرد إبراز أن التاريخ الفلسطيني قد أُنكر عنه زمانه. يمكن لـ سوغن Soggin (332: 1977) أن يجد نقطة بدايته مع فترة صعود الملكية، كما يمكن لميلر وهيز Miller & Hayes (1986) أن يقدما «أفضل تخمين» لديهما مع فترة الملك داود، ولكن الزمان الذي يسبق هذه الفترات الأولى في سردهما لتاريخ إسرائيل لا يصبح زمانا فلسطينيا. على العكس من ذلك، يبقى الزمان في مضمار التاريخ الإسرائيلي ومن ثم الحضارة الغربية، ويُنظر إليه على أنه مجرد «ما قبل التاريخ» Prehistory و«التاريخ الأول» Protohisory لإسرائيل القديمة (مالامات Malamat 1983، سوغن Soggin 1984). أما بالنسبة لنوث Noth فنقطة البداية لتاريخ إسرائيل تبدأ عندما تحتل قبائل إسرائيل «الموحدة تماما» أرض فلسطين: من هنا فقط يبدأ «تاريخ إسرائيل الحقيقي» (5: 1960). وعلى هذا، فهو يدعي عدم وجود أي معلومات حول التطور التاريخي (لاحظ هذه العبارة) لإسرائيل، أو إسرائيل «الموغلة في القدم»، ولكن هناك فقط تراثا يروي «عن هذه الأحداث في أوقات ما قبل التاريخ»

(5: 1960). وإسرائيل القديمة، التي لا تصبح حقيقة بالنسبة إلى نوث إلا عندما ينتظم عقد القبائل الاثنتي عشر في فلسطين، بمقدورها الرجوع إلى الوراء عبر القرون لتطالب بالزمان، منكرة بالتالي على التاريخ الفلسطيني زمانه الخاص به. أما موقف نوث فيما يتعلق بالوثائق والمكتشفات الأثرية فيعكس بدوره موقف الدراسات التوراتية: بإمكانه القول إن وثائق تل العمارنة «تُظهر بوضوح بدايات تاريخ إسرائيل في فلسطين وأنها أحد المصادر المباشرة حول هذا التاريخ» (19: 1960)، أو أن مكتشفات راس شمرا «تساعد في إلقاء الضوء على الأوضاع التي وجدت فيها قبائل إسرائيل فلسطين عند قدومها إليها» (20: 1960). ومن ثم لا يكون للتاريخ الفلسطيني معنى وأهمية إلا لكونه مسرح أحداث التاريخ الإسرائيلي والخلفية التي تطور فيها.

ولقد أدى الجدل الدائر حول تقسيم المراحل الأولى للتاريخ الإسرائيلي إلى نقل اهتمام أهل العلم إلى مرحلة الهيكل الثاني Second Temple. ولكن، نكرر أن الفهم التوراتي للزمان هو الذي يهيمن على أي مطالبة أخرى بالماضي ويُسكتها. فقد شاع وصف هذه الفترة على أنها «فترةما بين العهد القديم والعهد الجديد»، وهي بذلك تكشف عن استبداد الزمان التوراتي في فهم وتصوير تاريخ المنطقة. لقد افترضت الدراسات التوراتية خلال معظم القرن الحالي أن المشروع التطوري يتجه من «العهد القديم» مارا بفترة «ما بين العهد القديم والعهد الجديد»، ليصل إلى الذروة في العهد الجديد: ولكن هذا التقسيم لا يمت بصلة إلى أي حقيقة تاريخية وإنما إلى افتراضات دينية لاهوتية تدور حول الطبيعة التطورية للوحي. أما المفهوم الديني حول فترة «ما بين العهد القديم والعهد الجديد» فيعبر عنه بوضوح الرأي اللافت للنظر، والقائل إنه كان «مجرد هوة فارغة تُمكّن المرء من القفز من العهد القديم إلى العهد الجديد». (فلهاوزن Wellhausen 1 : 1885). أما إعادة التفسير المرغوبة للفترة من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الأول الميلادي - وهي مرحلة الهيكل الثاني من المنظور التوراتي - فقد ظهرت أن تلك فترة حاسمة في تكوين وبلورة تراث التوراة العبرية. غير أن هذا المنظور ظل محدودا ومنطويا على نفسه. وبالطريقة نفسها التي وجدت فيها الدراسات التوراتية أهمية كبرى في وثائق تل العمارنة وراس شمرا كخلفية لفهم نشوء إسرائيل في فلسطين، كذلك فإن لفائف البحر الميت

وأدوات أخرى خارجة عن التوراة قد وجدت أهميتها كخلفية لفهم هذا التاريخ. لقد قبل دارسو التوراة تلك الدعاوى التي روجتها منطقة يهودا الصغيرة والتي لا تزال تحتكر التاريخ، كما أوضح ذلك ديفيس Davies (58: 1992). فتقسيم تاريخ المنطقة إلى هذه الفترات طغى عليه الاهتمام اليهودي ـ المسيحي، حيث ظلت دراسة التاريخ الإسرائيلي، حتى الآن، حكرا على كليات اللاهوت وحلقات البحث وأقسام الدين في الجامعات. فتعريف الزمان وفكرة التطور التاريخي، وهي مفاهيم أساسية في النظرة الغائية المسيحية الأوروبية، تجسدت في الاعتقاد القائل إن إسرائيل القديمة تمثل مصدر «الوعي التاريخي» وأنها عامل الفعل الإلهي في التاريخ. فتطور التاريخ إذن يمكن تتبع بداياته إلى بداية تطور المجتمعات الأوروبية الغربية التي أصبحت تمثل قمة الحضارة. أما الثقافات الأصلية لفلسطين والشرق الأدنى فتظل في حالة ركود وثبات، كما أنها تمثل فشلا في مشروع التطور التاريخي الرائع[15]. ليس هناك تاريخ لفلسطين لأن إسرائيل، وليست فلسطين، هي مركز الاهتمام اللاهوتي. لقد اقترن المشروع التطوري للوحي بالبحث عن إسرائيل القديمة وتضافرا على إنكار أي حقيقة زمنية على التاريخ الفلسطيني.

كان التقسيم إلى عصور، الذي ظل سائدا في علم الآثار خلال معظم القرن الحالي، هو البديل لهذا الطغيان للزمان التوراتي الذي كرسته الدراسات التوراتية. وهذا تعبير آخر عن المشروع التطوري للزمان الطبيعي الذي يتحرك بطريقة حتمية، من العصر الحجري إلى العصر البرونزي ثم الحديدي وصولا إلى الوقت الحاضر. غير أن مؤرخي التوراة، وبخاصة المتأثرين بأولبرايت Albright حاولوا أن يجعلوا التقسيم الزمني المستوحى من التوراة العبرية مساويا لذلك الذي جاءت به تلك الأبحاث الأثرية، بحيث يصبح العصر البرونزي هو عصر الآباء، بينما العصر البرونزي المتأخر يعادل عصر الخروج والغزو أو الاستيطان، والعصر الحديدي يتزامن مع نشوء وتطور عصر الملكية، أما فترة النفي والهيكل الثاني فتتزامن، بالطبع، مع الفترة الفارسية الهلنستية والرومانية. تؤكد هذه المحاولة للمطالبة بماضي إسرائيل القديمة إنكار الزمان على التاريخ الفلسطيني، وتتجلى بوضوح من خلال التسميات البديلة الخاصة بالعصور الأركيولوجية التي

طورتها الدراسات الإسرائيلية.

تدل المعالجة التقليدية لموضوع الآثار الإسرائيلية كما قدمها أهاروني Aharoni (1982)، على الطريقة التي استخدم بها الزمان في الدراسات التوراتية. يبدأ أهاروني تعميماته الزمنية الجارفة بالعصر الحجري القديم Paleolithic، والعصر الحجري شبه القديم Epipaleolithic، والعصر الحجري الجديد Neolithic، والعصر الكالكوليثي Chalcolithic، ثم العصر البرونزي الأول مشيرا إليه بوصفه الفترة الكنعانية الأولى، والعصر البرونزي الوسيط وهو بالنسبة إليه العصر الكنعاني الوسيط، أما العصر البرونزي المتأخر فهو العصر الكنعاني المتأخر. ثم يمضي أهاروني في اتباع العُرف في البحوث العلمية الإسرائيلية فيجعل العصر الحديدي مساويا للفترة الإسرائيلية. تدل هذه الخطة بقوة على فهم تطوري للزمان يسير بشكل واضح، ويتم فيه الاستعاضة عن فترات «ما قبل التاريخ» والفترة الكنعانية بالفترة الإسرائيلية. يصف أهاروني العصر الكنعاني الأول بأنه فترة مهمة بالنسبة «لتاريخ أرض إسرائيل» إذ أُرسيت فيه أسس الثقافة الكنعانية (49: 1982)، على الرغم من كونها «فترة خرساء تناسبها تسمية التاريخ الأول». وعلى الرغم من أنه يمكن تسمية هذه الفترة بالفترة الكنعانية، فلا يزال ما يُعرف «بتاريخ أرض إسرائيل» يدّعي ملكيتها، مؤكدا بذلك العلاقة المتبادلة بين الزمان والمكان. ويتجلى فهم أهاروني التطوري للزمان في إطلاق أسماء مثل «ما قبل تاريخي» و«التاريخ الأول». أما التاريخي بالمعنى الكامل، كما يقول، فهو موجود في الأراضي المجاورة والتي تملك تراثا غنيا من الوثائق المكتوبة: ولكن «أرض إسرائيل، التي تتوسط هذه الحضارات، تبقى في الظل، بينما الأنوار الكاشفة للبحث التاريخي تستمر في إلقاء أضوائها على جيرانها» (49: 1982). ويمكن فهم الطريقة التي جرد بها أهاروني تاريخ المنطقة من أي معنى من خلال مناقشته للمصطلحات، حيث يقول (50: 1982): «وهكذا يبدو لنا أن اسم كنعاني أكثر ملاءمة. وهذا هو الاسم العام لسكان هذا البلد خلال فترة الغزو الإسرائيلي، عندما يبدأ البحث التاريخي بشكل أكثر جدية!». هكذا، نصل إلى نقطة بداية التاريخ فقط عند ظهور إسرائيل والتراث التوراتي. وبالنسبة إليه، فالفترة الكنعانية المتوسطة «تختتم الفترة التاريخية الأولى فيما يتعلق بتاريخ أرض إسرائيل»

(80: 1982). وعندما نعود إلى الفترة الكنعانية المتوسطة والفترة الكنعانية المتأخرة (2000 ـ 1200 ق. م) فهما يمثلان:

من وجهة نظر الثقافة والتاريخ، عصرا متصلا جديرا باسم «الفترة الكنعانية» بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. هذه كنعان في أوجها وفي ذروتها وسقوطها، كما عبر عنها التراث الإسرائيلي القديم. إنها بحق الفترة التاريخية الأولى في تاريخ إسرائيل التي توجد عنها وثائق مكتوبة محفوظة ـ وثائق تاريخية وإدارية وأدبية ـ تضفي الحياة على جسم المكتشفات الأثرية العجفاء».

(أهاروني Aharoni 9: 1982)

ثم يتبع ذلك مباشرة بالادعاء أن هذه هي الفترة نفسها التي دخلت فيها القبائل العبرية، التي كانت «أول من جعل من هذا البلد وطنا لها». أصبحت هذه الافتراضات التطورية للزمان واضحة الآن مع الصعود ثم الانحدار الحتمي للحضارة الكنعانية، لكي يتم الاستعاضة عنها بالإسرائيليين الذي يدّعون أن هذه الأرض هي وطنهم الطبيعي. ولا يقدم أهاروني تفسيرا للسبب الذي جعل الكنعانيين، الذين كانوا وفقا لتفسيره الزماني موجودين في ذلك المكان لمدة تقارب الألف عام، لا يتخذون من هذه الأرض وطنا طبيعيا لهم. وبالمقارنة، فإن الفترة الإسرائيلية تستمر لمدة مائة عام. والنتيجة هي إنكار الزمان ومن ثم الحقيقة على التاريخ الفلسطيني: فالماضي إما في دائرة نفوذ إسرائيل، أو أن إسرائيل تدعي ملكيته على أساس أنه «ما قبل تاريخها» أو «تاريخها الأول».

يعني الجدل القائم حول نقطة البداية لتاريخ إسرائيل أن أجزاء أساسية من تراث العهد القديم وسِفر التثنية، قد تم إرجاعها إلى فترة ما قبل التاريخ الإسرائيلي. ولكن كما رأينا، فإن هذا لم يكن معناه أن فترات «ما قبل التاريخ» هذه قد أعيدت إلى التاريخ الفلسطيني. لقد ظلت مزاعم إسرائيل ومطالبتها بالماضي قوية كما كانت دائما. غير أن التركيز على «ما قبل التاريخ» و«التاريخ الأول» له أيضا انعكاسات عميقة على فهمنا للتاريخ، وهو ما يُسهم بدوره في إسكات ونفي التاريخ الفلسطيني. فالتمييز الشائع بين التاريخ وما قبل التاريخ يجسد الافتراض الرائج والمنتشر في الدراسات التوراتية، والقائل إن كتابة التاريخ تعتمد على وجود المواد المكتوبة، أو بدقة أكبر، على حفظها العرضي. ولكن المد والجزر بالنسبة لعملية التاريخ لا يعتمدان على الآثار المكتوبة. فالآثار بطبيعة الحال، مصدر مهم للمؤرخ،

ولكن غيابها يجب ألا يعني نكران الماضي. وقد سلط كلارك Clarke الضوء على العلاقة المعقدة والمضللة بين التاريخ و«ما قبل التاريخ» فقال:

بينما يؤدي تعبير «ما قبل التاريخ» غرضا مهما في تسمية إحدى الفترات التي يتوافر عنها تاريخ مكتوب في مراحلها النهائية، إلا أنه شيء مؤسف في بعض نواحيه. فحركة التاريخ مستمرة ببطء. وهذا يعني فقط أن بعض فترات التاريخ يجب أن تُقرأ بشكل مختلف. أما «ما قبل التاريخ» فهو ليس فقط سابقا للتاريخ في المعنى الأعم للكلمة، بل إنه جزء منه بالفعل، الجزء الأكبر من التاريخ البشري. من الناحية الزمنية، وليس من الناحية الوجودية، يمكننا القول إن معظم التاريخ البشري هو «ما قبل تاريخي» بالمعنى الفني للكلمة، ومن ثم يجب إعادة بنائه في ظل غياب أي أثر مكتوب. إن خمسة آلاف سنة فقط من المليوني سنة التي تشكل التاريخ البشري مدونة بشكل مكتوب، ولكن أيضا بالنسبة لمنطقة محدودة جدا. وبالمقابل، فإن مساحات شاسعة تظل «ما قبل تاريخية»، أو تعود إلى فترة «التاريخ الأول»، حتى يتم اكتشاف الإنسان الغربي لها في القرون الحديثة. وبالفعل، نجد أن المناطق النائية مثل أستراليا وغينيا الجديدة أو البرازيل ظلت خارج نطاق التاريخ المدون حتى وقتنا الحاضر.

(**كلارك** Clarke **1973: المقدمة** xvii - xviii)

يوضح كلارك أن هذا الإصرار على أهمية التاريخ المكتوب لإعادة تكوين الماضي يشي بتعصب أوروبي في كتابة التاريخ. وقد أفادت الدراسات التوراتية المعتمدة على قوانين التأريخ الأوروبي من هذا الإصرار، مما أدى إلى التمسك بفكرة أن إسرائيل وتاريخها المكتوب يتحكمان في التاريخ.

فنزع التراث من حوزة المؤرخ التوراتي من قبل المشتغلين بالنقد الأدبي كان بإمكانه أن يؤدي إلى أزمة ثقة في مشروع كتابة تاريخ إسرائيل. ولكنه لم يؤد إلى ذلك وإلى إسماع صوت التاريخ الفلسطيني. فكما يقال لنا، لا تملك فلسطين إرثا من الآثار المكتوبة المحفوظة أو التي عثر عليها علماء الآثار. ولذلك لا يمكن أن يكون لها تاريخ. أما الآثار المعروفة مثل مكتشفات تل العمارنة والآثارة الأوغارية، فإن «ما قبل التاريخ» الإسرائيلي يدعي ملكيتها. ويُعتبر مالامات Malamat (1983 :303) مثالا لهؤلاء الكتاب الذين يحاولون التوفيق بين تراث عهد الآباء والغزو. فهو يفرق بين «ما قبل التاريخ» و«التاريخ الأول» لإسرائيل: فبالنسة إليه يفترض «ما قبل التاريخ» زمانا سابقا لوجود إسرائيل، بينما تعبير «التاريخ الأول»

يعني بالنسبة إليه، الفترة المحددة التي اتضحت فيها معالم إسرائيل الجنينية وظهرت أخيرا كوحدة إثنية عرقية وإقليمية في كنعان. وعلى هذا فإنه يُدرج الفترات المعروفة بفترة الآباء والخروج والاستيطان والغزو ضمن «التاريخ الأول». وهكذا، بالنسبة إليه، كما لأهاروني والعديد من المتخصصين في الدراسات التوراتية، فإن فترات تاريخية ضخمة لا تخص فلسطين أو التاريخ الفلسطيني، ولكنها تظل في مضمار إسرائيل وتاريخها (الأول).

فإذا قُدر للتاريخ الفلسطيني أن يبزغ كموضوع قائم بذاته، ينبغي أولا تحريره من طغيان الزمان التوراتي وكذلك من طغيان «ما قبل التاريخ» الذي يُنكر عليه جوهره ويُسكت صوته. ولقد فضح لوسيان فيفر Lucien Febcvre هذه المغالطة حول فكرة «ما قبل التاريخ» ببلاغة لافتة للنظر:

إن فكرة «ما قبل التاريخ» هي إحدى أكثر الأفكار المثيرة للسخرية التي يمكن أن نتصورها. فمن يدرس مثلا الفترة التي انتشر فيها نوع معين من فخار العصر الحجري انتشارا واسعا، يدرس التاريخ بالطريقة نفسها التي يفعلها من يرسم خريطة توزيع خطوط الهاتف في الشرق الأقصى في عام 1948، فهما يكرسان نفسيهما بالروح نفسها، وللغرض ذاته، لإظهار عبقرية العقل البشري المبدع، الذي يختلف على مر العصور وتختلف إنتاجاته، ولكنه لا يختلف في براعته.

(فيفر Febvre **35: 1973)**

أو كما يقول بروديل Braudel (20 ـ 19 : 1989):

«كأن التاريخ لم يمتد إلى أوقات موغلة في القدم! وكأن ما قبل التاريخ والتاريخ ليسا شيئا واحدا. يحتاج تاريخ فلسطين إلى أن يكتب من خلال الوثائق المكتوبة والآثار المادية، وأيضا يحتاج إلى أن نتتبعه في تلك الفترات التي لا يتوافر عنها أي تاريخ مكتوب».

(قارن فيفر Febvre **34: 1973)**[16]

تعتمد متابعة الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني على تحريره من القيود الزمنية التي فرضتها عليه الدراسات التوراتية. ويوفر مفهوم بروديل عن «الامتداد الزمني الطويل» (La longue duree) بعدا يتغلب على التقسيم الزمني الدقيق الذي فرضته الدراسات التوراتية. إنه بُعد زمني يساعد على توضيح أن إسرائيل ليست إلا مجرد كينونة في الزمان الفلسطيني الكاسح. فالتركيز على المدى الزمني القصير، من العصر الحجري إلى العصر الروماني أو

العصر الحاضر، يطمس حقيقة أن إسرائيل لم تكن إلا خيطا رفيعا في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني. و«منظور الامتداد الزمني الطويل» هذا هو الذي يُمكن المؤرخ من أن يقرر ما إذا كان نمط الاستيطان، في فترة العصر الحجري الأول مثلا في فلسطين، هو نمط فريد أو أنه يتفق مع أنماط مماثلة في أزمنة مختلفة. في هذه الحالة فقط يمكننا أن نسأل إن كانت هناك عوامل مشابهة تؤثر في تحول نمط الاستيطان أو أنه يجب تفسيرها حسب قوانين تختلف تماما عن أي فترة أخرى في تاريخ فلسطين القديم. من هذا المنظور، يصبح التاريخ الفلسطيني إلى حد كبير استمرارا لسلسلة كاملة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية في فلسطين، بدلا من أن يكون اهتماما رئيسيا أو وحيدا بكيفية الربط بين هذه التطورات وظهور إسرائيل وتطورها، أو قدرتها على تفسير هذا الظهور والتطور.

ومع ذلك فإن اللجوء إلى مفهوم بروديل للزمان (1980 , 1972) وما يتضمنه من مستويات مختلفة من الزمان الجغرافي والاجتماعي والفردي، يثير مرة أخرى مسألة المركزية الأوروبية. يركز بروديل (18 : 1984) تركيزا كبيرا على ما يسميه «الزمان العالمي» World Time الذي يؤثر في المناطق المختلفة بطرق غير متكافئة: يسري هذا المقياس الزمني الاستثنائي على مناطق معينة من العالم وكذلك على حقائق معينة تبعا للعصر والمكان. وهناك مناطق أخرى وحقائق أخرى تفلت من هذا الزمان وتظل دائما خارجه[17]. ويضيف بروديل: «يمكن القول إذن إن الزمان العالمي يركز قبل كل شيء على نوع من البناء الفوقي للتاريخ العالمي: إنه يمثل إذن تتويجا واكتمالا لعوامل غير مرئية تعمل تحت السطح، ويرتكز عليها على الرغم من أن ثقله يعود فيؤثر في القاعدة». وقد انتقد إدوارد سعيد (23 ـ 22: 1985) هذا المفهوم «للزمان العالمي»، موضحا أنه ينبع بدوره من المشروع الاستعماري الأوروبي حيث قال: «كل ما لم تلاحظه أوروبا أو توثقه يظل «مفقودا» حتى يتم إدخاله في وقت لاحق في العلوم الجديدة، كالأنثروبولوجيا والاقتصاد السياسي واللسانيات». لهذا من الضروري أن نعترف للتاريخ الفلسطيني بزمانه الخاص. ويذهب (سعيد 22: 1985) إلى أنه على الرغم من أن «المسلمات المنهجية للتاريخ العالمي والمؤلفات الفعلية التي ظهرت فيه» هي

«من الناحية الأيديولوجية معادية للاستعمار»، فإن هذا التاريخ لا يعطي الاهتمام الكافي للممارسات الثقافية من أمثال الاستشراق أو الأثنوجرافيا المرتبطة بالاستعمار الذي هو الأصل الحقيقي لفكرة التاريخ العالمي ذاتها. أما الخطر فيكمن في محاولة تحرير التاريخ الفلسطيني من استبداد الزمان التوراتي لكي يحل محله الزمان العالمي، الذي سيستمر بدوره في إنكار أهمية وتماسك فلسطين[18]. وأوضح مثال يؤكد أن هذا الخطر حقيقي هو ملاحظة بالي Baly التي تفيد أنه بسبب موقع فلسطين الاستراتيجي في مفترق طرق القارات الثلاث، وكونها محاطة بحواجز تعوق الاستقرار والتنقل، فإنه «يمكن القول إنه لم يكن لها تاريخ داخلي بالمعنى الصحيح» (1984 : 1) خلال الفترة الفارسية[19]. هنا نواجه مشكلة الزمان العالمي في صورة مكبرة تجرد التاريخ الفلسطيني من أي قيمة داخلية.

لهذا السبب لا ينبغي تصنيف تاريخ فلسطين تحت بند «التاريخ العالمي» أو «الزمان العالمي»، مثلما لا ينبغي أن نصنفه تحت بند التاريخ الإسرائيلي أو الزمان التوراتي. إذ إن للتاريخ الفلسطيني إيقاعه ونمطه الخاصين به، وهما جزءان أساسيان من تاريخه الخاص الذي يكون بدوره جزءا من التاريخ العالمي. يجب الاهتمام بالمجتمعات الصغيرة (micro environments) في فلسطين، وكذلك بالتنوع الكبير الذي يشكل تلك الحالة الفريدة التي تُدعى فلسطين. ففي الماضي عند دراسة تاريخ المنطقة كثيرا ما كان يتم التركيز على طبيعة «إسرائيل» وهويتها، ويتم استبعاد غيرها من الكيانات التاريخية المهمة إلا عندما يكون لهذه الكيانات اتصال بالتاريخ الإسرائيلي. لقد قدمت الدراسات التاريخية التوراتية المألوفة لدينا فهما للتاريخ يكاد يكون محصورا في نطاق عرقي (إثني) وديني محدود، وحتى لو كان فهمنا للإثنية في العصور الغابرة غير واضح تماما وتكتنفه المشاكل. تفترض هذه التصنيفات بشكل مسبق أن اهتمام التاريخ يجب أن ينصب على سلسلة من الأحداث والشخصيات الفريدة، وكأنها جزء من تاريخ يتقدم في اتجاه واحد إلى الإمام. أما الفهم الذي نقدمه ها هنا للتاريخ الفلسطيني فيركز على مجموعة واسعة من القضايا كالاستيطان والسياسة والاقتصاد والتجارة والأيديولوجيا والدين، وهذه أمور بحاجة إلى دراسة موسعة. ويؤدي التركيز على قضايا واسعة من هذا النوع إلى تحويل بؤرة البحث من الاهتمام

التاريخي التقليدي بالشخصيات الكبرى والأحداث الفريدة، إلى الاهتمام بالعوامل الكبرى المؤثرة فعلا والتي شكلت، كما شكلها، تاريخ المنطقة[20].
يجب أن يستمد تاريخ فلسطين شواهده من علوم متعددة، وبخاصة علم الآثار والأنثروبولوجيا بما فيها التوراة العبرية، مع ضرورة إدراك مدى التداخل بين هذه الفروع والمشروع الاستعماري الذي شكل بل شوه تاريخ المنطقة. فمصادر التاريخ المدون يجب أن تأخذ مكانها بين هذه الشواهد فيما يتعلق بقضايا معينة تحدت الدراسة. لا يستند هذا التاريخ إلى فكرة الحتمية البيئية، كما يدعي البعض، لمجرد أنه يبعد بؤرة التركيز من «أحداث وشخصيات معينة» خاصة بالتوراة العبرية.

من القضايا المهمة التي تثيرها هذه الطريقة في البحث العلاقة بين دراسة تاريخ المنطقة والدراسات التوراتية بشكل عام. ومن الواضح أن تعبير «التاريخ التوراتي» ليس مناسبا للفكرة التي ندعو إليها هنا. فالنص التوراتي لم يعد يشكل أساس هذا التاريخ ولا يحدد إطار البحث بالطريقة نفسها التي هيمن بها على طرق التفكير في الماضي. فقد تمكن علم الآثار السوري ـ الفلسطيني من الخروج من هيمنة علم الآثار «التوراتي» في أعمال ديفير W.G. Dever الرائدة. وحان الوقت للتاريخ الفلسطيني كي يبلغ سن الرشد، وينبذ بشكل رسمي البرنامج والقيود التي فرضها عليه «التاريخ التوراتي». على هؤلاء العلماء الذين يرغبون في فهم الوسط الاجتماعي والسياسي الذي نشأت فيه التوراة العبرية أن يفعلوا ذلك من خلال دراسة المجتمعات التي أدت إلى نشوء هذه التقاليد، وكذلك دراسة محيطها الإقليمي والمحيط المشترك بين الأقاليم. ولكن ينبغي أن نعترف أيضا بأن للمنطقة تاريخا شرعيا أوسع كثيرا من تلك المجتمعات والنصوص التي أنتجتها. يوافق طومسون Thompson (36 : 1987) على أن «تاريخ إسرائيل (وهو يختلف عن التاريخ التوراتي)، وتاريخ أصول إسرائيل، يقعان بشكل لا يدع مجالا للشك في سياق التغيرات الإقليمية والتاريخية والجغرافية في تاريخ فلسطين». يجب على التاريخ الفلسطيني أن يبلغ سن الرشد من خلال دراسته لكل أوجه تاريخ المنطقة، بغض النظر عما إذا كان يُلقي الضوء على تطور وفهم نص التوراة العبرية أم لا. إن تاريخ فلسطين يطالب بالزمان والمكان الخاصين به واللذين أُنكرا عليه لأكثر من مائةعام بسبب الدراسات

التوراتية.

ينبغي على المؤرخ، وليس عالم اللاهوت، أن يحدد برنامج البحث. في الماضي، كان علماء اللاهوت هم الذين يُملون الطرق التي ينبغي استعمالها في دراسة إسرائيل على أساس أن التوراة العبرية - التي هي ميدانهم الخاص - هي المصدر الوحيد. أما اليوم، فيجب على المؤرخ أن يطالب بحقه في وضع برنامج البحث، وكذلك في رسم استراتيجيات هذا البحث. ولكن علماء الدين والمفسرين لا يزالون يحاولون فهم بل ومصادرة استنتاجات هذا التاريخ فيما يتعلق بتفسير النص التوراتي[21]. يجب أن يُمنح التاريخ الفلسطيني مجاله الجغرافي والدنيوي الخاص به بعيدا عن خطاب الدراسات التوراتية. إن خطاب التاريخ الفلسطيني، (إذا شئنا أن نلخص جوهر رأي إدوارد سعيد في كتابه «مسألة فلسطين» The Question of Palstine (8: 1992) هو صراع بين التأكيد والإنكار، سيطرت فيه إسرائيل القديمة على الزمان والمكان الفلسطيني. بالإضافة إلى ذلك، حينما يتم استعادة العناصر الزمانية والمكانية لهذا التاريخ الإقليمي كجزء من الزمان العالمي، يجب أن نعترف به لقيمته الذاتية، وليس فقط لكونه مركز الحضارة الأوروبية. فاختراع وإنشاء أمريكا هو حالة شبيهة بتلك التي تمت فيها مصادرة فلسطين وجُردت من أي معنى وأُسكت تاريخها بقوة. يجد أوغورمان O´Gorman (137 : 1961) وجها للشبه بين كل ما قيل سابقا عن سيطرة أوروبا على التاريخ فيما يتعلق ومسألة اكتشاف أمريكا، حيث يقول: «أصبحت أوروبا هي النموذج التاريخي، وأصبح يُنظر إلى الطريقة الأوروبية في الحياة وكأنها المثل الأعلى الذي نقيس به القيم والمعاني لكل الحضارات الأخرى». فاختراع أوروبا لأمريكا له ما يوازيه في اختلاق اختصاصيي التوارة لإسرائيل القديمة. وما يقوله أوغورمان عن أمريكا يمكن أن ينطبق بسهولة على خطاب الدراسات التوراتية واختلاقها لإسرائيل القديمة:

> كانت أمريكا مجرد قوة كامنة، ولم يكن بالإمكان إدراكها إلا من خلال تحقيق قيم ومثل الثقافة الأوروبية. وفي الواقع فإن أمريكا لم تتمكن من اكتساب أهمية تاريخية إلا بأن تصبح أوروبا ثانية. هذا هو الوجود الروحي والتاريخي الذي شكل أمريكا.
>
> **(أوغورمان** O´ Gorman **139 : 1961)**.

وتماما كما «اخترعت أمريكا على صورة مخترعها» (أوغورمان 14 : 1961)،

كذلك فإن إسرائيل القديم قد تم اختلاقها على شكل الدولة القومية الأوروبية، أو كما قال شاكرابارتي Chakrabarty (2 :1992) «إن أوروبا هي المرجع الصامت في المعرفة التاريخية». إن الخطاب التوراتي المهيمن قد وضع قناعا على الوسائل التي جُرد بها تعبير فلسطين من أهميته الزمانية والمكانية. وأصبح تاريخ فلسطين أحد التواريخ الكثيرة المستثناة والمجردة من أهميتها في التاريخ العالمي والتي تم نفيها إلى ما قبل التاريخ. أوروبا، والصهيونية فيما بعد، قد أنقذت المغزى التاريخي للمنطقة في بحثها عن إسرائيل القديمة: هذا البحث الذي هو في الحقيقة بحث عن جذور الحضارة الأوروبية وهو الذي أدى إلى إسكات التاريخ الفلسطيني. علينا أن ننتقل الآن إلى البحث في هذا الاختلاق من أجل توضيح الطرق التي استخدمتها الدراسات التوراتية لتحقيق هذا الهدف باسم البحث العلمي الموضوعي.

حواشي

(*) رتنو اسم هيروغليفي أطلقه المصريون القدماء على منطقة سوريا (أي سوريا وفلسطين ولبنان)، وكانت رتنو العليا تعني سوريا ولبنان، ورتنو السفلى فلسطين. (المترجمة).

(*2) وليام ف. أولبرايت (1819 ـ 1971م) عالم آثار أمريكي، كان أستاذا للغات السامية في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins الأمريكية، وكان موقع تل بيت مرسيم Tell Beit Mirsim في جنوب فلسطين هو الذي قام فيه أولبرايت بأهم اكتشافاته كعالم آثار، في الثلاثينيات من هذا القرن. وقد طبق التسلسل الزمني الآركيولوجي الذي أسس له في هذا الموقع والذي اعتمد على تصنيفات تعود إلى العصر الحجري والبرونزي والحديدي، طبق هذا على كل مواقع فلسطين الأخرى، وروج لنظريته القائلة إن علم الآثار لا يتعارض مع روايات التوراة بل يتوافق معها. وقد قيل مرارا إن علماء الآثار التوراتيين جالوا فلسطين (الأرض المقدسة) والتوراة في يد والمجراف في اليد الأخرى. وهذا ينطبق على أولبرايت. (المترجمة).

(*3) هذه أسماء قبائل من القبائل الاثنتي عشر لإسرائيل، وكان لها نصيب من الأرض حدد في مواقع معينة حسب رواية التوراة. زبولون هو ابن يعقوب من ليئة، وكانت أرض هذه القبيلة تقع في أقصى الشمال، ولم تلعب دورا مهما في تاريخ إسرائيل. أما منسّى، فهو الابن الأكبر ليوسف، ونصيبه في الأرض موقع على ضفتي نهر الأردن. وإفرايم هو أحد أبناء يوسف والمنطقة التي عينت نصيبا له كانت في القسم الأوسط غربي فلسطين، وبنيامين هو ابن يعقوب من راحيل، وأطلق هذا الاسم على القبيلة التي استقرت في جنوب فلسطين، واشتهر أفرادها بشدة البأس وقوة البنية.

وكانت القبائل العبرية قد انتظمت في اثنتي عشر قبيلة في الفترة المسماة «فترة القضاة»، وتسمت هذه القبائل بأسماء أبناء يعقوب وهم: رؤوبين وشمعون ويهودا وياكر وزوبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير وإفرايم ومنسّى، ويضاف إليهم قبيلة لاوي.

انظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلد 4، دار الشروق، القاهرة 1999). (المترجمة).

(*4) هالاخاة: تشير هذه الكلمة إلى الصياغة المجددة للشريعة اليهودية في مقابل المِدراش والهاجاداة. والمصدر الأساسي للهالاخاة هو الشريعة المدونة والشفوية والعُرف الساري بين اليهود. (انظر: «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية» د. عبد الوهاب المسيري ـ المترجمة).

(*5) Chalcolithic عصر ما قبل تاريخي استعمل فيه الحجر والنحاس، وهو بحدود سنة 4000 ق. م. وفي فلسطين يعرف هذا العصر بالعصر الغسولي. (المترجمة).

(*6) التعبير الذي استعمل في وعد بلفور هو «الوطن القومي» (National Home) وليس «Natural Home» انظر هامش ص 22 من الفصل الأول. (المترجمة).

(*7) الهلّنستي Hellenist هو كل شخص من أصل غير إغريقي عاش في العصر الهلّيني وتبنى لغة الإغريق وأسلوبهم في الحياة. أما هلّيني Hellinic فهو الإغريقي أو اليوناني. (المترجمة).

(*8) ويقول طومسون في كتابه الذي صدر مؤخرا بعنوان The Bible in History في تفسيرة للنقش

الذي ورد على لوح مرنبتاح الحجري أن اسم إسرائيل يرجع إلى القرن 13 ق. م. حيث كانت اسما لشعب كنعان (فلسطين الغربية)، الذي يقول النقش إن جيش الفرعون المصري دمرهم.

ويضيف طومسون إن ربط «إسرائيل» بكنعان في هذا النقش المصري المبكر لا يمكن اعتباره مرادفا لإسرائيل الواردة في التوراة. إن ما يقدمه هذا النقش هو مجرد أول ورود تاريخي لاستخدام اسم إسرائيل معروف لدينا. وهذا لا يشير إلى إسرائيل التي نعرفها من الكتابات الآشورية والنصوص الفلسطينية القديمة. فإسرائيل تلك كانت دويلة محلية سيطرت على المرتفعات شمالي القدس وقد ظهرت للوجود بعد بضعة قرون من الفرعون مرنبتاح. وهذا لا يمكن اعتباره مرادفا لإسرائيل التوراتية، فإذا كان نقش مرنبتاح يعبّر عن أي حقيقة تاريخية فإن التوراة لا تذكر عنه شيئا.

3 البحث عن إسرائيل القديمة

لقد استخدم الدارسون التوراتيون موارد عقلية ومالية كبيرة أثناء بحثهم عن تاريخ إسرائيل القديم. أما إسرائيل الماثلة في الدراسات التوراتية، فلم تظهر في فترة ما يعرف بعصر الآباء Patriarchs والهجرة Exodus، بل في الفترة المتأخرة من العصر البرونزي ـ الحديدي.

وتلك هي الفترة التي يطلق عليها عادة فترة «النشوء»، أو «أصول» إسرائيل، وهي الفترة التي يفترض أن تكون إسرائيل تلك قد سيطرت فيها على فلسطين. فعملية طرد التاريخ الفلسطيني (من الوعي) قد تم استكمالها في وصف فترة حكم الملكين داود وسليمان في العصر الحديدي، حيث تعرض علينا صورة دولة صغيرة ناشئة وكأنها قوة عسكرية عظمى في المنطقة في فترة زمنية قصيرة جدا. وهاتان الفترتان، أي فترة «نشوء إسرائيل» في فلسطين وتطور مملكتي داود وسليمان، لهما من الأهمية البالغة بالنسبة للدراسات التوراتية ما يسمح بوصفهما على أنهما تمثلان اللحظتين «الفيصل» defining moment في تاريخ إسرائيل، وكذلك تاريخ فلسطين بشكل عام. ولقد مثّل البحث عن إسرائيل القديمة موضوعا على هذا القدر من الأهمية بالنسبة للدراسات التوراتية. نظراً لأن

الفرضية التاريخية كانت تدعي دائما أن هذه الفترات هي التي أمدتها بالقدرة على فهم تاريخ إسرائيل وكذلك تعريف الكثير من الموضوعات التوراتية. ومما يدعو إلى السخرية أن عمليات إعادة التقييم الراهنة، التي قام بها آلستروم Ahlstorm، وليمحي Lemche وكوت ووايتلام Coote and Whitelam وطومسون Thompson ، من المرجح أن تقود إلى النظرة القائلة إن فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي هي التي سيتضح أنها اللحظة «الفيصل» في نشوء التاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته. ذلك أن التاريخ الفلسطيني قد أصبح أحد «التواريخ المستبعدة» بسبب اختلاق إسرائيل القديمة وتحديد فترة نشوئها في العصر البرونزي المتأخر ـ وبداية العصر الحديدي: ومن المرجح أن تستعيد فلسطين صوتها، وحقها في تمثيل نفسها في تلك الفترة، ومما يدعو إلى السخرية أيضا أن ذلك أصبح ممكنا بفضل الكشف عن الآثار ونوعية وحجم المعلومات التي أنتجها الباحثون وعلماء الآثار الإسرائيليون أنفسهم عن تلك الفترة.

لقد ازدادت حدة النقاش بسبب إزاحة الستار ـ تدريجيا ـ عن الهالة التي ادعت الموضوعية، والتي كشفت عن تواطؤ الدراسات التوراتية في سلب فلسطين من تاريخها.

يوضح تاريخ الجدل حول نشوء إسرائيل في فلسطين بشكل قاطع أن خطاب الدراسات التوراتية قد شكلته الصراعات السياسية المعاصرة والمتعلقة بقضية فلسطين ومستقبلها. فالجدل المتعلق بجذور ونشوء إسرائيل القديمة يصوّر بشكل عام وكأنه نقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات أساسية، وهو نقاش يرفض الاعتراف بتورطه في السياسة المعاصرة. توفر لنا عدة دراسات مَسْحية (ومنها دراسة ميللر Miller 1977، ورامزي Ramsey 1982، وتشني Chaney 1983) مسحا عاما وتحليلا نقديا للنماذج الرئيسية وذلك فيما يتعلق بفرضياتها المنهجية، وطريقة استخدامها للمعلومات، واستنتاجاتها العامة. على أن هذه المراجعات والتحليلات النقدية قد أخفقت في إدراك كيف أن عمليات «بناء» إسرائيل القديمة تلك (والتي تبدو مختلفة في الظاهر فقط)، قد عكست الأحداث الجارية في فلسطين في الوقت الذي صيغت فيه تلك الأبحاث. فبالرغم من أن خطاب الدراسات التوراتية قد تظاهر بالاختلاف حول جذور أو نشوء إسرائيل، فإنه في حقيقة الأمر قد

استخدم اللغة المعاصرة في الصراع حول فلسطين بل وكثيرا ما تبناها.

وقد أدى النقد المستمر لتلك الآراء المهيمنة منذ العقد الأخير أو حوالي ذلك إلى مجادلات متزايدة الحدة. وكما ذكرنا من قبل، فإن تلك الانتقادات الحادة أدت إلى بعض الأحيان إلى تصدع المظهر الموضوعي والأكاديمي للنقاش، وكشف عن المعتقدات الدينية والآراء السياسية التي شكلت النظريات المختلفة في إعادة بناء الماضي. إن الصراع حول الماضي إنما هو دائما صراع من أجل الهيمنة والسيطرة في الحاضر، كما رأينا في الصراع الأيديولوجي حول إعادة بناء الزمان والمكان في الفصل السابق. بينما تحافظ الدراسات التوراتية على الوهم القائل إن الجدل حول نماذج مرتبطة بـ آلت ونوث، وأولبرايت وبرايت، ومندنهول وغوتفالد، كان يدور أساسا حول التقييم والثقل النسبي للمعلومات المختلفة التي أدت إلى صياغة تلك الفرضيات أو نفيها أو إعادة صياغتها، كذلك فإن الجدل بين الأطراف الرئيسية في هذه المنازعات قد يكون حامي الوطيس، ولكنه حافظ على مبادئ التعامل المهذب الأساسية، إلا في حالات نادرة تتعلق بالخطاب الأكاديمي. على أن الخطابات ما بعد الحداثية post-modernist discourses قد أدت إلى إدراك الطبيعة غير الموضوعية (الذاتية) للمشروع الأكاديمي، وبالتالي تعرية دور مناهج البحث الأكاديمية المختلفة في المشروع الاستعماري. وقد أدى ذلك إلى تزايد الوعي، ولو بشكل بطيء، بأن البحث عن إسرائيل القديمة ليس مجرد إعادة بناء نزيهة للماضي ولكنه يتعلق بموضوع بالغ الأهمية يتصل بالهوية وميزان القوى المعاصرة. تبدو الفرضيات التي جاءت بها الدراسات التوراتية الألمانية والأمريكية في ظاهرها كأنها مناقشات حول طبيعة نشوء إسرائيل وجذورها التاريخية، إلا أن هذا ليس نقاشا بين الادعاءات المتنافسة حول التاريخ الماضي كما نفهمه، ولكنه بالأحرى نقاش حول الهوية التي تمكن إسرائيل من المطالبة بهذا الماضي. إن الطرق المختلفة لاختلاق إسرائيل التي تقدمها تلك الفرضيات أو النماذج الثلاث، جميعها تطالب بالزمان والمكان الفلسطينيين: إنه دائما تاريخ إسرائيل، أيا كان فهمنا وإدراكنا لإسرائيل هذه، ومجمل القول إنه لا يوجد صراع حقيقي من داخل خطاب الدراسات التوراتية لأن «فلسطين» و «الفلسطينيين» لم يعترف لهم بأي حق في هذا الماضي.

ركزت الكتابات النقدية التي ظهرت منذ الثمانينيات وإلى اليوم، والتي قوضت النماذج الرئيسية لتاريخ إسرائيل القديم في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، ركزت على أن تلك النماذج لم تعمل حسابا للمعلومات الأثرية المتزايدة حول المنطقة. كما حاولت تلك الكتابات النقدية الدعوة وبنسب متفاوتة لإعادة بناء الماضي الفلسطيني على نحو بديل. إن إنكار هذه الأعمال النقدية أنها تعتمد على التراث التوراتي في فهم المكتشفات الأثرية والمعلومات الأخرى وهم بصدد بناء تصوراتهم عن «نشوء» إسرائيل، قد كشف ـ عن غير قصد ـ إلى أي مدى تورطت النماذج السابقة في الصراع المعاصر حول فلسطين. فالطبيعة السياسية لعمليات إعادة تكوين الماضي تلك بدأت الآن فقط بالظهور على أنها محاولات لرسم معالم تاريخ قديم لفلسطين تضع التاريخين الفلسطيني والإسرائيلي في منافسة مباشرة. ولم يعد ممكنا الفصل بسهولة بين التاريخ المتنازع عليه المتعلق بالفترة البرونزية الحديدية المتأخرة (الانتقالية) ـ من الآن فصاعدا ـ وبين الدعاوى المتنازعة للإسرائيليين والفلسطينيين حول الأرض نفسها. ومن الآن فصاعدا، لم يعد ممكنا اعتبار ذلك مجرد جدال أكاديمي حول مفاهيم مختلفة لطبيعة إسرائيل القديمة.

لقد تصدعت السلسلة المتصلة بين الماضي والحاضر وهذا التصدع قوض الادعاءات المعاصرة بملكية المعرفة والقوة. فالإجماع الذي أحاط بفترات «النشوء» ومملكة داود ردحا طويلا من الزمان قد انهار بوتيرة مثيرة خلال السنوات الأخيرة الماضية، حتى أصبحت هناك حاجة ماسة إلى إعادة نظر شاملة في تاريخ العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي. إن البدء في إعادة النظر هذه هو الذي أدى في الأساس إلى الإدراك المتزايد لضرورة إعادة الاعتبار للزمان والمكان للتاريخ الفلسطيني لذاته، كحق له وليس بحجة البحث عن تاريخ إسرائيل القديم. ولكن، قبل النظر في النتائج المترتبة على هذا التحول الحاسم، من المهم أن نعرف كيف أدى البحث عن «إسرائيل القديمة» في الفترة البرونزية المتأخرة وبداية العصر الحديدي إلى هيمنة الرواية الإسرائيلية، وكيف أسكتت تلك الرواية بكشل فعال البحث عن تاريخ فلسطين القديم. وهذا ليس استعراضا نقديا عاديا لنقاط القودة والضعف في الدراسات التوراتية الألمانية والأمريكية

منذ العشرينيات وحتى الآن، فمثل تلك المهمة أنجزتها بالفعل مراجعات نقدية عديدة في متناول القارئ. لكننا سنحاول تسليط الضوء على الفرضيات اللاهوتية والسياسية التي أدت إلى فرض الهيمنة في تحديد ماضي إسرائيل. وقد أثرت أن تأتي تلك المحاولة في صورة مجموعة من التعليقات النقدية ـ لو استخدمنا ألفاظهم نفسها ـ على تلك الفرضيات لإظهار كيف أن إعادة بنائهم للماضي قد عكست الصراع الحالي الدائر حول فلسطين وكيف أنها متورطة بهذا الصراع. ما تكشفه أيضا هو سلسلة من الرؤى الخيالية للماضي كانت مسؤولة عن إسكات التاريخ الفلسطيني تحت غطاء، وباسم، مناهج البحث العلمي الموضوعي.

المطالبة بفلسطين

١ - الهجرة إلى فلسطين

أدت دراسة ألبرخت آلت Albrecht Alt التمهيدية بعنوان «حيازة الإسرائيلي للأرض في فلسطين» (Dia Landnahme der Israeliten Palastina)، والتي نشرت عام 1925 (169 ـ 133 : 1966) إلى تطور ما أصبح يعرف بنموذج التسلل Infiltration أو الهجرة Immigration لفهم جذور إسرائيل، وهو ما تم وصفه عموما بأنه تسلل/هجرة الإسرائيليين «السلمية» إلى فلسطين. هذه الفرضية، المرتهنة بمناهج البحث الألمانية، وبالأخص آلت Alt ونوث Noth وويبرت M. Weippert، كانت ذات تأثير بالغ في خطاب الدراسات التوراتية، بعد ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن منذ صيغتها الكلاسيكية التي وضعها من قبل آلت، ليس فقط فيما يتعلق بإعادة صياغة تلك الفرضية من قبل باحثين جدد، ولكن من خلال سلسلة من الأفكار التي أخذت على علاّتها وكأنها حقيقة ثابتة في خطاب الدراسات التوراتية، ومن ثم لم تتم مناقشتها بما تستحقه من الاهتمام. ولا تزال هذه الفرضية تتمتع بقبول كبير وبالأخص في الأعمال الحديثة لعالم الآثار الإسرائيلي إسرائيل فينكلشتاين Israel Finkelstien (1988). غير أن حقيقة الأمر هي أن هذه الفرضية هي إعادة بناء للماضي، واختراع لإسرائيل، يعكس تصورات متعلقة بتاريخ فلسطين الحديث منذ العشرينيات من هذا القرن، وهي الفترة التي شهدت فيها فلسطين ازدياد الهجرة الصهيونية إليها.

تتمثل بصيرة آلت المبتكرة في إدراكه أنه حتى يتمكن من التغلب على أوجه القصور في التوراة العبرية فيما يتعلق بفهم بداية نشوء إسرائيل، كان يتوجب عليه أن يحقق في «تاريخ التقسيمات الإقليمية للبلد بمعزل تام عن الأوجه الأخرى للمسألة» (163 : 1966). وبهذه الوسيلة، كان يريد أن يفهم طبيعة استيطان الإسرائيليين في فلسطين في أواخر الفترة البرونزية المتأخرة (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) والظروف التي سبقتها، وتأثيرها في تاريخ الاستيطان في فلسطين. وعلى هذا، فإن آلت اعتزم معالجة المعضلة في إطار مدة زمنية طويلة باستخدام الكتابات المسمارية المصرية القديمة cuneform وآثار مصرية أخرى لبناء «الجغرافية السياسية لفلسطين» (137 : 1966). وقد ركزت اكتشافاته على أهمية الدور (المزعوم) الذي لعبته دول - المدينة (City-States) الصغيرة وأمراؤها «التافهون» في تحديد تلك الجغرافية السياسية: فمن وجهة نظر آلت مارس الفرعون سلطته من خلال هؤلاء الأمراء وتعامل معهم بشكل مباشر. ومن وجهة نظره أيضا نجم عن التطور الكامل لهذا النظام السياسي تجزئة كبرى لفلسطين على شكل دول - مدينة صغيرة لا تتعدى أرضها الأرض المحيطة بالمدينة وبعض القرى المجاورة لها. وقد توصل آلت في استنتاجاته إلى وجود تمييز إقليمي مهم بين الجغرافيا السياسية للمناطق الساحلية، حيث وجدت معظم دول - المدينة هذه، والمناطق الجبلية لفلسطين حيث استنتج أن شح الأراضي الزراعية الخصبة أدى إلى أن استيطان الجبال، ونشوء ثقافة متطورة هناك، لم يصلا في تلك الفترة إلى مستوى المناطق الأخرى نفسه (149 : 1966). وقد استخدم آلت وثائق العمارنة التي جاء فيها ذكر الملك لابايا Labaya ملك نابلس (شكيم Schechem) لكي يستنتج أن «وجود وحدة سياسية في الجبال إلى الشمال من القدس لا يشوبه شك» (153 : 1966). هذا التباين بين منطقة السهول والمرتفعات، والذي كان في نظره بالغ الأهمية له لفهم تاريخ المنطقة، «يرجع حتما إلى وجود بناء سياسي مختلف: ففي الأول، هناك مجموعات من دول - المدينة، قريبة من بعضها البعض، وفي الثاني، مناطق شاسعة تحت حكم حاكم واحد» (145 : 1966). وقد صورت القدس على أنها استثناء مهم في منطقة المرتفعات لدولة - مدينة فشلت في السيطرة الإقليمية على منطقة واسعة.

أكد آلت على أنه مع انهيار سلطة الحكم المصري في نهاية العصر البرونزي المتأخر، فإن «الخارطة السياسية لفلسطين تغيرت بشكل جذري» (157 : 1966)، مخلفة وراءها عددا محدودا من دول ـ المدينة في المنطقة. ويمكن تفسير ذلك فقط، حسب آلت، بوجود تحول تام في النماذج الجديدة للحياة السياسية والمناطق الاقليمية التي ظهرت في تلك الفترة، ولا يمكن تفسير تلك النماذج أيضا بحدوث تطورات طبيعية محلية كرد فعل على سقوط الحكم المصري: «عندما تركت السياسة المحلية للتطور في سياقها الطبيعي، فإن المسار الطبيعي الذي سلكته كان المحافظة على الوضع القائم الذي تطور في البلد على مدى قرون» (157 : 1966).

إن فرضية آلت هي أن هذا التغيير لا يمكن أن يحدث إلا بتأثر خارجي، وهكذا فإنه ينكر المؤثرات الداخلية في تاريخ المنطقة، وهذا الافتراض، كما رأينا، كان واسع الانتشار في خطاب الدراسات التوراتية: وهو أيضا افتراض توافق مع الفرضيات الرائجة والتي قدمت بها الأحداث التي وقعت في فلسطين أثناء كتابة آلت لبحثه(*). ففلسطين بالنسبة لآلت، شأن غيره من السياسيين من الغربيين المعاصرين، وبخاصة الإنجليز منهم، لم يكن بمقدورها «تطوير أشكال سياسية جديدة»: «لا يمكن أن يكون الدافع وراء إعادة التنظيم السياسي لفلسطين قد أتى من داخل فلسطين» (158 : 1966). لاحظ مما سبق كيف يصدر آلت أحكامه المطلقة في تفسير فشل وعدم قدرة السكان المحليين في فلسطين على ابتكار نظم سياسية جديدة من وجهة نظره. وإنما كان ينبغي على تلك النظم المبتكرة أن تأتي من الخارج. وبالمثل، فإن (سويندنبرغ Swendenburg 208 : 1989) يشير إلى أن المؤرخين الإسرائيليين كثيرا ما ينظرون إلى المجتمع الفلسطيني في الثلاثينيات من هذا القرن، على أنه مجتمع مفكك داخليا وقبلي وغير قادر على تنظيم نفسه[1].

ما هي إذن تلك الأشكال المبتكرة من الحياة السياسية التي تتطلب مؤثرات خارجية والتي يعزوها آلت إلى الإسرائيليين والفلستيين Philistines(*2)، واليهود والأدوميين والموابيين والعمونيين والآراميين؟ لا شيء سوى دولة ـ المدينة. هنا يلاحظ آلت Alt للمرة الأولى تطور وعي قومي، وهو شيء يعتقد أن الأقوام المحلية لم تكن قادرة على تجربته: «إن تسمية

الدول بأسماء شعوبها تكشف أيضا عن وعي قومي لم تعرفه قط التجمعات السياسية السابقة وبالأخص دول ـ المدينة، لأن تكوينها السياسي لا يمكنها من ذلك» (18 : 1966). لا يوجد أي مبرر واضح لافتراض آلت أن نمو الوعي القومي لا يمكن أن ينشأ محليا وإنما ينبغي تفسيره على أنه شيء مستورد: فتحليله لنظام دولة ـ المدينة لا يبرر تصريحا مطلقا من هذا النوع. إلا أنه يجب التنويه إلى أن أعمال آلت قد أنجزت خلال إحدى أهم الفترات الحاسمة في التاريخ الفلسطيني المعاصر: وهي فترة ازدياد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في العقود الأولى من القرن العشرين، وما رافقها من تطلعات صهيونية لإقامة وطن قومي لها هناك، مما غير بشكل جذري من الطابع الاجتماعي والسياسي والسكاني للمنطقة. (انظر أبو لغد Abu-Lughood 1987 ـ وخالدي Khalidi 1984). إن السمة الرئيسية لنظرية آلت، وهي وجود مجموعات ذات شأن من البشر تبحث عن وطن قومي لها، يجب أن تفهم في سياق تلك التطورات المذهلة في فلسطين في وقت قيام آلت ببحثه، تلك التطورات التي يستبعد جدا أن يكون غير مدرك لها.

بالنسبة لآلت: قد تكون دولة ـ المدينة هي ذروة التطور السياسي، إلا أنه يرى أن شعوبا معينة فقط كان بإمكانها أن تصل إلى هذه المرحلة النهائية. ويتضح هذا من خلال تفسيره لأسباب إخفاق شعوب بعينها في الوصول إلى هذا الهدف، على عكس الإسرائيليين: لقد فشل الفلستيون، الذين يصفهم آلت (159 : 1699) وكأنهم وحدة متماسكة، في محاولاتهم لإنشاء دولة قومية وذلك لأن هذه الدولة كانت تقع في السهل الساحلي، معقل نظام دول ـ المدينة. وحتى لو تمكنوا من مد سلطة هذه الدولة إلى حدود أبعد من حدودها، فإنهم أجبروا على الإبقاء على نظام دولة ـ المدينة. وبالنتيجة، فإن هذا النظام السياسي المحلي «قد فرض نفسه على السكان الجدد» (159 : 1699) . لقد فشل الفلستيون لأنهم «تلوثوا» بهذا الاحتكاك المباشر بالشعوب المحلية. لذلك كان يتحتم على مملكتي إسرائيل ويهودا فرض نوع جديد من التنظيم السياسي في المنطقة، وهكذا، أمكنهما القضاء على نظام دولة ـ المدينة المحلي. هذه هي اللحظة «الفيصل» defining moment في تاريخ المنطقة بالنسبة لآت Alt، حيث يزعم أن «أهمية هذا الحدث بالنسبة لتاريخ فلسطين عموما لم يُعط ما يستحقه من الاهتمام حتى الآن»

(160 : 1699)، ثم يصف آلت بشكل لافت للنظر الأسس التي قامت عليها الدولة الإسرائيلية والتي لا يتوقع فيها الشعب الأصلي أي مساواة في الحقوق، إذ يقول إن:

مملكة شاؤول Saul هي بكل بساطة عبارة عن اتحاد القبائل والمقاطعات الإسرائيلية في دولة واحدة، بينما ظلت دول ـ المدينة غير الإسرائيلية في الخارج، أو أنها لم تتوقع المساواة في الحقوق كجزء لا يتجزأ من قوانين المملكة الحديثة المنشأ. وسوف تبين نظرة سريعة في الخريطة أنه على الرغم من أن طبيعة تلك الدولة الإسرائيلية قد زودت هذه المملكة بأسباب وعناصر الوحدة القومية، فإنها لم تنجح في السيطرة على حدود أرضها. والوضع الاستراتيجي قبل معركة شاؤول الأخيرة أفضل مثال على ذلك.

(آلت Alt 161 : 1966)

إلا أن دخول الإسرائيليين إلى فلسطين قد غيّر ذلك الوضع، ممهدا الطريق لبلوغ الهدف النهائي وهو تأسيس دولة ـ مدينة تحت حكم الملك داود وسليمان، وهذا في رأي آلت Alt إنجاز لم يكن في مقدور سكان فلسطين الأصليين، الذين لم يتوقعوا كما يوضح لنا أيضا أي مساواة في الحقوق! لا يمدنا آلت بأي دليل على صحة هذه الفرضية، والتي لا هدف لها سوى تأكيد تفوق إسرائيل على شعب محلي «متخلف». أما العرض الشهير الذي قدمه للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين فيصف كيف استوطن هؤلاء الإسرائيليون منطقة التلال، حيث كانت هناك تجمعات سياسية أكبر قائمة بالفعل، وكانت تلك التجمعات محمية من «التلوث» من دول ـ المدينة الموجودة في السواحل. لم يكن بمقدور هذه المناطق غير كثيفة السكان، التي يصفها آلت بأنها كانت منظمة تنظيما سيئا في رأيه، حتى مقاومة الغزو الإسرائيلي. وهو يرى أيضا أن تلك المجموعات الـ«نصف بدوية» لم تتمكن من أن تتوسع وتقضي على نظام دول ـ المدينة إلا بعد أن استقرت وتمكنت من مواءمة نفسها مع أسلوب الحياة في المجتمع الزراعي.

والواقع أن المؤيدين الرئيسيين الآخرين لهذا النموذج، وهما نوث Noth وويبرت M.Weippert، لم يدخلا أي تغييرات ذات شأن على آراء آلت Alt، تبنيا الافتراضات المهيمنة نفسها وروجا لها. يفترض نوث أيضا أن «من الطبيعي أن يكون تراث العهد القديم مصيبا دون أدنى شك في اعتبار أن القبائل لم تكن أصلية في فلسطين، بل إنها دخلتها واتخذت لها موطئ قدم

في تلك البراري والسهول المقفرة في وقت محدد من الزمان» (53: 1960). وأصبحت إسرائيل «حقيقة نهائية ودائمة في فلسطين» (53: 1960). كما يعتقد نوث أن هذه القبائل قد جلبت معها تراثا مهما من خارج فلسطين مما أسهم في تشكيل الوعي الذاتي والعقيدة بالنسبة لإسرائيل أثناء تطورها في فلسطين. كما أن وصفه الخاص للمستوطنات الإسرائيلية (68, 56 ـ 55: 1960) في المناطق القليلة السكان في المرتفعات لا يعدو كونه تكرارا لما قاله آلت. وكما فعل آلت، فإن نوث أيضا استنتج أن هذه القبائل كانت نصف ـ بدوية تمر بعملية تحضر طويلة الأمد، وأن «العملية كلها تحدث، في بداية الأمر، بطرق سلمية ودون اللجوء إلى القوة» (69: 1960). سيلاحظ القارئ أن التركيز دائما هو على الطرق «السلمية» التي تمت فيها مصادرة الأرض. أما الاستنتاج الضمني المزعوم لهذا النموذج فهو أن تسلل إسرائيل في فلسطين لم يكن عملا من أعمال السلب، ولكنه كان استيلاء على أرض خالية بلا سكان، أو على الأقل الاستيلاء على تلك المناطق في فلسطين التي لم تكن مأهولة. ولم تصبح دول ـ المدينة الكنعانية في حالة صراع مع الإسرائيليين إلا مع بدء الفترة الثانية من «التوسع الإقليمي» الإسرائيلي (ويبرت Weippert 6: 1971).

لقد برهن النقد المتواصل لفرضيات آلت (270 ـ 268: 1977) المتعلقة بجذور إسرائيل والروايات المختلفة والمتعددة حولها، على أن هذا ماض متخيل ومختلق (انظر رامزي Ramsey 90 ـ 77:1982، وميلر 270 ـ 268: 1977، ومندنهول Mendenhall 1962، وغوتفالد Gottwald 209 ـ 204: 1979). كما أن المناهج الأدبية في معالجة التوراة العبرية قد قوضت بشكل حاسم الافتراضات النقدية للمصادر التي استخدمها آلت في تحليله للنصوص التوراتية. أما الفرضية الرئيسية التي تقول إنه من الممكن تحديد مستويات معينة من النص، وإعطاؤها تواريخ، ومن ثم استخدامها لإعادة بناء التاريخ فقد انتقدت نقدا لاذعا ومطولا. بالإضافة إلى ذلك، فإن فرضية آلت الرئيسية، التي شاركه فيها أخصائيون توراتيون آخرون، والتي تقول إن التغير الاجتماعي في الماضي كان بالضرورة نتيجة قيام مجموعات عرقية مختلفة حلّت محل الثقافة المحلية، بغزو المنطقة أو الهجرة إليها هي فرضية لا يمكن استمرار القبول بها. وبالتحديد فإن الفرضية القائلة إن إسرائيل

كانت مكونة من بدو رحل أو نصف رحل في طريقهم إلى التمدن قد تم التخلي عنها، وذلك في ضوء المكتشفات الأنثروبولوجية الحديثة التي تُظهر أن الحياة الرعوية إنما هي فرع متخصص من المجتمع الزراعي في الشرق الأدنى. لقد برهن الكم المتزايد من الاكتشافات الأثرية في المنطقة، منذ بدء آلت لبحثه، بشكل جلي على أن نشوء المستوطنات في مرتفعات فلسطين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي لم يعد من الممكن ربطه بالهجرة الإسرائيلية(2).

بإمكاننا مقارنة إعادة بناء تاريخ الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين مع الأحداث السياسية التي سادت في المنطقة أثناء كتابة آلت لبحثه (أي في العشرينيات من القرن الحالي). إنه يعتقد أن «الهجرة السلمية» تسببت في نهاية الأمر في إنشاء دولة ـ مدينة قضت على نظام دول ـ المدينة المحلي عديمة الكفاءة. ويؤكد آلت، ودون أي برهان فعلي، أن السكان الأصليين كانوا غير قادرين على التمتع بأي وعي قومي. وبالمقابل، فإنه في بداية العشرينيات من هذا القرن، عندما كانت الصهيونية، التي تتمتع بوعي قومي عال، تبحث عن «وطن قومي» لها في فلسطين عن طريق الهجرة والاستيطان، كان من الشائع إنكار أي حس بالوعي القومي لدى عرب فلسطين (انظر لاكير Laquer 250 ـ 248: 1972). لقد انتشرت هذه الآراء بشكل واسع على الرغم من إنكار جورج أنطونيوس (1969) أو حتى عاموس إيلون لها (Elon 153 ـ 151 : 1983). فهما يبرهنان على أن الشعور القومي كان آخذا بالنهوض بين عرب فلسطين منذ 1880، وذلك بشكل متواز مع نهوض الشعور بالوعي القومي لدى اليهود. إن سوء الفهم فيما يتعلق بربط الوعي القومي والوحدة في المنطقة بالهجرة الصهيونية، وما رافقه من الحط من قدر التنظيمات السياسية المحلية، كان شيئا واسع الانتشار في خطاب الدراسات التوراتية منذ آلت وبعده. إضافة إلى ذلك، من المهم أن نأخذ بعين الاعتبار أن بحث آلت نفسه عن التاريخ القديم لإسرائيل كان متأثرا بالقومية الألمانية والبحث عن تاريخ الدولة القومية nation-state (ساسون Sasson 1981). إنه ماض متخيل، يحمل شبها كبيرا بالأحداث التي شهدتها فلسطين منذ العشرينيات وما رافقها من ازدياد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، وإنشاء عدد متزايد من المستعمرات والكيبوتسات، والتناقض بين

ازدياد «الوعي القومي» الصهيوني والشعب الفلسطيني المحلي الذي نظر إليه على أنه غير كفء، ومشتت، وغير قادر على عمل أي نوع من التنظيم القومي الموحد. لقد كان لهذا التاريخ الخيالي، الذي هو مرآة عاكسة للأوضاع السياسية المعاصرة التي كتب فيها آلت أبحاثه، تأثير بالغ في خطاب الدراسات التوراتية مذن ذلك الوقت. ولما كانت الدراسات التوراتية قد تبنت نظريات آلت (التي لا تعتمد على أي برهان) في إعادة تكوين الماضي، فإنها شاركت سلبيا في الصراع الدائر حول فلسطين وذلك بإسكات أي تاريخ فلسطيني لا يعتمد على الرواية الإسرائيلية.

المطالبة بفلسطين

2- غزو فلسطين

لقد أنتجت مدارس البحث العلمي الأمريكية بقيادة وليام فوكسويل أولبرايت William Foxwell Albright رواية بديلة لنشوء إسرائيل في فلسطين، وقد صورها خطاب الدراسات التوراتية على أنها النقيض التام لرواية آلت Alt التي افترضت التسلل/الهجرة السلمية إلى فلسطين. وقد اهتم أولبرايت بإظهار الأسباب «الموضوعية» لقبول الرواية التي قدمها التراث التوراتي حول وجود غزو واحتلال خارجين. واستعان كل من آلت ونوث لتقديم تراث بديل بسفْر القضاة Judges وأجزاء من سفر يشوّع Joshua كي يدعما نظرية الهجرة السلمية الطويلة الأمد. أما أولبرايت فقد ركز اهتمامه بشكل أكبر على المكتشفات الأثرية الحديثة لتدعيم تراث الدراسات التوراتية كما جاءت في سفر يشوّع، لإثبات وجود حملة عسكرية المفترض أنها قضت على المجتمعات السكانية للفلسطينيين في تجمعاتهم المدنية. لقد كان اختلاق أولبرايت لإسرائيل القديمة ذا تأثير بالغ الخطورة في الدراسات التوراتية في القرن العشرين، وقد روّج أفكاره هذه عدد من الخريجين الذي تبوأوا مراكز مرموقة في الحياة الأكاديمية في جامعات الولايات المتحدة. إلا أنه ينبغي التنبيه مرة أخرى، أنه لشيء لافت للنظر حقا أن هذه الرواية لتاريخ إسرائيل القديم، تعكس مفاهيم عصرية للتطورات التي حدثت في فلسطين أثناء قيام أولبرايت ببحثه. فكثير من آرائه تكونت خلال الفترة الحرجة نفسها للتطور السياسي في المنطقة في العقود الأولى من القرن العشرين،

وهي أيضا الفترة نفسها التي قام فيها آلت بأبحاثه (راجع أيضا سيلبرمان Silberman 8: 1993).

قدم أولبرايت فلسفته في التاريخ، وهي حاسمة لفهم تصوره لتاريخ إسرائيل القديم، في كتابه الصادر عام 1940 وقد تم تنقيح هذا الكتاب وأعيدت طباعته ثلاث مرات. أما طبعة عام 1957 فتتضمن التصريح المثير القائل إن الكتاب قد تم طبعه «بالاتفاق مع الناشر آنكور بوكس Anchor Books والمؤتمر التوراتي Biblical Colloquium. والمؤتمر التوراتي هذا هو حلقة دراسية متخصصة في الشؤون والقضايا التوراتية، وكذلك في إعداد ونشر وتوزيع المعلومات والكتابات حول التوراة، وهي موجهة إلى القارئ العادي وكذلك إلى المتخصصين. وهكذا، يوحي إلى القارئ أن بإمكانه أن يثق ثقة تامة بهذه الحلقة الدراسية التي تهدف إلى تزويد الشعب بثمرات البحث العلمي الموضوعي. وفي ذلك الحين، كان المؤتمر التوراتي، وهو مركز تجمع تلاميذ أولبرايت وخريجيه، منشغلا بشكل فعال في ترويج أفكاره بهدف واضح لا لبس فيه وهو تحقيق سيطرة تلك الأفكار على الحياة الأكاديمية الأمريكية[3]. في مقدمة طبعة «آنكور بوكس» Anchor Books لكتابه سنة 1957، قال أولبرات بصراحة إنه على الرغم من العديد من الاكتشافات الأثرية منذ عام 1940، لم يشعر بالحاجة إلى إعادة النظر في استنتاجاته فيما يتعلق بتاريخ إسرائيل: بل على العكس، ازداد اقتناعا بها. هذه المقدمة تنبه القارئ أيضا إلى تطور خطة أولبرايت كما توضح لنا تطور فلسفته في التاريخ، وهي مقسمة إلى مراحل منطقية أولية Proto-logical ومنطقية تجريبية emporico-logical ومنطقية logical، وهكذا فهي تؤثر في سرده لتاريخ إسرائيل وتؤدي إلى إسكات التاريخ الفلسطيني، (انظر أيضا 84: 1957). وهذا ما تؤكده محاولاته لنشر فلسفة تاريخ عضوية (organismic) مما يجعله يصل إلى الاستنتاج التالي:

من وجهة نظر البحث الحالي، فإن هذه القائمة تعكس اقتناع الكاتب بأن الحضارة اليونانية - الرومانية في وقت السيد المسيح، كانت أقرب ما تكون إلى الثقافة الموحدة والعقلانية التي عرفها العالم حتى ذلك الوقت، ويمكن بحق اعتبارها ذروة التطور الطويل والثابت نسبيا ... وكانت إضافة إلى ذلك، في الفترة نفسها التي وصلت فيها عقيدة إسرائيل الدينية إلى الذروة في

«تثنية» النبي أشعيا (Deutero-Isaiah) (3*) والنبي أيوب، اللذين مثلا قمة الديانة التوحيدية الخالصة، ولم ير العالم مثيلا لها أو تجاوزا لها منذ ذلك الحين. إن تاريخ الديانة الإسرائيلية واليهودية من النبي موسى حتى عيسى، تبدو وكأنها تقف على ذروة التطور البيولوجي تماما مثل تطور الجنس البشري العاقل Homo Sapiens، والتطورات الأخيرة في الاكتشاف والاختراع إنما تعكس تلكؤا ثقافيا لمدة ألفي عام، ذلك التلكؤ من المؤكد أنه صغير بالنسبة لمئات آلاف السنين التي واجه فيها الإنسان صعوبات كبرى في صعود المرتفعات الوعرة من التطور الإنساني الشاق والطويل.

(أولبرايت Albright 122 . 121: 1957)

ثم يواصل كلامه ليصنّف ويسرد سردا موسعا التاريخ الإنساني المبني على النشاط الفكري، ذلك النشاط «الذي يمثل أعلى مرتبة من الإنجازات الدينية والأدبية في التاريخ القديم، منظورا إليه من زاوية التضاد الحديث بين القبائل البدائية والأمم المتحضرة» (122 : 1957). لاحظ أن ذروة التطور الإنساني ومنجزات «الأمم المتحضرة» كانت قمة العقيدة اليهودية والإسرائيلية ذاتها، وأن المجتمع الغربي أثناء قيام أولبرايت ببحثه كان يعود إلى جذوره. وأخيرا يستنتج أولبرايت أن هذا التقدم التطوري لم يكن نتاجا لمصادفة عشوائية لأن التاريخ يقع في مضمار الوحي الإلهي: «إن الدارس المتعاطف مع التاريخ الشامل للإنسان لا يمكن إلا أن تكون له إجابة واحدة: «إن هناك بالفعل ذكاء وإرادة، عبر عنهما التاريخ والطبيعة لأن التاريخ والطبيعة هما شيء واحد (126 : 1957). والهدف من الاستخدام البلاغي لكلمة «متعاطف» هو هدم أي آراء لا تتفق مع هذه النظرة اللاهوتية. وبالمقابل، فإن أولبرايت يرى أن التواريخ البديلة revisionist histories تخرج عن دائرة البحث العلمي الموضوعي والمقبول، وذلك بإطلاق صفة «غير منطقية» عليها. وبالنسبة لأولبرايت فإن التاريخ الإسرائيلي ليس فقط ملكا لعلم اللاهوت، بل إن التاريخ برمته هو لاهوت.

لقد اعتمد أولبرايت في روايته للتاريخ الإسرائيلي على معرفته التي لا نظير لها بالمكتشفات الأثرية في فلسطين وكذلك على قراءته للتراث التوراتي. فقد رأى ارتباطا مباشرا بين تدمير التجمعات المدنية الفلسطينية في نهاية العصر البرونزي المتأخر، والاستعاضة عنها بمستوطنات أكثر فقرا (تميزت بتغيير ثقافتها المادية، مثلا أعمال فخارية أو عمرانية مختلفة)، وسفر يشوع حول الغزو الإسرائيلي واحتلال فلسطين (لمزيد من التفاصيل والشرح

انظر مثلا: ميللر Miller 279 ـ 212: 1977، غوتفالد Gottwald 203 ـ 192: 1979، رامزيRamsey 98 ـ 65: 1982، تشيني Chaney 1983). وقد حدد أولبرايت كما فعل آلت نمو قرى إسرائيل في المرتفعات في أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي، لكن هذا بالنسبة إليه لم يكن بأي حال هجرة سلمية، ولكنه كان تغيرا مفاجئا وعنيفا للأوضاع حصل نتيجة عوامل خارجية وأدى إلى تدمير التجمعات المدنية الحضرية في فلسطين.

إن اعتناق أولبرايت لنظرية غزو فلسطين واعتماده الرواية التوراتية والمكتشفات الأثرية جعلاه يستنتج أن:

السكان الإسرائيليين الأوائل في فلسطين كانوا مكونين بشكل رئيسي من ثلاث مجموعات: العبرانيين قبل الإسرائيليين pre-Israelite Hebrews، والإسرائيليين الحقيقيين، والكنعانيين المنتمين إلى أصول مختلفة. اندمج العبرانيون بسرعة هائلة مع أشقائهم الإسرائيليين حتى أن الكتابات التوراتية بالكاد أشارت إلى أي اختلاف بينهم، أما الفوارق القليلة الظاهرة فكان مشكوكا فيها. لقد تمت السيطرة الإسرائيلية على الكنعانيين إما عن طريق المعاهدات، أو الغزو، والاندماج التدريجي.

(أولبرايت 279: 1957)

يذكرنا وصف اولبرايت هذا بشكل لافت للنظر بالتفوق الديمغرافي الذي رافق تدفق المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين، واندماج السكان اليهود المحليين، بينما السكان المحليون (عرب فلسطين) تمت السيطرة عليهم بواسطة «المعاهدات أو الغزو أو الاندماج التدريجي»[4]. وهنا لم يثر أحد قضية ما إذا كان هناك فعلا حق لإسرائيل في هذه الأرض، وكذلك الأمر بالنسبة لحقوق السكان الأصليين الذين جردوا من ممتلكاتهم. ولكن ما هو أهم من ذلك، وأشد خطورة، أن أولبرايت لم يكتف بعدم إثارة مسألة حقوق السكان الأصليين في الأرض، بل إنه حاول بشكل مخيف تبرير إبادة هذا الشعب. ونظرا إلى الخطورة القصوى لأفكاره هذه في تبرير السلب والإبادة فإننا سنوردها هنا كاملة لأهميتها. يقول أولبرايت:

لو توخينا الدقة لقلنا إن هذا التقليد السامي Semitic لم يكن أسوأ، من وجهة النظر الإنسانية، من المذابح المتبادلة بين البروتستانت والكاثوليك في القرن السابع عشر (مثلا مذبحة ماغدبرغ Magdeburg ودروغيدا Drogheda)، أو إبادة الأرمن على يد الأتراك، أو القرغيز على يد الروس في الحرب العالمية الأولى، أو حتى في عهد أقرب، قيام الطرفين المشتبكين في الحرب الأهلية

الأسبانية بذبح الممتنعين عن القتال. من المشكوك فيه أن مراقبا غير منحاز سوف يعتبر ذلك بدرجة سوء تجويع ألمانيا نفسها بعد هدنة عام 1918 أو قصف روتردام عام 1940. في تلك الأيام كانت الحرب شاملة، تماما مثلما أصبحت بعد مرور ثلاثة آلاف عام. ونحن الأمريكيين قد يكون لنا حقوق أقل من باقي الدول المتمدنة، على الرغم من إنسانيتنا الحقيقية، في أن نصدر أحكاما على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حيث إننا قمنا، عن قصد أو غير قصد، بإبادة آلاف السكان الأصليين في كل بقعة من أمتنا العظيمة ووضعنا البقية الباقية منهم في معسكرات الاعتقال(*4). والقول إن هذا كان أمرا لا مفر منه لا يجعله أكثر قبولا أو تهذيبا من الناحية الأخلاقية لدى الأمريكي اليوم. وإنه لشيء ذو مغزى أننا بعد الطور الأول من الغزو الإسرائيلي لا نسمع شيئا عن تدمير سكان المدن الكنعانية، ولكن نسمع عن طردهم فقط، أو فرض الجزية عليهم (سفر القضاة 1: في مواضع كثيرة منه). من وجهة النظر غير المنحازة لفلسفة التاريخ، يبدو أن من الضروري في أحيان كثيرة اختفاء شعب ذي مستوى متدن إلى حد بعيد، ليحل محله شعب ذو صفات متفوقة حيث يتحتم الوصول إلى مرحلة لا يمكن فيها للاندماج العرقي أن يستمر دون حصول كارثة. عندما تحدث مثل هذه العملية ـ كما هو جار الآن في أستراليا ـ فإن الدوافع الإنسانية لا يمكنها فعل الكثير، علما بأن كل عمل همجي وكل ظلم سوف ينعكس بكل تأكيد على المعتدي.

لقد كان من حسن حظ ديانة التوحيد ومستقبل بقائها أن الإسرائيليين الذين قاموا بغزو فلسطين كانوا أقواما همجية تمتعت بطاقة بدائية وإرادة بقاء لا تلين، حيث إن الهلاك الذي نتج عن هذا الغزو للكنعانيين منع الاندماج الكامل لشعبين شقيقين، ذلك الاندماج الذي كان سينتج عنه حتما انحطاط القيم اليهودية إلى درجة يستحيل إصلاحها. وهكذا فإن الكنعانيين، وما اتصفوا به من عبادة حسية ـ إذ كانوا يعبدون الخصوبة وكانت رموزهم تأخذ شكل الثعابين والتماثيل العارية ـ حلت محل أساطيرهم الفظة البدائية، أساطير إسرائيل التي اتسمت ببساطة رعوية، ونقاء في الحياة، وديانة توحيدية رفيعة، وأخلاق صارمة. وبشكل مماثل، وبعد ألف عام، فإن الكنعانيين الأفارقة، كما ظلوا يسمون أنفسهم، أو القرطاجيين كما نسميهم، وأساطيرهم الفينيقية الفظة التي نعرفها من أوغاريت وبيبلوس(*5)، والتي كانت تقدم القرابين البشرية وكانت طقوسها لا تخلو من الجنس، قد تم إبادتها على يد الرومان الأكثر تفوقا والذين كانت لديهم مبادئ أخلاقية عالية كما أن ديانتهم الوثنية الراقية والمتميزة تذكرنا بإسرائيل المبكرة.

(أولبرايت 281 . 280: 1957)

هذا التبرير لإبادة الشعب الفلسطيني كما نجده لدى أحد أهم الباحثين التوراتيين في القرن العشرين، هو شيء بالغ الخطورة والأهمية لسببين:

السبب الأول هو أنه يعبّر بشكل مذهل عن عنصرية سافرة، ولكن الأكثر خطورة هو أن آراء أولبرايت هذه، لم يعلق عليها ـ على حد علمي ـ أي من الباحثين التوراتيين في تقييمهم لأعمال أولبرايت[5]. يتطابق وصف أولبرايت للكنعانيين بأنهم حسيون، وغير أخلاقيين مع وصف المستشرقين «للآخر» The Other، على أنه النقيض التام للإنسان الغربي العاقل والمثقف. إنه وصف يؤدي إلى الحط من إنسانية الشعوب المحلية، مما يؤدي بدوره إلى قبول فكرة إبادة هذه الشعوب، مثلما كان الحال مع سكان أمريكا الأصليين، وهذا في رأي أولبرايت شيء يدعو للأسف، ولكن «ربما كان شيئا حتميا». وهذا الادعاء يتستر بفرضية أن الاستعمار أو الإمبريالية يساهمان في تطوير الشعوب البدائية. مثل هذه الآراء وردت في فصل بعنوان «الكاريزما والتطهر»: «Charisma and catharthis»، ومن اللافت للنظر أن طبعة عام 1957 تذكر فقط أنه في الطبعة الأصلية للكتاب (لعام 1940) لم يركز أولبرايت على العامل التنبؤي في النبوة الإسرائيلية بما فيه الكفاية في ذلك الفصل. وحتى بعد ستة عشر عاما، أي بعد فترة طويلة من الكشف الكامل عن القصص المروعة للمحرقة النازية لليهود، فإن أولبرايت لم يشعر بأي حاجة إلى إعادة النظر في آرائه التي تدّعي أن شعوبا «متفوقين» (superior) كان لها الحق في إبادة شعوب «أدنى درجة» (inferior). وكذلك فإنه لم يعترف بالتناقض المروع لأفكاره اللاهوتية التي لا تدرك مدى الضرر الذي تسببه نظريات كتلك القائلة إن الديانة التوحيدية اليهودية قد أنقذت «أخلاقها التوحيدية العالية» عن طريق إبادة السكان المحليين.

تؤكد تأويلاته للمكتشفات الأثرية زعمه بوجود اختلافات حادة بين الثقافتين الإسرائيلية والكنعانية، فهو يقول مثلا:

> نظرا إلى أن الثقافة الإسرائيلية كانت بمنزلة «صفحة بيضاء» tabula rasa عندما احتل الإسرائيليون فلسطين، فلنا أن نتوقع أن يكونوا قد تأثروا بشكل قوي بثقافة أسلافهم الكنعانيين. إلا أن التنقيبات الأثرية تبين أن انقطاعا مفاجئا كان قد حصل بين ثقافة الكنعانيين في العصر البرونزي المتأخر، وبين ثقافة الإسرائيليين في بداية العصر الحديدي وذلك في منطقة المرتفعات الفلسطينية.
>
> (أولبرايت 285 ـ 284: 1957)

إن تحديد اولبرايت للأواني ذات الحواف المقلوبة collared-rim ware

وطراز المنازل ذات الغرف الأربع على أنها العلامات المادية المميزة للثقافة الإسرائيلية، كان بطبيعة الحال، عظيم الأهمية بالنسبة إلى القراءات التالية للمكتشفات الأثرية وكذلك في إعادة بناء تلك الفترة من التاريخ، وقد ظلت هذه الأهمية حتى وقت قريب جدا. وهكذا، يُستبدل الفلسطينيين بالمكان والزمان الإسرائيليان باعتبار هذا جزءا من العملية الحتمية في التطور وحلول الحضارات محل بعضها البعض. يرى اولبرايت أن هذا التطور الحتمي أدى إلى إنشاء دولة قومية إسرائيلية، إذ يقول: «وفي غضون ذلك، فإن الصراع الدائم بين الإسرائيليين والشعوب المحيطة بهم أدى بشكل حتمي، ولو ببطء، إلى وحدتهم القومية» (286: 1957). على الرغم من ذلك، لا يرى أولبرايت أن الشعوب قد تأثرت بشكل مماثل بهذه العوامل، لكي تصل إلى مرحلة الوحدة القومية، لكنه يستنتج استنتاجا مثيرا للقلق يتعلق بغزو إسرائيل لفلسطين، وهذا الاستنتاج مثير لأنه يبرر إبادة السكان المحليين:

عندما يخاطب الإسرائيليون الغرباء، فإنهم يستخدمون لغة تناسب هؤلاء الغرباء وتكون قادرة على كسب ودّهم، ليس هناك أي شيء «عصري» في هذا المبدأ، ومن المؤكد أنه كان سائدا في الشرق في العصور الغابرة ـ إلا أنه لا يمكن لأي شعب آخر أن يضاهي الإسرائيليين في موضوعيتهم بمثل تلك الأمور، إذا حكمنا عليهم من خلال آدابهم.

(أولبرايت 289 . 288: 1957)

تمثل إسرائيل، باعتبارها منبع الحضارة الغربية، كل ما هو عقلاني، بينما تمثل كنعان السكان الفلسطينيين الأصليين، وهم يمثلون «الآخر اللاعقلاني» الذي يجب أن يتم استبداله في عملية التطور التي لا ترحم هذه وهي العملية المخطط لها إلهيا. وهناك تبرير إضافي لمثل هذه الأفكار مستتر في هامش صغير في خاتمة الكتاب:

إنه لأقرب كثيرا إلى العقل أن نعترف بأنه تماما كما يتطور الإنسان بفضل الروح الأزلية في هذا الكون، فإن حياته الدينية هي أيضا نتيجة مؤثرات آتية من المصدر نفسه وتتطور لتصل إلى هدف معين. وبكلمة أخرى، إن تطور المعتقدات الدينية للإنسان يخضع لتوجيه الوحي الإلهي.

(أولبرايت 1957: الهامش رقم 1 في صفحة 401)

هنا أيضا نجد أن «المعقولية»، من وجهة نظر أولبرايت، هي العلامة الفارقة وكذلك المحك الذي يجعل معتقداته اللاهوتية مقبولة.

وهكذا تصبح الافتراضات التطورية واللاهوتية التي تتسم بها أعماله، والتي كانت بالغة التأثير في خطاب الدراسات التوراتية، جلية بشكل لا لبس فيه في خاتمة كتابه[6].

تجري معالجتنا لهذا الموضوع في خطين متوازيين: الأول، هو المنحنى المتصاعد للتطور الإنساني، ذلك المنحنى الذي يصعد تارة ويهبط تارة، أحيانا يجري في دورات وأحيانا أخرى يتأرجح، ولكنه دوما يتعافى ويستمر في الصعود. والثاني هو تطور نماذج أو أشكال تاريخية فردية لكل منها حياته العضوية الخاصة، التي تصعد لتصل إلى القمة ثم تتدهور. هذه الصورة تبرر بشكل عام وجود أكثر العقائد الدينية إيمانا بإله واحد يوجه حياة الإنسان.

(أولبرايت 401: 1957)

إن فلسفة أولبرايت للتاريخ مبنية على فكرة التقدم التطوري evolutionary development للكائنات، بحيث يصبح من الطبيعي أن «تحل إسرائيل محل الشعوب البدائية في فلسطين»، تماما مثلما كان طبيعيا للمسيحية أن تحل محل الديانات «الأدنى منزلة». فتبرير إبادة شعب كامل، وكذلك إسكات التاريخ الفلسطيني، متضمنان في العبارة النهائية في كتابه وفيها يقول:

لا يمكننا الارتقاء روحيا إلا من خلال الكوارث والمعاناة، بعد التخلص من العقد النفسية، وذلك عن طريق التطهر catharsis، وهذا التنفيس والتطهر العميق هو الذي يرافق التحولات الرئيسية. وكل فترات المعاناة الذهنية والمادية هذه، التي يتم فيها عادة القضاء على القديم قبل ولادة الجديد، تثمر نماذج اجتماعية مختلفة وبصيرة روحانية أعمق.

(أولبرايت 402: 1957)

لقد أعيق تطور التقدم الفكري والروحي الذي كان المفكرون الإغريق واليهود قد توصلوا إليه بحلول القرن الخامس قبل الميلاد لمدة ألف وخمسمائة عام. أي أن أولبرايت يستنتج بشكل لافت أن: «السيد المسيح قد ظهر على مسرح الأحداث بالضبط عندما وصلت الحضارة الغربية إلى طريق مسدود ومميت» (403: 1957). وبالنسبة لأولبرايت أيضا فإن الخط الفكري والروحاني يمتد مباشرة من إسرائيل القديمة ليصل إلى الحضارة الغربية الحديثة، كما يتصورها هو على الأقل:

نحتاج إلى إعادة إحياء إيماننا بتجلي الإله في جبل سيناء، وبإله النبي إيليا[*6] ورؤيته في حوريب[*7]، بإله المنفى اليهودي في بابل، وبإله الألم في بستان جشيماني[*8].

(أولبرايت 403: 1957)

إن مزاعم أولبرايت تلك ومعتقداته اللاهوتية التي تفرض نفسها على إعادة بنائه للتاريخ الإسرائيلي، تقدم باسم البحث العلمي الموضوعي:

لقد قاومنا باستمرار إغراءات تعديل آرائنا في الحقائق التاريخية حتى نستنتج صورة أكثر بساطة ولكنها أقل موضوعية. لقد حاولنا أن نجعل الحقائق تعبر عن نفسها، ولو أن اهتمامنا بالسرد المنصف ورغبتنا في توفير الدلائل لتأكيد وجهة نظرنا قد تؤدي أحيانا إلى تعقيد النص والسرد التاريخي.

(أولبرايت 400: 1957)

ويؤكد أولبرايت لقرائه، بوصفه أكاديميا يتمتع بالموضوعية، وباعتباره ممثلا للعقلانية الغربية، أن ما يقدمه لهم هو إعادة بناء «موثوقة» لتاريخ إسرائيل القديم، وبإمكاننا مقارنة ذلك مع عبارة فريدمان Freedman التي قال فيها:

بالنسبة إلينا نحن الذين جئنا حديثا إلى هوبكنز Hopkins من حلقات الدراسة المسيحية اللاهوتية، فإن تأويل وعرض المعلومات كان متجانسا تماما مع حلقة البحث الشرقية Oriental Seminary... التي بدت وكأنها استمرار لما سبق أن خبرناه، وبالتحديد انحيازنا الثقافي القوي للديانة المسيحية، وهذه في الأساس رؤية دفاعية للدين، وبخاصة للديانة التوراتية في بيئتنا، إلا أن أساس العرض والمنهج كانا مختلفين.

(فريدمان Freedman 35: 1989)

وفي تركيز فريدمان على تربية أولبرايت الأرثوذكسية «والميثودية التقوية»[(*9)] pietistic Methodist، وموقفه المحافظ المتعلق بالديانة اليهودية، وتعاطفه مع الأصوليين والإنجيليين، يؤكد أن أولبرايت كان حريصا على عرض أعماله في سياق «تاريخ الأفكار» مدعيا أنه لم يدافع عن دين معين أو عن أي فرع له، ولم يقم بأي جهد لكتمان إيمانه هذا، ولكن فريدمان يزعم أن ذلك لم يكن معرقلا أو تطفليا، «لم يبد أنه (أي أولبرايت) كان في يوم من الأيام منهمكا بهذا الجدل بشكل شخصي، إذ إن النقاش والدفاع كانا دائما في دائرة البحث العقلاني الخالص» (35: 1989).

إن الأساس الديني لاختلاق أولبرايت لإسرائيل القديمة وتصويره لها على أنها تمثل الجذور الثقافية والعقلانية والروحية للمجتمع الغربي يبدو ظاهرا في كل أعماله. وعدم تعرض خطاب الدراسات التوراتية لهذه الأفكار عند تقييم أعمال أولبرايت هو شيء يدعو للقلق وبخاصة إذا ما أخذنا

بعين الاعتبار ما يقدمه من تبريرات لتفوق شعوب معينة على غيرها. أما المفارقة في هذا كله فهي أن دولة إسرائيل كرمته لأعماله العلمية ولدوره في مساعدة العديد من اللاجئين اليهود على الفرار من الاضطهاد النازي (رانغ وفريدمان Running & Freedman 1975). إلا أنه، مثله مثل العديد من الباحثين التوراتيين الذين جاءوا بعده، لم يفكر فيما سيترتب على تبرير قتل الإسرائيليين للشعب الفلسطيني أثناء غزوهم لأرض فلسطين. وفي مجموعة المقالات التي نشرتها حلقة بحث برعاية «الجمعية الأمريكية لأصدقاء جمعية استكشاف إسرائيل» American Friends of the Israel Exploration Society بعنوان «تكريم لوليام فوكسويل أولبرايت» يقول فان بيك Van Beek «إن مجرد تكريم أولبرايت دون تقييم صادق وحقيقي له هو بمنزلة الإطراء الذي لا طائل من ورائه» (3: 1989). ماذا يمكن إذن أن نفهم من هذا التردد الكبير من داخل خطاب الدراسات التوراتية في الاعتراف بالوجه العنصري لفلسفة أولبرايت؟ الجواب هو إما أن مجرد إثارة هذه المسألة كان في غاية الحساسية، أو أن خطاب الدراسات التوراتية تواطأ مع أولبرايت في هذا المشروع. وكذلك فإن عدم وضع الأصبع على الطابع المستهجن لأفكاره هو أيضا جزء من هذا التواطؤ. إن أفكار أولبرايت، التي اقتبسنا منها مطولا فيما سبق، تنطبق عليها حد كبير كل الانتقادات التي وجهها إدوارد سعيد للاستشراق. وكما في نقد الاستشراق، لا يمكن مطلقا اعتبار مثل هذه الأفكار نتيجة لأفكار شخص ما في فترة زمنية معينة، وكأنه من غير المنطقي أن يجادله أي شخص من منظورنا الحالي. ولا يمكن أيضا فصل أفكار أولبرايت عن باقي دراساته لأن فلسفته في التاريخ هي الشيء المهيمن على أفكاره هذه، وهي أساسية لتفسيره وتقديمه المعلومات التاريخية والأثرية. ما يجب أن نتذكره هو أن استنتاجاته، وإعادة بنائه للماضي، قد شكلت فيما سبق، ولا تزال تشكل، إدراك أجيال من دارسي التوراة والباحثين في هذا المجال وبخاصة الأمريكيين منهم والبريطانيين[7].

وحتى في نهاية الثمانينيات، فقد اعتبر أولبرايت رمزا للموضوعية في البحث الأكاديمي، وقد كان تصويره على هذا النحو ضروريا لخطاب الدراسات التوراتية كي تخفي تورطها في المشروع الاستعماري. وتماما كما

هي الحال مع اختلاق آلت Alt لتاريخ خيالي، كذلك تعرض أولبرايت لانتقاد شديد بدد أي وهم بصدقية آرائه. فنظريات أولبرايت تعاني من ضعف نظرية آلت نفسه فيما تحاوله من عزل أدبيات معينة ثم ربطها بشكل مشوه بالحقائق التاريخية. وما يثير السخرية أن المكتشفات الأثرية الحديثة ذاتها، من الحفريات والدراسات الاستطلاعية في المنطقة، هي نفسها التي قوضت بشكل كامل رواياته المختلفة للماضي. أما المشكلات التي أثارتها تنقيبات عاي Ai[(*10)] وأريحا فيما يتعلق بربط المعلومات الأثرية المكتشفة بالتراث التوراتي فهي شيء معروف للجميع[(*11)]. بالإضافة إلى ذلك، فإن اكتشاف الأواني ذات الحواف المقلوبة والمنازل ذات الغرف الأربع في مناطق مختلفة وفترات زمنية سابقة تزيد من إضعاف نظريات أولبرايت وتنفي انسجامها مع التراث الثقافي الإسرائيلي المادي، كما تقوّض أي نظرية حول وجود انقطاع مفاجئ وحاد مع الثقافات المحلية. ومن السهل أن نرى الآن، عندما نتأمل الموضوع بنظرة راجعة، أن إعادة بناء أولبرايت للماضي كانت شيئا مختلفا ولكنه كان مرتبطا إلى حد بعيد بالحاضر السياسي الذي عاش فيه كما كانت الحال بالنسبة لآلت. إلا أن التداعيات السياسية لأعماله ظلت حتى الآن دون تمحيص، وظلت مستترة وراء إنجازاته في التنقيات الأثرية ودراساته التوراتية بشكل عام. ولقد كان سيلبرمان في إعادة تقييمه لأعمال أولبرايت واحدا من الباحثين القلائل الذين نبهوا إلى المضامين السياسية وراء تلك الأعمال. فهو يقول:

من المستغرب أن علماء الآثار التوراتيين الحاليين - أو بالأحرى علماء الآثار المتخصصين في سوريا وفلسطين - الذين يفخرون بكونهم باحثين غير منحازين، لا يعترفون بأن هناك شيئا أبعد من الأفكار التاريخية العامة كان أولبرايت يرمي إليه. وكان هذا هو التراث الذي خلفه. هل يمكن للباحث الذي هو نفسه نتاج للمجتمع الحديث، وله وضع قومي وديني واقتصادي معين، أن يدخل إلى مجتمع تمزقه الصراعات (مثل فلسطين في العشرينيات)، دون أن يكون له إسهام - سواء عن قصد أو غير قصد - في ذلك الصراع السياسي الدائر هناك؟ هل بإمكانه، أو هل كان يجب أن يحصل على حق لإجراء تنقيبات أثرية في موقع ما (ذلك الموقع الذي هو أيضا جزء من المنظر الطبيعي الحالي للبلد)، وأن يتفاوض على السلع ويحصل على الخدمات، وعلى إذن الحكومة، ويوظف العمال المحليين، والأكثر من ذلك، أن يأتي برواية للتاريخ شديدة التأثر بالتحريف السياسي للأحداث في الفترة المعاصرة، دون أن يسهم - بقصد أو عن غير قصد - في الخطاب السياسي

المعاصر؟

(سيلبرمان Silberman 15: 1993)

لقد حاولت الدراسات التوراتية أن تظل منعزلة عن الاتجاهات الفكرية التي هزت التخصصات العلمية الأخرى، واختارت أن تتجاهل أو تنكر تورطها المعقد في المضمار السياسي، أما الأسئلة والقضايا التي أثارها سيلبرمان فلم تدخل في نطاق اهتمامها.

لقد كانت الدراسات التوراتية، ولا تزال، على الرغم من ادعائها البراءة، متورطة في الصراع المعاصر حول فلسطين، وهذا ما تؤكده مقالة أولبرايت عام 1942 في مجلة «فلسطين الجديدة» New Palestine تحت عنوان «لماذا يحتاج الشرق الأدنى إلى اليهود «Why the Near East needs the Jews» ، التي يصف فيها تغير المواقف بالنسبة للهجرة اليهودية إلى فلسطين عند زياراته الأولى لفلسطين عام 1919 و1920. يزعم أولبرايت أنه «صديق للعرب بقدر ما هو صديق لليهود» وهو مدرك تماما أن أعماله تدخل في إطار الصراع الدائر حول فلسطين الذي يشكل خلفية لها. أما تذبذه بين «قضايا الشعبين»، فقد حله أخيرا عندما أصبح أكثر تعاطفا مع «الصهيونية الثقافية»[12*] Cultural Zionism ، مدعيا أنه لايزال حياديا بالنسبة للصهيونية السياسية. أما في عام 1940 فقد تخلى عن حياده هذا في ضوء «الواقع الوحشي للهتلرية» وهذا اعتراف له دلالته، إذا ما أخذنا في الاعتبار آراءه حول الشعوب المتفوقة وحقها في أن تحل محل الشعوب الأدنى درجة، لقد اعترف الآن أولبرايت بأن الصهيونية هي الحل الوحيد، مطالبا «بالحق التاريخي» للشعب اليهودي، و «حقوقه القانونية المعترف بها دوليا في فلسطين». ثم يتابع فيقول: «إن ما هو أهم من الحق التاريخي الصريح هو قوة الدفع العاطفية الهائلة لإعادة إحياء صهيون. ففلسطين هي وطن آباء إسرائيل وشعرائها وأنبيائها، وفلسطين هي ورشة العمل التي أنتج فيها اليهود ثلاث وسائط للثقافة الغربية: التوراة العبرية والعهد الجديد والناموس الثاني «Second Law» (12 : 1942). وهكذا تصور إسرائيل على أنها منبع الحضارة الغربية، بينما يتم في الوقت نفسه تأكيد أن الاتصال المباشر بين الماضي والحاضر هو الذي يبرر حق إسرائيل في هذه الأرض. وحتى يظهر أولبرايت اتزانه وموضوعيته، وكذلك تعاطفه مع قضية عرب فلسطين، يحاول أن

يثبت أن «فلسطين اليهودية» لن تكون عاملا «مسببا للسخط وجسما غريبا في قلب عالم عربي إسلامي متجانس». فالشرق الأدنى يحتاج إلى اليهود بسبب التطور السريع الذي شهدته المنطقة والذي رافق الحضور والاستثمار الأمريكي والأوروبي في فلسطين. ما يُراد إنشاؤه هو إذن «مركز للحضارة الغربية ـ مركز ذو نفوذ وطاقة هائلة ـ في قلب الشرق الأدنى». وسيكون في هذا فائدة كبرى للمنطقة من النواحي التكنولوجية والطبية والثقافية التي سيجلبها المهاجرون اليهود إلى المنطقة.

يرى أولبرايت أن «إسرائيل العصر الحديدي» هي مرآة عاكسة «لإسرائيل المعاصرة» تصور إسرائيل على أنها ناقلة الحضارة (الأوروبية)، التي لن يكون لها دور في هذه المنطقة الفقيرة سوى التحسين من أوضاعها. وليس في هذا كله أي ذكر للسكان المحليين أو حقهم في الأرض، إن كان ذلك في الماضي أو في الحاضر. فقد كان اهتمام أولبرايت منصبا على حق إسرائيل التاريخي فقط، وتخيله لهذا التاريخ المختلق كان من أكثر الروايات تأثيرا في الدراسات التوراتية، وهو لايزال يتمتع بتأييد شعبي واسع ونفوذ كبير وبخاصة فيما بين الباحثين اليهود. وهكذا، فإن هذا الاختلاق لتاريخ إسرائيل القديم قد ادعى ملكية فلسطين لمصلحة إسرائيل، وهكذا ينكر أي ادعاء مماثل للسكان الأصليين سواء في الماضي القديم أو في الحاضر[8].

يشهد جورج إنست رايت George Ernest Wright وهو شخصية كبيرة في «الندوة التوراتية» Biblical Colloquium على أهمية آراء أولبرايت في توجيه وتشكيل خطاب الدراسات التوراتية في القرن العشرين. فكتاب رايت المهم بعنوان: «العهد القديم في إطار بيئته» The Old Testament against its Environment يبدأ بمقدمة، كتبت عام 1949، تصف الهدف من محاضرات هاسكل Haskell Lectures، بأنه «التدقيق في التركيز على ما في العقيدة التوراتية من عناصر أساسية كانت «فريدة من نوعها»، بحيث لم يكن من الممكن أن تكون قد نشأت نتيجة لعملية تطور طبيعي في العالم الوثني الذي ظهرت فيه. ولذلك، لا يمكن فهمها عن طريق فهم العوامل المحيطة بها أو عن طريق الجغرافيا» (7 :1950). وهو يأخذ موقفا من أولئك الذين يحاولون اتخاذ «موقف متشدد في تفسيرهم لعقيدة إسرائيل من النواحي التطورية». ففي رأي رايت Wright أن الأمر ها هنا يتعلق «بكيان فريد»، مفصول بشكل

حاد عن محيطه «الوثني» إلى درجة أنه لا يمكن فهم هذا الكيان بشكل كامل في السياق التطوري أو البيئي (7: 1950). وهذه الافتتاحية تلخص في سطورها الأولى الفرضيات الدينية والأيديولوجية المهيمنة على الدراسات التوراتية الغربية التي أسكتت التاريخ الفلسطيني. ومن اللافت أن يجد نفسه في خصام مع النظرية التطورية evolutionary assumption التي تفيد أنه من الممكن تتبع الطريق التطوري في التراث التوراتي من حيث إن هذا يؤدي إلى الفهم الخاطئ القائل «إن فكرة التطور تركز حتما على عملية الاستكشاف الإنساني بدلا من الوحي، وعلى التطور التدريجي بدلا من التحول المفاجئ» (11: 1950). مرة أخرى، نجده يستعمل لغة تطور الكائنات. إلا أن إسرائيل لا يمكن فهمها في سياق هذا التطور، لأن جذورها لا يمكن أن نرجعها إلى السكان الأصليين أو إلى الثقافة المحلية. فوضع إسرائيل «فريد» إلى درجة أنه لا يمكننا وصفها إلا بأنها تحول مفاجئ حصل بفعل إلهي وليس نتيجة حادثة عرضية في التاريخ[9] .ومفتاح فهم آراء رايت هو اعتقاده أن «التوراة تقول إن الإله الحي، يدخل حياة الناس فجأة ويقوم بعمل المعجزات العظيمة لمصلحتهم» (11: 1950).

يفرق رايت بشكل حاد بين إسرائيل ومحيطها، كما يقارن العالم الأسطوري للثقافة المحلية بالاستنتاجات المنطقية لعقيدة إله الوحي. ومن هنا يصبح في أمكانه أن يستنتج أن:

هذه، إذن بعض الفروق التي يجب أن نأخذها في الاعتبار بين إله إسرائيل وآلهة الشعوب الأخرى. وهذه الفروق تشكل معا أساس التحول المفاجئ الإسرائيلي الذي لا يمكن فهمه من خلال المعاني المجازية للنمو المتدرج. من المستحيل أن نرى كيف كان يمكن أن يتطور إله إسرائيل هذا بالتدرج من حالة تعدد الآلهة إلى التوحيد. للعقيدتين أسس مختلفة تماما، فعقيدة إسرائيل تظهر فجأة في التاريخ، وتتخلى بشكل جذري عن الإيمان بفاعلية الأساطير في عالم الواقع. كيف يمكننا أن نفسر هذه الظاهرة، إلا على أنها خلق جديد؟

(رايت 29 . 28: 1950)

من المهم ملاحظة أن رايت قال هذه الكلمات في فترة زمنية محددة، هي التي شهدت إنشاء دولة إسرائيل الحديثة. إن فهم رايت لإسرائيل القديمة وعقيدتها على أنها خلق «جديد تماما» و «مختلف عن محيطه»، له ما يوازيه في التصورات الأخرى لإسرائيل بأنها حالة «فريدة»، وعامل مهم

في إدخال الحضارة إلى المنطقة، وأنه لا علاقة لها بالمحيط الذي وجدت فيه. وهو يناشد آلت ونوث أن يؤكدا الفكرة القائلة إن التنظيم الأول قبل الملكي لإسرائيل كان دون شك مختلفا تماما عن تنظيم الشعوب المعاصرة لها» (61: 1950). إن ما يكمن وراء هذا كله هو الافتراض الأساسي القائل بوجود ارتباط مباشر بين فرادة إسرائيل وعقيدتها الدينية والمسيحية. هكذا، يستنتج رايت: (68: 1950) «أن الاختيار والميثاق الإلهيين Covenant قد أعطت إسرائيل قدرة على تفسير الحياة، ونظرة إلى التاريخ الإنساني كانت جوهرية بالنسبة للدين المسيحي، وبخاصة عندما يكون المسيح هو المحقق لهذه الغاية». ثم يتابع كلامه ليعترف بأن التاريخ يتقدم دائما إلى الأمام ولكن الأهداف قد حددها الإله (72: 1950). من الجائز أن تكون إسرائيل قد اقتبست بعض العناصر من محيطها، ولكن هذه المؤثرات لم يسمح لها بأن تشوّه خصوصيتها:

«ما اقتبسته إسرائيل (من جيرانها) كان الأقل أهمية، وقد أخذت هذه الاقتباسات شكلا مختلفا تماما عندما دخلت في سياق العقيدة الإسرائيلية. ما كان في السابق وثنيا، أصبح إسرائيليا خالصا، أو أصبح مصدر الشقاق في المجتمع. وعلى هذا فإن المسيحي واليهودي ينظران إلى التميز الواضح في العهد القديم على أنه البرهان على ادعاء إسرائيل بالوحي الخاص بها.

(رايت 74: 1950)

إن مفهوم إسرائيل لتاريخها، وبشكل حاسم، تجربتها التاريخية كان شيئا فريدا:

لقد تعلم الإنسان التوراتي، بخلاف أي إنسان آخر في العالم، أن يعلن عن إيمانه عن طريق سرد ما حصل لشعبه وبأن يرى يد الله فاعلة في كل ما حدث لهذا الشعب. وبكلمات أخرى، فإن الإيمان كان يتم تبليغه، بأشكال تاريخية مختلفة، وما لم نأخذ التاريخ بجدية لا يمكننا أن نفهم العقيدة التوراتية التي تؤكد معنى التاريخ بنجاح.

(رايت 17: 1962)

تعني مثل هذه الفرضية حول خصوصية إسرائيل وتجربتها الفريدة في التاريخ أن تجارب الشعوب الأخرى وادعاءاتها ليست سوى شيء ثانوي بالنسبة لإسرائيل(10). فتجريد السكان الأصليين من ممتلكاتهم ليس ذا شأن عندما ينظر إلى معنى التاريخ من زاوية واحدة فقط وهي زاوية كُتاب

هذا التراث التوراتي. ليس مستغربا، إذن، أن يصور رايت جذور إسرائيل في فلسطين في سياق التغير الحاسم المفاجئ على أنه وحي إلهي، ويمثل انقطاعا جذريا عن الثقافة المحلية. وفي مقدمة كتابه بعنوان «كتاب الأفعال الإلهية» The Book of the Acts of God يقول رايت دون خجل:

إن احتلال أرض كنعان الذي بواسطته تمكنت إسرائيل من تأمين أرض لها، قد فُسر على أنه هدية إلهية لميراث هذه الأرض. لم ينظر إلى الأرض على أنها ملك لأفراد وعائلات إسرائيلية متنوعة على اعتبار أن ذلك حق طبيعي لهم، بل على أنها هدية إلهية، وهكذا أصبح هناك مفهوم خاص لمعنى الملكية والالتزام أمام الإله، وأما الأرض التي كانت هدية من الإله، فيمكن أن تؤخذ منهم في أي وقت في المستقبل.

(رايت 9 . 8: 1969)

ليس هناك أى ذكر لحقوق السكان الفلسطينيين الأصليين في الأرض. إن حقوقهم وصوتهم، وتاريخهم يتم استبعادها في خضم البحث المستميت عن إسرائيل القديمة. فهنا لا يتعلق الحديث «بغزو» بل «بهدية»، ولا بتجريد السكان من أرضهم بل بتملك أرض أعطاها لهم الإله. وبالمثل، فإن أحد الأقسام الرئيسية في الكتاب يحمل عنوان «الأرض هدية الله» في سفري يشوّع والقضاة Joshua-Judges. لا يولي رايت أي اهتمام للذين جردوا من أرضهم وهو أيضا لا يبرر بشكل صحيح نظرية «الاحتلال» على طريقة أولبرايت التي يدّعي فيها حتمية التطور، وإنما يحاول بشكل مفضوح، أن يبرر أعمال «إبادة الجيش» التي تم فيها القضاء على السكان الأصليين حسب رواية يشوّع:

ندرك الآن، ليس فقط من خلال قراءتنا للتوراة، ولكن من مصادر أخرى غيرها أن الحضارة والديانة الكنعانيتين كانتا من أضعف وأحط وأكثر الثقافات اللاأخلاقية التي عرفها العالم المتحضر آنذاك. وهكذا، فإننا نعتقد أن إسرائيل كانت الواسطة الإلهية في تدمير حضارة فاسقة، إذ إنه ضمن النظام الأخلاقي للحضارات السماوية يجب تدمير مثل هذا الفجور الفظيع. ومن ناحية أخرى، فإن هناك غاية إلهية من وراء اختيار إسرائيل للقيام بهذه المهمة وبإعطائها تلك الأرض، وهذه الغاية موضحة في الوعود الإلهية لآباء إسرائيل كما وردت في سفر التكوين.

(رايت 109: 1960)

ويزعم رايت أنه لا يمكن أن يكون هناك خلاف حول مبدأ انحطاط ولا

أخلاقية الشعوب المحلية أو أن لإسرائيل الحق في أن تستولي على الأرض وتقتل سكانها. ثم يحاول أن يجد حلا لهذا الإشكال الديني بالنسبة للمسيحيين بقوله إن الإله «يحارب مع إسرائيل» ولذلك فإنه هو المسؤول عن تلك المذابح:

وبكلمات أخرى، فإن هناك غاية إلهية من وراء التوبة العامة وسط عالم فاسق ولمصلحته، وهو (أي الإله) يكرس الحروب بين البشر لخدمة أهدافه. وفي حالة إسرائيل، فإن غايته كما جاءت في وعوده للآباء Patriarchal promises قد توافقت في لحظة الغزو مع الظلم الشنيع الذي حصل في كنعان. وكان شيئا عظيما، بالنسبة لإسرائيل، أن حصلت على أرضها، وكان من حسن الحظ أيضا إذ تم التخلص من المسؤولية الجسيمة في إصدار الأحكام. في المقابل، كان شيئا عظيما للكنعانيين على المدى الطويل. وبين سنة 1300 و1100 قبل الميلاد، استولت إسرائيل على منطقة المرتفعات من الكنعانيين، بينما استولى الآراميون على كل منطقة سوريا الشرقية. أما البقية الباقية من السكان الأصليين فقد تم حصرهم في منطقة الساحل السوري حول صيدا وصور وإلى الشمال منهما. وبعد سنة 1100 قبل الميلاد، بدأ هؤلاء السكان المحليون في تطوير إحدى أهم الإمبراطوريات التجارية في العالم، (اليونانيون أطلقوا عليهم اسم فينيقيين). وانتشرت مستعمراتهم في كل منطقة البحر المتوسط، وقد أفاد من نشاطهم العالم بأجمعه فائدة كبرى، ولم يحصل هذا عن طريق الغزو وإنما عن طريق التجارة السلمية فقط.

(رايت 110: 1960)

من المذهل أن يصدق رايت أن إبادة الإسرائيليين والآراميين للسكان المحليين ومصادرة أرضهم كان لمصلحتهم (أي لمصلحة السكان المحليين). وليس هذا إلا وجها آخر أكثر تطرفا لخطاب اللورد بلفور في البرلمان البريطاني عام 1910، ذلك الخطاب الذي انتقده إدوارد سعيد، والذي قال فيه بلفور إن استعمار بريطانيا لمصر كان لمصلحة المصريين أنفسهم وكذلك الحضارة الغربية برمتها (36 ـ 1985:31). ما هذا إلا جزء من الخطاب الاستعماري التقليدي الذي يبرر الإمبريالية والاستعمار والقائل إن القوة الاستعمارية تتصرف بالنيابة عن السكان الأصليين. وما يثير الدهشة بشكل مماثل هو رأي رايت القائل إن مصادرة الأرض كانت لمصلحة فلسطين على المدى الطويل، لأن ما تبقى من السكان أجبروا على البقاء في الساحل الضيق فأصبحوا قوة تجارية عظمى. وكما يشير إيلون (Elon 150 : 1983) فإن العديد من الصهيونيين الأوائل كانوا على إيمان غير مبرر أن الصهيونية

كانت تمثل التقدم، وما تبع ذلك الاعتقاد من فرضيات ضمنية أن الاستيطان اليهودي كان فيه فائدة حتمية ونهائية للعرب. حتى أن عرب فلسطين اعتبروا في الواقع صهيونيين بالقوة أو بالإمكان potential Zionists، وتوقع الصهيونيون منهم أن يرحبوا باليهود مع مرور الوقت. يستنتج إيلون أن مثل هذه الآراء كانت مهيمنة تماما على تفكير العديد من الصهيونيين الأوائل حتى أنه لم يخطر على بالهم قط أي تفسير آخر لما كان يحدث، ولم يطرأ على بالهم احتمال وجود رواية أخرى بديلة لتاريخ المنطقة. إن الافتراض القائل إن غزو الإسرائيليين لفلسطين من قبل هو جزء من الوحي الإلهي وأن أرض فلسطين هي الهدية الإلهية لإسرائيل، «وأنها أحد أهم الأعمال الإلهية الطيبة» (104 ـ 103 : 1960) إنما يؤكد عزل التاريخ (أي الزمان) الفلسطيني واحتلال المكان الفلسطيني. وهكذا، فإن فلسطين تصبح بسرعة مذهلة، في الخطاب التوراتي «أرض اليهود» (105 : 1960). ولكن الجانب الذي له دلالته البالغة في كلامه من ناحية أخرى هو رأيه القائل إنه حتى بعد الاحتلال كانت إسرائيل معرضة لخطر الغزو من جانب الشعوب المحيطة بها، وكانت تفتقر إلى الأمن الحقيقي، هذا إذا ما تركنا التدخل الإلهي جانبا : «إن سفر القضاة يمثل إذن المشكلة الحقيقية لإسرائيل: وهي مشكلة العيش في ظل ميثاق إلهي من دونه لا تستشعر أمنا . ومثل هذه الأفكار تمهد الطريق للمرحلة اللاحقة: وهي إيجاد ملك في محاولة لحل هذه المعضلة». (رايت Wright 112 : 1960). إن حل مشكلة «الأمن » تلك كان إنشاء دولة قومية ذات سيادة. واختلاق إسرائيل القديمة في خطاب الدراسات التوراتية يعكس الوضع المعاصر حيث الهجرة اليهودية إلى فلسطين أنتجت أخيرا دولة إسرائيل الحديثة سنة 1948 كتحقيق للوعي القومي اليهودي وكوسيلة لتحقيق «الأمن» إزاء تهديدات الفلسطينيين والدول العربية المجاورة.

اختلق رايت تاريخ إسرائيل القديم في كتابه الشهير «علم الآثار التوراتية» Biblical Archaeology، الذي يشير فيه إلى أنه مع حصول التقدم الكبير وبالغ الدقة في علم الآثار في القرن العشرين، أصبح من الممكن التمييز «بين المدن الإسرائيلية الأولى ومدن الكنعانيين الذين لم يتمكن العبرانيون من طردهم، وذلك لتتبع أثر الغزو الإسرائيلي في كنعان» (25 ـ 24 : 1962). أما النقطة الجوهرية هنا فهي الفصل بين إسرائيل والسكان الأصليين،

وهذا ما نراه واضحا في تنقيبات أولبرايت في بيت إيل Bethel[13*]، التي شارك فيها رايت، والتي كشفت عن التدمير الهائل للمدينة. إلا أن النتائج التي يستخلصها من هذا تؤكد فرضياته المهيمنة على تفكيره:

كانت المدينة الكنعانية التي تم تدميرها مدينة راقية وكانت بيوتها ممتازة، وكانت أرضيات هذه البيوت مرصوصة أو مجصصة (مغطاة بطبقة جص) وفيها صرف صحي، وذلك بالمقارنة مع بيوت المدن المجاورة الفقيرة وغير المنظمة التي كانت تمثل التعاسة في صميمها. كان الفرق بين بيوت المدينتين كبيرا إلى درجة أنه لا يوجد أي شك في أن هذا التدمير كان من صنع الإسرائيليين.

(رايت Wrigth 81: 1962)

لا يقدم رايت أي برهان على هذا التصريح القاطع مع عدا الافتراض الضمني أن هذا التدمير الذي تلاه استيطان فقير يشير إلى أن الانقطاع الثقافي كان مفاجئا، ولا يمكن تفسير ذلك إلا على أنه كان غزوا خارجيا. ويؤكد ذلك من خلال تفسيره لتدمير «تل بيت مرسيم»[14*] Tell Beit Mirsim: «كما كان الحال مع بيت إيل Bethel، فإن المدينة الجديدة التي أسست على الانقضاض كانت مختلفة تماما عن سابقتها حتى أنه لا يمكن للمرء إلا أن يعتقد أن قوما آخرين هم الذين أقاموها، قوما كان من المؤكد أنهم إسرائيليون، أو من الشعوب القريبة منهم». (رايت 83: 1962). ومرة أخرى، لا يقدم أي دليل على هذا الاستنتاج، بل يذهب أبعد من ذلك بتأكيده أن التدمير كان حتما نتيجة غزو الإسرائيليين أو أحد الشعوب المنسوبة إليهم. هكذا فإن السكان الأصليين يتم تدميرهم ويسكت صوتهم في خضم البحث المتواصل عن إسرائيل القديمة. ويعتقد رايت أن «بإمكانه أن يستنتج دون خوف من الزلل أنه خلال القرن الثالث عشر (ق.م)، فإن جزءا من إسرائيل اللاحقة تمكن من الدخول إلى فلسطين من خلال غزو تم التخطيط له باتقان» (84: 1962). لقد حدد البحث عن إسرائل مسار المكتشفات الأثرية وتأويلاتها حتى أن الآثار المادية تعطي لونا شعوبيا ethnic جعلها تستعمل في الفصل بين إسرائيل وبين السكان الأصليين، حتى لو لم تسمح المكتشفات الأثرية ذاتها بمثل هذه الاستنتاجات.

والنتيجة الطبيعية لهذا هي أن الفرضية اللاهوتية تزعم أن إسرائيل، وبالتالي وريثها الروحاني - أي المسيحية، هي كيان فريد يمكن لمجراف عالم الآثار أن يؤكده:

بإمكاننا أن نرى الآن أنه، مع أن التوراة نشأت في هذا العالم القديم فإنها لم تنشأ فيه كلية، علما بأن تاريخ التوراة وكذلك شعبها يشبهون الشعوب المحيطة بهم، إلا أن التوراة تشع جوا وروحا وإيمانا، أعمق بكثير ومختلفا اختلافا أساسيا عن أي ثقافة أخرى من الثقافات القديمة.

(رايت 27: 1962)

تفصل «إسرائيل العالم القديم» فصلا تاما عن محيطها تماما كما توصف إسرائيل الحديثة عادة بأنها منفصلة تماما عن باقي بلدان الشرق الأوسط. إن وضعها المتميز، إذن، يعني أن احتلال فلسطين لا يشكل معضلة: لأن هذا في واقع الأمر هو جزء من الخطة الإلهية: «إن إنقاذ اليهود من العبودية في مصر، وهدية الأرض الطيبة إلى إسرائيل كانا بالنسبة لها أحسن الأعمال التي قام بها الإله لمصلحتها». (رايت 96: 1962). ما يسفر عنه ذلك بعد احتفالات شكيم (نابلس) (يشوع 24) هو «إسرائيل موحدة لها إرث قومي مشترك» (78: 1962).

وأعلى مظاهر التأثير لاختلاق غزو إسرائيلي في فلسطين يتمثل في كتاب جون برايت John Bright، بعنوان «تاريخ إسرائيل» A History of Israel، الذي نشر للمرة الأولى عام 1960، والذي هيمن على أفكار وافتراضات أجيال من الدارسين والباحثين[11]. وعلى الرغم من أن أعمال أولبرايت - برايت Albright - Bright ظلت تعد لمدة طويلة، نقيضا مباشرا لأعمال آلت - نوث Alt-Noth وفرضياتهما، كما ذكرنا سابقا، فإن من المهم أن نلاحظ مدى الفرضيات التي يشتركان فيها. وهذه الفرضيات هي التي تشكل أساس نظرية «حق إسرائيل» في الأرض والتي تبرر تجريد الفلسطينيين من ممتلكاتهم وأرضهم. في افتتاحية كتابه، يمهد للقارئ بالإشارة إلى إسرائيل بوصفها شعبا غريبا عن الإقليم (97: 1960)، وبشكل لافت، فإنه يضيف أنه مع نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، «كان الإسرائيليون قد استوطنوا الأرض التي ستكون ملكهم الخاص في كل القرون القادمة» (97: 1960). وهكذا، يستنتج برايت بشكل لا يدعو للشك أن فلسطين هي ملك اليهود الخاص. لا يوجد أي اعتبار لمطالب السكان الأصليين بحقهم في ملكية الأرض. ومع أنه يقرر أن إسرائيل أتت من خارج فلسطين لا يبدو أن هناك مشكلة في افتراضه أن فلسطين هي ملك لهذا «الشعب». أما أساس نظرية

برايت في إعادة بنائه لتاريخ هذه الفترة، وكذلك كل الفترات الأخرى، فهو افتراضه المهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، وكما رأينا، فإن إسرائيل ينظر إليها على أنها «حالة فريدة» وهي منفصلة تماما عن محيطها، وهذا ما يفسر كل وجه من أوجه أعماله، كما يقول ببلاغة في مقدمة كتابه:

إن تاريخ إسرائيل هو تاريخ شعب ظهر إلى الوجود في فترة زمنية معينة كجموعة قبائل وحدها الميثاق مع يهوه(*15)، وأصبحت أمة فيما بعد، ثم أمتين، وأخيرا أصبحت مجتمعا دينيا، ولكن بقيت طيلة الوقت منفصلة عن محيطها ولها خصوصيتها الثقافية المميزة. أما العامل المميز الذي جعل من إسرائيل تلك الحالة الفريدة التي كانت السبب في تكوين مجتمعها وكانت العامل المهيمن في تاريخها، فقد كان بالطبع هو عقيدتها الدينية.

(برايت Bright 9: 1960)

إن النظر إلى كتاب برايت هذا على أنه المرجع الرئيسي المعتمد في التاريخ الإسرائيلي، واعتماده في الجامعات البريطانية والأمريكية وكذلك حلقات البحث، قد أكد أن آراءه أصبحت نموذجا يحتذى في مفهوم «خصوصية» إسرائيل، وانفصالها عن محيطها. والمعنى المتضمن في هذا هو أن نظريته في وجود التباين مع الثقافة المحلية قد قرئت وتم استيعابها والاقتناع بها من عدد لا يحصى من الطلاب في العقدين أو الثلاثة عقود الأخيرة.

ويعترف برايت بالإنجازات المادية والثقافية لـ «كنعان» وما رافقها من ثقافة حضرية رائعة واختراعها للكتابة(108 ـ 107 : 1960). ومع ذلك، فإنه يصر على أن عقيدتها الدينية المحلية كانت لا أخلاقية وفاسدة إذ يقول: «على كل حال فإن دين كنعان لا يمدنا بصورة جميلة. لقد كان بالفعل، وبشكل عجيب، نوعا منحطا من الوثنية، وبالتحديد من ذلك النوع الذي يعبد الخصوبة» (108 : 1960) وهذا في مقابل الدين اليهودي الذي «لم يكن له مثيل في العالم القديم». وكانت هذه الخصوصية هي التي «فصلت إسرائيل عن محيطها وجعلت منها تلك الظاهرة المميزة والخلاقة» (128 : 1960). إن نقاء إسرائيل الأخلاقي يدعمه الرأي القائل إن فلسطين كانت تعتنق نوعا من الديانة لا يمكن لإسرائيل أن تعقد سلاما معه مهما اندمجت في ثقافة كنعان» (109 : 1960). والطريقة التي تصور بها إسرائيل على أنها مختلفة عن محيطها تعززها فرضيات آلت ونوث Alt & Noth القائلة: إن

السكان الأصليين لم يكن بمقدورهم تطوير نظم سياسة محكمة: «لقد كانت كنعان وحدة ثقافية، إلا أنها من الناحية السياسية كانت بلا هوية» (109 : 1960). تمتد العملية التطورية ـ وهي شيء تشترك فيه النظريتان، وجزء لا يتجزأ من خطاب الدراسات التوراتية ـ تمتد لتصل إلى المؤسسات السياسية والدينية: وعلى الرغم من أن فلسطين هي بمنزلة فرع الشجرة التطورية فإنها تفشل في الوصول إلى قمة التطور، وهذه القمة تتمثل في الدولة ـ الأمة والعقيدة التوحيدية، رمز الحضارة الأوروبية والأمريكية. وبهذا يصبح حتميا، في مثل هذا المشروع، أن يتم تخطي الثقافات المحلية المنحطة الراكدة لتستبدل بها الحضارة الإسرائيلية والغربية.

كلا النموذجين اتخذ نظرة تطورية تقادم عهدها الآن تقول بالتطور الاجتماعي والسياسي من حالة البداوة وشبه البداوة، وصولا إلى التجمعات المستقرة. اشتركت النظرية الأمريكية مع نظيرتها الألمانية في افتراض أن إسرائيل استوطنت في البداية في منطقة المرتفعات قليلة السكان في فلسطين. ويمهد برايت لوصفه غزو إسرائيل لكنعان بأن يوحي للقارئ بأن إسرائيل كانت على وشك أن تدخل نظاما أخلاقيا وسياسيا إلى المنطقة بالطريقة نفسها التي صورت بها إسرائيل المعاصرة على أنها ناقلة الحضارة (الأوروبية/الغربية) في منطقة كانت مجزأة سياسيا ومفلسة أخلاقيا. أما الإنجازات الثقافية لفلسطين فيمر عليها برايت مرورا سريعا ليركز على عجز الشعب الفاسد أخلاقيا العاجز عن تنظيم نفسه تنظيما سياسيا معقولا، أي أن الفلسطينيين القدماء لم يكن بإمكانهم أن يتخطوا الحاجز ليصلوا إلى مرحلة تكوين الدولة. لقد كانت فلسطين، قبل تدخل إسرائيل فيها، عبارة عن مجرد مجموعة مبعثرة من دول ـ المدينة الثانوية الخاضعة للحكم المصري، وبعد سقوط الحكم المصري أصبحت «غير منظمة وعاجزة» (109 : 1960). بالإضافة إلى ذلك، فإن الفرضية الأساسية المهيمنة على رؤية برايت للتاريخ، أو على أقل تقدير رؤيته لتاريخ إسرائيل، يمكننا الكشف عنها من خلال الجملة التالية: «إن هذا هو الذي جعل الغزو الإسرائيلي ممكنا، إذا نظرنا إلى الأمر بمنظور إنساني» (109 : 1960). فأساس هذه النظرية هو الاعتقاد أن «العامل الإلهي» هو الذي يتحكم بمجرى التاريخ[12]. لا عجب إذن إن لم يكن هناك حاجة إلى مساءلة إسرائيل وحقها في هذه

الأرض، فالأرض هي في نهاية المطاف «هدية» من الإله. وعلى هذا ينظر إلى إسرائيل على أنها الممهدة للحضارة الأوروبية وناقلتها في الوقت نفسه، وينبغي إدخالها إلى المنطقة من الخارج إذا ما أريد لهذه المنطقة أن تتطور، عملا بمبدأ التطور الديني والسياسي.

إن برايت على يقين تام (117 : 1960) من أن التراث المتعلق بغزو فلسطين هو حقيقة تاريخية «ينبغي عدم نكرانها»، كما فعلت الدراسات الألمانية المتخصصة التي أعقبت آلت Alt ونوث Noth. هذه المسألة تعد نقطة الخلاف الأساسية بين فرضيتين أساسيتين هيمنتا على خطاب الدراسات التوراتية خلال نصف قرن منذ بداية العشرينيات حتى السبعينيات من القرن العشرين، وهذا ما عتم على الفرضيات النقدية المشتركة وكان سببا في إسكات التاريخ الفلسطيني. وفي رأي برايت، وكذلك أستاذه أولبرايت، لا يمكن فهم هذا التاريخ أساسا إلا في سياق «الغزو الإسرائيلي» أو «الاحتلال الإسرائيلي». يعترف برايت بالتراث التوراتي القائل بغزو «سلمي» وطويل الأمد ولكنه يذهب إلى أن الدلائل الأثرية حول تدمير تجمعات مدنية رئيسية في فلسطين تقوده إلى الاستنتاج الآتي: «من المؤكد أنه كان هناك انقطاع عنيف حصل في القرن الثالث عشر!» (120: 1960)، وهو بهذا يتبع الافتراض التقليدي القائل إن إسرائيل استوطنت في البداية في مناطق المرتفعات قليلة السكان، وفيما بعد هزمت المراكز الحضرية في السهول. ثم يصف وصفا لافتا للنظر تلك العملية التي كان يمكن لها أن تنطبق بسهولة على النتائج المترتبة على إنشاء دولة إسرائيل المعاصرة:

> كان عدم استكمال الغزو واضحا، لم تتمكن إسرائيل من احتلال منطقة الساحل أو سهل جزريل(*16) Plan of Esdraelon، بينما كانت الجيوب الكنعانية - مثل القدس (سفر القضاة 1:21) - التي لم تتم السيطرة عليها إلا في فترة الملك داود (2 صامويل 5 : 6 - 10) - قد ظلت في منطقة الجبال أيضا. وحيث إن معظم هذه المناطق تم دمجها في إسرائيل في نهاية الأمر، فهذا يعني أن إسرائيل كانت ستشمل في نهاية المطاف شعبا لم يكن أجداده ممتنعين عن المشاركة في الغزو فحسب، بل إنهم قاوموه بعنف!
>
> (برايت Bright 122: 1960)

لا يذهب برايت بعيدا مثلما ذهب آلت Alt في زعمه أن هؤلاء السكان الأصليين لم يتوقعوا المساواة. ومع ذلك فإن نموذج برايت لإسرائيل القديمة

هو نموذج مماثل بشكل كبير لدولة إسرائيل الحديثة، التي أدمج فيها عدد كبير من الفلسطينيين داخل حدود الدولة الناشئة، وبالأخص عام 1948 ثم في حربي 1967 و1974[*17].

ونجد في نموذج برايت، أن حق إسرائيل في الأرض يعتمد بشكل أساسي على الحق في الغزو right of conquest، علما بأنه يشير إلى أن هناك ما يثبت أنه كانت هناك عناصر إسرائيلية في فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي الرئيسي (122 : 1960). وهذا الرأي يتطابق أيضا تطابقا كبيرا مع الوضع المعاصر، حيث كان هناك وجود يهودي مهم في فلسطين قبل الهجرة الصهيونية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقبل الصراع الذي أدى إلى إنشاء دولة إسرائيل عام 1948. إن وصفه الموجز لهذه العملية هو صدى لأعمال أولبرايت ورايت في تجاهلهما لحقوق السكان الأصليين، وهذا ما يتضح في قوله:

في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (ق.م.) حدث هجوم على فلسطين الغربية وهو ما تؤكده بقوة المكتشفات الأثرية، ومهما كان هذا الغزو ناقصا، فإنه قصم ظهر المقاومة المنظمة ومكّن إسرائيل من نقل مركزها القبلي إلى هناك. لا يوجد أي سبب للشك في أن هذا الغزو كان، كما يصفه سفر يشوّع، عملية وحشية ودموية. لقد كانت هذه هي حرب يهوه المقدسة، التي سوف يعطي فيها شعبه أرض الميعاد، وفي الوقت نفسه، يجب ألا ننسى أن العزل الديني[*18] طبق في حالات معينة فقط، ولم تتم إبادة السكان الكنعانيين بشكل كامل. فمعظم الأرض التي احتلتها إسرائيل كانت قليلة السكان، وفي مناطق أخرى كثيرة تعاطف السكان معها. إن انتصارات إسرائيل كانت السبب في انضمام أعداد كبيرة وعلى نطاق واسع إليها. اندمجت عشائر كاملة ومدن بالجملة فيها ودخلت ميثاق عهدها (يشوّع 24)، وكان العبيرو[*19] من ضمن هؤلاء الذين تم استيعابهم إما مرة واحدة أو فيما بعد وكذلك عدة مدن مختلفة في وسط فلسطين، واتحاد الجبعيون Gibeonite[*20] (الفصل التاسع) وعشائر ومدن الجليل، بالإضافة إلى جماعات أخرى (مثل القنزيون Kenizites، القينيون Kenites، الخ ...)[*21] وكثير منهم كانوا يتبعون دين يهوه من قبل، وكانوا قد تسللوا إلى الأرض من الجنوب واختلطوا مع أهل يهودا. ومع أن عملية الاستيعاب كانت ستستمر لبعض الوقت، فإن تركيب إسرائيل القبلي تشكل بسرعة وأخذ شكله النموذجي. بهذا، يمكن القول إن تاريخ إسرائيل ابتدأ.

(برايت 127 . 126 : 1960)

تاريخ إسرائيل يبدأ بينما التاريخ الفلسطيني ينتهي. إن الماضي ملك

لإسرائيل، أما السكان الأصليون، سواء كانوا قد اندمجوا في إسرائيل أو تمت إبادتهم، فليس لهم حق في هذا التاريخ.

إن دراسة فيبرت M. Wieppert المسحية (1971) وإعادة تأكيده لنظريات آلت، تؤكد أن الجدل بين مدرسة آلت وأولبرايت لم يكن حول تفاصيل تاريخية بقدر ما كان حول مبادئ منهج التأريخ. وهذا صحيح، بمعنى أنه كان جدلا حول القيم النسبية في التراث التوراتي و «الأدلة الخارجية»، وبالأخص ذلك الكم المتزايد من المعلومات والمكتشفات الأثرية التي تجمعت منذ 1920 وحتى اليوم. ومع ذلك، فإن هذا يخفي حقيقة أنه في أوجه مهمة، اشتركت المدرستان في فرضيات بارزة حول طبيعة إسرائيل واحتلالها/غزوها لفلسطين. فلم تثر أي منهما أسئلة حول قضية حق إسرائيل في الأرض وكذلك مسألة طرد السكان الأصليين وحقوقهم في الأرض. وفي الحالتين. فإنهما افترضا نموذجا متعلقا بالماضي كان مرتبطا بشكل مباشر بواقعهم المعاصر واتخذ شكل هذا الواقع بواقعهم المعاصر: ففي حالة مدرسة بالتيمور[22*]، حصل هذا بشكل مباشر تحت تأثير المسيحيين الإنجيليين، أما المسائل المنهجية الحقيقية التي أثرت في هذه التصورات لإسرائيل القديمة فقد أخفيت عن القارئ، وبقيت مخفية وغير مصرح بها في خطاب الدراسات التوراتية برمته. أدى البحث عن إسرائيل القديمة، في الدراسات العلمية الألمانية والأمريكية، إلى اختلاق هذا الكيان في فترة حرجة من تاريخ المنطقة وهي فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. وقد أسهمت هذه الاختلاقات في إسكات التاريخ الفلسطيني القديم واستبعاده من التاريخ. ففي تلك اللحظة، كانت إسرائيل هي فلسطين: أما فلسطين وتاريخها، والمكان والزمان الفلسطينيان، فكل هذا تم إخضاعه بشكل كامل من قبل إسرائيل وادعاءاتها بالماضي، كما صورته الشخصيات الكبرى في الدراسات العلمية التوراتية في الغرب.

المطالبة بفلسطين

3- الصراع داخل فلسطين

يعود الفضل إلى جورج مندنهول George Mendenhall ـ وهو أحد تلامذة أولبرايت في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins ـ في صياغة تفسير بديل

لجذور إسرائيل، تحدى فيه كثيرا من المسلمات المتضمنة في نظرية آلت ونوث Alt & Noth ، وأولبرايت وبرايت Albright & Bright، وهم الذين اختلقوا إسرائيل القديمة على صورة إسرائيل المعاصرة، ولم يلبث أن هدم هذه النظرية من أساسها. وكان مندنهول قدر نشر دراسة عرض فيها برنامجه في البحث بعنوان «الغزو العبراني لفلسطين» The Hebrew conquest of Palestine في مجلة «عالم الآثار التوراتي» Biblical Archaeologist سنة 1962، ولكن الأوساط المتخصصة تجاهلتها لبعض الوقت ثم أصبحت في السبعينيات والثمانينيات محوراً لجدل حامي الوطيس. وقد أصبح من الشائع النظر إلى هذه الدراسة على أنها هي التي هزت خطاب الدراسات التوراتية من أساسه فيما يتعلق بجذور إسرائيل التاريخية، وذلك لأنها هدمت نظرية الغزو والهجرة. إلا أن هذا الرأي الذي أصبح سائدا مضلل بدوره، لأن نظريات مندنهول نفسه كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بآراء أولبرايت الأساسية، ولم تخرج عن نطاق خطاب الدراسات التوراتية بل كانت سجينة لهذا الخطاب الذي كان هدفه البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منبع الحضارة الغربية، والذي اختلق إسرائيل بالفعل على صورة الغرب مما ساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني. إن المفارقة في أعمال مندنهول تكمن في أن هناك جوانب مهمة في أعماله تضفي شرعية على التاريخ الفلسطيني وتجعل له صوتا، إلا أن هذا الصوت سرعان ما يتم التراجع عنه أو يستبعد بحكم ادعاءات المسيحية بامتلاك الحقيقة.

ومن المفارقة أيضا أن منطلق مندنهول يتفق مع الفرضية المحورية لكتابنا هذا: فقد اختلقت مدارس البحث العلمي السابقة إسرائيل على صورتها هي، وذلك بالاستناد إلى نظريات ونماذج عفا عليها الزمان، أو مثالية. ومن الطريف أن أحد أهداف مندنهول المعلنة، في ضوء الجدل الدائر حول ما بعد الحداثة، كان «تجنب أسوأ الأخطاء، وهو إسقاط الأفكار الحديثة على العالم القديم. فمفهوم القومية، شأنه شأن العنصرية، هو من الناحية العملية، مفهوم لا وجود له في التاريخ القديم» (184 : 1973). فنظريات آلت وأولبرايت استندت إلى فرضيات خاطئة في جوهرها، وهي أن إسرائيل كانت مجتمعا قبليا، شبيها بالمجتمع البدوي في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهو ما يطلق عليه مندنهول فيما بعد «السراب البدوي» The

nomadic mirage (150 : 1973)[13] . ويجادل مندنهول بأنه لم يكن هناك إدراك كاف للتعصب الاجتماعي والسياسي الذي اتسم به الباحثون المشتغلون في إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم. فكلا النموذجين السابقين افترض أن التغيرات في العالم القديم لا يمكن تفسيرها إلا في سياق الهجرات العرقية أو الغزوات التي أزاحت مجموعات إثنية وعرقية أخرى وحلت محلها . وهكذا فقد اهتم مندنهول بالكشف عن هذه «الفرضيات الصريحة أو المضمرة» (67 : 1962) لكلا النموذجين المتعلقين بجذور إسرائيل، وذلك بإثارته الشكوك حول الفرضية الأساسية القائلة إن الإسرائيليين الأوائل كانوا بدوا، استنادا إلى دلائل من التوراة ومن خارجها.

وقد بدا للوهلة الأولى أن مندنهول رفض النظرة التطورية التي تحكمت بخطاب الدراسات التوراتية وذلك عن طريق رفض نمط من التطور يدّعي الارتقاء من حالة البداوة إلى سكنى القرى ثم المدن(14)، وهذا أدى إلى فرضية بدت جذرية وقد قدر لها أن تشغل الباحثين التوراتيين مدة طويلة:

حقيقة الأمر ـ ومؤلف هذا الكتاب يعتبر هذه حقيقة واقعة، مع أنه ليس بالإمكان «إثبات» كل التفاصيل ـ أن كلا من وثائق العمارنة[*23] والقصص التوراتية تقدم عرضا متشابها للعملية السياسية نفسها: وهي تحديدا تخلي مجموعات كبيرة من الناس عن أي التزام نحو الأنظمة السياسية القائمة، ليس ماديا أو جغرافيا، بل سياسيا وبشكل ذاتي، وبالتالي التنازل عن طلب الحماية من هذه المصادر. بعبارة أخرى، لم يكن هناك غزو لفلسطين بأعداد لها أهمية إحصائية في بداية نظام القبائل الاثنتي عشرة في إسرائيل. ولم يكن هناك أي ترحيل جذري للسكان، بل كان هناك فقط استبدال ضروري للحكام المحليين التابعين للملوك باسم الملوك. ومجمل القول، فإنه لم يكن هناك أي غزو حقيقي لفلسطين، بل إن الذي حصل بدلا من ذلك يمكن أن يسمى، من وجهة نظر المؤرخ العلماني المهتم فقط بالعملية السياسية ـ الاجتماعية، هو ثورة فلاحين ضد شبكة مترابطة من دول ـ المدينة الكنعانية.

(مندنهول Mendenhall 73: 1962)

يمثل هذا التفسير خروجا جذريا على النموذجين السابقين اللذين تم تناولهما واللذين افترضا غزوا خارجيا أساسيا أو حصول هجرة سلمية: افترض مندنهول أن العامل الخارجي كان عبارة عن مجموعة صغيرة كان دورها محفزا لجمهور الفلاحين الفلسطينيين المقهورين والمحتكرين. وفي رأي مندنهول أن السمة الأساسية لهذه «الثورة التوراتية»، كما سماها، لم

تكن الثورة الفلاحية المحلية، وإنما الثورة الدينية. وفي الواقع، فقد شكا فيما بعد من أن تحديد فرضيته القائلة بأصول إسرائيل على أنها «ثورة فلاحية» لم يكن موفقا بل كان مضللا، لأن هذا لم يكن إلا وجها ثانويا وربما عرضيا «من الثورة التوراتية» (31: 1983).

لكن آراءه تنطوي عى مفارقة مهمة، فإثارته الأسئلة حول الفرضية الأساسية القائلة إن جذور إسرائيل في فلسطين كانت نتيجة هجرة خارجية لشعب جديد، يبدو أنها تعطي الثقافة المحلية وتاريخها أهمية لم يكن معترفا بها في السابق. إلا أن تأكيده لمركزية الدين الجديد، الوافد من الخارج، قد قضى فورا على أي احتمال بالخروج عن التاريخ السائد للمنطقة، بالإضافة إلى ذلك يركز مندنهول على الفساد الكامن للثقافة المحلية ربما بشكل أقوى مما فعله أولبرايت. فقد أظهر تضادا حادا بين الأخلاق التي جاءت بها عقيدة التوحيد التي أتت من خارج فلسطين بواسطة إسرائيل - مهما كانت أهميته ضئيلة من الوجهة الإحصائية - وبين المعتقدات اللاأخلاقية التي تؤمن بآلهة متعددة في نظام دول - المدينة المحلي الفاسد. أما تحليله للإطار السياسي فيفترض أعمال آلت بصورة ضمنية.

حصل الغزو العبراني لفلسطين لأن حركة ودافعا دينيين قد أحدثا تضامنا بين مجموعة من الوحدات الاجتماعية التي كانت موجودة من قبل، فتمكنت من تحدي وهزيمة تجمع المدن عديمة الكفاءة التي كانت تسيطر على فلسطين وسوريا في أواخر العصر البرونزي.

(مندنهول 73: 1962)

لقد كانت افتراضات مندنهول الدينية هي المحرك الرئيسي لتحليلاته التاريخية[15]:

إن هذ التأكيد الديني لقيمة الأحداث التاريخية لايزال ساريا حتى الآن، وهو حقا السمة المميزة للعقيدة الإسرائيلية، وقد كان ذلك أمرا طبيعيا لأن أي انفصال عقيدي للقيم الدينية عن الواقع المؤلم للحقائق التاريخية، من المحتم أن ينتج عنه تحول جذري لطبيعة الالتزام الديني. ولهذا السبب، فإن اللاهوت والتاريخ متلازمان تماما في العقيدة التوراتية، فلو انفصل الدين التوراتي عن الواقع التاريخي لأصبح في نهاية المطاف معتقدا شعائريا، ولو انفصل التاريخ عن القيم الدينية لأصبح مجرد هواية دنيوية بلا قيمة، لدى هواة اقتناء الأشياء القديمة .

(مندنهول 74: 1962)

هذا النهج اللاهوتي الذي يربط مباشرة بين «الثورة التوراتية» والفترة

الزمنية التي عاصرها مندنهول نفسه، يفصح عن نفسه بوضوح تام في مقدمة كتابه الرئيسي بعنوان «الجيل العاشر The Tenth Generation»، إذ يقول:

ما كان مهما بالنسبة لهذا المجتمع هو الطريقة الجديدة والمختلفة جذريا عما سبقها في فهم الإله، والطبيعة والإنسان ـ وكان هذا شيئا ثوريا حقا. وهذه الثورة التي حصلت لم تفقد أهميتها منذ زمن موسى حتى اليوم، وهي اليوم ضرورية مثلما كانت في ذلك الوقت.

(مندنهول 1973: المقدمة xi)

إن تأكيد مندنهول لخصوصية إسرائيل المبنية على عقيدتها، تلك العقيدة التي هي أساس الحضارة الغربية، يسمح له بأن يتبنى، بل أن يدعم، الافتراض الشائع بوجود انفصال بين إسرائيل والثقافة المحلية في فلسطين. وفضلا عن ذلك، فإن مثل هذا التأكيد يعكس الافتراض الشائع بوجود استمرارية متصلة بين إسرائيل القديمة والعالم الغربي الحديث، بوصفهما مجتمعين قاما على فكرة التوحيد على عكس الشرق الأدنى الذي كان يؤمن بتعدد الآلهة. وعلى هذا، فإن نظرية مندنهول تؤدي إلى فهم لوجود فصل بين إسرائيل ومحيطها «الكنعاني» أكثر تطرفا من سائر النظريات، إذ إن نظريته التي تفترض حدوث الثورة المحلية لا تؤدي إلى فهم وتقدير أكبر للثقافة المحلية ولتاريخ فلسطين: بل إن هذه النظرية تسهم بدرجة مماثلة للنظريات الأخرى في إسكات التاريخ الفلسطيني، أما اختلافه الجذري فيعبّر عنه في النص الآتي:

لا يمكننا إذن فهم إسرائيل القديمة في نطاق الأفكار الأكاديمية التقليدية التي تقول: إن المجتمعات البدائية تتطور ببطء لتصل إلى حالة الحياة الحضرية ومن ثم تصبح متحضرة. إن بدايات إسرائيل الأولى تطلبت رفضا جذريا للديانة الكنعانية وأيديولوجيتها السياسية، وبالأخص السلطة الإلهية التي هي دعامة المؤسسات الدينية، وكذلك رفض المفهوم الكنعاني للدين على أنه في جوهره تجسيد احتفالي شعائري للاهتمامات الاقتصادية للجماعة ـ وكذلك عبادة الخصوبة. فلا يمكن استيعاب مفهوم الإله في العقيدة الإسرائيلية المبكرة إلا بعد أن نفترض أن المجموعات المعنية قد جرّبت مباشرة وعلى فترات زمنية، عجز النظام الملكي الكنعاني، لأن أعمال الملك المعتادة وسلطته وهيبته هو وحاشيته هي مزايا تنفرد بها الألوهية. وهكذا، فإن امتلاك الأرض والقيادة العسكرية، و «المجد» وحق القيادة، والسلطة، كلها تُنكر على البشر وتنسب للإله ـ

(مندنهول 76: 1962)

التركيز هنا على فكرة الأرض هي ملك إلهي، وعلى هذا فهي هدية

إلهية، وبالتالي فإن فقدان الأرض الفلسطينية لمصلحة الهيمنة الإسرائيلية يصبح شيئا مبررا، في سياق كون الأرض هدية إلهية لإسرائيل، أما السكان الأصليون وثقافتهم اللاأخلاقية والفاسدة، فهم بكل بساطة لا يملكون أي حق في الأرض في إطار هذا المفهوم. أما «احتلال إسرائيل لفلسطين» فهو تأكيد لهذه الهدية الإلهية. ثم يجد مندنهول فروقا إضافية بين إسرائيل وكنعان لها صدى كبير في الخطاب المعاصر لتبرير وإضفاء الشرعية على دولة إسرائيل الحديثة في مقابل فشل سكان فلسطين الأصليين، حيث يقول: «إن الاهتمام بالمحافظة على السلام في مساحة واسعة من الأرض كان من القضايا المهمة التي أثارت اهتمام العقيدة الإسرائيلية المبكرة، وهو ما كان متباينا تماما مع كنعان في فترة العصر البرونزي المتأخر (مندنهول 77 : 1962). إسرائيل فقط كان بإمكانها أن تحافظ على السلام في هذه المنطقة الواسعة لأن النظام المحلي كان يمثل استغلال النخبة في المدن للفلاحين. لذلك، فإن المجتمع الكنعاني، وبالتالي الفلسطيني لم يكن بمقدوره أن يطور تنظيما اجتماعيا متحضرا «وإذ نظرت العقيدة الإسرائيلية المبكرة إلى الصراع على السلطة على أنه استحواذ غير مشروع على ما ينفرد به الإله، فإنها أرست بذلك قواعد سلام داخلي لم يكن بمقدور الكنعانيين أن يقوموا بمثله» (مندنهول 78: 1962).

إن التركيز على الثورة الفلاحية، الذي كان بالنسبة لمندنهول شيئا عرضيا وتحديدا غير موفق، قد ألقى في أحيان كثيرة ظلالا من الغموض على التمييز الجذري الذي أقامه بين إسرائيل والثقافة المحلية. وبوصفه تلميذا لأولبرايت وعضوا في حلقة البحث التوراتية ذات النفوذ الواسع Biblical Colloquium، فإن مندنهول يعبر تعبيرا صريحا عن العديد من الفرضيات التي كانت توجد بصورة ضمنية في خطاب الدراسات التوراتية والتي أسهمت في إسكات التاريخ الفلسطيني من خلال الاختلاق الأكاديمي لإسرائيل القديمة. فتمييز مندنهول الجذري بين العقيدة الإسرائيلية والأنظمة الاجتماعية السياسية المنحطة والفاسدة التي تحكم سكان فلسطين الأصليين، يظل يعكس تصوير إسرائيل في العصر الحالي على أنها تطور جديد وجذري في المنطقة. فجذور إسرائيل ترجع إلى الحضارة الأوروبية والديمقراطية التي استطاعت أن تستغل هذه الأرض التي تركها السكان

المحليون المنقسمون على أنفسهم والكسالى مهملة ردحا طويلا من الزمان.

أما أكثر أوجه تحليل مندنهول غرابة فهو إثارته الأسئلة حول وحدة إسرائيل الإثنية (العرقية) فيما يتعلق بعلاقتها مع كنعان[16]. فالأغلبية الساحقة «لإسرائيل» كانت في نظره مجموعات محلية وأشخاصا رفضوا الأنظمة الاجتماعية والسياسية لكنعان في العصر البرونزي المتأخر. وكما أسلفنا، يبدو للوهلة الأولى أن هذا ينبغي أن يوفر الأساس للإفصاح عن التاريخ الفلسطيني القائم بذاته. ومع ذلك، فمع أن مندنهول رفض النموذج التطوري من النواحي الاجتماعية والسياسية على طريقة أولبرايت وآلت، فإنه فرض نموذجا تطوريا أقوى للتطور الديني، مما أدى إلى إسكات التاريخ الفلسطيني بشكل لا يقل فعالية:

في الماضي كان الانقطاع من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي يفسر بافتراض حدوث تغيير أو إزاحة للسكان: فقد أزاح الإسرائيليون الكنعانيين جزئيا، وأزاح الفينيقيون الكنعانيين إلى مكان آخر، أما الآراميون، فقد أزاحوا مزيدا من السكان، وهكذا إلى آخر المدى. كل هذه أفكار لم تعد الآن مقبولة، مادام الفينيقيون مجرد استمرار للثقافة الكنعانية، مع تغيرات مهمة بالطبع، كذلك يمثل الإسرائيليون امتدادا كهذا مع تغيرات أهم (بالأخص في النظام الديني والاجتماعي). وكما تبين المكتشفات الأثرية بشكل مؤكد، فمن الصحيح أن الفروق كانت طفيفة بين الحضارتين من الناحية المادية وهذه الفروق يمكن تفسيرها على أنها اختلافات في الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والدينية للإسرائيليين القدماء.

(مندنهول 10: 1973).

لقد أُدينت الديانة والثقافة المحلية على نحو قوي جدا، ورفضت على أنها «وثنية العصر البرونزي المتأخر»، ورفض خطاب الدراسات التوراتية الاعتراف بأن الديانة المحلية تتمتع بأي شرعية. [17] أما زعم الديانتين اليهودية والمسيحية - اللتين تمثلان جذور الحضارة الغربية - بامتلاكهما الحقيقة فقد تم قبوله بلا تفكير بقدر ما صورت الأنظمة الدينية الفلسطينية على أنها لا أخلاقية وفاسدة. يفضل مندنهول الحديث عن أسس المجتمع الديني الذي يدعي «إسرائيل»، باعتباره مجتمعا طوباويا مبنيا على أساس العلاقات الأخلاقية بين الناس. هكذا فإن اختلاقه لإسرائيل القديمة يمكن مقارنته مع تطلعات المهاجرين الصهيونيين الأوائل إلى إنشاء «مجتمع جديد وعادل» (إيلون Elon 143 : 1983). أما «الثورة التوراتية»، وهي حجر الأساس

للحضارة الغربية، فهي التي تحل محل النظام الوثني الفاسق. ومما يثير الاهتمام أنه على الرغم من اعتبار السكان المحليين عاملا مهما من الوجهة العددية في تدمير المراكز الحضرية في فلسطين في أواخر العصر البرونزي، فإن الحركة الدينية التي تجعل هذا ممكنا قد أتت من الخارج: فقد أتى بها مجموعة صغيرة من الإسرائيلين الفارين من فرعون مصر. أما العامل الذي يسهم بحق في تمدين المجتمع الفلسطيني وتحويله فإنه نظام ديني آت من خارج فلسطين:

أي تاريخ يتناول الجذور الأولى لإسرائيل يجب أن يبدأ، أو على أقل تقدير يعير اهتماما كافيا، للظهور المفاجئ لمجتمع كبير في فلسطين والأردن، بعد جيل واحد فقط من هروب مجموعة صغيرة من مصر تحت قيادة النبي موسى. وفي الوقت نفسه، يجب على هذا التاريخ أن يأخذ أيضا في اعتباره أنه منذ الفترات المبكرة كان هناك تناقض جذري بين الأيديولوجية الدينية لإسرائيل وأيديولوجية الفترات السابقة والجماعات المجاورة. على الرغم من هذا التناقض، فإن كل العناصر التقليدية المحددة في الثقافة والأيديولوجيا الإسرائيلية المبكرة لها نظائر مؤثرة في المصادر قبل الإسرائيلية أو المصادر الدخيلة الأخرى.

(مندنهول 25: 1973)

يشدد مندنهول على «عناصر الاستمرار الشكلية المجردة» مع «الحضارات قبل اليهودية (الكنعانية) والأناضولية والتي كانت السمة المميزة للمشهد الفلسطيني»، ولكن هذا قبل مرحلة «التوحيد الاجتماعي والديني» (25: 1973، هامش 93). والتركيز هنا هو على حقيقة أن هذا التوحيد كان نتيجة العامل الخارجي فقط، وهذا شيء لم يكن بإمكان السكان والأنظمة المحلية أن تصل إليه دون توجيه خارجي. وهكذا فإن مندنهول، بدلا من أن يهز الخطاب التوراتي من أساسه، ويعطي صوتا للتاريخ الفلسطيني، يختلق إسرائيل قديمة تستمر في إنكار قيمة المجتمع والتاريخ الفلسطيني.

لكن ما يمكن أن يكون أكثر أهمية بكثير لتطوير التاريخ الفلسطيني القائم بذاته هو إثارته للأسئلة حول الربط السببي بين نمو المستوطنات في المرتفعات وانهيار التجمعات الحضرية:

إن كمية ومستويات التدمير الذي كشفت عنه الحفريات في فلسطين لم يكن سببها الإسرائيليون، ولكنها كانت جزءا من التجربة العامة للسكان والتي جعلت الرغبة والحاجة إلى مجتمع جديد شيئا حيويا. هذا هو ما سيؤدي للسلام ويؤمن تعاونا جديدا لإعادة بناء مجتمع

واقتصاد محطم.

(مندنهول 23: 1973).

وهكذا، فإن تحول الاستيطان قد فهم على أنه نتيجة الانهيار الحضري بدلا من أن يكون سببه (64 ـ 63: 1973). وعلى الرغم من أن استنتاجات مندنهول مرتبطة تماما بمشروعه اللاهوتي، فإن تحليله للمعلومات الأثرية يمدنا بنقطة بداية مهمة جدا لتاريخ فلسطين القديم بوصفه دراسة للعوامل التي أدت إلى حدوث التغيرات الاجتماعية في المنطقة. وإذا ما تركنا جانبا الخلافات المتعلقة بالبحث عن إسرائيل القديمة وانصب اهتمامنا على محاولة تفسير هذه العوامل المتعلقة بالثورات السياسية والاجتماعية في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، وما رافقها من تحول الاستيطان، فإن تحليلات مندنهول تصبح جديرة بالقبول.

وهكذا تتحول بؤرة الاهتمام إلى محاولة فهم العوامل التي أسهمت في التحول الاستيطاني settlement shift. وما رافقه من انحطاط اقتصادي في المنطقة في نهاية العصر البرونزي المتأخر. هذا هو التوجه الذي يبشر بتحقيق دراسة التاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته بدلا من أن يكون مجرد خلفية للبحث عن إسرائيل القديمة بدافع ديني وسياسي. والمفارقة المتضمنة في تحليل مندنهول توفر لنا مقارنة لها دلالتها وبكم هائل من البحث الذي تلاه، والذي سوف نعرضه في الفصل الخامس، حيث تجاهل خطاب الدراسات التوراتية في بحثه المتواصل والبائس عن إسرائيل القديمة المعلومات المتراكمة من الحفريات وأعمال المسح الأثرية، التي تعطي صوتا للتاريخ الفلسطيني.

لقد طور نورمان غوتفالد Norman Gottwald العديد من أفكار مندنهول الأساسية ووضعها في قالب سياسي واضح فيما يتعلق بجذور إسرائيل المبكرة وذلك في عمله الضخم الذي يحمل عنوان «قبائل يهوه، دراسة سوسيولوجية لديانات إسرائيل المحررة 1250 ـ 1050 ق.م» The Tribes of Yahweh, A sociology of the Religions of Liberated Israel 1250 - 1050 B. C. E.. بسرعة يوحي هذا العنوان للقارئ بالطبيعة السياسية الواضحة في عمل غوتفالد هذا، وهو شيء استمر في تطويره في سلسلة من الدراسات الأخرى. ويتضح هذا أيضا من إهدائه عمله إلى ذكرى وشرف «الإسرائيليين الأوائل».

تلي ذلك إشادة غير محددة الأسماء anonymous بشعب فييتنام حيث كان الحب المقترن بالقوة ضروريين لتدمير القوة المجردة من الحب. يبدأ غوتفالد مقدمة كتابه بثلاثة اقتباسات يركز فيها على أهمية الحركات الثورية في التغيير الاجتماعي، أحدهما مستمد من ماركس وإنجلز، وآخر من مندنهول (12 : 1973)، ثم يعرض بوضوح أهم المؤثرات في عمله:

إن عقدين من الانشغال بقضايا حقوق الإنسان المدنية، ومعارضة حرب فيتنام، والنشاط المعادي للإمبريالية، وبتحليل الرأسمالية الأمريكية الشمالية، والعمل ضد عشوائية السياسة الكنسية والتربوية، هذه كلها وفرت «مختبرا حيا» ومصدرا دائما للمعلومات يلقى الضوء على الصراعات الاجتماعية في إسرائيل القديمة.

(**غوتفالد** Gottwald **المقدمة** xxv: **1979**).

من الواضح جدا أن غوتفالد كان مدركا تماما لدور المؤثرات الذاتية في السياسة المعاصرة في تشكيل تاريخ إسرائيل القديم [18]. وتختتم المقدمة بعبارة يشيع اقتباسها، مفادها «لن يستطيع أحد أن يفهم روحانية إسرائيل القديمة فهما عميقا إلا إذا فهمها ماديا بشكل أفضل» (المقدمة xxv: 1979). إن هدفه المعلن هو النظر إلى الدين اليهودي على أنه جزء من النظام الاجتماعي الكلي وذلك من خلال حشد «أوثق المعلومات حول نشوء إسرائيل، كما حددتها المناهج المعترف بها في العلم التوراتي» (المقدمة xxii: 1979).

من المذهل، إذا أخذنا بالاعتبار الطبيعة السياسية الواضحة لأعمال غوتفالد، وتحليله الماركسي - المادي للتاريخ واعترافه بدوره في معارضة حرب فيتنام، أنه لا يذكر أبدا الكفاح الفلسطيني لتقرير المصير. وفي واحد من أكثر أعمال الدراسات التوراتية جذرية وإثارة للجدل في القرن العشرين، تظل مسألة فلسطين غير مصرح بها. وبالمثل، استطاع سيلبرمان Silberman أن يقول في تقييمه فرضيات مندنهول وغوتفالد إن «نظرية الثورة الفلاحية» لبدايات إسرائيل كانت لها قوة بلاغية واضحة في السبعينيات، تلك الفترة التي شهدت ولادة حركات التحرر الوطنية في العالم الثالث». (سيلبرمان Silberman 29: 1992). إلا أن سيلبرمان، الذي اعتاد إعادة بناء الماضي بشكل مسيس، لا يبذل أي جهد للربط بين هذه النظرية حول جذور إسرائيل وبين أكثر حركات التحرر الوطني وضوحا، وهي كفاح الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي. وتظل المشكلة غير مصرح بها لأن خطاب الدراسات

التوراتية المهيمن قد أسكت تماما وبشكل محكم أي فكرة لوجود تاريخ فلسطيني أو حتى أي تعبير عن تقرير المصير. وعلى الرغم من أن غوتفالد في نقده الجذري وسيلبرمان في اعترافه بالإطار السياسي الأوسع لهذه الفرضية، يدركان ارتباط هذه المسألة بحركات الكفاح الأخرى للتحرر الوطني، فإنهما لا يتمكنان من استخلاص النتائج المترتبة على إعادة بناء الماضي بهذه الطريقة من حيث فهم الصراع الفلسطيني المعاصر من أجل تقرير المصير.

يركز الفصل الافتتاحي في كتاب غوتفالد بعنوان «عقبات في طريق الفهم الشامل لتاريخ إسرائيل المبكر» على إسرائيل باعتبارها «طفرة جذرية سياسيا واجتماعيا» (3: 1979). أما العقبات التي تواجه الفهم الوافي لهذا الأمر، فلا ترجع إلى أي نقص في الهمة أو براعة البحث العلمي ولكنها تنبع من طبيعة المصادر بالإضافة إلى نفور ديني وعلمي، وكذلك تردد في فهم إسرائيل القديمة على أنها «كل» اجتماعي متماسك. وفي معالجته لموضوع استخدام معطيات العلوم الاجتماعية ونظريات فهم إسرائيل القديمة، يحدد غوتفالد مشكلة أساسية:

أحد أسباب هذا الكف inhibitition هو القداسة الدينية التي لا تزال تحيط بإسرائيل القديمة على أنها السلف الأول لليهودية والمسيحية. إن نمطنا ذاته في التفكير فيما يخص إسرائيل قد تشبع بروح التدين أو نقيضها الدفاعي وهو عدم التدين. فلا مفر من النظر إلى إسرائيل على أنها شعب مختلف تماما عن البشرية أجمع. وعلى حين أن عقول باحثينا غير المقيدة بالدين قد تكون لديها معرفة أفضل، فإن المحيط الاجتماعي النفسي الذي نعيش فيه يجبرنا على البحث عن ظواهر دينية مجردة وتفسيرات لاهوتية شاملة بوصفها عناصر أساسية فيما تعنيه إسرائيل. ويترتب على ذلك أن يفسر التحول التاريخي الجذري الذي تمثله إسرائيل في التاريخ الإنساني بتفسيرات خارقة، أو يتم إسقاط معان دينية من إسرائيل الحديثة عليه، أو ببساطة، لا يقدم له أي تفسير.

(غوتفالد 5: 1979)

المفارقة في هذا هي أنه بينما يتحاشى غوتفالد الفكرة المحورية القائلة بخصوصية إسرائيل القديمة والتي كانت أساسية في استبعاد التاريخ الفلسطيني من الخطاب الأكاديمي، فإنه يشير إلى إسرائيل بوصفها «تحولا تاريخيا جذريا»، مستعيرا المصطلح المحوري الذي استعمله جورج إرنست

رايت George Ernest Wright والذي فصل إسرائيل عن محيطها معتبرا إياها حالة فريدة. كما أنه يندد بالتخصص الزائد للدراسات التوراتية لأنه أدى إلى العجز عن فهم إسرائيل على أنها نظام اجتماعي متكامل والذي يرده إلى عوامل عقلية وثقافية واجتماعية. فتحليل غوتفالد يمثل هجوما قويا على النفوذ المستبد الذي مارسه اللاهوت في دراسة التاريخ الإسرائيلي، كما أنه في الوقت ذاته ينعى على الدراسات التوراتية إخفاقها في البحث عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أثرت فيها وتحديد معالمها. إن المفتاح والعامل الأساسي بالنسبة لغوتفالد هو «الهوية الاجتماعية الطبقية للباحث التوراتي» (غوتفالد: 10: 1979) فموقع الباحثين التوراتيين ضمن طبقة وسطى رأسمالية تتبنى مُثل النزعة الإنسانية في البحث العلمي قد أفضى إلى رؤية للمجتمع استبعدت العديد من أعضائه (11: 1979). ويعترف غوتفالد بعدم موضوعية ومحدودية خطاب الدراسات التوراتية، إلا أنه لا يواصل مسيرته بحيث يكشف عن الطريقة التي أدت بها سيطرة اللاهوت إلى الحد من دراسة تاريخ فلسطين القديم، فهو لا ينظر إلى عدم موضوعية الخطاب التوراتي إلا على أنه عائق يحول دون فهم أوضح لتاريخ إسرائيل القديم.

ينصب تركيزه التام على المجتمع الإسرائيلي، وبالأخص على دور الدين في المجتمع الإسرائيلي، ويظل متمسكا بقوة بذلك الخطاب الذي أسكت التاريخ الفلسطيني. إن تأثير تحليلات آلت Alt للوضع السياسي في فلسطين قبل ما يسمى بنشوء إسرائيل يتجلى بوضوح في أعمال غوتفالد، وبالأخص في تحديده لتحول الاستيطان إلى المرتفعات الفلسطينية، وهو يعتمد على تحليلات أولبرايت للأوجه المادية المختلفة لهذه «الثقافة الإسرائيلية»، كما تم تحديدها من خلال التراث المعماري والخزفي، على العكس من مندنهول الذي أنكر بشدة نسبة أوصاف عرقية لمثل هذا التراث المادي. وفضلا عن ذلك، فإن تحليل غوتفالد للتراث التوراتي نفسه تتغلغل جذوره بقوة في خطاب الدراسات التوراتية المهيمن[19].

لقد استطاع غوتفالد أن يشير إلى إسرائيل على أنها «نظام مبتكر ومتماسك بشكل واضح في كنعان» (34: 1979)، مع التركيز على العلاقة بين «إسرائيل كنسق اجتماعي متكامل ومرحلة ما قبل التاريخ التي مرت بها

الشعوب التي تشكلت منها إسرائيل» (34 : 1979)، وبهذا يصبح تاريخ فلسطين، سواء كان سابقا لما يعرف بنشوء إسرائيل أو معاصرا له، مجرد «ما قبل التاريخ» بالنسبة إلى هذه الحقيقة الشاملة التي ستظهر فيما بعد. وهكذا فإنه سمح لإسرائيل بأن تهيمن على التاريخ الفلسطيني وتستبعده من خلال إشاراته المستمرة إلى «الإسرائيليين الأوائل» proto-Israelites أو «ما قبل التاريخ الإسرائيلي» Israelite pre-history، وهي الإشارات التي تطالب بالزمان الفلسطيني لمصلحة إسرائيل. إلا أنه يقدم تفهما أكبر لقيمة وجدارة تاريخ المنطقة مع اعترافه بأن «جذور إسرائيل تحتل موقعها وسط حضارة قديمة ومتطورة جدا في خضم حضارة واعية بذاتها» (34 : 1979). إلا أن التقييم السلبي لهذا التاريخ الداخلي هو الذي يظل مسيطرا على المدى البعيد، ذلك لأن إسرائيل تعد حالة فريدة في تجربتها الاجتماعية القائمة على مبدأ المساواة و «تتمكن من المحافظة على فرديتها في وجه أكثر التهديدات جسامة من جانب أنظمة قوية محيطة بها ومصممة على منعها من التحرر» (43: 1979). أي أن القارئ يواجه في حقيقة الأمر نموذجا لإسرائيل على أنها ناقلة تراث الحرية والديمقراطية ومحاطة بقوى عاتية تسعى لإبادتها.

وفي مراجعته ونقده لثلاثة نماذج تقليدية حول نشوء إسرائيل، فإن غوتفالد (722- 191 : 1979) يوضح أن تحديد هوية الثقافة المادية هو عامل أساسي في فهمه وتحديده موقع إسرائيل في فلسطين. وينتقد استنتاجات أولبرايت التي تفيد أن الدلائل التراكمية لتدمير العديد من التجمعات المدنية في العصر البرونزي المتأخر وانتشار المستوطنات الفقيرة والقروية:

> يشير إلى وجود سكان أدنى ثقافة يعيشون في تجمعات مؤقتة أو في منازل مبنية بشكل فقير دون تحصين. وإذا افترضنا أن هؤلاء السكان الجدد هم الذين أبادوا مدن العصر البرونزي المتأخر واستوطنوا في أنقاضها، يسهل رؤيتهم في ضوء كونهم الإسرائيلين «نصف البدويين» والمتخلفين من الناحية التقنية.
>
> **(غوتفالد: 195: 1979)**

ومع اعترافه بوجود عدة تفسيرات ممكنة لحدوث تدمير التجمعات الحضرية هذا، فإن تحديد هوية الثقافة المادية المميزة التي ارتبطت بازدياد المواقع الريفية في بداية العصر الحديدي، هو العامل الأهم في فهمه

لنشوء إسرائيل، وهو يفترض وجود تميز لا يقل حدة بين إسرائيل باعتبارها تحولا اجتماعيا دينيا، وبين أنظمة الحكم الكنعانية المستبدة سياسيا واقتصاديا. وهكذا تم تجريد الثقافة المحلية الفلسطينية من أي قيمة ونظر إليها على أنها تحولت بواسطة إسرائيل إلى شيء لم يكن بمقدورها أن تصل إليه بقدراتها الذاتية.

إن السمة المميزة لصياغة غوتفالد لنظرية وقوع ثورة هو تركيزه على الجوانب الاجتماعية والسياسية لنموذجه. وكما في صياغة مندنهول، يبدو أن هذا التركيز على الظروف الاجتماعية ـ السياسية في العصر البرونزي المتأخر في فلسطين يسمح بإسماع صوت التاريخ الفلسطيني. ولكن التركيز على إسرائيل، وتصوير النظام المحلي الاجتماعي والسياسي على أنه فاسد ولا قيمة له، يؤدي مرة أخرى إلى استبعاد هذا الصوت بالفعل.

وهذا يتضح في عبارته التالية:

عندما دخل المهاجرون الإسرائيليون أرض كنعان وجدوا مجتمعا كنعانيا تمزقه النزاعات، وكان تدهور هذا المجتمع لا يزال مستمرا بعد قرن كامل من عصر العمارنة. ويبدو أن السكان في منطقة المرتفعات قد تضاءل عددهم في العصر البرونزي المتأخر، كما أن تجمعات دول ـ المدينة قد قلت في العدد والحجم عن القرن السابق. أما مروجو نموذج «الثورة» بالنسبة لجذور إسرائيل فإنهم يصوّرون هذه القبائل الإسرائيلية وكأنها كانت تتحالف مباشرة مع الطبقات الدنيا من الكنعانيين. فقد كانت الفئتان تشتركان في الانتماء إلى الطبقات الدنيا، فالعبيد السابقون في مصر الذين أصبحوا مستقلين صاروا الآن موضوع إعجاب أقنان وفلاحي كنعان المتململين من أوضاعهم. إن جاذبية دين يهوه الإسرائيلي لهؤلاء الكنعانيين المقهورين كانت تكمن في السمة الأساسية لعقيدة هذه القبائل الوافدة: فقد كانت العقيدة اليهودية تحتفل بحقيقة الخلاص من العبودية الاجتماعية السياسية وكانت تتعهد بتخليص شعب يهوه المستقل وإنقاذه كلما هدده أي خطر.

(غوتفالد 214: 1979)[20]

وعلى الرغم من الافتراض الشائع أن كلا من مندنهول وغوتفالد يركزان على الثورة الداخلية، فإن الافتراض الأساسي لديهما هو أن النظام المحلي منحط أو معيب بشكل أساسي، ولم يكن من الممكن تغييره إلا بواسطة إسرائيل وأيديولوجيتها الدينية والسياسية الآتية «من الخارج». ومع أن غوتفالد أضاف إلى صياغة مندنهول الأساسية لما أصبح يعرف بفرضية

«الثورة» وعدل فيها، فقد تأثر إلى حد كبير بالافتراض الذي يشترك فيه آلت وأولبرايت والقائل إن المستوطنات وانتقالها إلى تجمعات ريفية صغيرة في المناطق الهامشية من فلسطين هو الذي حدد الهوية الإسرائيلية. وقد ساعد تفسيره لطبيعة إسرائيل وجذورها من منطلق أن العوامل الداخلية هي السمة المميزة لها على إخفاء الافتراض الأساسي والمهيمن والمشترك في خطاب الدراسات التوراتية، وهذه الفرضية الأساسية هي السبب الرئيسي في عدم إعطاء التاريخ الفلسطيني صوتا في وقت كان فيه البحث عن إسرائيل القديمة هو الشغل الشاغل للجميع. كذلك فإن غوتفالد، شأنه شأن مندنهول، لا ينظر إلى إسرائيل عى أنها تجمع متجانس عرقيا:

> كان اليهود الذين أخذوا يندمجون متنوعين عرقيا وثقافيا بشكل يدعو إلى الدهشة، ولكن كانت لهم تجارب اجتماعية وسياسية مشتركة وكانوا يشتركون في حياة جماعية تدور حول الدفاع المشترك وتنمية الذات.
>
> (غوتفالد 215: 1979)

المثيرة في هذه الآراء هو أنها تبدو وكأنها وصف للصهيونية المبكرة حينما أتى اليهود من بلدان أوروبية مختلفة، أو في فترة لاحقة، من أمريكا وروسيا وإثيوبيا وغيرها من المناطق، «وهم متنوعون عرقيا وثقافيا»، ثم انصهروا معا كأمة عصرية في «حياة مشتركة من الدفاع والتطور الذاتي»، ويضيف غوتفالد فيما بعد: «قد يكون من الضروري تعديل النموذج لكي يأخذ في اعتباره احتمال أن تكون بعض المستوطنات الكنعانية قد تم تحييدها، لا استقطابها على يد القبائل الوافدة، وبهذا تكون قد اتبعت سياسة عش ودع غيرك يعيش. تلك السياسة التي قبلتها برضا أو أرغمت على قبولها» (219: 1979). وهذا يمثل تشابها لافتا للنظر مع الفترة المعاصرة حيث أسفرت الهجرة الصهيونية عن وضع كانت المستوطنات الصهيونية متجاورة فيه مع القرى الفلسطينية، وفي الوقت نفسه كانت هذه الفترة تشهد نزاعا حادا حول الأرض وكان الفلسطينيون يطردون من أرضهم. وهذا أيضا يمكن أن نفهمه من خلال صعود دولة إسرائيلية «أطاحت بميزان القوى بين الإسرائيليين والكنعانيين غير اليهود» (219: 1979).

والواقع أن هذا النموذج، مثله مثل نموذج الهجرة والغزو، يتعلق بالأرض والمطالبة بها، وهذا يتضح بشكل جلي في شرح غوتفالد لقضايا أساسية

في البناء الاجتماعي والتي يعتقد أن الدراسات التوراتية قد أغفلتها أو تجاهلتها، بسبب رفضها الاعتماد على المعلومات والنماذج المستمدة من العلوم الاجتماعية. وهو يتحدث عن «احتلال إسرائيل للأرض» أو «كيف سيطرت مجموعات من الإسرائيليين على الأرض» (220: 1979). كما يشرح بالتفصيل كيف أن «النزاع حول نماذج من السيطرة على الأرض هو في الحقيقة نزاع أكبر كثيرا حول الفهم الصحيح لإسرائيل كنظام اجتماعي»:

الموضوع الأهم والجدير بالبحث الآن ليس المشكلة المتعلقة بالأرض تاريخيا، أو مشكلة المناطق التي أخذت، أو أساليب الاحتلال العسكري أو غير العسكري، إلخ... فلفترة طويلة الآن لم يتم التدقيق في الفرضيات المتعلقة بطبيعة المجتمع الإسرائيلي أو في أحسن الحالات دقق فيها بشكل جزئي.

(غوتفالد220: 1979)

ويبلغ التركيز على إسرائيل حدا من القوة يؤدي إلى تبديد أي شك في أن هذه الأرض هي «أرض إسرائيل»: أما مسألة حق الشعوب المحلية في تلك الأرض أو حقها في التاريخ فهي مسألة لا يثيرها أحد. وهذا شيء مثير للدهشة لا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار تعاطف غوتفالد مع حركات التحرر المعاصرة، وأيضا اشتراكه في المظاهرات المناوئة لحرب فيتنام[*24]، واعترافه هو ذاته بتأثير تلك الحركات على أفكاره. إلا أن هذا يدل قبل أي شيء على الطاقة الهائلة للبحث عن إسرائيل القديمة في خطاب الدراسات التوراتية. وهذه الطاقة قوية وغلابة ومسيطرة إلى حد أنه حتى في المعالجات النقدية الحساسة للمضامين الاجتماعية ـ السياسية فإن مسألة فلسطين تظل غير مصرح بها. إن الزمان الفلسطيني يطالب به كجزء من تاريخ إسرائيل مع إصرار على أن الشعوب المحلية التي رفضت الأنظمة التسلطية الاجتماعية والسياسية وانضمت إلى إسرائيل تعتبر هي الشعوب «الإسرائيلية الأولى» (77, 43 ـ 32 , 30: 1979). إن إسرائيل القديمة والمعاصرة قد تضافرتا في خطاب الدراسات التوراتية لإسكات التاريخ الفلسطيني وذلك بادعاءاتها بحق المطالبة بأرضها وتاريخها.

وعلى الرغم من تحفظات غوتفالد العديدة فإنه يحتفظ بالفرضية الأساسية لخطاب الدراسات التوراتية القائلة إن إسرائيل هي حالة فريدة، كما أنه مدرك تماما لمسألة التأويلات اللاهوتية:

كيف يمكننا أن نأتي بوصف وتفسير للتحول المبكر لإسرائيل دون الوقوع في مستنقع التفسيرات التي تحصر نفسها في الإطار الديني وحده، والتي لا تفسر شيئا في الواقع، والتي لا تعدو أن تكون تحصيل حاصل لا يمكن انتقاده ما دام من المستحيل إخضاعه للاختبار؟

(غوتفالد232: 1979)

على الرغم من ذلك، يستمر غوتفالد في التركيز على الفروق الجذرية بين الأنظمة الاجتماعية لإسرائيل وكنعان، والتي يعتقد، كما فعل مندنهول، بأنه لا يمكن تفسيرها إلا على أساس التجديد الذي اتسمت به «الحركة الدينية» لإسرائيل و«دوافعها»، وفي هذا الصدد يقول (أي غوتفالد): «أجد نفسي متفقا مع مندنهول حول هذه المسألة. إن عقيدة يهوه إله إسرائيل، هي التي جعلت من إسرائيل حالة فريدة» (233: 1979). وهو إذ يؤكد ضرورة الاهتمام بالأوجه المادية للثقافة الإسرائيلية في محاولته فهم كيفية تحدد معالم هذه العقيدة الدينية وتحققها الفعلي، يكشف بوضوح عن تمسكه القوي بتلك النظرة المهيمنة التي تدعي أن إسرائيل حالة فريدة، مما يفترض ضمنا عدم الاعتراف بقيمة الثقافة والتاريخ الأصليين. إن اختلافه مع مندنهول هو أنه تصور مجتمعا أضفى القوة على إلهه ولكنه لم يمارس القوة بنفسه: بالنسبة لغوتفالد، فقد أخذت إسرائيل القوة بنفسها، بينما أرجعت مصدر هذه القوة إلى يهوه (233: 1979). ولكن على الرغم من أنه يصف الدين بأنه «المحرك غير المتحرك للتحول الإسرائيلي» (The unmoved mover of the Israelite mutation) فإنه يظل في الأساس مرتبطا ارتباطا قويا بالنظرية القائلة بالدور الأساسي لخصوصية الدين الإسرائيلي وذلك لتمييزه عن سياقه الفلسطيني.

إن المفارقة المتأصلة في أعمال مندنهول واضحة بقدر مماثل في أعمال غوتفالد وصياغته البديلة لنظرية الثورة. وإن كان يبدو أن إصراره على الدور المركزي الذي لعبه الفلاحون الكنعانيون في التخلص من هيمنة الصفوة في المراكز الحضرية، يعطي صوتا للتاريخ الفلسطيني. بل إنه يذهب في الواقع إلى حد القول: «إن الوعي الثوري الكنعاني للفئات المسحوقة لا يجد تعبيرا صريحا عنه إلا في الأدبيات الإسرائيلية المبكرة (409: 1979). فهذه الفئات لا يصبح لها صوت مسموع إلا من خلال إسرائيل. أما القبلية الإسرائيلية فيصفها بأنها نتيجة الاختيار الواعي لأفراد وجماعات رفضت

مركزية السلطة عند الكنعانيين. وعلى الرغم من أن تركيز غوتفالد على «إعادة التنظيم القبلي» (325: 1979) هو جانب مميز لفرضياته، فإن هذا التركيز لا يعدو في حقيقة الأمر أن يكون تنويعه ثانوية على الفرضية الأساسية التي هيمنت على خطاب الدراسات التوراتية منذ آلت Alt، والتي تقول إن نظام إسرائيل السياسي مختلف جذريا ومتفوق على الحضارة المحلية. فأشكال التنظيم المحلية كانت متشرذمة عاجزة عن العمل الموحد: «لم يكن هناك أي نوع من العمل الجماعي الثابت في دول المدينة الكنعانية القديمة، وحتى حينما كانت تواجهها المخاطر الخارجية، لم تكن قادرة إلا على القيام بتحالفات مؤقتة وكانت بوضوح غير مستقرة فيما يتعلق بعضويتها في التحالف وطول بقائها فيه» (412: 1979)[21]. بينما ينصب التركيز المهم على النزاع بين جماعات الشعب الأصلي، فإن هذا النزاع لا يتم التعبير عنه قط في سياق التاريخ الفلسطيني. ولا يعطي صوتا إلا كجزء من تاريخ إسرائيل:

وعلى العكس من ذلك، فإن إسرائيل بطريقتها الراقية والمتحولة في التنظيم القبلي، قد ظهرت على المسرح في إطار النظام الاجتماعي والمجال الإقليمي لكنعان. فالشعب الذي أصبح هو الإسرائيليين فيما بعد قد واجه تجربة العدوان الذي مارسه عليه مجتمع مركزي[*25] بعمل ثورية فعال، منسق، موحد رمزيا يستهدف الدفاع عن الذات بشراسة

(غوتفالد362: 1979)

إن اختيار تعبير مثل «الدفاع الشرس عن النفس» aggressive self-defence له دلالته الخاصة إذ إنه يعكس اللغة الدفاعية الشائعة لوصف مغامرات دولة إسرائيل المعاصرة في غزوها لبنان أو مناطق أخرى، على أنه رد الضربة لما تعده أعمالا إرهابية. هذا لا يعني أن غوتفالد يؤيد هذه الأعمال العدوانية، ولكن يدل ببساطة على الطريقة التي بواسطتها تصبح اللغة والأفكار المعاصرة المهيمنة جزءا من مفردات اللغة التي يستعملها المؤرخون لإعادة بناء الماضي.

كذلك ينظر إلى الماضي على أنه صراع من أجل تقرير المصير والسيطرة على الأرض شأنه شأن الحاضر تماما:

وبعد أن استحوذت هذه المجموعة من الناس على الأرض واقتبست أساليب الانتاج الاقتصادية

نظمت عملية الإنتاج، والتوزيع، والاستهلاك الاقتصادي على أسس قائمة على المساواة[*26]. ومن ثم فإن الصعود المحدد لإسرائيل القديمة كان عودة ارتجالية واعية إلى التنظيم الاجتماعي القائم على المساواة الذي حل إما بشكل مباشر أو غير مباشر محل التنظيم الاجتماعي التراتبي hierarchic في منطقة واسعة كانت تسودها المركزية والطبقية الكنعانية لقرون طويلة.

(غوتفالد 326: 1979)

نجد هنا اختلاقا للتاريخ الإسرائيلي يعبر عن الإسقاط الأيديولوجي لدولة إسرائيل الحالية ويؤكد التضاد بين مثلها الديمقراطية القائمة على المساواة وبين الدول العربية غير الديمقراطية (المركزية والطبقية) المحيطة بها. إن فهمه لأصول إسرائيل في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي يسير في تواز واضح مع مفهوم الحركة الصهيونية قبيل إنشاء دولة إسرائيل المعاصرة. وفي رفض غوتفالد لشرعية فرضية نوث Noth حول وجود اتحاد قبلي في العالم القديم فإنه (أي غوتفالد) يزعم بشكل مثير أن «الاتحاد الإسرائيلي كان عن وعي دولة بديلة لشعب إسرائيل» (383: 1979). إن وصفه لهذا الماضي الإسرائيلي المتخيل يمكن أن ينطبق بسهولة على الصهيونية المبكرة قبل 1948، حيث كان ينظر إلى إسرائيل على أنها «عائلة ممتدة قائمة على المساواة extended family، ومجتمع قبلي مجزأ مبني على قاعدة اقتصادية زراعية ريفية» (389: 1979)، لقد كتب بن غوريون، قبيل مغادرته روسيا، يقول إنه يتمنى أن ينشئ «مجتمعا نموذجيا مبنيا على المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية».(إيلون Elon 81: 1979). وبالمثل، فإن ايلون يضيف أن رواد الموجة الثانية من الهجرة[*27] Second wave نظروا إلى أنفسهم كرواد (حالوتسيم)[*28] لنظام اجتماعي جديد، أكثر من كونهم بناة دولة (إيلون 112: 1983). وهذه أفكار يمكن مقارنتها بعبارات غوتفالد Gottwald القاطعة التي تحدث فيها عن طبيعة إسرائيل:

إن التجزئة الاجتماعية، والترابط بين الجماعات في إسرائيل المبكرة كانا يرتبطان ويتمشيان مع الأهداف الأساسية لهذا الشعب الذي كان متعاونا بالرغم من تشرذمه، وذلك للهروب من الإمبريالية والإقطاعية المفروضة عليه من القوى الخارجية ولمنع ظهور هيمنة إقطاعية في داخل مجتمعهم ذاته.

(غوتفالد389: 1979)

وهذا تصريح كان يمكن بكل سهولة أن يكون بيانا عاما يلخص المبادئ والمثل الصهيونية الأولى في بنائها لمجتمع يشيده أولئك الفارون من الاضطهاد والعنصرية في أوروبا، ومن مجموعة كبيرة من القوى الإمبريالية تتراوح بين الدولة القومية الحديثة في أوروبا الغربية وإقطاعيات أوروبا الشرقية[22]. ومع ذلك فإن هذه رؤية لمجتمع قائم على المساواة يمتنع عن الاعتراف بحقوق الشعب الذي كان موجودا على هذه الأرض قبله.

وفي معالجة غوتفالد لأهمية الدين اليهودي، يأخذ موقفا معارضا لرأي برايت Bright القائل إن إسرائيل لم تكن فريدة في الطريقة التي سيطرت بها على الأرض، أو أن خصوصيتها نبعت من عقيدتها. بدلا من ذلك، يرى غوتفالد (593: 1979) أن «أسلوب حياة إسرائيل القائم على المساواة الاجتماعية والسياسية - والذي كان يسري على شعب كامل كان مضطهدا من قبل - هذا الأسلوب كان شيئا فريدا في صراحته وفي فعاليته الزمانية والمكانية» (غوتفالد 593: 1979). إنه يأخذ على برايت عزلة العقيدة الإسرائيلية عن واقعها الاجتماعي.

وبالمثل، يرفض غوتفالد رأي مندنهول القائل إن الدين الإسرائيلي مثالي لأنه احتل موقعه في «فراغ لا اجتماعي ولا تاريخي» (601: 1979). ومع ذلك، فإن غوتفالد يتفق مع برايت في «أن العقيدة اليهودية في العالم القديم كانت شيئا مجددا innovative في عدة جوانب مهمة» (594: 1979). وهو يرى أنه شيء مضلل أن نتحدث عن العقيدة الإسرائيلية على أنها «غير مسبوقة» و «فريدة» ويفضل استعمال تعبير خصوصية إسرائيل المجدِّدة Israel's innovative distinctiveness (595: 1979)، فهذه العقيدة في رأي غوتفالد مبتكرة ومتميزة تماما لأنها تعبير عن ثورة قائمة على المساواة الاجتماعية. وهكذا يتضح أنه على الرغم من خلاف غوتفالد مع برايت، فإن غوتفالد يمكن انتقاده بناء على المبادئ نفسها التي ينتقد بها أولبرايت Albright ورايت Wright ومندنهول Mendenhall، وأعني بها أن هؤلاء قد حطوا من قدر نظام القيم السائد للشعوب المحلية، والتي لا تتحول إلى شيء أفضل إلا بتأثيرات خارجية حيث إن الأيديولوجية الدينية قد أتت مع الفئة الصغيرة من الإسرائيليين المهاجرين Exodus Israelites. وهو لا ينكر وجود بعض الاستمرارية أو بعض أوجه الشبه، ولكنه يوحي بأن التغيير الذي طرأ على

المجتمع المحلي لم يكن ممكنا دون تدخل خارجي.

إن برنامج غوتفالد «للبحث في التاريخ الثقافي والمادي لإسرائيل المبكرة» والذي يقترح العمل به في نهاية مؤلفه الضخم (663 ـ 660: 1979)، يظهر بوضوح المفارقة الأساسية في عمله: فاقتراحاته ذاتها هي شيء أساسي لتحقيق دراسة التاريخ الفلسطيني بوصفه موضوعا قائما بذاته. إن البحث في تاريخ الاستيطان، والديموغرافيا، والاقتصاد الخ ... في تفاصيلها العامة وعلى فترات طويلة من الزمان، ينبغي أن يكون جزءا لا يتجزأ من أي محاولة لإعادة تقييم التاريخ الفلسطيني. ومن المفارقات أن انهماك غوتفالد في البحث عن إسرائيل القديمة هو ما يمنعه من رؤية التطبيق الأعم لاقتراحه، كما يمنعه من إعطاء صوت للتاريخ الفلسطيني. وكما في نظرية الغزو التي روجها أولبرايت، فإن كمية المعلومات الأثرية المتزايدة يوما بعد يوم توضح أن تاريخ غوتفالد وما يتضمنه من صياغات أخرى كثيرة ومختلفة، هو ماض متخيل ومختلق. وعلى الرغم من وجود سمات مهمة في عمل غوتفالد، وهي أساسية لتحقيق تاريخ فلسطيني لذاته، فإنه يعجز عن تحقيق ذلك بسبب انهماكه في البحث عن إسرائيل القديمة. وفي خضم البحث عن إسرائيل القديمة يتم إسكات أي مطالبة فلسطينية بالماضي بفعالية: إنه ماض ليس له أي هوية خاصة به بعيدا عن علاقته بإسرائيل.

خاتمة الفصل

لقد برهنت التغيرات في المنظورات التي تقرأ بها التوراة العبرية، والتي أثارت تساؤلات مهمة حول مسلمات النقد التاريخي الشائع وكذلك استخدام التراث التوراتي لإعادة بناء الماضي، بالإضافة إلى المعلومات الأثرية المتراكمة من حفريات في مواقع متفرقة، وكذلك أعمال المسح المحلية regional surveys في فلسطين، برهنت على أن تلك النماذج والنظريات المختلفة ليست إلا اختلاقا لماض متخيل. فعدم قدرة النماذج الرئيسية الثلاثة لإعادة بناء ماضي إسرائيل على التعامل مع الشواهد المؤكدة التي أخذت تتزايد في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى التقليل من أهمية ما تعتبره نصا ثابتا ـ كل ذلك قد ألقى مزيدا من الضوء على مدى اختلاق فكرة إسرائيل.

ولن يكون بإمكاننا إثارة الأسئلة حول كيفية حصول هذا الأمر إلا بنظرة

راجعة إلى الوراء. إن الحاجة إلى البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منبع الحضارة الغربية كانت قوة الدفع للدراسات التوراتية، وقد ازدادت هذه الحاجة قوة من جراء مطالب اللاهوت المسيحي في بحثه عن جذور خصوصيته في المجتمع الذي أنتج التوراة العبرية. وقد تعزز هذا الاتجاه مع تأسيس دولة إسرائيل الحديثة، مما أدى إلى نشوء أبحاث أكاديمية إسرائيلية تبحث عن هويتها الوطنية في الماضي السحيق.

وقد عكست الدراسات التوراتية في بحثها المستمر والطموح عن إسرائيل القديمة، قصر نظر الغرب عموما والصهيونيين الأوائل بشكل خاص، في تجاهل السكان الأصليين، وتجاهل حقهم في الأرض أو في الماضي. والواقع أن وصف إيلون Elon للصهيونيين الأوائل يمكن أن ينطبق بسهولة على الدراسات الأكاديمية التوراتية:

لا توجد في التاريخ الحديث سوى حالات قليلة طغت فيها مظاهر الأشياء طغيانا تاما على الحقيقة الواقعة، كما حصل في فلسطين خلال النصف الأول من القرن العشرين. فلا يمكن للمرء أن يتصور أي بلد آخر استمرت فيه حالة ذهنية طوباوية معينة لهذه الفترة الطويلة من الزمان. وإذا كان العرب قد أغلقوا أعينهم عن رؤية الواقع، فإن رواد الموجة الثانية من الهجرة أغلقوا عيونهم عن رؤية العرب. فقد أقاموا سويا في معسكرات عمل، في مجتمعات مغلقة كثيرا ما كانت تشبه الطوائف الدينية المنغلقة على ذاتها. أما الاحتكاك مع السكان العرب فكان قليلا وكان يبدو وكأن الرواد (الحالوتسيم) قد نفوا العرب من عقولهم عن قصد.

(إيلون Elon 123: 1983)

ظلت الدراسات التوراتية بدورها تغض النظر عن رؤية السكان المحليين، وفي الحالات التي اعترفت فيها بهم، كان يتم وصفهم بأنهم غير جديرين بالثقة، ولا أخلاقيون، منحرفون أو بدائيون، ولذلك، فهم غير جديرين بأن تؤخذ مطالبهم الشرعية على محمل الجد. من المثير أن وصف إيلون يجد ما يوازيه في خطاب الدراسات التوراتية:

إن المخيلة السياسية، مثلها مثل مخيلة المكتشف الجغرافي، كثيرا ما تختلق جغرافيتها الخاصة. وبالطبع فإن المستوطنين لم يعتبروا البلد «خاليا» كما فعل بعض الصهيونيين من خارج فلسطين. وقد كذّب ما رأوه بأم أعينهم مقولة إسرائيل زانغويل[*29] Israel Zangwill السخيفة، التي روجت لفكرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، والتي انتشرت في الأوساط الصهيونية حتى سنة 1917. وحتى لو كانت فلسطين مأهولة بالسكان، فإن المستوطنين رأوها مأهولة بشكل غير مكثف، إذ

اعتقدوا أنهم يعملون وسط فراغ سياسي، ولم يشفوا تماما من هذا الوهم الساذج إلا بعد الحرب العالمية الأولى(*30).

(إيلون Elon 149: 1983)

يتضح الآن على نحو أكثر جلاءً أن الدراسات التوراتية اختلقت جغرافيتها الخاصة، وذلك في محاولتها بناء روايات مختلفة للماضي، وهذه الروايات متأثرة بقوة بالعوامل الاجتماعية والسياسية والدينية التي شكلت نظرة المؤرخ للماضي والحاضر. وتماما كما فعل المستوطنون الصهيونيون الأوائل، اعتقد الباحثون التوراتيون، أو على أقل تقدير، حاولوا بث الاعتقاد بأن الدراسات التوراتية كانت تعمل في فراغ سياسي. فلا يزال خداع الذات في البحث عن الموضوعية مستمرا. كما أن محاولات إبعاد شبح العامل الذاتي أو الدلالات السياسية للدراسات التوراتية بالنسبة إلى الصراع الحالي حول فلسطين لم تلق إلا استقبالا عدائيا. وتماما كما كانت الحرب العالمية الأولى في رأي إيلون حدا فاصلا في كشفها عن سذاجة الصهيونية وقصر نظرها، فإن ما بعد الحداثة قد كشف عن زيف خداع الذات الذي وقعت فيه الدراسات التوراتية في اهتمامها المزعوم «بالموضوعية» العلمية، وإنكارها لأي مسؤولية تتعلق بالصراع الحالي حول فلسطين. وكما يقول سيلبرمان Silberman (15: 1993) فإن «إنجاز الموضوعية العلمية» يستخدم باستمرار في إخفاء المضامين السياسية ومسؤوليات الدراسات التوراتية.

ومن اللافت للنظر، والمفهوم في الوقت نفسه، أن جميع النماذج قد اختلقت إسرائيل القديمة في ضوء النماذج الحديثة، لكننا لا نوحي أن هذه العملية كانت عملية واعية أو أنها كانت مغرضة بشكل متعمد، أو أن جميع المؤرخين الذين ذكرناهم يؤيدون تجريد الفلسطينيين من بلادهم وممتلكاتهم. بل إن ما نرمي إليه هو الكشف عن قوة خطاب الدراسات التوراتية الذي أضفى هالة من الموضوعية في حين يتضح تماما أن عوامل غير موضوعية ولا واعية قد لعبت دورا حاسما في إعادة بناء الماضي المتخيل لإسرائيل القديمة. وهذا يفيد في الكشف عن طغيان الحاضر الذي أسكت التاريخ الفلسطيني. وخطاب الدراسات التوراتية متورط في هذه العملية. إن الاعتراف بهذه المضامين هو الشرط الأساسي لتحرير الماضي الفلسطيني من السيطرة الإسرائيلية. لكن تحقيق هذا المطلب يعوقه استمرار العديد

من الفرضيات الأساسية التي كانت أساس اختلاق إسرائيل القديمة في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. قد يكون صرح هذه النماذج قد انهار، إلا أن ما يتم بناؤه في مكانها كثيرا ما اعتمد على الأسس نفسها. على كل حال، فمن الواجب - قبل دراسة البحث «الجديد» عن إسرائيل القديمة والأساليب التي استمر بها هذا البحث في استبعاد التاريخ الفلسطيني من خطاب الدراسات العلمية - أن نعرف كيف أسهمت اللحظة «الفيصل» الأخرى في تاريخ المنطقة، وأعني بها إنشاء دولة إسرائيل، في الوصول إلى هذه النتيجة.

الحواشي

(*) أي في العشرينيات من القرن الحالي، وهي الفترة التي شهدت بداية الهجرة الصهيونية المنظمة إلى فلسطين، بعد أن وقعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وكان أول مندوب سامي هو هربرت صامويل (1920 ـ 1925) اليهودي والصهيوني، والذي لعب دورا بالغ الأهمية في إرساء قواعد الدولة الصهيونية من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والإدارية، مما مكّن الصهيونية من الاستيلاء على فلسطين فيما بعد. وكان المندوب السامي قد أصدر قانون الهجرة Immigration Ordinance في سبتمبر 1920، وذلك لتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين وتوطينهم في «أراضي الدولة» (العثمانية) وكان القانون الأول ينص على هجرة حوالي 17,000 يهودي سنويا إلى فلسطين. وقد عدّل هذا القانون عدة مرات فيما بعد (المترجمة).

(*2) يطلق هذا الاسم على سكان الشاطئ الجنوبي لفلسطين، وحسب رواية العهد القديم وفد هذا الشعب من جزيرة كريت اليونانية إلى فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م. وفي اللغة الانجليزية، تستعمل هذه الكلمة philistine لوصف الشخص المادي النزعة والفظ الذي لا يهتم بالثقافة. وهذه الأوصاف، مشتقة أساسا من التوراة، إذ تحارب الفلستيين مع العبرانيين وهزموهم في عدة معارك، ويتضح هنا تأثير التوراة في التفكير الغربي، حيث تستعمل هذه الكلمة حتى اليوم بشكل ازدرائي لوصف الشخص السوقي والجلف الذي يفتقر إلى الثقافة الرفيعة، وهو النقيض التام للغربي رفيع الثقافة والعقلاني. علما بأن الآثار المكتشفة لهؤلاء الفلستيين تدل على ذوق فني رفيع وعلى حضارة أرقى من حضارة العبرانيين، إلا أن ما جاء في التوراة في وصف هؤلاء الفلستيين هو السائد حتى اليوم. (المترجمة).

(*3) Deutro-Isaiah المفترض أن تكون الفترة المتأخرة من كتابة سفر «اشعيا» من الكتاب المقدس الذي كتب في الفترة المتأخرة من الأسر البابلي (586 ـ 539 ق.م.) (المترجمة).

(*4) هذه الحجة في الواقع سلاح ذو حدين، فالتشابه بين موقف المهاجرين الأمريكيين من الهنود الحمر وموقف المهاجرين الصهيونيين من أصحاب الأرض الفلسطينيين، يمكن أيضا أن يفسر التعاطف العميق بين الشعب الأمريكي وبين إسرائيل الآن. فكل من الشعبين قد بنى بلده على عملية استيطان ظالمة وغير إنسانية تجاهل فيه حقوق السكان الأصليين تجاهلا مشينا. (المراجع).

(*5) بيبلوس Byblosمدينة فينيقية قديمة تقع في مدينة «جبيل» الحديثة إلى الشمال من بيروت، كانت مركزا تجاريا وميناء مهما لها علاقات تجارية مع مصر القديمة وأصبحت مدينة مهمة في الألف الثاني ق.م.، وكانت أهم صادراتها ورق البردى وخشب الأرز. أما أوغاريت (راس شمرا) في شمال سوريا فقد اكتشفت فيها عام 1928 آثار وكتابات باللغة الأكادية والأوغاريتية، تلقي الأضواء على حضارة أوغاريت (المترجمة).

(*6) نبي يهودي من القرن التاسع قبل الميلاد (المترجمة).

(*7) هو اسم آخر لجبل سيناء والبرية المحيطة به، وقد وقف العبرانيون عند هذا الجبل سنة في طريقهم حيث وصلوا إليه بعد خروجهم من مصر بثلاثة أشهر. وقد أعطى الله الشعب الوصايا العشر من على هذا الجبل، وعمل معهم العهد أن يكون إلها لهم وأن يكونوا شعبا له. (قاموس

الكتاب المقدس) (المترجمة).

(*8) جشيماني: كلمة آرامية معناها معصرة الزيت، وكان بستانا فيه أشجار الزيتون ومعصرة زيت يقع شرق القدس قرب سطح جبل الزيتون، وكان المسيح يتردد إليه كثيرا «طلبا» للعزلة، وهو الآن مكان مقدس إذ كان مكان ألمه وتسليمه والقبض عليه. (المترجمة).

(*9) «التقوية» Pietism، هي حركة دينية نشأت في ألمانيا في القرن 17 أكدت أهمية دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية وهي حركة تتسم بالتشدد والتطرف نفسه الذي تتسم به بقية الحركات المشار إليها في النص (المترجمة).

(*10) عاي Ai، مدينة كنعانية قديمة بالقرب من القدس، وحسب رواية التوراة، دمرها يشوع (يشوع 7 ـ 8) إلا أن التنقيبات الأثرية لم تجد أثرا لهذا التدمير (وهي دير ديوان بالعربية) (المترجمة). The Blackweel Dictionary of Judaica oxford, 1992.

(*11) نقب علماء آثار مشهورين عن آثار عاي وجيعوت القريبة منها ولكنهم أعلنوا أنهم لم يعثروا على مدينة معاصرة ليشوع كما جاء في التوراة. وفي عام 1965، كتب أحد العلماء الذين نقبوا هناك، وهو بريتشارد James Pritchard من جامعة برنستون Princeton، أنه ليس هناك شك بناء على أفضل ما يتوافر من شواهد في أنه لم يكن هناك مدينة معاصرة ليشوع» (المترجمة).

(*12) الصهيونية الثقافية أو الروحية Spiritual Zionism حركة كانت تدعو إلى إحياء التراث اليهودي عن طريق الآداب والتعليم، وتقول إن «الوطن القومي» اليهودي لا يعني بالضرورة إنشاء دولة يهودية، بل أن تكون فلسطين هي المركز الروحي والثقافي لليهود. وكان الفيلسوف اليهودي آشر غينزبرغ Asher Ginsberg (1856 ـ 1927) المعروف بـ «آحاد هاعم» (بالعبرية تعني «أحد العامة» أو «أحد أبناء الشعب») هو الداعي إلى الصهيونية الثقافية، وكان من أكبر المعارضين لصهيونية هرتزل السياسية. (المترجمة).

(*13) بيت إيل مدينة قديمة بالقرب من القدس، وإيل في الآرامية والعبرية تعني «الإله» إيلوهيم» و «إليهود» هو إله اليهود، وحسب الرواية اليهودية، أنشأ فيها النبي إبراهيم مذبحا، وكانت الموقع الذي رأى فيها النبي يعقوب رؤيته Jacob's dream. وبعد غزو كنعان حفظ فيها الهيكل النقال Tabernacle وكذلك تابوت العهد (المترجمة).

(*14) موقع أثري يقع في الجنوب الغربي من مدينة الخليل (المترجمة).

(*15) يهوه: هو إله اليهود في التوراة العبرية (المترجمة).

(*16) سهل جزريل (أو يزرعيل كما يسميه اليهود) هو مرج بن عامر الخصب في شمال فلسطين (المترجمة).

(*17) يقصد حرب أكتوبر 1973 (المترجمة).

(*18) الكلمة الواردة في الأصل هي herem وهي كلمة عبرية تعني الحرمان من الحقوق الكنسية أو عضوية الجماعة بمعنى excommunicated (المترجمة).

(*19) العبيرو أو الخبيرو هم خليط من قبائل وشعوب عدة، ويقرن بعض المؤرخين هذه الكلمة بكلمة خبيرو التي تقرن بالعبرانيين لكن هذا غير مؤكد.

(*20) الجبعيون Gibeonites: هم سكان عدة مدن بجوار القدس وقد كانوا من الكنعانيين، (للمزيد انظر عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية مج 4، ص 108)، وتقع جبعون Gibeon على بعد 9 كم شمال القدس (المترجمة).

(*21) القنزيون Kenizites: أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي ورد ذكرها في العهد القديم (تكوين 9/15) وقد ورد ذكرهم في المدونات الحثية.
أما القينيون Kenites، منهم بطن من بطون قبيلة مدين استقروا على خليج العقبة في صحراء النقب وصحراء سيناء، وقد كان بنو «قين» مجاورين للقنزيين الساكنين في أدوم، وحسب الرواية التوراتية تحالف القينيون مع العبرانيين وأرشدوهم عبر الصحراء في فترة التيه، وبعد التسلل العبراني استوطنوا كنعان وانضموا إلى قبيلة يهودا.
(انظر عبدالوهاب المسيري، المصدر السابق، ص 104 ـ 105) (المترجمة).
(*22) التي ينتمي إليها رايت (المراجع)
(*23) تل العمارنة هو موقع أثري في مصر اكتشف فيه عام 1887 أرشيف الفرعون أمينحوتب الرابع، ومن ضمن وثائق هذا الأرشيف رسائل من ملوك كنعان إلى الفرعون المصري يتذمرون فيها من الفوضى التي عمت البلاد بعد احتلال قبائل العميرو أو الخبيرو (وهي قبائل كانت خليطا من أجناس وقبائل مختلفة منهم عبرانيين). وهذه الرسائل cuneiforms مكتوبة باللغة الأكادية وبعضها بالحثية والبعض الآخر بالكنعانية (المترجمة).
(*24) تجدر ملاحظة أن المؤلف يرى أن المؤرخين اليهود كلهم متشابهون في إسقاطاتهم على الصهيونية المعاصرة، حتى لو كانوا يعتنقون أيديولوجيات تقدمية كان المفروض أن تبعدهم عن هذه الرؤية المتخلفة والمتعصبة عرقيا ضد الفلسطينيين، أي أن أصحاب الخلفية «التقدمية» لا يختلفون في هذه النقطة عن الحاخامات!! (المراجع).
(*25) من الواضح أن المؤلف يقصد هنا مواجهة الإسرائيليين لعملية الطرد التي قام بها الفراعنة (المعروفون بنظامهم المركزي) للجماعات الإسرائيلية في مصر، وهو ما أدى إلى رحيلهم إلى أرض كنعان (فلسطين القديمة) واستيطانهم فيها (المراجع).
(*26) قد يكون في هذه الإشارة إلى إقامة المجتمع الإسرائيلي القديم لتنظيم قائم على المساواة تفسير لظاهرة إقامة المستوطنات الإسرائيلية الحديثة في بدايتها، على أسس اشتراكية (وأحيانا شبه شيوعية) وهذا مظهر آخر لإسقاط الأوضاع المعاصرة على التاريخ القديم (أو العكس!) (المراجع).
(*27) موجة الهجرة الثانية: تقسم الصهيونية الهجرات اليهودية الحديثة إلى فلسطين إلى مراحل: ابتدأت الموجة الأولى من الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر، والموجة السادسة من الهجرة (والأخيرة حتى قيام دولة إسرائيل) امتدت من سنة 1941 ـ 1947.
أما الموجة الثانية من الهجرة (1904 ـ 1914) فكان معظم أفرادها من روسيا القيصرية جاءوا هربا من الاضطهاد والمذابح الروسية ضد اليهود، وفي هذه الفترة دخل إلى فلسطين ما بين 35 و40 ألف مهاجر يهودي، معظمهم من روسيا وأوروبا الشرقية، وكانوا ممن ينتمون في غالبيتهم إلى الحركة الاشتراكية (المترجمة).
(*28) الحالوتسيم: كلمة عبرية تعني الرواد، وبخاصة في مجال الزراعة والاستيطان (المترجمة).
(*29) ورد اسم زانغويل في الأصل (ص 120) خطأ حيث جاء «Zangwith» بينما الصحيح هو Zangwill. وإسرائيل زانغويل (1864 ـ 1926) كاتب يهودي إنجليزي من أصل روسي أصبح صهيونيا متحمسا بعد مقابلته لهرتزل سنة 1895. وبعد رفض مشروع أوغندا عام 1905 الذي عرضت فيه الحكومة البريطانية أوغندا على الشعب اليهودي كوطن قومي لهم، أسس زانغويل المنظمة اليهودية الإقليمية Jewish Territorial Organization التي كرس نفسه لها لسنوات طويلة (المترجمة).

(*30) هل حقا شفوا «تماما» من هذا الوهم، وكانت غولدا مائير وغيرها من الصهيونيين يصرحون باستمرار حتى السبعينيات وأبعد من ذلك بكثير بأن الشعب الفلسطيني لا وجود له؟؟ (المترجمة).

4 إنشاء دولة اسرائيلية

إنشاء دولة: المطالبة بالماضي

إن البحث المزمن عن إسرائيل القديمة، وتحديد موقعها في الفترة الانتقالية الواقعة بين أواخر العصر البرونزي ـ وأوائل العصر الحديدي لا يمدنا في النهاية سوى بإحدى اللحظات الحاسمة في تاريخ فلسطين. وكان إنشاء دولة يهودية ـ الذي نسبه(*) تراث الدراسات التوراتية في بداية الأمر إلى شاؤول، ثم بشكل خاص إلى داود وسليمان ـ هو اللحظة الحاسمة في تاريخ المنطقة بالنسبة للدراسات التوراتية. وهي تكتسب أهمية خاصة تعود إلى فترة ما يعرف بنشوء إسرائيل في فترة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي، ولكنها في نهاية المطاف تطغي على هذه الفترة. إن إنشاء تلك الدولة لا يدل فقط على تحقق أعلى درجات التطور السياسي ولكنه يميز إسرائيل عن غيرها باعتبارها دولة مستقلة وذات سيادة لاتخضع للسيطرة الاستعمارية. إن جهود الباحثين التوراتيين في البحث عن مملكة داود ليست ذات أهمية تاريخيةوأثرية فقط، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك.

فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب في 14 مايو 1948 - أشار إلى «إعادة إنشاء الدولة اليهودية» «Re-establishment of the Jewish State» (لاكير وروبين Laqueur & Rubin 1984: 126). ومن الممكن تفنيد أي محاولة من الباحثين التوراتيين للتنصل من النتائج التي تترتب على أبحاثهم، وادعاء الاهتمام بالماضي بشكل موضوعي بعيدا عن الحقائق والصراعات السياسية المعاصرة، بالرجوع إلى المقاطع الافتتاحية من إعلان الاستقلال الإسرائيلي التي جاء نصها كما يلي:

لقد كانت أرض إسرائيل مسقط رأس الشعب اليهودي. هنا تكونت هويتهم الروحية والدينية والقومية. وهنا حقق هذا الشعب الاستقلال وأنشا ثقافة كان لها أثر قومي وعالمي. وهنا أيضا كتبوا الكتاب المقدس ووهبوه للعالم. وبعد النفي من أرض إسرائيل، ظل الشعب اليهودي وفيا لهذه الأرض في جميع البلدان التي تشتت فيها، ولم ينقطع قط عن الصلاة والأمل بالعودة إليها لاستعادة استقلاله القومي بدافع هذا الرابط التاريخي. جاهد اليهود طيلة القرون الماضية للعودة إلى أرض آبائهم ولاستعادة دولتهم. عاد اليهود بأعداد كبيرة في العقود الأخيرة. استصلحوا القفار وأعادوا إحياء لغتهم، بنوا المدن والقرى، وأسسوا مجتمعا قويا دائم النمو، له حياته الاقتصادية والثقافية الخاصة. سعوا إلى السلام، لكنهم في الوقت نفسه استعدوا للدفاع عن أنفسهم. لقد جلبوا نعمة التقدم لجميع سكان البلد وتطلعوا للتحرر والاستقلال.

(لاكير وروبين Laqueur & Rubin 1984: 125)

يبرَّر الحق في امتلاك الأرض على أساس السابقة التاريخية historic precedent بوجود دولة إسرائيلية مستقلة وذات سيادة في المنطقة. هذه الدولة تدعي الحق في الأرض باعتبار أن هذا هو التعبير النهائي عن التطور السياسي، وهو يلغي ويتجاوز كل نوع آخر من التنظيم السياسي في المنطقة، وهي التنظيمات التي ينظر إليها في نهاية المطاف على أنها أحط.

أما المعنى الضمني من وراء هذا الادعاء فهو أنه في الفترة المعاصرة، جلب المستوطنون اليهود «نعمة التقدم لكل السكان»(2*)، قبيل إنشاء الدولة القومية. وتتسرب نفس تلك الادعاءات الضمنية والصريحة إلى العديد من تصورات هذا الماضي المتخيل حول نشوء إسرائيل في فلسطين، كما رأينا في السابق. وينتشرهذا الادعاء الصريح بامتلاك أو استرداد الأرض، على أساس تلك السابقة التاريخية، على نطاق واسع وقد سيطر طويلا على

المفاهيم السياسية والشعبية المتعلقة بدولة إسرائيل الحديثة وحقها في الأرض. ففي مذكرة كتبها اللورد بلفور بعد سنتين من إعلانه للوعد الشهير عام 1917، ذلك الوعد الذي تعهدت فيه الحكومة البريطانية بتأييد إنشاء «وطن قومي لليهود في فلسطين»، نجد العبارات التالية:

> إن القوى الأربع العظمى ملتزمة بالصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية على خطأ أم على صواب، أو كانت شيئا جيدا أو سيئا، فإنها متأصلة بعمق في تراث من الماضي البعيد وفي حاجات الحاضر وآمال المستقبل، وهي أهم بكثير من رغبات وتحيزات الـ 700 ألف عربي الذين يقطنون الآن تلك الأرض القديمة.

(خالدي Khalidi **208:1971**)

تتجسد مثل هذه المزاعم في الإشارات المتكررة إلى «أرض إسرائيل التاريخية» في أيامنا هذه. كما أن إعلان الاستقلال الإسرائيلي لعام 1948 يشير إلى «إعادة إنشاء الدولة اليهودية». وما هذا التعبير إلا إعادة صياغة لوعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عاما من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن «إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين». ويتجلى اهتمام حاييم وايزمن البالغ بالاصطلاحات وإعادة صياغتها (سعيد 86: 1992) في إعلان الاستقلال الذي يعبر بصراحة عن «الحق» في إنشاء دولة يهودية، لا مجرد وطن قومي، وذلك على أساس السابقة التاريخية. وعلى هذا الأساس، فإن دولة إسرائيل المعاصرة ما هي إلا «إعادة بناء» (re-establishment) لما كان موجودا في الماضي.

ويدل سياق المطالبة والمطالبة المضادة بحق امتلاك الأرض على أن الدراسات التوراتية، في اختلاقها لدولة إسرائيلية قديمة، متورطة في الصراع الحالي الدائر حول هذه الأرض. وهكذا سيطر الصراع الصهيوني للحصول على دولة مستقلة ذات سيادة على تاريخ المنطقة خلال معظم القرن الحالي. أما المسألة التي لم تعر اهتماما كافيا فهي: إلى أي مدى أثر هذا الصراع المعاصر الدائر حول فلسطين في فهم التاريخ القديم وتصوره. وعلى الرغم من أن الأطماع الصهيونية لم تتحقق إلا في عام 1948 مع قيام دولة إسرائيل الحديثة، فإن الأحداث التي حصلت منذ بداية هذا القرن تركت آثارا لا تمحى في عقول الباحثين التوراتيين وفي مخيلتهم (وهذا هو الأهم)، حيث كونوا في خيالهم صورة عن الماضي المتعلق بمملكة داود وكأنه

العصر الذهبي للتاريخ الإسرائيلي[1]. إذا كانت الأمم عبارة عن سرد للتاريخ، كما يقول هومي بابا Homi Bhabha، إذن يكون سرد هذا التاريخ مرتبطا بشكل وثيق بحقائق الحاضر، ويؤدي إلى استبعاد أي تمثيلات أخرى محتملة للماضي أو أي تصور مختلف له. إن الباحثين التوراتيين وكذلك علماء الآثار قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها الملك داود، وتصوروا أن هذه الدولة قد وجدت بالفعل. وقد هيمنت تلك «الحقيقة» المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية خلال معظم القرن الحالي، وأتاحت مجالا لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه «الحقيقة» المزعومة أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إسكات التاريخ الفلسطيني وكانت عقبة في وجه أي روايات أخرى بديلة للماضي.

لن نأتي بجديد، بالطبع، إذا قلنا إن فلسطين كانت عرضة للسيطرة الخارجية في معظم فترات تاريخها، وهذه حقيقة تعترف بها معظم الروايات حول تاريخ المنطقة. إلا أن معظم المؤرخين التوراتيين يعتبرون أن فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي هي الاستثناء من هذه القاعدة. وهي الفترة نفسها التي شهدت انهيار الإمبراطوريات الميسينية[3*] Mycenaea والمصرية القديمة والحثّية Hittite، كما شهدت ما يعرف بـ«نشوء إسرائيل». وينظر إلى عام 1200 ق. م على أنه الخط الفاصل في تاريخ المنطقة، ومؤشر على الانحطاط الكبير ثم الغياب اللافت للنظر للسيطرة الإمبريالية[2]. أما الأهم من ذلك، فهو أن هذه الفترة تقدم على أنها حد فاصل،وعلى أنها الفترة التي شهدت نشوء الكيان المستقل «إسرائيل» في التاريخ الفلسطيني، وقد عبرت إسرائيل هذا الحد الفاصل إلى مرحلة «الدولة» في فترة زمنية قصيرة قياسيا. إن تلك الكينونة أصبحت تسيطر، حسب الرواية التوراتية، على تاريخ المنطقة بدلا من القوى الإمبريالية العظمى، أي مصر القديمة، وآشور وبابل وفارس واليونان وروما. وكما رأينا، فإن فترة «النشوء» حددت الطبيعة الأساسية لإسرائيل وقد تلاها نشوء دولة إسرائيلية تحت حكم داود وسليمان. وهي كما يجادلون استغلت وجود الفراغ في ميزان القوى العالمي لكي تصبح هي الكيان الذي يحدد النطاق الجغرافي لإسرائيل. وعلى الرغم من أن الفترة الحشمونية[4*]

Hasmonean اللاحقة ينظر إليها على أنها فاصل قصير المدى، كان يتسم بالسيطرة على زمان الحكم والتخلص من السيطرة الخارجية التي لم تكن تنقطع، فإن مملكة داود هي التي تصبح العامل المهيمن على تاريخ المنطقة.

تمدنا دراسة جون برايت John Bright الشهيرة (1972) حول نشوء الدولة الإسرائيلية، و«المملكة الموحدة» لداود وسليمان، بتفسير للطريقة التي هيمنت بها إسرائيل على التاريخ الفلسطيني في العصر الحديدي المبكر وأزالته من الوجود. يقول برايت إن:

> الأزمة التي عجلت بزوال عصبة القبائل الإسرائيلية حدثت في الجزء الأخير من القرن الحادي عشر. وقد أدت إلى بدء سلسلة من الأحداث حولت إسرائيل كلية في أقل من قرن من الزمان، وجعلتها في منزلة القوى الكبرى في عالمها المعاصر. ينبغي لهذه الفترة القصيرة أن تستحوذ على اهتمامنا مطولا، إذ إنها إحدى أهم الفترات في تاريخ إسرائيل برمته.
>
> (برايت Bright 1972:179)

فالادعاء القائل إن دولة داود وسليمان كانت «إحدى القوى العظمى في العالم المعاصر لها» - وتجدر الإشارة إلى أن هذه العبارة يمكن بسهولة استعمالها لوصف دولة إسرائيل الحديثة - يدل على مدى الأهمية التي كانت لذلك الكيان القديم . كذلك يبدو من وصف «برايت» أن سكان القرى الصغيرة الفقراء ماديا في المناطق الريفية بمنطقة المرتفعات في فلسطين قد سبقوا الحضارات النهرية في مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين وادعوا بأنهم في منزلة القوة العالمية العظمى. وهو ادعاء سوف نختبر مدى صحته في الفصل الحالي فيما بعد. لكننا سنركز حاليا على الادعاء القائل إن هذه الفترة شهدت غياب اهتمام القوى العظمى بالمنطقة» وأنها «إحدى أهم المراحل في تاريخ إسرائيل برمته»، وهو ما يهمنا بشكل أكبر. فأهمية هذا الادعاء كبيرة إلى درجة أنه ما أن يتم القضاء على تهديد الجماعات الفلستية على يد داود، حتى تصبح دولة داود هي تاريخ فلسطين في تلك الفترة. وليس من الصعب الاهتداء إلى سبب هذا الافتراض الضمني، إذ إن برايت (1972: 197) يصور تلك الفترة على أنها فترة تعزيز نفوذ دولة السلالة الحاكمة وبناء «الإمبراطورية» : إذ كان داود سيدا على إمبراطورية مترامية الأطراف. هنا يتكلم برايت عن «إمبراطورية» تضم عمون (Ammon) وسوريا في الشمال، وآدوم ومؤاب[*5] في الشرق، حتى أن برايت يستنتج أن

فتوحات داود حولت «إسرائيل بشكل مفاجئ تماما إلى أكبر قوة في فلسطين وسوريا، بل في الواقع، ربما كانت إسرائيل في تلك اللحظة لا تقل جبروتا عن أي قوة عظمى في عالمها» (200 : 1972). يتكلم برايت عن «إمبراطورية»، امتدت حدودها من خليج العقبة إلى البحر المتوسط، ومن وادي العريش في الجنوب إلى لبنان وقاديش[6*] Kadesh حول نهر العاصي في الشمال. وبالنتيجة، وبناء على رواية برايت، فإن داود ورث الإمبراطورية الآسيوية للمملكة الجديدة في مصر[3]. ويرى برايت أن حدود تلك «الإمبراطورية الداودية»، التي تمكن سليمان من المحافظة عليها (برايت 210 ـ 207: 1972) تدل على أن تاريخ الدولة الإسرائيلية هو تاريخ فلسطين.

إن التصور الذي جاء به برايت هو رؤية لإسرائيل الكبرى مستوحاة من التوراة، وهي تتفق مع تطلعات العديد من زعماء دولة إسرائيل الحديثة وتدعم هذه التطلعات. لقد عبر بن غوريون عن رأيه عندما قال إن حدود إسرائيل يجب أن تتضمن جنوب لبنان وجنوب سوريا، والأردن وشرقي الأردن بأكمله، بالإضافة إلى سيناء. يعلق تشومسكي على آراء بن غوريون الذي قال:

> قبول التقسيم لا يلزمنا بأن نتنازل عن شرقي الأردن، لا يستطيع أحد أن يطلب من الآخرين أن يتخلوا عن أحلامهم. سوف نقبل بحدود الدولة كما ستحدد الآن، ولكن حدود الآمال الصهيونية هي شأن الشعب اليهودي وحده ولن يستطيع أي عامل خارجي الحد منها.
>
> **(بن غوريون. نقلا عن تشومسكي 180: 1983)**

بعد حرب 1956 والاستيلاء على سيناء أشار بن غوريون إلى إنشاء «مملكة إسرائيل الثالثة» (نقلا عن تشومسكي 163 : 1983 من نار زوهار Nar zohar 250 ـ 249 , 187 ـ 186 , 166 , 92 ـ 1978:91). إن أي إعادة بناء للماضي الإسرائيلي على أسس علمية، وبخاصة تلك المتأثرة بفترة المملكة وحدودها، يجب أن تقرأ في ضوء السياق الحديث إذ إنها تأثرت بالادعاءات والآمال المعاصررة كما أنها تؤثر فيها. وتأثير الدراسات التوراتية في عالم السياسة، سواء اعترف الباحثون التوراتيون بذلك أو لم يعترفوا، يظهر جليا في تصريح مناحيم بيغن بُعيد الإعلان عن قيام دولة إسرائيل عام 1948 الذي قال فيه:

> تجزئة الوطن شيء غير شرعي لن نعترف به أبدا. وتوقيع المؤسسات والأفراد على اتفاق

التقسيم باطل ولن يقيد الشعب اليهودي. القدس كانت وستظل عاصمتنا إلى الأبد. أرض إسرائيل سوف تعود إلى شعب إسرائيل، برمتها وإلى الأبد.

(مقتبسة من تشومسكي 161: 1983)

وهذه الرؤى السياسية والادعاءات المستوحاة من التوراة يتم تأكيدها، في الأغلب، من خلال تكوين صورة عن الماضي لإسرائيل القديمة في خطاب الدراسات التوراتية. ومن المفارقة أن نجد قوة عظمى تصورتها التوراة العبرية والباحثون التوراتيون المعاصرون، وهي تعكس النغمة المهيمنة في موضوع القوى العظمى في تاريخ المنطقة إلى درجة أن التاريخ الفلسطيني لم يعد موجودا على الإطلاق: كل ما لدينا هو تاريخ متخيل للقوة العظمى إسرائيل[4]. يتجلى إصرار الدراسات التوراتية على تأكيد أهمية هذه الفترة في وصف سوغن Soggin لتكوين المملكة الإسرائيلية:

مع تكوين مملكة متحدة تحت حكم داود، خرج تاريخ إسرائيل عن مجال ما قبل تاريخ التراث العقائدي والشعبي، ودخل ميدان التاريخ الحق. إن المملكة التي حكمها داود وسليمان هي الواقعة الأساسية التي نستطيع الانطلاق منها للبدء في البحث عن تاريخ إسرائيل بشكل صحيح.

(سوغنSoggin 332 :1977)

ورأي سوغن هذا جدير بالملاحظة لعدة أسباب، إذ جادل ضد فكرة استخدام التراث التوراتي لبناء تاريخ إسرائيل المبكر في فترة ما قبل المملكة، وهي إسرائيل الأساسية (essential Israel) في الدراسات التوراتية كما بينا في الفصول السابقة من هذا الكتاب. ولقد كان كتابه الذي صدر بعنوان «تاريخ إسرائيل» History of Israel من أوائل الأعمال التي نظرت بجدية إلى الاعتراضات المتزايدة حول قبول فرضيات الدراسات التوراتية واعتبارها تاريخا يعتد به. يرى سوغن أن فكرة البحث عن إسرائيل خلال فترة العصر البرونزي المتأخر كان ينبغي التخلي عنها، لأن مصادر كتابة مثل هذا التاريخ لم تكن متوافرة. وبدلا من ذلك، فإن نقطة البداية الحقيقية لتاريخ إسرائيل كانت بالنسبة إليه، هي تأسيس المملكة. لكن من الواضح أن سوغن يسلم بدوره بالافتراض الشائع للدراسات التوراتية، وهو أن «التاريخ الحق» لايمكن كتابته إلا إذا ما توافرت الوثائق المكتوبة التي لو لم توجد لعدنا إلى ما قبل التاريخ Pre -history وهو تاريخ ليس له الثقل نفسه، كما أنه بطريقة ما ليس تاريخا حقيقيا، ولذلك فإن هذه الفترات وتلك الشعوب

يتم إسكاتها. هذه هي القاعدة التي تبناها علم كتابة التاريخ في الغرب خلال القرن التاسع عشر كما تطور في سياق دول - المدينة. وقد تعزز ذلك الاتجاه الآن مع تكوين صورة عن التاريخ الإسرائيلي باعتبار أننا لا نستطيع الدخول في مجال «التاريخ الحق» إلا عن طريق وجود دولة إسرائيلية هي دولة - مدينة. ويرى معظم المؤرخين الآخرين، الذين اكتفوا بتحديد تاريخ أجزاء من التراث التوراتي إلى زمن أقدم كثيرا من المتعارف عليه أو الذين يجادلون بأن التقاليد اللاحقة تعكس هي الأخرى بشكل دقيق حقيقة تاريخية أقدم منها، أن «نشوء» إسرائيل، وكما سبق أن رأينا، هو اللحظة الفاصلة الأخرى في تاريخ فلسطين.

لايمكننا ببساطة قبول الافتراض القائل إن نشوء دولة إسرائيلية، وبالأخص مملكة داود، هو الذي يؤدي إلى التاريخ الحق، وأن هذه هي اللحظة الفاصلة في التاريخ الإسرائيلي، وبالتالي تاريخ المنطقة بشكل عام . فتأكيد برايت Bright (179 : 1972) القائل إن إسرائيل في فترة المملكة «أصبحت إحدى القوى العظمى في عالمها المعاصر« وأن هذه» واحدة من أهم الفترات في تاريخ إسرائيل برمته »، هو مثال على تصور للماضي يعبر عن النظرة الشائعة في الدراسات التوراتية. كما نجد التركيز على الطبيعة الحاسمة لهذه الفترة سائدا في الأعمال التقليدية والمراجع المتوافرة حول هذا التاريخ. والأمر الضروري هو تتبع أثر خطاب الدراسات التوراتية فيما يتعلق باختلاق دولة إسرائيلية أو «إمبراطورية» قديمة، في سياق النشاط الصهيوني الذي استهدف إقامة دولة إسرائيل الحديثة.[5] إن هاتين العمليتين مترابطتان تماما لأن الخطاب العلمي الأكاديمي كان يعمل على الملأ في سياق السعي الحثيث لإنشاء دولة يهودية في الجزء الأول من القرن العشرين، ومن ثم سيطرت هذه الدولة عليه حتى الآن. إذا كانت «السياسة تلازمنا في كل مكان»، كما قال إدوارد سعيد (16 :1994)، فإن خطاب الدراسات التوراتية قد رفض بثبات الاعتراف بأن بناء الماضي وتصوره هو عملية سياسية. لقد كان المؤرخون وعلماء الآثار التوراتيون يلوذون بالموضوعية ولكنهم في الواقع تجاهلوا، أو حتى أنكروا، السياق الذي يعملون فيه والسياق الذي تستقبل فيه أعمالهم وتقرأ. كما أن الأثر التراكمي للأفكار والقيم المتداولة التي يتكرر ترويجها يضفي طابعه الخاص على استنتاجاتها ويتشكل

بطابعها. وهذا يصدق بوجه خاص على أي تاريخ يتعلق بإسرائيل القديمة وبالأخص ذلك التاريخ الذي يعالج موضوع إنشاء تلك الدولة. إن التعلق بالمكان، والإدعاء «بالحق التاريخي» في الأرض، يستبعد أي إدعاءات مختلفة. وقد عمدت الدراسات التوراتية في تصورها لماض سيطرت عليه دولة إسرائيلية إلى رفع إسرائيل إلى منزلة القوى العظمى، وهذا ببساطة يؤكد شرعية امتلاك «الحق التاريخي» من خلال استبعاد أي رواية بديلة للماضي.

فضلا عن ذلك، وكما رأينا فيما يتعلق بالجدل الدائر حول ما يسمى بـ «نشوء إسرائيل»، هناك عدد من الفرضيات الأساسية التي تغلغلت في فكرة إنشاء دولة إسرائيلية قديمة. وقد كانت هذه الأمور تقدم دوما على أنها بحث موضوعي، وعلى أنها بعيدة عن الواقع الهابط لعالم السياسة. ولم يُنظر إلى تأكيد الدراسات التوراتية لوجود دولة إسرائيلية في الماضي السحيق وعلاقة تلك الدولة بادعاءات الحاضرحول فلسطين، لم ينظر إلى هذا الأمر على أنه شيء يستحق التعليق. وببساطة يفترض أن الدراسات التوراتية كانت بعيدة عن الصراع الحالي حول الهوية والأرض، على حين أن مجرد سكوتها وحقيقة أن «مشكلة» فلسطين ووجود الشعب الفلسطيني لاتزال غير مصرح بها في خطاب الدراسات التوراتية، لم يؤد في حقيقة الأمر إلا إلى إضفاء الشرعية على مطالبة إسرائيل بهذا الماضي، واستبعاد أي مطالب فلسطينية منافسة. تجدر الإشارة إلى أن خطاب الدراسات التوراتية قد تصور دولة إسرائيل القديمة إلى حد بعيد وفي الكثير من الأوجه على مثال دولة إسرائيل الحديثة. والمثير هو تكرار مثل هذه الفرضيات والصور والعبارات التي تظهر باستمرار في خطاب الدراسات التوراتية ابتداء من العشرينيات حتى يومنا هذا: مملكة دواد هي اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة، إمبراطورية داود نافست القوى العظمى في العالم القديم، دولة داود كانت دولة دفاعية، ومفارقة الطابع الغريب للنظام الملكي بالنسبة إلى إسرائيل، وتصوير إسرائيل على أنها حالة فريدة تختلف جوهريا عن محيطها.

تخيل دولة إسرائيلية قديمة

يعد كتاب آلت AIt الرائد عن مملكة إسرائيل، الذي نشر لأول مرة في

عام 1930، تماما مثلما هي الحال بالنسبة إلى دراسة نشوء إسرائيل، بمنزلة النظرية المعتمدة حول تكوين دولة إسرائيلية في فلسطين، هذه الدولة التي حددت ولاتزال تحدد إطار دراسة التاريخ في تلك الفترة. فالافتراض الأساسي هو أن تاريخ المنطقة يجب أن يفهم في سياق الكيانات القومية، وهذا ما نجده في العبارات الأولى من دراسة آلت الذي يقول إن الفترة التي هاجرت فيها قبائل إسرائيل من «قفار الجنوب الواقعة في المناطق الجبلية من فلسطين» (173 : 1966) تزامنت مع وصول مجموعات من الإيجيين(*7) في منطقة السهول، ومن ضمن تلك المجموعات كان الفلستيون Philistines. ويذهب آلت إلى أنه من غير الممكن «فهم تاريخ فلسطين في القرون اللاحقة مالم نفهم أولا الفرق في طرق معيشة الشعبين وإنجازاتهما بعدما استقروا في فلسطين» (173 : 1966). إن الادعاء بأنه لايمكن فهم التاريخ الفلسطيني اللاحق إلا من خلال هذا الموقع المركزي يؤكد أن هذه هي الفترة الفاصلة في تاريخ المنطقة. وفضلا عن ذلك، فإن الصراع هو صراع بين التعبير عن الوعي القومي الإسرائيلي وبين الفلستيين. إلا أنه لا علاقة للفلستيين بهذه اللحظة الفاصلة. فهذا الحق تحتفظ به إسرائيل لنفسها. أما إخفاق الفلستيين فيعزى إلى أنه يتم إقرانهم بالبنى السياسية المحلية. فقد تبنوا ـ إلى حد كبير ـ النمط السياسي القائم:« إن رؤيتنا للمدن الفلستية الصغيرة والشعوب الإيجية في سهول فلسطين على أنها الوريث والخلف لنظام دول ـ المدينة الكنعاني المبكر، له ما يبرره» (174: 1966). ومع أنه يعترف بأنهم (أي الفلستيين) قد طوروا نظاما سياسيا مميزا لايمكن أن يعزي إلى الكنعانيين، فإنه يبين أنهم فشلوا في النهاية لأنهم تلوثوا بالأنظمة السياسية المحلية. وكما قيل لنا باستمرار، لا يمكن مقارنة الأنظمة السياسية المحلية بأشكال التنظيم السياسي الآتي من الخارج. إن «الدول» المحلية كانت دائما صغيرة. واللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة اعتمدت على نظام سياسي من طراز مختلف كليا، وهو تكوين دولة إسرائيلية. إن تفسير آلت لهذا التطور وفشل الفلستيين في نهاية المطاف هوشيء له دلالته، إذ يقول:

خلال حروب الهجرة، كان الطابع الجماعي لكل أعمالهم ذا أهمية قصوى، وحتى حينما سيطروا على فلسطين، كان نجاحهم يرجع إلى حد كبير إلى ترابطهم القوي. وبطبيعة الحال فإن القبائل الإيجية الأخرى دخلت في هذا التحالف خلال فترة البداوة أو أسست أنظمة مشابهة.

ولكن بعد احتلالهم لفلسطين، يبدو أنهم وقعوا بسرعة ضحية الفرقة التي يولدها نظام دول ـ المدينة الصغيرة الذي تبنوه، لدرجة أنه في التراث الإسرائيلي لم يكن يطلق عليهم قط أسماء قبائلهم بل كان يشار إليهم حسب مدنهم فقط. ومن ناحية أخرى، فإن الفلستيين، تمكنوا من المحافظة على أنظمتهم المشتركة لبعض الوقت، ولهذا السبب كانوا في وضع يسمح لهم بتطوير قوة سياسية وعسكرية كان لها تأثير بالغ تجاوز منطقة مراكز تجمعهم.وكان لابد أن يؤدي هذا إلى وضع يسيطرون فيه سياسيا على فلسطين التي كان نفوذ نظام الحكم المصري فيها قد اختفى من الوجهة العملية. وإلى هذا الحد، يمكن وصفهم بأنهم خلفاء الفراعنة، حتى مع أن منطقة نفوذهم كانت دائما أصغر بكثير من تلك التي كان يسيطر عليها الفراعنة من قبل، ولهذا كان تأثيرهم أكثر فعالية بكثير.

(آلت AIt 175 . 174:1966)[6]

تجدر الإشارة إلى أن آلت يرى أن الشعوب الأصلية لايمكن مقارنتها بإسرائيل. ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن الفلستيين توافرت لهم فرصة إنشاء «إمبراطورية من الطراز الأول » (175: 6 196)[7]. وهو عكس ما حدث في حالة هجرة القبائل الإسرائيلية التي كانت بطيئة وسلمية في أغلب الأحيان، وتسللها إلى منطقة التلال في فلسطين، حيث كانت تفصل بينها مجموعات من القبائل غير الإسرائيلية، كما رأينا في الفصل الثالث. ويؤكد آلت أصول إسرائيل البدوية، إذ كانت تفتقر إلى التفوق العسكري للجماعات الإيجية. ومع هذا كله، فإن إسرائيل وليس الفلستيين هي التي كان بمقدورها أن تنشئ «إمبراطورية». إن إسرائيل القديمة التي تم تصورها تماما على هيئة الواقع المعاصر لآلت ذاته، تدعي بحق ملكية أرض خالية لاتبشر بالخير إذ نجده يقول:

في ذلك الوقت كان الفرق بين الإسرائيليين وبين الإيجيين كبيرا جدا، وكما رأينا فقد اتجهوا فورا نحو المناطق المتحضرة القديمة، واستولوا على ثرواتها، ومن جهة أخرى، فإن الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين قد حصل في الحقيقة في مناطق متخلفة كانت في بادئ الأمر منعزلة بالضرورة عن الحضارة. وبعد الاحتلال مباشرة فصلت الإسرائيليين عن النظام الكنعاني المحلي، مما وفر لهم الوقت لكي يطوروا حضارتهم الخاصة في وطنهم الجديد بشكل وطيد، بينما تدهورت الحضارة االإيجية بسرعة كبيرة ووقعت تحت الاحتلال.

(آلت 176: 1966)

والفكرة التي يرمي إليها آلت هي أن الإسرائيليين لم يسيطروا فقط على تلك الأرض الخالية وإنما ظلوا منعزلين، فلم يواجهوا المصير نفسه الذي واجهه الفلستيون الذين هبطوا إلى مستوى النظام الكنعاني الأصلي.

لقد كتب آلت هذا قبل إنشاء دولة إسرائيل الحديثة بوقت طويل نسبيا، إلا أن السياق الذي عمل فيه ليس عاملا ثانويا في تحديد فهمه للماضي، كما رأينا من قبل (ساسون Sasson 1981). أما المبدأ الذي اهتدى به فهو أن دولة - المدينة هي التي تحدد التاريخ: وهكذا فإن الصراع من أجل تحديد المصير والوعي الذاتي هو العامل الجوهري في تاريخ إسرائيل المتخيل، وهذا يتفق تماما مع خبرات آلت ذاته السابقة في كتابة التاريخ الألماني، ذلك التاريخ الذي كان نتيجة الصراع من أجل توحيد ألمانيا، وقد دعمه الصراع الذي كان دائرا حول فلسطين. إن النغمة الأساسية للوعي القومي وتحديد المصير هي التي تهيمن على جمع أعمال آلت. ثم يتابع آلت (177: 1966) فيؤكد أن ماضي إسرائيل البدوي كان ينطوي على «بعض الوظائف الأولية ذات الطبيعة القومية». ولا يوضح لنا ما هي تلك الوظائف - عدا القول إن استيطان الإسرائيليين في «بلد متحضر» قد جعل تطوير تلك الوظائف القومية شيئا حتميا بشكل شبه مؤكد. وهذا يتيح فرصة إجراء مقارنة طريفة مع دراسات أقرب عهدا حول إنشاء الدول، تلك الدراسات التي تركز على أن الوصول إلى وضع الدولة Statehood ليس شيئا حتميا بأي حال [8]. مع ذلك نجد أن وصول إسرائيل إلى الدولة هو شيء شبه حتمي في نظر أولبرايت Albright والعديد من المؤرخين التوراتيين الأمريكان من بعده، وهذه الحتمية يمكن تفسيرها في سياق المسار التطوري evolotionary development ضمن خطة رسمتها العناية الإلهية. لا يقدم آلت أي تفسير لحتمية وصول إسرائيل إلى تكوين دولة، فيما عدا تأكيد حتميتها. لكنه على أي حال، يؤكد أن التهديد الفلستي هو العامل الحاسم الذي دفع إسرائيل نحو تكوين دولة، ولكنه يبالغ في تأكيد أن هذه كانت اللحظة الفاصلة في المنطقة وكذلك في التاريخ العالمي فيقول:

فيما يتعلق بالإسرائيليين أنفسهم، فإن هذا قد جعلهم يرتبطون، بشكل مباشر بمجرى تاريخ بلدهم والعالم، وذلك بطريقة مختلفة تماما عما حدث في فترة هجرتهم وبدرجة أكبر منها كثيرا، وفرض عليهم تفاعلا جديدا لم يكن بإمكانهم تجنبه، وكذلك مشاركة في حياة الثقافة المحيطة

بهم، ولم يعد بمقدورهم الانسحاب مرة أخرى من هذا الارتباط من تلقاء أنفسهم.

(آلت 182: 1966)

توحي اللغة المستعملة هنا بأن ذلك «التفاعل الحتمي» مع الحضارة المحيطة بالإسرائيليين كان شيئا بغيضا، وكان هذا التفاعل أمرا لا يمكن تجنبه وقد هدد وجود إسرائيل ذاته وخصوصيتها مثلما أدى إلى فساد الفلستيين. والفرق الحاسم هنا هو إن إسرائيل، على العكس من الفلستيين وتفوقهم العسكري، لم تؤثر فيها الظروف المحيطة بها لكي تهبط بمستواها، ولكنها هي التي تمكنت من الارتقاء بالمنطقة والعالم. هنا نجد تعبيرا عن الانتصار على جميع الصعاب. لقد تمكنت إسرائيل من هزيمة «الحكم الفلستي المستبد » (183 : 1966) كما تمكنت من إنشاء دولة على الرغم من التأثير السلبي لذلك الوضع الفاسد.

أما السمة الأخرى اللافتة للنظر في تصور آلت لتاريخ إسرائيل، والتي استمرت الدراسات التوراتية في الأخذ بها، فهي تركيزه على إنشاء « دولة ـ قومية» إسرائيلية (186: 1966). لاحظ هنا أنه بعد صفحات قليلة فقط يشير إلى هذه الدولة المزعومة على أنها «أول دولة قومية (national state) موحدة» (187 : 1966)، ويركز على أنها «دولة قومية» (191 : 1966). ويستمد الادعاء بامتلاك «الحق التاريخي» في الأرض تدعيما له، بالطبع، من الادعاء بأسبقية الوصول إلى وضع «الدولة» statehood في المنطقة والانفراد به. والفكرة الأخرى التي كان لها تأثير مماثل هي رأيه القائل إن الدولة الإسرائيلية قد أسست لأغراض دفاعية فقط، أي أنها كانت محاولة للوقوف في وجه التهديد العسكري الفلستي: «كانت مملكة هدفها الوحيد هو صد هجوم الفلستيين، وكانت فكرة فرض الهيمنة على المناطق غير الإسرائيلية مستبعدة تماما» (196: 1966) . إن وهم الطبيعة الدفاعية لإسرائيل هو فكرة متغلغلة في خطاب الدراسات التوراتية برمته فيما يتعلق بطبيعة الدولة الإسرائيلية، وهذه الدولة تحاكي عن قرب الادعاءات الصهيونية والتبريرات الاعتذارية اللاحقة بعيد إنشاء دولة إسرائيل الحديثة. فكثيرا ما توصف دولة إسرائيل الحديثة بأنها دولة دفاعية بطبيعتها: وتلك النظرة يعبر عنها « إعلان الاستقلال Proclamation of Independence، الذي جاء فيه: «لقد سعوا للسلام، ولكنهم في الوقت نفسه استعدوا للدفاع عن أنفسهم[9] .

يستبعد آلت (197: 1966) أن تكون إسرائيل قد تأثرت بالمدن الكنعانية. بل إنها، على العكس من ذلك، قد تأثرت بشكل أقوى بكثير بما وصفه آلت «بالأسس القومية» (200: 1966) لأدوم ومؤاب وعمون وآرام:

ظهرت مملكة إسرائيل على الساحة على أنها إحدى الحلقات الأخيرة في تلك السلسلة من البنى السياسية المتشابهة، وهكذا لعبت دورها المتميز في عملية التغيير الحاسمة في الخريطة السياسية لفلسطين وهي العملية التي وصلت إلى نهايتها في القرن العاشر قبل الميلاد. وفي وسع المرء، من زاوية الترتيب الزمني البحت، أن يعتبر التطور اللاحق للدولة الإسرائيلية مجرد تقليد لدول ـ المدينة القائمة منذ زمن بعيد في شرقي الأردن. ولكن من المستبعد كلية أن يكون من الممكن تفسير حقيقة هذا الربط بمثل هذه الطريقة الآلية. وفي كلتا الحالتين فإننا نجد أنفسنا إزاء شعوب متقاربة خرجت من مواطنها الصحراوية متبعة طريقا متشابها نحو المناطق المتحضرة المختلفة في فلسطين. وبقدر ما يمكننا أن نرى، فإن هذه الأمم تكشف عن ملامح للسمات الإبداعية نفسها في عملية صياغتها للدولة. وإذا كان ذلك في الواقع مبدأ لم يكن معروفا لدى السكان السابقين في المنطقة التي أنشئت فيها الدول الجديدة، إذن يتوجب علينا أن نعترف بثقة أكبر بالنتائج المترتبة على ذلك الميل الذي كان مشتركا بين جميع الوافدين الجدد، والذي أدى، عاجلا أم آجلا وحسب الظروف الخاصة لكل حالة، إلى استحداث نمط واحد من النظام القومي، دون أن يضطر أي قوم بعينهم إلى التعلم من الذين جاءوا قبلهم.

(آلت201 . 200: 1966)

وببساطة، فإن هذا لا يعدو أن يكون تفسيرا للفرضيات الأساسية التي تهيمن على فهم آلت لنشوء إسرائيل القديمة، وكذلك على فهمه لطبيعة إسرائيل الجوهرية. فالعامل الحقيقي الذي أدى إلى تمدين المنطقة أتى حسب رأيه من الخارج. أما الحضارات الأصلية فلم يكن بمقدورها أن تنظم نفسها بالطريقة ذاتها. والسمة الأخرى اللافتة للنظر في هذا التصور هي تشابهه الكبير مع الفترة الحديثة التي أنشأت فيها القوى الأوروبية الاستعمارية دولا قومية. فقد حددت أوروبا حدود المنطقة بشكل مصطنع: ولم تكن الشعوب الأصلية قادرة على تنظيم نفسها بطريقة «متحضرة» بل كانت تفتقر إلى أي ملكة «إبداعية»، ذلك الإبداع الذي لايزيد على القدرة على التنظيم والتعاون. وكما يرى آلت، فإن الدولة القومية هي قمة الحضارة، وهذه لم تكن معروفة في المنطقة حتى أدخلها الأجانب ورثة الأوروبيين.

أما إسرائيل فينظر إليها على أنها حالة خاصة بسبب عزلتها الكبيرة

في منطقة «تأثرت بدول المدينة القديمة في فلسطين التي لاتتشابه البتة فيما بينها» (201: 1966). أما شكل الدولة فيمكن أن تكون قد شابهت جيرانها الأردنيين في البداية، ولكنها تطورت بشكل مستقل فيما بعد. والفترة الحرجة ينظر إليها على أنها فترة حكم كل من داود وسليمان اللذين يرجع إليهما الفضل بمد هيمنتهما «أبعد من أي قوة محلية معروفة لنا حتى الآن، حتى الفلستيين أنفسهم» (1966:225) وتتبلور فكرة تأثير «الرجال العظماء» في التاريخ في استنتاج آلت الذي كان له تأثيره الكبير والذي يذهب إلى أن «كل فلسطين اتحدت في نظام شديد التعقيد والتشابك، وكانت النقطة المحورية الوحيدة هي شخص كل من داود وسليمان» (1966:226). تكشف النتيجة التي توصل إليها آلت في نهاية دراسته عن العديد من النقاط المهمة حول افتراضات الدراسات التوراتية. فهو ينظر إلى داود وسليمان على أنهما خارجان عن المبدأ الأساسي في مملكة شاؤول والمبني على التنظيم الوطني بحيث شكلا قوة تتخطى الحدود القومية مبنية على الولاء الشخصي. أما «الدول القومية» المكونة حديثا فقد ظلت موجودة ولكنها اندمجت في هذا البناء الأوسع إلا أن المبدأ القومي فرض نفسه مجددا في مقابل الاتحاد الشخصي:

> التاريخ يقول هنا شيئا مهما للغاية، وهو أن الإمبراطورية التي أنشأها داود وسليمان بسرعة مذهلة كانت تتأرجح سياسيا بشدة، وأنها في تأرجحها ذهبت أبعد بكثير من الميول والقدرات التي كانت سائدة لدى شعب فلسطين في ذلك الوقت، مما جعلها غير قادرة على البقاء في ذلك الوضع لمدة أطول، إن لم نقل بشكل دائم. وهكذا يتضح أن مبدأ الدولة ـ القومية، وهو النظام الذي كان سائدا في البلد والذي ظهر في وقت مبكر جدا، هو وحده الذي كان يفي بمتطلبات الشعوب المعنية ووفر نوعا من التوازن بينها.
>
> **(آلت 237: 1966)**

تسيطر فكرة الدولة القومية على تكوين صورة الماضي عند آلت، إلى درجة أنه ينبغي النظر إليها على أنها المبدأ الذي يشكل أساس التنظيم السياسي في المنطقة، وإن كان مبدأ تعيَّن جلبه من الخارج. ومما يثير مزيدا من الدهشة، ادعاؤه أن هذا النوع من النظام السياسي كان مبكرا « إن لم يكن من أسبق» أنواع الأنظمة السياسية في البلد. مما يوحي بأن الشعوب الأصلية في فلسطين كانت عاجزة عن الإتيان بأي نوع من التنظيم

السياسي حتى تم إدخال فكرة الدولة القومية إلى المنطقة بواسطة البدو المتسللين من الخارج!

وقد واصل أشهر تلامذة آلت وهو مارتن نوث Martin Noth اعتناق هذه وغيرها من النزعات التي كان لها تأثير كبير في الدراسات التوراتية وعمل على تثبيتها. ففي تصوره للفترة التي تكونت فيها الدولة الإسرائيلية التزم التزاما قويا بالأسس التي أرساها التراث التوراتي. وقد عبر بوضوح عن مشكلة شغلت عقول العديد من العلماء التوراتيين الذين اعتمدوا في تصوراتهم لتلك الفترة على تراث متضمن في التوراة العبرية ألا وهي فكرة أن إنشاء المملكة ينفي الطبيعة الدينية (الثيوقراطية) الجوهرية لإسرائيل. وفضلا عن ذلك، فإن الاعتراف بأنها اقتبست هذا الهيكل السياسي من الحضارات المحيطة بها يؤدي إلى زعزعة الرأي القائل بخصوصية إسرائيل وإدعائها بأسبقية تكوين دولة في المنطقة:

> لكن حقيقة أن النظام الملكي في إسرائيل كان مبنيا على نموذج أثبت قيمته في شعوب أخرى قد خلقت مشكلة لا مفر منها لإسرائيل: فهل كان يحق لإسرائيل أن تحاول أن تكون أمة كسائر الأمم وأن تنصب ملكا على نموذج الممالك الأجنبية، وأن تمضي في طريق النفوذ السياسي مهما كانت مخاطره؟ وعلى الرغم من أن الخطوات الأولية التي اتخذتها في هذا الاتجاه كانت متواضعه، فإنها كانت تحولا جديدا تماما بالنسبة لإسرائيل.

(نوث Noth 172: 1960)

لقد فشلت التصورات التقليدية للماضي، المبنية على النص التوراتي، في حل تلك المعضلة: فهي تنظر إليها على أنها غريبة عن إسرائيل وإنكار لطبيعتها الدينية الأساسية مع أنها في الوقت نفسه تنظر إليها على أنها هي اللحظة الفاصلة في التاريخ الإسرائيلي، أي اللحظة التي حددت حدودها القومية واستقلالها[10].

يصور نوث فترة حكم شاؤول على أنها فترة فاشلة، ويتفق مع وجهة النظر التوراتية، على أنها مجرد «مرحلة عابرة» : فالفلستيون أسسوا سلطة في فلسطين وكان حكم شاؤول «ميئوسا منه تماما بالنسبة لإسرائيل» (178: 1960). ويرى نوث أن اللحظة الفاصلة هي فترة حكم داود التي سارت فيها إسرائيل نحو الهيمنة السياسية ودخلت مرحلة جديدة تماما وحاسمة (179: 1960). كما يصرح بأن جدة ذلك الوضع يؤكدها إدخال «تقاليد تاريخية

جديدة» في العهد القديم الذي هو «سجل تاريخي، وعمل علمي». إن طريقة عرض نوث لهذا الماضي المتخيل تؤكد الربط بين نشوء علم التاريخ الحديث والدولة القومية، مع التركيز على تفرد رجال الدولة العظام وأهمية وجود سجل (أرشيف) للدولة. كما أن دراسة الباحث المعاصر لهذا «العمل العلمي» القديم (يقصد التوراة) تؤكد الربط بين الماضي والحاضر. وهذا بالطبع ضمان للموضوعية كما أنه حصيلة أبحاث علمية نزيهة. وهو يقول أيضا إن تطور النفوذ السياسي والمشاركة الحية في الأحداث التاريخية كان الشرط المسبق لبداية الكتابة التاريخية. وهذا يعني، بالطبع، أن فرضيته حول نظام تحالف القبائل الاثني عشرة، أو حكم شاؤول لم يكونا «سياسيين»! ومن اللافت للنظر أن الدول وحدها هي كيانات سياسية والدول وحدها هي التي توفر أساس السجل (الأرشيف) التاريخي. مع هذا، فإن الدراسات التوراتية تستطيع في الوقت ذاته أن تنكر أو تتجاهل السياق السياسي لأبحاثها وكذلك نتائجها السياسية.

أحد الألغاز التاريخية الرئيسية حول الروايات التوراتية والتصورات المبنية عليها هو أن الفلستيين الذين يصورون على أنهم تهديد كبير لوجود إسرائيل تحت حكم شاؤول، لا يهزمهم داود فحسب بل يتلاشون عمليا من التاريخ [11]. ومن هنا استطاع نوث أن يقول:

لم يقم الفلستيون بأي محاولة جديدة. وأجبروا على الاستسلام والتخلي عن سيادتهم على الأرض. انتهت فترة هيمنتهم بسرعة. وهكذا فقد انحصرت ممتلكاتهم القديمة في جنوب منطقة السهل الساحلي وكونوا إحدى الدول الصغيرة المجاورة التي كانت تناوش مملكتي يهودا وإسرائيل كلما سنحت لها الظروف، ولكن لم يكن بمقدورها القيام بأى تهديد تاريخي. فقد كانت انتصارات داود الساحقة على الفلستيين أهم النجاحات وأكثرها دواما في حياته التي كانت حافلة بالانتصارات. لقد أتاحوا له الحرية ليطور نظامه السياسي على طريقته الخاصة.

(نوث 189: 1960)

ومن الأمور التي تسترعي الاهتمام أن الفلستيين قد حصروا أنفسهم في «المنطقة الجنوبية من السهل الساحلي »، وهي المنطقة نفسها التي يقع فيها قطاع غزة اليوم. ولم يعد بإمكانهم المشاركة في الأحداث التاريخية ما دامت مملكة داود هي التي حددت سماتها. والواقع أن ما نراه هنا هو رفع لشأن إسرائيل إلى درجة إسكات التاريخ الفلسطيني (أو الفلستي)، فاختيار

القدس كعاصمة ما يسميه نوث «مملكة إسرائيل الكبرى» (189 : 1960)، واتحاد إسرائيل ويهودا كان شيئا حاسما. أما الإشارة إلى «إسرائيل الكبرى» فهي شيء له أهمية خاصة، كما رأينا، عند بحث التأثير الخفي للحاضر على الماضي المتخيل. وقد كان لهذه العبارة أهمية حاسمة في الفترة التي أعقبت سنة 1948 (انظر تشومسكي 1983). يتضح الآن أنها عبارة استعملها آلت، وفي السياق الراهن يستعملها نوث، وقد أصبحت شائعة في خطاب الدراسات التوراتية. كما أن احتلال القدس ساعد في تحديد تلك اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة:

كانت (القدس) تقع على مقربة من الطريق الصاعد فوق المرتفعات و المؤدي من الشمال إلى الجنوب، والذي كان يتابع مسار تجمع الأمطار وكانت تفتقر إلى المواصلات الجيدة بين الشرق والغرب. ولم تكن بأي حال من الأحوال المركز الواضح للبلد كما أن التضاريس الطبيعية لموقعها لم تكن تؤهلها لكي تكون العاصمة. وهي لا تدين بما وصلت إليه تحت حكم داود إلى موقعها الطبيعي ولكن لإرادة ذلك الرجل وبصيرته، والذي اتخذ قرارا - دون يأبه بالتضاريس الطبيعية - كان صائبا في ظرف تاريخي معين».

(نوث190: 1960)

مرة أخرى نكرر أن المبدأ الموجه لهذا اللون من التفكير هو أن الرجال الأفذاذ هم الذين يكتبون التاريخ. على أن هذا الرأي لا يطابق أي حقيقة تاريخية فيما يتعلق بحجم القدس وأهميتها في زمن الحكم المزعوم لمملكة داود [12]. إلا أن نوث يرى أن أهميته مازالت سارية حتى يومنا هذا. (7: 1960)، وهذا ما يذهب إليه معظم الباحثين التوراتيين والحركة الصهيونية بالتأكيد، الذين يرون استمرارية مباشرة بين دولة داود ودولة إسرائيل المعاصرة. فالزعم بأن لإسرائيل حقا لاينكر في القدس كعاصمة لدولة إسرائيل، ذلك الزعم الذي عبر عنه بشكل صاخب مناحيم بيغن وزعماء الليكود الآخرون، ترجع جذوره إلى تلك الفترة المتخيلة من عصر داود الذهبي. إن الفقرة الافتتاحية في تقرير أفيغاد[*8] Avigad الشهير (1980) حول الحفريات الأثرية في القدس من 1969 حتى 1981، تكشف عن السياق الذي يجب أن تفهم في إطاره مثل هذه الأعمال. فقد جاء في هذا التقرير: «إن إعادة توحيد القدس عام 1967 لم يكن فقط حدثا تاريخيا عظيما... ولكنه كان أيضا حدثا سوف يذكر طويلا على أنه نقطة تحول في الاكتشافات

الأثرية للمدينة » (13: 1980). مغزى هذا الكلام هو أن الواقع سمح لعلماء الآثار الإسرائيليين بحرية الوصول إلى مواقع كانت متعذرة عليهم في السابق. إلا أن وصفه لنتائج 1967 على أنها «حدث تاريخي عظيم» يدل على أن علم الآثار ليس مجرد مبحث علمي أكاديمي. إذ توصف القدس على أنها «رمز ذو مغزى عاطفي عميق للشعب اليهودي ولمعظم الإنسانية» (13: 1980). ثم يكمل أفيغاد دراسته بملاحظة أن المنقبين عن الآثار تمكنوا من الوقوف شاهدين على عملية تاريخية إضافية منسجمة مع أنماط الماضي: وهي إعادة تأهيل الحي اليهودي. وواضح أن أفيغاد يرى استمرارية مباشرة بين ماضي إسرائيل وحاضرها الذي يركز على الأهمية السياسية والدينية للقدس بالنسبة للمجتمع اليهودي [13]. إن تلك الاستمرارية المباشرة بين الماضي والحاضر التي يشير إليها التوراتيون، أو المفترضة ضمنيا في الدراسات التوراتية وفي خضم السياسة تعني أن هذين المجالين مرتبطان بشكل وثيق.

إن وهم المملكة الإسرائيلية على أنها كيان يهيمن على كل شيء، يطالب بالماضي ومن ثم يضفي الشرعية على الحاضر، هو الذي تحكم في التاريخ الفلسطيني وهيمن عليه، وهذا ما يؤكده نوث في قوله: (193: 1960) «أنشأ داود إمبراطورية عظمى امتدت أبعد بكثير من حدود القبائل الإسرائيلية، وكانت متناسقة في شكلها الجغرافي من جميع الجهات، بما فيها جزء كبير من فلسطين وسوريا» [14]. ويدل تكرار هذه النغمة حول «الإمبراطورية» وتصور «إسرائيل الكبرى» على هذا النحو، يدل على سوء فهم تام لطبيعة الإمبراطوريات أو لإمكانات فلسطين ذاتها بالمقارنة مع المناطق المحيطة بها. بل إن نوث يشير إلى المناطق الآرامية في الشمال في شرق الأردن وحتى دمشق على أنها «إقليم في إمبراطورية داود»:

أصبحت المملكة برمتها بنية سياسية شديدة التعقيد، وكبرت إلى أبعد كثيرا من حدود الدولة الإسرائيلية البحتة. لقد أصبحت إمبراطورية فلسطينية ـ سورية اتحدت بشخص الملك وضمت شعوبا عديدة مختلفة. إن نظام داود السياسي كان أول قوة عظمى مستقلة في الأرض الفلسطينية السورية كما نعرفها، وقد ضمت بشكل مباشر أو غير مباشر معظم فلسطين وسوريا: وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي، وفي الواقع كانت إنجاز شخص واحد ذكي وناجح بشكل غير عادي. كان الوضع التاريخي العام في الشرق في مصر وما بين النهرين في مصلحة

داود، إذ لم يكن هناك أي قوة أخرى أكبر منها، تستطيع أن تعتدي على فلسطين وسوريا وتفرض هيمنتها عليها.

(نوث 195: 1960)

لقد مكن الفراغ في ميزان القوى بين إمبراطوريات المنطقة «إمبراطورية» داود من الامتداد إلى سوريا ـ فلسطين تماما مثلما تمكن الصهيونيون من استغلال هذا الفراغ بعد خروج بريطانيا. وتلك هي اللحظة الفاصلة ليس فقط في التاريخ الفلسطيني بل في التاريخ العالمي. فرؤية نوث لإمبراطورية داود التي يعتبرها «أول قوة عظمى مستقلة في الأرض الفلسطينية ـ السورية كما نعرفها» تؤكد مطالبة إسرائيل «التاريخية» بالماضي والحاضر، التي روجت لها من خلال فكرة الأسبقية.

إن عبادة الفرد ومنهج التأريخ الألماني الذي يرتكز على المبدأ القائل إن الرجال الأفذاذ هم الذين يصنعون التاريخ، هما شيء ظاهر بوضوح في أعمال آلت، ولكنه يظهر أيضا في رؤية نوث القائلة إن «وجود إمبراطورية داود كان يعتمد إلى حد كبير على الشخصية القوية لمؤسسها حتى أن بقاءها بعد مماته لم يبد مضمونا إلا إذا وجد خلف له يرتفع إلى مستواه على الأقل». (199 :1960) ومما يعزز هذا الرأي العبارة الأخيرة التي كتبها حول حكم داود وهي أن أي خليفة له كان يواجه «مهمة صعبة للغاية»، في الحفاظ على تلك «الإمبراطورية المعقدة» (199 : 1960). يعكس فهم نوث للدولة الإسرائيلية تحت حكم داود وسليمان بشكل واضح نموذج الدولة القومية الأوروبية ويظهر ذلك في الفقرة الآتية:

أدت الأحداث التاريخية التي وقعت في فترة حكم كل من داود وسليمان إلى حدوث تغيرات كبيرة جدا في ظروف حياة الإسرائيليين. فقد خففت المملكة القوية من قلقهم على مصيرهم في وضعهم التاريخي الخاص كما أنهم استمتعوا بالعيش في ظل دولة لم تكن قوية فحسب وإنما كانت أيضا محكومة حكما جيدا».

(نوث 217 ،216: 1960)

لقد كان رأي نوث القائل إن المملكة الإسرائيلية كانت محكومة حكما جيدا، متعارضا مع اعترافه (217: 1960) بأننا لا نعرف الكثير عن الإجراءات الإدارية التي اتخذها داود، وكذلك لانعرف بالنسبة لسليمان إلا القليل جدا فيما يتعلق بالمباني التي شيدها وبالأسرة المالكة، ولا يوجد أي دليل يثبت

صحة هذه المعلومات المحدودة. هذه العبارات كان يمكن أن تنطبق بسهولة على دولة إسرائيل الحديثة من حيث هي ملجأ ليهود أوروبا، حيث صورت على أنها المثل الأعلى للديمقراطية، دولة قوية وحكومتها تتسم بالكفاءة. وعلى حين أن «الدولة» هي العامل المحدد لهذا التاريخ المتخيل، فإنها في الواقع طراز معين من الدول، لايشبه الممالك المحيطة بها. إن مفهوم المثل الأعلى للديمقراطية هذا المتجسد في الدولة الإسرائيلية هو الذي يقدم حلا لهذه المفارقة التي تتمثل في النظر إلى المملكة على أنها إنكار للطبيعة الدينية (الثيوقراطية) الأساسية لإسرائيل . أما فيما يتعلق بالمنطقة، فلابد من تمييز إسرائيل عن جيرانها:

هذه الأوصاف العظيمة لمراحل من تاريخ داود لها أيضا مغزى خاص إذ تثبت بشكل نهائي قاطع حقيقة أن النظام الملكي كان يمثل مؤسسة على أرض إسرائيل، ظهرت في التاريخ بعد فترة طويلة من استقرار القبائل الإسرائيلية في فلسطين وتعزيزها لموقعها فيها، كما تثبت أنه بعد مرحلة شاؤول كان داود أول من أنشا مملكة وأورث ابنه مملكة يهودا وإسرائيل اللتين استمر وجودهما في تاريخ الشعب الإسرائيلي ولذلك لم يكن من الصعب أن تظهر في إسرائيل الفكرة القائلة إن مؤسسة الملكية في ذاتها والمملكات الفعلية في يهودا وإسرائيل كانت جزءا من النظام العالمي السرمدي والثابت. ولو أخذنا بالاعتبار أيضا أن القبائل الإسرائيلية ربما كانت على وعي بالطبيعة الإشكالية للنظام الملكي منذ البداية وبقوة متزايدة مع مرور الزمن... لاتضح لنا أن الملكية كان من المقدر لها أن تظهر في ضوء مختلف تماما عما كان عليه الوضع في باقي مناطق الشرق القديم، وعلى وجه التحديد في الإمبراطوريات الشرقية القديمة حيث كانت الملكية تعتبر عنصرا أساسيا في النظام الإلهي السرمدي.

(نوث 223:1960)

لقد كانت إسرائيل القديمة وكذلك إسرائيل الحديثة أمة منفصلة تماما عن محيطها، وبخاصة عن الواقع الاجتماعي والسياسي الذي وجدت فيه، وهكذا يتابع نوث فيقول:

في إسرائيل، كان النظام الملكي يعتبر دائما مؤسسة تطورت مع مجرى التاريخ، وكانت خاضعة بالتحديد لتأثير الظهور التاريخي للمملكة. ولقد كانت نشأة الكتابة التاريخية في إسرائيل، ولم يكن لها نظير في عالم الشرق القديم. وكان ذلك نتيجة الوعي التاريخي الفريد لإسرائيل الذي كان مبنيا على الطبيعة الخاصة لعلاقتها مع الإله. لذلك، فإن من الخطأ أن نطبق الأفكار الشرقية القديمة عن النظام الملكي الإلهي المقدس وما يرتبط بها من طقوس دينية على النظام

الملكي في إسرائيل دون تحفظ.

(نوث 223: 1960)

هذه الأفكار نجد لها صدى مشابها تماما في دولة إسرائيل المعاصرة التي ترى نفسها أمة منفصلة عن محيطها الثقافي والسياسي، وعاملا يجلب الحضارة إلى المنطقة نتيجة «للوعى التاريخي الفريد لإسرائيل» الذي هو وحي إلهي [15].

ويمثل مفهوم «التنوير السليماني» Solomonic Enlightenment الذي عبر عنه فون راد Von Rad، يمثل ذروة النظرة القائلة إن المملكة الإسرائيلية كانت العصر الذهبي الذي حدد معالم كل الفترات اللاحقة في تاريخ المنطقة. أصبح هذا هو الواقع والدافع لتطور التاريخ الإسرائيلي والتراث الذي شكل الجزء الأكبر من التوراة العبرية:

أنتج العصر الذهبي للمملكة العبرية أعمالا تاريخية أصيلة. لم يكن بمقدور أي حضارة في الشرق الأدنى القديم الإتيان بمثلها. حتى الإغريق لم يتمكنوا من الوصول إلى مثلها إلا في ذروة تقدمهم في القرن الخامس، ولكنهم انهاروا بسرعة بعد ذلك. على العكس، فإننا هنا بصدد أمة أصبحت للتو متحضرة. أما العوامل التي أسهمت في ذلك، بما فيها وجود كتاب يسهل تعلمه (*9)، فقد وصلت إليهم، كما وصلت إلى الإغريق، من السكان الأصليين الذين سبقوهم، لكن هذا يجعل إنجازاتهم أكثر إثارة للدهشة. هنا كما في كل الحالات التاريخية، تواجهنا المشكلة غير القابلة للحل، وهي مشكلة وجود قدرات فطرية. بفضل قدراتهم في الكتابة التاريخية، التي تحققت بشكل مستقل وناضج تماما منذ البداية، فإن حضارة إسرائيل يجب أن تقف في صف الحضارة الإغريقية الأغنى والأكثر عمقا في القرون اللاحقة.

(فون راد Von Rad 286 . 285: 1965)

يواجه القارئ الادعاء المثير للدهشة القائل إن إسرائيل تمكنت بفضل «قدراتها الفطرية» من إنتاج أعمال تاريخية «ناضجة تماما» حتى ولو أنها كانت حديثة عهد بالحضارة وبمعرفة الأبجدية. ومن الملاحظ أيضا أن معيار التمدن هو الوصول إلى وضع دولة (Statehood). إن هذه بالفعل حضارة فريدة لا يمكن مقارنتها بالحضارات القديمة الأخرى في الشرق الأدنى. يجب ألا ننسى أن تلك الحضارات الأخرى تشمل الحضارات النهرية الكبيرة في مصر الفرعونية وآشور وبابل وما رافقها من مبان أثرية رائعة، وفن منقوش وآثار أدبية هائلة[16].

أما كتاب جون برايت John Bright «تاريخ إسرائيل» «A History of Israel» الذي يعتبر نموذجا في «التاريخ التوراتي»، فيعطي السياق العالمي في المنطقة أهمية أكبر من أي عمل آخر من نوعه. إن غارات القوى الاستعمارية المتغيرة باستمرار يتم تصنيفها بدقة وتمتزج في عملية سرد التأريخ الإسرائيلي، وهي خلفية مهمة لفهم التاريخ المتميز لإسرائيل. على أي حال، فإن الربط بين صعود الإمبراطوريات وسقوطها وموقع فلسطين في ذلك العالم الحي يجب أن يستكشف بشكل أعمق. وفضلا عن ذلك فإن الهيمنة الاستعمارية في تاريخ فلسطين المتنوع كانت عاملا دائما، ولكنه يعامل بطريقة متميزة، وعلى أنه نوع من الشيء الفريد والأحداث التي لاتتكرر في التاريخ التقليدي أي التاريخ الوقائعي «L´histoire evenementielle» كما يسميه بروديل Braudel. إلا أن التركيز على غزوات ومعارك الفراعنة المختلفين، أو الملوك الآشوريين أو البابليين، أو القادة الفرس أو الرومان يكشف عن جزء من القصة في هذا النموذج المتكرر في تاريخ المنطقة. ويكشف تاريخ فلسطين بشكل واضح أنه منذ أواخر العصر البرونزي وحتى الفترة الرومانية، يستطيع المرء أن يقول إنه حتى يومنا هذا، كان هناك تغير نشط في ميزان القوى الذي شاهد التفوق الاقتصادي والعسكري يتأرجح من قوة إلى أخرى. من الواجب النظر إلى الفترات الاستعمارية في التاريخ الفلسطيني من منظور مقارن حتى نتمكن من إظهار أوجه الشبه والاختلاف بينها. فالكتابات التي تتحدث عن مصائر الأمم في المنطقة تتبنى عادة خطة جامدة فيما يتعلق بتسلسل الإمبراطوريات، وهذه الخطط تنعكس في إعادة بناء معاصرة «للتواريخ التوراتية» والتي تفرض بالنتيجة إمبراطورية داودية في فترة الفراغ في ميزان القوى في بداية العصر الحديدي. ويعد الإخفاق في تقدير أهمية ديناميكية القوى العالمية وتأثيرها في تاريخ المنطقة، هو السبب في تأكيد العديد من المؤرخين وعلماء الآثار التوراتيين لوجود مثل هذه الإمبراطورية الداودية. وسوف نركز على هذا الإخفاق بشكل موجز في الصفحات الأخيرة من الفصل الحالي.

ولكن يكفي الآن الاعتراف، كما أسلفنا، بأن معالجة برايت Bright (179 : 1972) لموضوع نشوء الدولة الإسرائيلية، أو ما يسمى «المملكة المتحدة» لداود وسليمان، التي تمحو كل الروايات الأخرى للتاريخ الفلسطيني من

بداية العصر الحديدي تكرر النغمة التي تتردد في أعمال آلت ونوث. يعرض برايت (1972:224) مفارقة المملكة الإسرائيلية بلغة أقوى من نوث. والمثير هو أنه على الرغم من أن نوث وبرايت ينظر إليهما على أنهما خصمان في خطاب الدراسات التوراتية فيما يتعلق بتصورهما لنشوء إسرائيل في فلسطين، فإنهما يشتركان معا في وجهات نظر غير قليلة وبشكل لافت حينما يكون الأمر متعلقا بافتراض نشوء الدولة الإسرائيلية. أما خلافاتهما حول استخدام علم الآثار فتتلاشى نظرا لوجود آثار قليلة للغاية حول ما يعرف بفترة داود وسليمان. ومن المثير أيضا أنهما يسلمان بأن النصوص التوراتية هي في الأساس مصدر موثوق منه للتاريخ، ويستخدمانها على أنها المرجع الرئيسي لإعادة بنائهما لهذا الماضي، مع أن إعادة البناء هذه لا تعدو أن تكون تلخيصا للروايات التي جاءت في سفري صموئيل Samuel[(*10)] والملوك Kings. إن نموذج الدولة القومية،التي هي مقر سجلات الدولة، وأساس الكتابة التاريخية، يصبح شيئا مهيمنا إلى درجة أن عمليتي بناء كل منهما لماضي إسرائيل المتخيل تتطابقان.

أما كتابات هيرمان Hermann التاريخية (1975) التي تسير في خطى آلت ونوث، فإن أهميتها ترجع إلى أنه يقول صراحة إن إسرائيل في فترة ما قبل الملكية «لم تشكل دولة في أي صورة من الصور»، (131:1975). وهو يتتبع أثر بدايات «المفهوم الحديث لشعب موحد» ولكنه يصرح بأن الدوافع لحركة تكوين دولة كانت دوافع خارجية. لا نعرف كيف تمكن هيرمان من التحرى عن مثل هذه الأمور. ونلاحظ أيضا مفارقة الطبيعة الغريبة للمملكة بالنسبة لإسرائيل ولكن في الوقت نفسه الادعاء أن هذا التغيير في النظام جلب معه «درجة جديدة من الوعي المشترك» (132 : 1975). و هنا أيضا لا يوجد أي إثبات لمثل هذا الادعاء... ثم يتبع الإجراء التقليدي بإعادة الصياغة والإسهاب في النص التوراتي في تصوره لحكم شاؤول. ولكن السؤال المقلق حول حدود مملكة شاؤول يكشف عن عدد من المسلمات المفترضة:

عندما أصبح شاؤول ملكا، لم تكن المنطقة التي سيطر عليها لها حدود واضحة، ولم تعترف به إلا مجموعة من القبائل، التي لانعرف عنها إلا القليل للأسف. كانت «مملكة» شاؤول دولة قومية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وكانت سيطرته على عشائر وقبائل ترجع إلى أصل واحد،

ولم تكن في الوقت ذاته دولة إقليمية لها حدود معروفة وإدارة مستقلة.

(هيرمان Herrmann 14: 1975)

ها هنا نجد مفهوم إسرائيل بوصفها شعبا يبحث عن أرض، وهو المفهوم الذي يتغلغل في الجزء الأكبر من الأبحاث التوراتية [17]. ثم يتحول هذا المفهوم ويتأكد في عهد داود: «لقد حكم داود مجموعة قومية كانت محدودة بمعنى ما، ولكن مساحتها وأهدافها كانت محددة بشكل أدق بكثير من «إمبراطورية» شاؤول المعقدة» (152 : 1975). وتبعا لهذه الرواية، كان داود هو مؤسس الدولة القومية. ويستشهد هيرمان (Herrman 156 : 1975) برأي آلت AIt ويتفق معه على أنه بعد احتلال داود للقدس «أصبحت دولة ـ المدينة التي توقف نموها مركزا لمملكة تضم كل فلسطين بشكل مفاجئ تماما». ثم ينتقل من هذه النقطة ليدلل على أن داود كان مؤسس الدولة القومية:

بإمكاننا أن نستنتج من هذا أن داود نجح حيث أخفق شاؤول، أى في الانتقال من الدولة القومية إلى الدولة الإقليمية، إلى «مملكة» لها حدود واضحة إلى حد بعيد، وإلى إقليم وليس مجرد حلف قبلي تحت حكم الملك.

(هيرمان 175:1975)

ومما له دلالته، قوله إن هذه الدولة كان ينبغي عليها أن تضم «فئات إثنية أخرى»: «وكانت النتيجة هي أن ما يعرف بالمشكلة الكنعانية لم تعد مجرد مشكلة داخلية حادة، بل الأهم من ذلك أنها أصبحت خطرا دينيا» (156 : 1975). كانت هذه هي المشكلة الحرجة لدولة إسرائيل الحديثة بعد حربي 1967 و1973، اللتين نشبتا قبل نشر أعمال هيرمان التاريخية. ومن الملاحظ أن العبارات التي صاغ بها آراءه تثير الفضول: فهو يشير إلى «المشكلة الكنعانية» التي واجهتها الدولة الإسرائيلية، وهذا مواز للمشكلة الفلسطينية التي تواجه دولة إسرائيل الحديثة والتي كانت ظاهرة للعيان في بداية السبعينيات وحتى قبل ذلك، ولكنها ظلت غير مصرح بها في خطاب الدراسات التوراتية. من اللافت للنظر بالنسبة لهيرمان، أن المشكلة ليست في حقوق «الكنعانيين»، وإنما في الخطر الذي يشكلونه من الداخل على وحدة دولة إسرائيل القومية وأمنها.

كذلك يرى هيرمان، أن فترة مملكتي داود وسليمان تصبح هي اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة، وهو يشير إلى «التوسع النموذجي لإمبراطورية

إسرائيل ويهودا» (159: 1975)، كما صورها الكتاب المقدس (الملوك الأول 5:1) وهو النص ذاته الذي يستوحي منه بن غوريون فكرة «إسرائيل الكبرى»، ولكنه (هيرمان) يذهب إلى أن هذا لم يتناسب مع واقع السلطة التي تمتع بها داود. ومع ذلك «فإن إنجازات داود التاريخية تصبح بالطبع شاحبة في ضوء مثله الطموحة جدا» (159 : 1975) حيث إن سيطرته على مناطق مختلفة تعني أنه من المناسب أن نشير إلى «إمبراطورية» داودية [18] . يقف هيرمان بصلابة في صف تراث «الكتابات التاريخية التوراتية التي تتصور وجود «إمبراطورية» داودية مبنية على مبدأ «عبادة الفرد»، وهي الإمبراطورية التي كانت نتيجة «الإنجاز الشخصي للملك». (162 : 1975). و يرى أنه من المحتمل جدا أن يكون مفهوم «إسرائيل الكبرى» نابعا من فترة داود. وهذه بوضوح اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة:

ولكن ترتيب الروايات التراثية بحيث تشكل فكرة متسقة عن وجود «شعب» له مميزات عرقية (إثنية) وقومية، ووعى قومي خاص به، لم يكن من الممكن أن يبلغ مداه إلا تحت تأثير دولة داود.

(هيرمان Hermann163: 1975 . التشديد لمؤلف هذا الكتاب)

أما الثقافة المحلية الأصلية فلم يكن بمقدورها، على ما يبدو، أن تصل إلى مثل هذا الوعي القومي أو إلى تكوين أي تراث مكتوب. وتظهر المفارقة في محاولة تمثيل مملكة داود على أنها حالة فريدة وجزء من تاريخ دنيوي في الوقت ذاته، تظهر بشكل واضح في شرحه التفصيلي لأفكاره: «كانت إمبراطورية داود إنجازا فريدا، ولكنها كانت نتاج التاريخ، وخضعت للنزاعات الداخلية المتصارعة وكانت مهددة بالأخطار الخارجية» (هيرمان 176 : 1975). إسرائيل كانت حالة فريدة منفصلة عن واقعها. وكانت دولتها القومية فريدة ولكنها كانت في الوقت نفسه نتاج العملية التاريخية. أما الدليل الوحيد على هذه الخصوصية فهو مستنبط من تعليق على روايات توراتية ينظر إليها على أنها صدرت عن بلاط الملك داود. وهكذا فإن إثبات هيرمان لفرضياته حول وجود إمبراطورية داودية وحدودها الإقليمية قد استمد من رواية كانت فيها البيروقراطية الداودية تمجد ذاتها. أي أن هيرمان، شأنه شأن المؤرخين التوراتيين الآخرين، لا يقدم أي أد لة تدعم مثل هذه التصورات للماضي.

يشير سوغن Soggin (41: 1984) أيضا إلى وجود «إمبراطورية»، ويأخذ

بفرضية آلت القائلة إن تلك الإمبراطورية كانت متماسكة بفضل «الاتحاد الشخصي». كما يسير في خطى النموذج التقليدي في تكوين صورة عن الماضي، ذلك النموذج الذي يدعي «أن المنطقة توحدت لأول مرة وآخر مرة في تاريخها، ولو لفترة قصيرة جدا، تحت عرش واحد، بدلا من أن تكون مقسمة إلى العديد من الكيانات المستقلة» (42: 1984). أي أن خصوصية مملكة داود تكمن في أنها وحدت المنطقة «لأول وآخر مرة في التاريخ». وهذا يؤكد مرة أخرى - ولو عن غير قصد - ادعاء «الحق التاريخي» في الأرض بناء على مبدأ الأسبقية. لكن سوغن أكثر حذرا من غيره بالنسبة لمضمون ذلك الكيان، وهو يعترف بأن وجود الإمبراطورية ليس مؤكدا من المصادر الأخرى، ولكنه شيء «محتمل جدا» إذا ما أخذنا في الاعتبار انهيار الحكم المصري وغياب السيطرة الآشورية [19]. أما لماذا لم يسمح الفراغ في ميزان القوى الإمبراطورية باحتمال قيام إمبراطورية عمونية أو مؤابية، ولكنه سمح «بإمكان قيام إمبراطورية إسرائيلية» فهذه مسألة لا يتطرق إليها.

ثم يستنتج سوغن أن المملكة الداودية استغلت الفراغ السياسي لتقيم إمبراطورية في فلسطين وسوريا لمدة حوالي سبعين عاما في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، قبل الخضوع للإمبراطوريات الكبرى التي عادت إلى الظهور. (44: 1984). وهكذا فإن ما كان في البداية مجرد احتمال، دون أي دليل خارجي لإثباته، أصبح حقيقة تمكنت من البقاء ثلاثة أرباع القرن. إنه ماض متخيل ينسجم مع مفهوم «إسرائيل الكبرى» في العصر الحديث، ذلك المفهوم المستوحى من التراث التوراتي، والذي يهيمن على الضفة الغربية وغزة وجنوب لبنان. لن تستطيع الدراسات التوراتية أن تظل بمنأى عن حقائق الحاضر التي تؤثر وتتأثر بمثل هذه الرؤى ذات التأثير البالغ في تكوين صورة عن الماضي.

وتوضح دراسة مايرز Meyers (1987) حول فترتي داود وسليمان إلى أي مدى يفرض الحاضر نفسه على بناء الماضي وتكوين صورة عنه، سواء أكان ذلك عن وعي أم بغير وعي.

تسير مايرز (181 : 1987) في خطي التراث العريق لآلت في تصوير الفترة الداودية - السليمانية على أنها «إمبراطورية إسرائيلية»، وهي فترة

وجيزة في تاريخ المنطقة كانت فيها لفلسطين حكومة موحدة [20]. هنا تصوير للتاريخ على أنه نتيجة أعمال «الرجال الأفذاذ» بكل معنى الكلمة، حيث تصور الفترة على أنها فترة استثنائية في «منطقة الليفانت» [*11] Levant فيما قبل العصر الحديث. لاحظ كيف تنطوي هذه الأفكار على افتراض أن الفترة الحديثة، وإنشاء دولة إسرائيل المعاصرة، هي الموازي الوحيد لهذا التوحيد الاستثنائي في المنطقة. تذهب مايرز أبعد من ذلك فتقول إن المصادر التوراتية، في اهتمامها بنشوء وانحلال «المملكة الموحدة»، تميل إلى التعتيم على حقيقة أن المملكة لم تكن دولة قومية مستقلة بسيطة مكتفية بذاتها، ولكنها كانت مركز الإمبراطورية (181 : 1987). وبالمقارنة مع مصر أو بلاد ما بين النهرين، قد تبدو هذه الإمبراطورية متواضعة، ولكنها كانت إمبراطورية على كل الأحوال: «إلا أن إسرائيل في فترة داود وسليمان، في العصر الذهبي للمملكة الموحدة، كانت مع ذلك قوة إمبراطورية صغرى» (181 :1987). من المثير للدهشة، وفي ضوء ما سبق، أن تدعي مايرز بأن الدراسات التوراتية لم تدرك أهمية هذه الأفكار بما فيه الكفاية، وهي تهتم بإعادة النظر في دور سليمان، الذي يصور على أنه ثانوي بالنسبة لداود. ومن ثم فإن مايرز تصف داود بأنه «الإمبراطور الإسرائيلي الأول، والرائد الفذ الذي تمكن من توحيد المنطقة»، أما سليمان، فهو «الإمبراطور الثاني والأخير، الذي حافظ على الأجزاء المتفرقة لأقاليمه لفترة غير مسبوقة في ثباتها، والذي أسس عاصمة عالمية رائعة، وبنى سلسلة من المدن الملكية في البلاد. (182:1987). توصف هذه المملكة بأنها «تشكيل قصير المدى وغير مألوف في سياسة هذه المنطقة» (182 : 1987). من الواضح أن القوى المحلية الأخرى كانت غير قادرة على الإتيان بمثل هذه الإنجازات غير التقليدية. وتذهب مايرز إلى أن الدراسات الاجتماعية العلمية حول الإمبراطوريات تظهر أنه «ينبغي علينا أن نضع دولة داود في فئة الإمبراطورية السابقة للإمبراطوريات الحديثة Pre-modern empire، أي أنها دولة تتجاوز حدودها القومية، لها بيروقراطية مركزية ويحكمها ملك يستند إلى شرعية تقليدية مقدسة» (184 : 1987).

تتبنى مايرز إحدى مقولات آلت ذات التأثير، والتي مفادها أن إسرائيل كانت دولة دفاعية، وتطور هذه المقولة إلى حد لم يسبق له نظير في خطاب

الدراسات التوراتية، بقدر ما أعلم. والسمة الجديدة في عرضها هي محاولتها إنكار أن تلك الإمبراطورية «الإسرائيلية» كانت عدوانية أو أنه يمكن وصفها «بالإمبريالية» . وهي تذهب (184 :1987) إلى أن أكثر المشاكل صعوبة في تحديد الإمبراطوريات هو وصف الدوافع وراء تأسيسها. أما العامل الأساسي، على ما يبدو، فهو ما إذا كان الدافع لها هو دافع تفوق أيديولوجي نتج عنه عدوان خالص ويمكن فيما بعد اعتباره «إمبرياليا». ولكن إذا كان الدافع اقتصاديا قائما على المصلحة الذاتية وليس على التفوق، فسيوصف هذا الكيان حتما بأنه إمبراطورية. وتطلق مايرز على ذلك «الإمبريالية العفوية» accidental imperialism، ومما يثير الدهشة أنها تورد روما كأحد الأمثلة لإثبات وجهة نظرها هذه:

إن التوسع في عهد داود يمكن تصنيفه بوضوح فيما بين الإمبراطوريات التي نشأت نتيجة طبيعتها الدفاعية أو العفوية في بناء الإمبراطوريات. وبهذا تتحرر من العيوب التي تنسب عادة إلى الدول الإمبراطورية التوسعية .

(184: 1987)

يبدو أن تعريفها هذا يؤدي إلى الإرباك في تحديد معنى الإمبراطورية واستعمال تعبير «إمبريالي» لوصف العدوان والاستغلال. وهذا له ما يوازيه بكثرة في الأوصاف العديدة التي تطلق على دولة إسرائيل الحديثة من حيث إنها منهمكة فقط في حروب دفاعية وهي ليست قوة احتلال سواء في الضفة الغربية أو غزة أو جنوب لبنان (أنظر تشومسكي 1983). هنا نجد وصفا لمملكة داود وكأنه صورة منعكسة على مرآة من النوع الدفاعي يبرر احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة وجنوب لبنان.

تقدم مايرز فترة خلافة سليمان وحكمه على أنها نوع من التوحيد لمكاسب داود الإقليمية بواسطة الدبلوماسية والأيديولوجيا، وكان نتيجة ذلك أن:

أصبحت القدس، ليس ببساطة مجرد عاصمة الدولة القومية، ولكن بالأحرى «المركز» لإمبراطورية وبؤرة للأنشطة والبنى التي تعتدي على المناطق المحيطة بها وعلى الأراضي التي انتزعت من الدولة الإسرائيلية التي كانت القدس تقع ضمنها.

(مايرز Meyers 189: 1987)

ثم تذهب إلى أن هيكل سليمان كانت له أهمية حاسمة في توفير التبرير

الأيديولوجي للادعاء بالحق في السيطرة على أراض أجنبية. وعلى الرغم من اعترافها بأنه لا توجد دلائل أثرية لإثبات وجود هذا الرمز المهم للسلطة فإن مقارنة وصف التوراة لهذا الهيكل (سفر الملوك الأول 6 ـ 8) .(8 - 6 I Kings) مع معابد سوريا وفلسطين تدل على أنه كان «الأكبر والأهم» من نوعه. وهذا يؤدي بها إلى استنتاج (190 : 1978) أن «هذه الحقيقة الواضحة تتطابق بشكل تام مع إمبراطورية سليمان الفريدة، بوصفها أكبر نظام سياسي عرف في سوريا ـ فلسطين القديمة». فرؤيتها للتاريخ، كما عبرت عنها في مقالتها هذه، بوصفه حصيلة إنجازات رجال أفذاذ تتعزز بما تقوله عن منجزات داود وسليمان (195 : 1987): «إذا كان تكوين الإمبراطورية في ظروف اقتصادية وسياسية وتاريخية بالغة الصعوبة قد تطلب قدرات داود الخارقة وعبقريته، فإن الحفاظ على استمرارية هذه الإمبراطورية لفترة ملكية أخرى اعتمد أساسا على مواهب سليمان الفريدة وحكمته ودبلوماسيته الناجحة».

الجدير بالملاحظة في رؤية مايرز لهذا الماضي المتخيل، وتخيلات الماضي الأخرى كما تجلت في الكتابات التاريخية للمؤرخين الكبار الآخرين الذين عرضنا أعمالهم فيما سبق، هو انسجام مثل هذه الرؤى مع حقائق الحاضر المتعلقة بدولة إسرائيل المعاصرة التي زعمت منذ نشأتها أنها لا تخوض إلا حروبا دفاعية، وهو الزعم الذي ظلت تتمسك به، من وجهة النظر الرسمية على الأقل، حتى بعد غزو لبنان وبيروت بعد ذلك في 1982. إن الكتابات المختلفة التي أشرنا إليها وعلقنا عليها فيما سبق ليست إلا عينة ذات تأثير تمثل خطاب الدراسات التوراتية حول إنشاء دولة إسرائيلية في العصر الحديدي. هذه الكتابات يحب أن تقرأ في سياق الصراع المعاصر حول الأرض والهوية والذي يتضمن أيضا صراعا حول التاريخ القديم. إن هذه العينة الممثلة للأبحاث التوراتية تدل على أن هذه الأبحاث فرضت رؤية واحدة معينة للماضي. وهذه الرؤية أسكتت أي ادعاء فلسطيني بامتلاك ذلك الماضي. إن تلك التأثيرات الخفية لايسهل إثباتها، ولكن تراكم الأفكار والعبارات المتكررة يجعل منها حقيقة واقعة في كثير من الأحيان وبأقل قدر من الإثبات، وبلا دليل على الإطلاق، ويساعد على دعم الادعاءات الشائعة بالحق في الأرض في المجال السياسي. إن الباحثين التوراتيين وعلماء

الآثار هم طرف، ربما بشكل غير مقصود، في الادعاءات والادعاءات المضادة بين إسرائيل والفلسطينيين: إنهم، على أقل تقدير، جزء مما يسميه إدوارد سعيد «بالتواطؤ السلبي» Passive collaboration الذي أسكت التاريخ الفلسطيني (1994a: xxvi، المقدمة). إن ثقل الدراسات التوراتية يؤدي إلى تصور ماض ملتزم بادعاءات الدولة الحديثة. هذا الإسكات للتاريخ الفلسطيني هو نتاج للسياق الاجتماعي والسياسي الذي جاءت فيه مثل هذه الأعمال المرتبطة بالتأريخ الأوروبي، وفرض نموذج الدولة الأوروبية القومية على الشرق الأدنى القديم ـ ذلك النموذج الذي أكدته أوروبا وتبناه الغرب في دعمه لدولة إسرائيل الحديثة. وهو يشكل جزءا مهما من الكتابات التاريخية الشعبية التي قدمت للعامة رؤية متجانسة تماما للماضي. أما التاريخ الفلسطيني فلا حق له في الماضي لأنه غير موجود أساسا. إذ إنه استبعد من خطاب الدراسات التوراتية.

يمكن أن نجادل بأن كتاب آلستروم Ahlstrom ـ بعنوان: تاريخ فلسطين القديم The History of Ancient Palestine (1993) ـ يبطل أي مزاعم من هذا النوع. إذ يبدو وكأنه يوجَد بالفعل صوت للتاريخ الفلسطيني في مقابل هيمنة إمبراطورية داود؟ هذا الكتاب يثير بصراحة التساؤلات حول تاريخية (historicity) النصوص التي تعالج موضوع الوجود التاريخي لمملكة داود، ويذهب إلى أنها كانت مكتوبة من منظور داودي وكثيرا ما كتبت في فترات لاحقة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يقف بشكل عام في داخل تراث الحركة التاريخية النقدية في التنقيب عن النصوص للبحث عن الحقائق التاريخية. وتتضمن معالجته لهذه الفترة العديد من العناصر الموجودة في «التواريخ التوراتية» التقليدية. وهو أيضا يعطي أهمية خاصة لفكرة «الأفراد الأفذاذ» في التاريخ مثل صموئيل، وشاؤول، وداود وسليمان. والسمة الوحيدة التي تميز أعماله هي تقييم لشاؤول أكثر إيجابية من الأعمال التقليدية حول إسرائيل والمرتبطة بشكل وثيق بالروايات التي يقدمها التراث التوراتي. وهو يذهب (434: 1993) إلى أنه على الرغم من الصعوبة التي واجهتها الزعامات المحلية في منطقة التلال في تطورها، لتكون قوة عسكرية كان بإمكانها الوقوف في وجه القوة العسكرية الفلستية «فإن رجلا واحدا نجح، وحرر لبعض الوقت سكان المرتفعات من الحكم الفلستي: وكان هذا الرجل

هو شاؤول»[21]. على الرغم من أن آلتسروم يقدم هذه الصورة الإيجابية لشاؤول، فإن تفسيره لهذه الفترة على أنها اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة يتفق في خطوطه العريضة مع التفاسير الأكثرتقليدية:« لقد أنشأ شاؤول دولة إقليمية لم تر مثلها فلسطين من قبل. يمكن إذن اعتبار أن شاؤول هو أول رجل دولة في فلسطين» (449: 1993)[22].

ثم يذهب آلستروم إلى أبعد من ذلك فيقول إن شاؤول حكم معظم فلسطين والأردن. بل إنه ينسب إلى شاؤول العديد من المنجزات التي أوصلت المنطقة إلى هذه اللحظة الفاصلة في تاريخها (449: 1993)، بينما تنسب مثل هذه المنجزات عادة إلى داود، كما رأينا من قبل. وبالمثل، يستغل شاؤول فرصة وجود فراغ في ميزان القوة نتيجة لضعف القوى العظمى التقليدية في المنطقة. يعترف آلستروم (454: 1993) بأن هذه الحالة غير عادية وهي تعكس اتجاه المسار الطبيعي للأحداث في فلسطين، ولكنه مع ذلك يرى أن هذه هي الفترة التي تحول فيها تاريخ المنطقة بواسطة قوة محلية. من وجهة نظره (454: 1993) هناك ثلاثة قاموا بمحاولات وهؤلاء الثلاثة هم هدد عزر ملك آرام صوبة: Hadadezar of Aram- Zobah [12*] وناحاش الآرامي Nahash of Aram [13*] وشاؤول إسرائيل Saul of Israel ، ولكن شاؤول وحده هو الذي نجح في فترة قصيرة، بالرغم من أنه فشل في النهاية في وجه التهديد الفلستي. ولكن آلستروم لايخرج جذريا عن المعالجات التقليدية والتي تصور داود في النهاية على أنه العامل الأساسي في هذه اللحظة الفاصلة:

> في الميدان السياسي ظهر رجل رابع، تمكن من أن يصبح سيدا على فلسطين وأجزاء من سوريا: وهو داود. ولبضعة أجيال بعد ذلك أصبح سكان سوريا وفلسطين جزءا من كيان سياسي مصطنع.
>
> **(آلستروم 454: 1993)**

يشير اعترافه بأن هذه القوة المحلية هي كيان مصطنع إلى خصوصيتها والطبيعة المتميزة لإنجازاتها. وعلى الرغم من إشارته إلى «مملكة عظمى» (1993:470) بدلا من أن يشير إلى «إمبراطورية»، فإن تحليله لا يختلف كثيرا عن أعمال أولئك الذين يختلف معهم[23]. إن وصفه لإنجازات داود تتشابه بشكل عام مع الأوصاف التي أتت بها «التواريخ التوراتية» التقليدية:

كما ركزنا من قبل، لم تكن فلسطين بلدا يشجع قيام كيانات سياسية كبيرة تاريخيا، فإن المراكز السياسية والثقافية كانت في الأناضول وبلاد ما بين النهرين في الشمال، وفي مصر الفرعونية في الجنوب. أما من الناحية الجغرافية، فقد كانت فلسطين حلقة الوصل، وعلى هذا كانت دائما بؤرة صراع فيما بين القوى الكبرى في المنطقة. أما مملكة داود، فهي استثناء من هذه القاعدة، وهي حالة عرضية في تاريخ الشرق الأدني القديم. وقد أصبحت إنجازات داود ممكنة بسبب وجود الفراغ في ميزان القوى في المنطقة في تلك الفترة.

(آلستروم 487: 1993)

يعترف آلستروم أن مدة بقاء هذه المملكة كانت قصيرة ولكنها كانت فريدة كما أنها كانت «حالة خاصة» في المنطقة. أما أهميتها فكانت أبعد من ذلك كثيرا:

ولكن حتى لو لم تكن قد عاشت طويلا، فإن كتاب القدس وبعض الأنبياء اليهود لم ينسوها قط. فقد أصبحت مملكة داود بالنسبة إليهم هي المثل الأعلى الذي حرَّف على نحو ما الحقيقة التاريخية، كما أنها جعلتهم يحلمون أحلاما مفعمة بالأماني عن المستقبل.

(1993:488)

لقد كان خليقا به أن يضيف أن تلك المملكة كان لها أيضا تأثير في فهم تاريخ المنطقة وتصوره: أصبحت مملكة أو إمبراطورية داود عاملا مهيمنا في تاريخ المنطقة، وقد استبعد أي مناقشة لتاريخ فلسطين. بالنسبة لعهد سليمان، يقول (آلستروم 501: 1993) إنه بسبب شح المصادر الخارجة عن التوراة فإن هذا التاريخ لايمكن «تصويره إلا باستخدام الآراء الذاتية للكتاب التوراتيين بالإضافة إلى البقايا الأثرية. أما تلك الآثار فقيمتها كبيرة إذا ما قورنت بالآثار التي تعود إلى الفترة السابقة عليها». على الرغم من المبالغة المعتادة حول الفترة الملكية، فهو مقتنع (539: 1993) بأن المملكة ما كانت لتتطور إلى هذا الحد لولا وجود أساس لها، وهذا تصريح له مغزاه العميق إذا ما أخذنا في الاعتبار تاريخ المبالغات والدعاية في التاريخ القديم وكذلك في التاريخ الحديث، وأن هذه الدعاية تخدم فكرة «الرجال الأفذاذ» في التاريخ. إنه يصف سليمان (538: 1993) على أنه «ملك لم تر هذه البلد الصغيرة شبها له لا قبله ولا بعده».

باختصار، يصعب تمييز وصف آلستروم عن روايات «التواريخ التوراتية» التقليدية، على الرغم من ادعائه أنه يسرد تاريخا لفلسطين القديمة. وكما

هي الحال مع التواريخ التقليدية لإسرائيل ويهودا، فإن تاريخ فلسطين لا يعدو كونه تاريخا لإسرائيل كما يصوره التراث التوراتي.

التشكيك في الدولة الإسرائيلية

على الرغم من أن كتاب ملير وهيز Miller & Hayes الأخير (1986) يمثل قمة «الكتابات التاريخية التوراتية» الحديثة، فإنه تجدر الإشارة إلى أن الصورة التي كوناها عن الماضي حول هذه الفترة تعتبر أقرب بكثير إلى الطابع المتحفظ من الصور التي عرضناها فيما سبق. فهما يسلمان بأن محاولتهما لفهم فترة حكم شاؤول تخمينية إلى حد بعيد. كما أن موقفهما من النص التوراتي نقدي أكثر من غيره من الدراسات، وهما يثيران الأسئلة حول الصدقية التاريخية للروايات المتعلقة بداود (152 : 1986)، إلى درجة أكبر بكثير من سوغن Soggin أو أي من «الكتابات التاريخية التوراتية» الرسمية، ويظهر ذلك بوجه خاص عند ما يرز Meyers على سبيل المثال(24). وهكذا يكشف ميلر وهيز عن وجوه اختلافات مهمة مع المعتقدات الأكاديمية العامة التي ترى أن هذه الفترة من التاريخ في المنطقة هي فترة حاسمة:

> أنشأ داود سلالة حاكمة ظلت تحكم من القدس لمدة أربعة قرون. وحتى بعد أن سقطت القدس في 586 ق.م في أيدي البابليين الذين أنهوا هذه السلالة الطويلة من الملوك من أسرة داود، فإن العديد من سكان القدس ويهودا (بمن فيهم هؤلاء المشتتون في الخارج في تلك الفترة) استمروا في الأمل في إعادة مجد الأيام السابقة عندما كانت سلالة داود مستحكمة على العرش. ليس مفاجأة إذن أن نجد أن التراث التوراتي قد اهتم بداود بهذا القدر الكبير، أوأنه كانت هناك محاولة واضحة من جامعي التراث اليهود القدامي للاهتمام بهذه المواد (أي التوراة) من أجل إظهار داود في أفضل صورة.
>
> (**ميلر وهيز** Miller & Hayes **149 : 1986**)

على أن ميلر وهيز يشككان في المفهوم القائل إن حكم سليمان كان «عصرا ذهبيا». وعلى الرغم ملاحظتها أن الدلائل الأثرية في حازور Hazor(14*) (189: 1986) ومجدّو (تل المتسلم) Megeddo، وجازر (تل الجزر) Gezer تدل على أن سليمان كانت له أعمال في مجال تشييد المباني، فإنهما يجعلان هذا الحكم مشروطا إذ يصفان تلك المنجزات بأنها « متواضعة إلى حد ما»، إذا ما قورنت بمباني بلاد ما بين النهرين ومصر الفرعونية،بل

حتى إذا ما قورنت بمباني عُمري[*15] Omrides (189ـ 186 :1986):

ربما كان سليمان حاكما قويا وثريا جدا بمقاييس العصر الحديدي المبكر في فلسطين. لكن إذا ما نظرنا إلى ذلك من منظور أوسع في سياق الشرق الأوسط القديم، يمكننا اعتباره حاكما محليا في دولة ـ مدينة موسعة، أكثر منه إمبراطورا على مستوى عالمي.

(ميللر وهيز 199 :1986)[25]

يصف ملير وهيز مملكة سليمان بأنها مكونة في مجملها من فلسطين الغربية وجزء كبير من شمال شرق الأردن، ولكنهما يستثنيان الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط الذي كان تحت سيطرة الفلستيين والفينيقيين (214 : 1986). وعلى الرغم من تأكيدهما لأهمية حكم كل من داود وسليمان فإنهما أكثر اعتدالا بكثير من العديد من الادعاءات المفرطة التي رأينا نماذج منها فيما سبق، فهما لا يحاولان الترويج لرواية بديلة لتاريخ فلسطين،فهذا ليس من أهدافهما، لكنهما على الأقل يسلمان بأن إسرائيل التي حكمها داود لم تكن الكيان الوحيد في المنطقة. وإذ يعترفان باحتمال وجود روايات أخرى بديلة للماضي، فإن سيطرة الفلستيين والفينيقيين «على الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط» تصبح شيئا مفهوما ضمنيا على أقل تقدير. وتدل الإشادة بأعمالهما بوصفها ذروة «الكتابات التاريخية التوراتية» والنظر إليها على أنها في مصاف أعمال آلت ـ نوث ـ أولبرايت ـ برايت، يدل هذا على مدى اهتزاز الثقة في خطاب الدراسات التوراتية المهيمن نتيجة لتغير المفاهيم والنظرة إلى النصوص التوراتية [26]. سوف نبحث في النتائج المترتبة على هذا التحدي في نهاية هذا الفصل. أما الآن، فحسبنا أن نركز على سلسلة من الأعمال الحديثة التي تبدو للوهلة الأولى متحدية للخطاب المهيمن للدراسات التوراتية، لكنها في الواقع تسهم في إسكات التاريخ الفلسطيني.

تعتبر دراسة مندنهول من الدراسات المتميزة حول المملكة الإسرائيلية، وكذلك في بحث أصول إسرائيل، ونحن نشير هنا مرة أخرى إلى مقالته الرائدة (1975) التي عرض فيها سلسلة من الأفكار التي تبدو ظاهريا متحدية للمفاهيم التقليدية عن المملكة الإسرائيلية. وهو يذهب إلى أن تطور المملكة الإسرائيلية اتبع نموذج «الدولة السورية ـ الحثية التقليدية» وهو ما أدى إلى إدخال «الوثنية في التاريخ السياسي والاجتماعي لإسرائيل

مما كان له تأثيرات حاسمة ودائمة» (مندنهول Mendenhall 155 : 1975) . والواقع أنه يصل بمفهوم المفارقة المتمثلة في أن المملكة الإسرائيلية كانت غريبة وكانت في الوقت نفسه إسرائيلية بشكل متفرد ـ يصل مندنهول بهذه المفارقة ـ إلى نتيجتها المنطقية، وذلك بالتمييز الحاد بين إسرائيل الأساسية أثناء «الثورة التوراتية» وإعادة إدخال الوثنية خلال فترة مملكة داود وسليمان. يوحي مندنهول بأن مملكة داود كانت اندماجا معقدا بين «الثقافات الكنعانية وثقافة شمال سورية والأناضول والثقافة السورية الشرقية في العصر البرونزي»، مع بعض الملامح المشتقة من الحضارة المصرية. يجب أن ننتبه إلى أن تلك «الوثنية الكنعانية» المنحلة، هي أمر داخلي وينبغي النظر إليها بوصفها نقيض الثورة التوراتية النقية التي تعود إلى فترة ما قبل الملكية في إسرائيل. ثم يذهب أبعد من ذلك بكثير فيدعي أن «هذا الاستبصار الجديد ليس شيئا ثوريا فحسب بقدر ما تعني الدراسات التوراتية واللاهوتية، بل إن له ضمنا أهمية حاسمة لبقاء الحضارة الحديثة المكتظة بالسكان» (155 : 1975) . ثم يجادل بأن هناك «دلائل كثيرة تثبت الارتداد المنظم إلى وثنية العصر البرونزي الذي رافق التطور السريع لمملكة القدس، وقد حدث هذا الارتداد في أقل من جيلين» (157 :1975) . ويرى ذلك على أنه إنكار للأخلاقيات الدينية للعصر الموسوي وتحويل لها وعودة إلى عكسها بحيث تصبح نظاما احتكاريا للقوة السياسية وهو النظام الذي انتقده أنبياء التوراة العبرية. أما البيروقراطية الملكية وأخصائيوها، ومنهم أخصائيون دينيون لاهوتيون، فقد اقتبستها المدن الكنعانية.

لكن من الملاحظ أن هذه البيروقراطية كانت في رأي مندنهول «أساسية بالنسبة لدولة سياسية كبيرة وإمبراطورية مثل تلك التي حكمها داود». فأيا كانت أصول هذه الدولة (160 :1975) ، فإنه يظل ينظر إليها على أنها «إمبراطورية» : إنها النظام الذي يهيمن على تاريخ فلسطين، حتى لو كان مندنهول ينظر إلى ذلك النظام نظرة سلبية. بل إنه يستنتج أن «الروايات التوراتية تقول إن معظم مراكز القوى الفلسطينية القديمة (أو ما تبقى منها) تم دمجها بالقوة العسكرية في مملكة داود ». (160 :1975). لاحظ أن مملكة داود تحل محل التاريخ الفلسطيني وتبتلعه. كما أن البيروقراطية التي ورثها داود لم يكن لها «جذور في أرض إسرائيل القديمة، ولكن بالأحرى

في الأنظمة الفقيرة التي سادت كنعان في العصر البرونزي» (161 : 1975).
إلا أنه من المهم أن نوضح بأي معنى يمكن القول إن كنعان كانت فقيرة: فكنعان تقدم صفوة المفكرين والمتعلمين الذين يسيرون مملكة داود، والمراكز السكنية الفلسطينية أنتجت أواني فخارية راقية وأعمالا فنية تدل على حرفية عالية، بينما الإسرائيليون، وفقا لرأي معظم المختصين التوراتيين وعلماء الآثار، كانوا يعيشون في مواقع ريفية صغيرة، وكانت ثقافتهم فقيرة وفجة ومادية. أي أن الفقر لا يكمن إلا في النظام والقيم الدينية التي يعتبرها مندنهول فائقة الأهمية. ومن الجدير بالملاحظة أن مندنهول يرى أن المملكة الإسرائيلية قد أفسدتها الحضارة الأصلية تماما كما كان آلت يرى أن الفلسطنيين فشلوا في السيطرة على تاريخ المنطقة لأسباب أخرى. الفرق هنا هو بين إسرائيل الجوهرية واصطباغ المملكة الداودية بصبغة وثنية تنكر هذه الطبيعة الجوهرية.

إن إدانة مندنهول لتسييس الدين واضحة كل الوضوح وكذلك الحال، بصورة ضمنية، بالنسبة إلى هذا الكتاب الذي يرى ضرورة الاعتراف بشكل واضح بتأثير الجوانب السياسية للبحث التاريخي فيما يتوصل إليه هذا البحث من نتائج:

إن الملك داود الذي هو بمنزلة قسطنطين(*16) بالنسبة إلى العهد القديم قد استوعب بشكل كامل الأفكار والأنظمة الدينية السائدة في العصر البرونزي المتأخر. وقد أعادت هذه الأفكار والأنظمة تشكيل التراث الأصيل لإسرائيل بشكل جذري تماما مثلما أعاد الإخمينيون مسيحية العهد الجديد. إن الحالات الثلاث متشابهة تماما، وهي تدل على ذوبان الدين في السياسة (إذا جازلنا أن نستعمل هذه التعبيرات الاستفزازية للغاية).

(مندنهول 16:1973)

يشجب مندنهول كل التراث المتعلق بدينه على أنه وثني، ما عدا ادعاءات امتلاك الحقيقة. وعلى هذا فإنه يعتبر جميع التطورات الدينية المحلية شيئا أدنى درجة، ويجب أن يستعاض عنها بهذا الوحي الأرفع منزلة الذي يصل إلى ذروته في موعظة الجبل. ومع أن مندنهول يقدم لفترة حكم كل من داود وسليمان تقييما مختلفا جذريا عن تقييم الدراسات التوراتية، فإنه يفترض مثل غيره من الباحثين التوراتيين أن هاتين الفترتين هيمنتا على تاريخ المنطقة وتظل هاتان الفترتان بمنزلة اللحظة الفاصلة ليس فقط في

تاريخ المنطقة، ولكن للإنسانية أجمع، والفرق فيما بينهما هو اختلاف التفسيرات والأسباب.

ظهرت مجموعة أعمال جديدة في الثمانينيات وهذه الأعمال حاولت أن تعيد النظر في فكرة بداية الدولة الإسرائيلية. ومعظم هذه الأعمال استعانت بما تقول به دراسات العلوم الاجتماعية حول موضوع تكوين الدول (كوهن وسيرفس Cohen & Service 1987، كلاسن وسكالنك Claessen & Skalnik 1978، هاسHaas 1982). وقد حاول هؤلاء تطبيق تلك المعطيات على المعلومات الجزئية المتوافرة لفهم الانتقال إلى الدولة في إسرائيل القديمة، وبالأخص أثاروا شكوكا حول الصدقية التاريخية للتراث التوراتي، وفكرة أن النظام الملكي غريب عن إسرائيل أو أنه كان شيئًا لا مفر منه، ونظرية أن التهديد الفلستي كان سببا كافيا لتفسير الوصول إلى وضع دولة.

لقد استعان كل من هاور Hauer (1986) وكوت ووايتلام Coote & Whitelam (1987) ووايتلام Whitelam(1986)، من أجل فهم التطورات التي أدت إلى انتقال الإسرائيليين إلى وضع الدولة، بنظرية كارنيرو Carneiro (1970) التي ترتكز على ضغط الظروف البيئية والاجتماعية. أما التهديد الفلستي فينظر إليه على أنه لا يعدو أن يكون عاملا حافزا لتكوين الدولة (كوت ووايتلام 142 : 1987، فريك Frick 26 ـ 25: 1985). وبناء على ما جاء في بحث كوت ووايتلام (1987)، كانت العوامل الاجتماعية والبيئية في منطقة التلال هي التي أدت إلى تراكم الضغوط التي أبطلت مفعول الاتجاهات الطبيعية إلى الانشقاق لدى الدويلات الأصغر وإلى ازدياد المركزية وبالنتيجة النهائية إلى نشوء دولة إسرائيلية. وهم يؤكدون حدوث عملية معقدة تتفاعل فيها أنواع شتى من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني، في مقابل التفسيرات التقليدية التي نظرت إلى التهديد الفلستي على أنه السبب الرئيسي في الوصول إلى بناء الدولة (فريك Frick 32: 1985 : كوت ووايتلام Coote and Whitelam 145 : 1987) ثم ينتهي وايتلام (61: 1986) إلى أن ضيق المجال الاجتماعي والجغرافي في المرتفعات الفلسطينية هو الذي فرض قيودا كبيرة على التوسع، مما زاد من التنافس على الأرض المتاحة.

إن الآليات التي أدت في نهاية المطاف إلى تكوين دولة بدأت تمارس عملها عندما أخذت المناطق الريفية المتفرقة في التوسع والازدياد. وينبغي

الإشارة بشكل خاص إلى أن طبيعة أساليب الفلاحة، التي كانت تعمل على «سَلْسَلَة»[*17] أراضي المرتفعات terracing وزرع الأشجار ذات المنافع التجارية، كانت تتطلب ثباتا في أساليب المعيشة. هذا الالتزام بالتكيف مع ضغوط بيئية واجتماعية متزايدة، كان من المؤكد عاملا مهما في الوصول إلى المركزية. وهكذا قدم هذان الباحثان تفسيرات بديلة لنشوء المملكة الإسرائيلية كانت تتحدى المفاهيم التقليدية، وتؤكد أهمية مجموعة متشابكة من العوامل الداخلية والخارجية (كوت ووايتلام 142 : 1987) وشككا في المفهوم المتكرر باستمرار، وهو أن المملكة كانت نظاما آتيا من الخارج. وهكذا استطاع كوت ووايتلام أن يصلا إلى النتيجة التي تقول:

«لقد أخفقت الدراسات التقليدية حول نشوء المملكة الإسرائيلية، بغض النظر عن موقفها من أصول إسرائيل، في طرح سؤال رئيسي والإجابة عنه، أعني السؤال التالي: لماذا كانت هذه المنطقة على وجه الخصوص هي التي أفرزت مملكة إسرائيلية فعالة... ولماذا كان سكان المرتفعات هم الذين نجحوا في إخضاع سكان منطقة السهول ودمجهم في نظامهم السياسي، علما بأن سكان السهول هؤلاء في مدنهم الخماسية (Pentapolis) الفلستية كانوا متفوقين عسكريا واقتصاديا؟ إن هذه المملكة لم تكن سرطانا غريبا عن جسم الدولة الإسرائيلية، بل كانت طبيعة إسرائيل وأصولها في منطقة التلال هي العامل الأساسي المتحكم فيها. وكانت هذه الدولة استجابة لمثيرات داخلية في رد فعلها على الضغوط الاجتماعية والبيئية».

(كوت ووايتلام 148 . 147: 1987)

تبين استنتاجات كوت ووايتلام إلى أي مدى أدى البحث عن إسرائيل القديمة إلى صرف انتباههما عن تاريخ فلسطين. صحيح أنهما أظهرا اهتماما بعمليات التغير التاريخي في دراستهما لتاريخ فلسطين إلا أن الاهتمام الأول ظل البحث عن إسرائيل القديمة وتحديد موقعها. يفترض - بناء على خطاب الدراسات التوراتية - أن إسرائيل تحدد هويتها بالمستوطنات في منطقة التلال في بداية العصر الحديدي، من هنا يمكن اقتفاء أثر الدولة الإسرائيلية. ويتضح التأثير القوي لخطاب الدراسات التوراتية من استنتاج فريك Frick أن «المجتمع الإسرائيلي الناشئ في منطقة التلال... كان تطورا ثوريا إذا ما نظرنا إليه بالمقارنة مع فترة العصر البرونزي المتأخر ونظام دول - المدينة الكنعانية التي انتشرت في منطقة السهول» (196 : 1985). إن اللجوء إلى المعلومات والنظريات الاجتماعية العلمية لم يحررتلك

الأبحاث من سيطرة فكرة آلت AIt المهيمنة والقائلة: إن تطور إسرائيل السياسي يمثل انقطاعا جذريا عن محيطها ويحل محل الأنظمة السياسية الأصلية (الأقل شأنا). إضافة إلى ذلك، تتفق جميع هذه الدراسات - وإن يكن ذلك على نطاق محدود جدا - على الخط العام الذي سارت عليه الدراسات التوراتية في تصورها للماضي[27]. وعلى الرغم من أنه يمكننا القول إنهما ساعدا بشكل عام في تكوين صورة عن الماضي أدت إلى إثارة شكوك جوهرية حول مزاعم إسرائيل عن الماضي، فإنهما لم يتمكنا من الإفلات من قبضة خطاب الدراسات التوراتية الذي هيمن على تصورنا للماضي وفهمنا له[*18]. يضع كوت ووايتلام (164: 1987) شرطا على محاولتهما فهم مسألة نشوء الدولة الإسرائيلية، وهو ضرورة النظر إلى هذه الدولة باعتبارها جزءا من التاريخ الفلسطيني: «ينبغي أن ننظر إلى فترة نشوء إسرائيل وبداية المملكة على أنها جزء من الاتجاهات والعمليات طويلة الأمد إذا شئنا أن نحقق تقدما في القيام بتقييم أكثر واقعية لهذه الحقبة من التاريخ الفلسطيني». على الرغم من ذلك، يظل هذا التاريخ تاريخا فلسطينيا تسيطر عليه إسرائيل. إنه تاريخ فلسطيني بالاسم فقط لا بالفعل: ولا يزيد في الحقيقة عن أن يكون دراسة في التاريخ الإسرائيلي، وعلى أكثرتقدير ينظر إليه على أنه جزء من التاريخ الفلسطيني الأعم، ولكن هذا لا يقربنا من جعل التاريخ الفلسطيني متحققا أو محدد المعالم[28]. إلا أن هذه الدراسات المتواضعة التي أثارت احتمال وجود تحد للمفاهيم التي هيمنت على تصورنا للماضي، والتي أثارت الأسئلة حول دور إسرائيل المهيمن يجب ألا ندعها تمر دون اختبار.

وفي رد فينكلشتاين Finkelstein 74 - 43: 1989) على هذه المراجعات لنظرية نشوء مملكة إسرائيل، يعيد فرض نظريات خطاب الدراسات التوراتية المهيمن. وعلى الرغم من محاولته فهم مغزى المعلومات الأثرية الجديدة، فإن الفقرة الافتتاحية من دراسته تدل على فهم لتطور الدولة الإسرائيلية يقف بصلابة ضمن خطاب الدراسات التوراتية منذ آلت AIt:

> كان نشوء المملكة الإسرائيلية في نهاية القرن الحادي عشر ق .م، من أهم الأحداث في تاريخ فلسطين. وقد أدى التوحيد السياسي لمنطقة المرتفعات، تحت حكم شاؤول الذي تبعته غزوات داود وإنشاء دولة قوية موحدة في معظم البلاد، إلى تحول أساسي في التطور السياسي في

المنطقة برمتها. فقد نشأ للمرة الأولى كيان سياسي محلي مستقل في فلسطين ـ على شكل دولة وطنية تضم شعبا له هويته الخاصة ولها هويتها الدينية وأيديولوجيتها الخاصة بها.
(فينكلشتاين 1989:43)

هكذا تنتقل هنا صورة الدولة القومية الأوروبية إلى فلسطين. إذ يقال لنا، دون أي حاجة لإثبات ذلك، إنه « للمرة الأولى» وصلت المنطقة إلى ذروة التطور السياسي، وذروة الحضارة، فقد ارتفعت إلى دولة قومية (عرقية) لها «هويتها الأيديولوجية والدينية المتميزة». يفترض هذا القول أن جميع الكيانات السياسية في المنطقة قبل ذلك الحدث لم تكن متميزة. وتعمل الفكرة القائلة إن هذه هي أول «دولة قوية» وأول «كيان محلي مستقل» في المنطقة على تدعيم الادعاء بالحق في الأرض على أساس «الحق التاريخي»، وقد توصل فنكلشتاين إلى الفرضيات الضمنية المستوحاة من التراث التوراتي وخطاب الدراسات التوراتية المهيمن، حتى قبل أن يبدأ في إعادة النظر في الأبحاث التوراتية وذلك في ضوء «دراسة أنماط الاستيطان، وهي أهم بعد آركيولوجي لفهم أصول هذا النوع من العمليات» (1989:43).

ومرة أخرى يعتمد فنكلشتاين على مسح «لأرض إفرايم» [19*] The Land of Ephraim للإتيان بالمعلومات الأثرية التي لم تكن متاحة للباحثين من قبله، ويشير إلى الفوارق الشديدة بين الاستيطان وتوزيعه في بداية العصر الحديدي الأول (القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد) وبين مثيلاتها في فترة القرن الحادي عشر ق. م، وكذلك أنماط الاستيطان خلال العصر الحديدي الثاني. أما المشكلات الناجمة عن محاولته هذه لتحديد «الاستيطان الإسرائيلي» بناء على الدلائل الأثرية وحدها فسوف نعالجها في الفصل الخامس من هذا الكتاب. من الواضح أن فنكلشتاين يعتمد اعتمادا كبيرا على قراءته للتوراة العبرية في التوصل إلى اسنتاجه هذا: وهذه الحقيقة تجعل أعماله مندرجة بشكل راسخ في إطار الاتجاه السائد لخطاب الدراسات التوراتية. فهو يستنتج أن أكثر من 75٪ من المواقع السكانية في العصر الحديدي الأول كان موجودا في النصف الشرقي مما يسميه «منطقة إفرايم» (1989:57). أما عمليات الاستيطان في النصف الغربي من البلاد فقد ازدادت خلال العصر الحديدي الأول مع وجود 65٪ من المواقع المأهولة بالسكان في الحقبة الأخيرة من هذه الفترة في المرتفعات وعلى

سفوح التلال، و76٪ من السكان في المناطق الشرقية في بداية العصر الحديدي الأول (ويمثل هؤلاء 63٪ من مجموع سكان العصر الحديدي الأول)، مع كون 46٪ من سكان المستوطنات التي نشأت في أواخر العصر الحديدي الأول يقطنون المناطق الغربية. وفي مقابل ذلك، فإنه «للمرة الأولى في التاريخ السكاني لأرض إفرايم» (1989:58) فإن عدد سكان المناطق الغربية (51٪) قد فاق المناطق الشرقية. يدل هذا على زيادة 95 ـ 100٪ في أعداد مواقع المناطق الغربية مع 54٪ من القرى الكبيرة و53٪ من السكان. يستنتج فنكلشتاين أن التوسع الغربي «كان دالا على صراع مع الطبيعة القاسية» (1989:58) في المناطق الغربية من البلاد. وقد لاحظ فيما يتعلق بهذه المناطق الغربية أن زرتال Zertal توصل إلى مسار مماثل في بحثه عن «منسى»[*20] Manasseh وأيضا في بحث كوخافي kochavi حول «يهودا وبنيامين»، ومرة أخرى نلاحظ أهمية استعمال المصطلحات. هكذا يبدو من المعلومات التي قدمها إلينا، إذا ما سلمنا بصحة استنتاجاته المتعلقة بالترتيب الزمني، أن «الاستيطان الإسرائيلي» حصل في بداية الأمر في الأطراف الصحراوية وفي سلسلة المرتفعات الواقعة بين القدس ووادي جزريل[*21].

لقد ازداد الاستيطان في المناطق الغربية في المراحل الأخيرة من القرن الحادي عشر فقط، وذلك مع وصول هذا الاستيطان إلى الذروة في العصر الحديدي الثاني: إلا أن «الغزو» النهائي، وهو السيطرة على البيئة في منطقة المرتفعات في وسط البلاد ـ وفي المنحدرات الغربية في السامرة ويهودا ـ لم يحصل قبل العصر الحديدي الثاني » (1989:59). وتماما كما في دراسته حول «نشوء إسرائيل» فهو يعتمد على فهمه للتراث التوراتي ليقرر أن هذا التحول في الاستيطان هو «الاستيطان الإسرائيلي». تجدر الملاحظة أن منطقة التوسع السكاني التي يهتم بها تقع في «المنحدرات الغربية من السامرة وتلال يهودا»، أي الضفة الغربية. بعد ذلك يستنتج أن عدد «السكان الإسرائيليين» في مواقع العصر الحديدي الأول في غربي الأردن كانت في حدود 20 ألفا، إذا ما استثنينا الجماعات غير المستقرة، «بينما كان السكان الإسرائيليون المستقرون في نهاية القرن الحادي عشر ق.م يقدرون بحوالي (55 ألفا) (59: 1989). إن استعانته بدراسته السابقة (33 ـ 27: 1988) لفهم تعبير «إسرائيلي» يعني أن عمله يعاني من الضعف

ذاته. لقد افترض أن هذا التحول في الاستيطان هو إسرائيلي وأنه مرتبط بالعوامل الداخلية والخارجية مما أدى إلى نشوء المملكة الإسرائيلية. بالنسبة إليه، إن هذا التاريخ هو تاريخ إسرائيل وحدها.

تترك هذه المعلومات الإحصائية التي يضعها فينكلشتاين بين أيدينا انطباعا قويا للغاية. لكن النقطة الجوهرية هي افتراضه أن هذه المعلومات لها علاقة بالاستيطان الإسرائيلي مما يؤكد فورا، بالنسبة إليه، الحق في الأرض وفي الماضي. وهذا ادعاء مثير إذا ما أخذنا في الاعتبار طبيعة تلك الاحصاءات. ولكن السؤال الذي نطرحه هو: ماذا لو كان هذا التحول في الاستيطان يُعزى إلى «الفلسطينيين» وليس إلى الإسرائيليين، وماذا لو نظرنا إليه على أنه استمرار للتحول وإعادة تنظيم (realignment) مجتمع العصر البرونزي المتأخر الفلسطيني؟ في هذه الحالة سوف نجد فورا أن تغيير المصطلحات المستخدمة وتحول المنظور يؤدي إلى رؤية بديلة للماضي ومن ثم ادعاءات المطالبة به. إن المعلومات التي يقدمها أساسية لدراسة العمليات الحاسمة في التحول إلى زراعة أكثر تخصصا في المناطق الزراعية شجع القرى الموجودة على أطراف الصحراء، في سلسلة الجبال الشرقية المركزية ومناطق من السفوح، على التخصص في زراعة الحبوب وتربية الماشية، وتركيز الجهود على إنتاج فوائض أكبر (60: 1989). لقد فرض مثل هذا النظام الاقتصادي، من وجهة نظره، مستوى معينا من التنظيم شكل نقطة انطلاق ساعدته في الوصول إلى مرحلة التنظيم الإداري العام (60: 1989). وقد أدى إنتاج الفائض إلى تكوين الطبقات وظهور مواقع مركزية مما نتج عنه «تحول أساسي للمجتمع الإسرائيلي فتحول من مجتمع ريفي يضم فئات ضغيرة معزولة، إلى بداية التنظيم نحو مؤسسات اجتماعية سياسية أوسع » (60: 1989). قد يكون من الممكن أن نستدل من الشواهد الأثرية على حدوث مثل هذا التطور السياسي الاجتماعي في هذه الفترة، ولكن ذلك الافتراض يبتعد عن هذه الشواهد كثيرا ليستنتج أن هذا هو «الاستيطان الإسرائيلي» بعينه، أو نشوء دولة إسرائيلية بالسمات نفسها التي وصفت بها في سفر صموئيل في التوراة العبرية. إنه لا يركز إلا على تاريخ إسرائيلي متخيل وهذا التصور يساعد على تأييد مزاعم الحق في هذه الأرض و«يهودا والسامرة التاريخيتين»، وهي الضفة الغربية اليوم[*22]، وهذا شيء جوهري

بالنسبة للمفاهيم المعاصرة للهوية والادعاء بالحق في الأرض على أساس «الحق التاريخي» .إن تصور فنكلشتاين لهذه الفترة، بعد تقديمه للمعلومات، ما هو إلا إعادة تأكيد للنظريات الأساسية التي هيمنت على الخطاب التوراتي في القرن العشرين: ولذا أمكنه أن يستنتج أنه «عند هذه النقطة، ينبغي قبول جزء من التصور «التقليدي» للماضي فيما يتعلق بنشوء المملكة» (63 ـ62 : 1989) .

إن تصوره لهذا الماضي المتخيل يقف بالتأكيد في صف الاتجاه السائد ضمن خطاب الدراسات التوراتية. وعبارته التالية تؤكد ذلك:

بإمكان المرء في هذا السياق أن يقول إن أعمال شخصية فذة بمفردها كانت مسؤولة عن نشوء المملكة (صموئيل وشاؤول) ـ وهو ما يعرف بنظرية «الفرد العظيم» في التطور الإنساني.
(فينكلتشاين 1989:63)

ثم يحاول أن يخفف من تأثير ذلك القول بأن يضع شرطا هو أن مثل هذا «الفرد العظيم» لايمكن أن يظهر إلا في ظروف اجتماعية وتاريخية ملائمة. لكن على الرغم من هذا الرأي، فإن طريقة تقديمه للمعلومات الأثرية المتعلقة بتطور التغيير في الاستيطان في منطقة تلال فلسطين والأطراف الصحراوية، لاتتضمن أي شيء يسمح بالربط بينها وبين شاؤول أو صموئيل، وبذلك يظل هذا الرأي مجرد افتراض، لايدعمه فينكلشتاين بأي دلائل تربط التراث التوراتي بالمعلومات الأثرية. وهذا ما يتيح له أن يواصل تقديم رأيه بعد ذلك فيؤكد أن «دولة شاؤول القومية لم تصبح دولة إقليمية قوية وكبيرة» إلا بفضل داود (1989:63). لكن هذا الاستنتاج مبني على افتراض أن القرى المتوسعة تحتاج إلى إنتاج فوائض زراعية أكبر، وبذلك يزداد التفاوت الطبقي مما ينتج عنه الاتجاه نحو الحكم المركزي. على الرغم من ذلك ننتقل بشكل مفاجئ من هذا الاستنتاج لنجد أن جوهر النقاش هو «دولة قومية» نقش أول أحرفها شاؤول وأكملها داود. ثم بعد ذلك نجد أن «توسع منطقة نفوذ المملكة إلى منطقة الساحل، والمناطق السهلية الخصبة في الشمال وفي الجليل قد أدى إلى توحيد معظم البلاد تحت حكم محلي واحد للمرة الأولى في التاريخ» (63: 1989). إن تقديم الفرضيات فينكلشتاين للمعلومات الأثرية الجديدة لا يعدو أن يكون تكرارا لمجموعة الفرضيات المهيمنة من وقت آلت AIt الذي اختلق تاريخا إسرائيليا

متصورا، واعتبره اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة. وتعد المراحل التي مر بها الاستيطان التي تحدثنا عنها شيئا جوهريا في أي محاولة للكشف عن التاريخ الفلسطيني في تلك الفترة. إلا أن مثل هذا التاريخ تم إسكاته من جراء البحث المتواصل عن إسرائيل القديمة في العصر الحديدي. وهذا ينطبق أيضا على كل الدراسا ت التي أعادت تقييم ذلك التاريخ المهيمن والتي ظهرت في السنوات الأخيرة حول نظرية نشوء دولة إسرائيلية: فعلى الرغم من أن مثل هذه الدراسات تتحدى جوانب معينة من التصور المهيمن للماضي، فإنها تظل منتمية بشكل راسخ إلى خطاب استبعد التاريخ الفلسطيني فعليا من الميدان الأكاديمي.

تحدي إمبراطورية داود

في السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود مملكة داود يتداعى تدريجيا، وإن كانت هذه الفكرة لاتزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية. فقد ساعدت بعض الدراسات التي أعادت النظر في فترة تكوين المملكة، والتي تحدثنا عنها من قبل، على إيجاد مناخ نقدي، إلا أنها لم تتمكن من القيام بنقد جذري متواصل لخطاب الدراسات التوراتية المهيمن . وقد بدأ التصور المهيمن للماضي في التصدع نتيجة مجموعة العوامل نفسها التي أدت إلى إعادة النظر في فكرة «نشوء » إسرا ئيل، ولم تطبق النتائج المتضمنة في هذه الدراسات السابقة المتعلقة بمسألة «نشوء» إسرائيل على دراسة المملكة الإسرائيلية في بداية العصر الحديدي إلا ببطء. وتدل المناقشة التي أجراها ميللر وهيز Miller & Hays بتحفظ، على أن مجموعة العوامل التي تحدت التصورات المهيمنة على الماضي فيما يتعلق بنشوء إسرائيل قد بدأت في منتصف الثمانينيات تزعزع تصور إمبراطورية إسرائيلية هيمنت على فلسطين في العصر الحديدي. لقد كان العامل الحاسم هو التقلبات التي طرأت على الاتجاهات الأدبية إزاء التوراة العبرية، وهي الاتجاهات التي قللت في البداية من شأن الفرضيات التاريخية النقدية بشأن فترة نشوء إسرائيل، وإلى درجة أقل أعادت تقييم المعلومات الأثرية. وقد حدث التحول في الرؤى المتعلقة بنشوء إسرائيل نتيجة التقاء هذه الاتجاهات الأدبية الجديدة مع الاكتشافات الأثرية الجديدة، مما أثار أسئلة خطيرة

حول التصورات السابقة عن فترة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي. والمثير للاهتمام حول تكوين دولة إسرائيلية في العصر الحديدي هو وجود القليل جدا من الدلائل الأثرية الواضحة المتعلقة بما يسمى فترة «المملكة الإسرائيلية» . وهكذا فإن خطاب الدراسات التوراتية لم يخلق هذا الكيان إلا بناء على قراءة للتراث التوراتي، أضيفت إليها دلائل وثائقية من خارج التوراة.

لقد كان نقد غاربيني Garbini (20 ـ 1 : 1988) اللاذع «للدراسات التاريخية التوراتية الحديثة» من أكثر الدراسات تشكيكا في التراث التوراتي وفكرة وجود عصر ذهبي إسرائيلي وإمبراطورية مجيدة، ففيه بين أنها لا تعدو أن تكون إعادة صياغة للنص التوراتي نابعة من دوافع لاهوتية. إن نظرته النقدية نابعة من موقف فيلولوجي (لغوي) في نطاق الدراسات الآشورية وهو يهاجم ما يعتقد أنه موقف غير نقدي لدى المؤرخين التوراتيين المحدثين فيما يتعلق بنص التوراة العبري، وذلك بشكل لافت. كما أنه يوجه نقدا شديدا إلى التصورات التقليدية حول فترة حكم كل من داود وسليمان على أنها إمبراطورية وعصر ذهبي (32 ـ 21: 1988). ويرى أنه مما يدعو إلى العجب عدم اعتراف الدراسات التوراتية بأن «الإطار التاريخي يعطي انطباعا بأنه أقرب إلى النظرة الأسطورية عن وجود عصر ذهبي أصيل، منه إلى أن يكون إعادة بناء مقنعة للماضي وللأعمال الإنسانية» (21: 1988) على الرغم من أنه يطرح أسئلة مهمة حول طبيعة النص تلقي ظلا من الشك على صدقيته التاريخية وفائدته في إعادة بناء التاريخ. ومع أن لهجته مشككة ونقدية بالقدر المناسب، فإن معلوماته ليست دائما بالغة الدقة فيما يتعلق بالجدل الدائر في إطار الأبحاث التوراتية حول هذه المسائل.

أما أعمال كل من غَنGunn (1980 , 1978) وأو لتر Alter (1982) وفوكلمان Fokkelman (1986 , 1981)وإزلنغر Eslinger (1989 , 1985) وبولزن Polzin (1989 , 1980) وغيرهم كثير، فقد فتحت آفاقا جديدة لتقدير المزايا الأدبية للتوراة العبرية بشكل عام، وسفر صموئيل على وجه التحديد، مما ساعد في زعزعة أركان الخطاب المهيمن. ولكن معظم هذه الدراسات لاتهتم تحديدا بالأسئلة التاريخية المتعلقة بإعادة بناء الماضي: فبعضها دراسات لا تاريخية (ahistorical) بلا مواربة، وبعضها لا يهتم إلا ببناء رواية أدبية ماكرة

سواء أكان ذلك بشكل ضمني أو صريح. وقد أسهمت هذه الدراسات في هدم الثقة في التصورات التقليدية لتاريخ إسرائيل وفترة المملكة المبكرة، وبالأخص عن طريق التشكيك في الفرضيات الأساسية وهي السمة التي تميز بها مشروع الكتابة التاريخية طوال القرن العشرين. إن هذه الحلقة المفرغة في اتجاهات نقد المصادر منذ فلهاوزن Wellhausen وآلت AIt حددت المصادر المؤيدة والمعارضة للملكية في سفر صموئيل. وقد كشفت الأسئلة عن وجود أصوات مختلفة في النص وأسهمت استجابات القراء في تقويض مفاهيم النص والعلاقة بين النص والتاريخ.

بالمثل قدم ليتش Leach نقدا حادا للاستخدام التاريخي لهذه الروايات من منظور أنثروبولوجي بنائي. أما الفكرة الرئيسية المهيمنة في عمله فهي أن التوراة العبرية، باعتبارها نصا مقدسا، ليست مرجعا ولا تعكس بالضرورة الحقائق التاريخية. بل إن التوراة، في نظره، تبرير للماضي يكشف عن عالم القصص الخيالية أكثر مما يكشف عن أي حقيقة تاريخية.

وأسئلته المهمة للغاية تثير الشكوك حول التصورات التقليدية لحكم كل من داود وسليمان، إذ نجده يشكك في تاريخية (historicity) تلك الحقبة الحاسمة كما صورها التراث التوراتي:

> إنني شخصيا أجد هذه الأفكار غير قابلة للتصديق إلى حد بعيد. لا توجد أي آثار تدل على وجود هؤلاء الأبطال أو حدوث أي من الأحداث المرتبطة بهم. لو لم تكن هذه القصص مقدسة لكنا رفضناها تماما من الناحية التاريخية.
>
> (ليتش 10: 1983)

إن الأساس الذي يقوم عليه هذا النهج هو الاعتقاد أن النهج التاريخي التقليدي أساء فهم طبيعة التوراة العبرية وغايتها (ليتش 10 :1983). ويركز ليتش اهتمامه على الإطار الاجتماعي للنصوص التوراتية، وبخاصة في مقابل الرؤى اللاتاريخية (ahistorical approaches) العديدة للتوارة العبرية في الآونة الأخيرة. وينتهى إلى أن ما حافظ عليه التراث التوراتي هو اهتمامات الجماعات اللاحقة التي أنتجت التوراة العبرية، وليس ما أنتجته البيروقراطية الملكية في بداية العصر الحديدي. إن هذا الاهتمام المتزايد بالإنتاج الاجتماعي للتراث التوراتي في مجتمع الهيكل الثاني Second Temple[23*]، والطريقة التي يمكن بها للتراث المتضارب أن يعكس الفرق

المتنافسة وهمومها بدلا من أن يكون انعكاسا لحقيقة تاريخية في بداية العصر الحديدي، قد ساعد على زعزعة بنيان الشكل التقليدي لتاريخ الفترة كما تم تقديمه. ظل غاربيني Garbini وليتش Leach صوتين هامشيين تماما بالنسبة إلى خطاب الدراسات التوراتية، لأنهما تحديا التصور التقليدي لتاريخ إسرائيل القديمة الذي تم اختلاقه على هيئة النموذج المعاصر، أي الدولة القومية الأوروبية، والمرتبط بالصراع من أجل تحقيق دولة إسرائيل الحديثة. كان هذا الخطاب قويا ومقنعا، لأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بمسألة الهوية الاجتماعية والسياسية. إلا أن النتائج المترتبة على هذا التحول فيما يتعلق بنص التوراة العبرية وما يثيره من شكوك حول التصور المهيمن للماضي، كل ذلك لم يؤد إلى الاعتراف بأن الماضي تم تشكيلة على مثال الحاضر، أي دولة إسرائيل المعاصرة. من المفيد التفكير في طبيعة «الدليل» الذي حافظ على هذا التصور للماضي وأطال أمده في ضوء إنشاء دولة إسرائيلية هيمنت على التاريخ الفلسطيني.

إن أبرز سمات هذا الخطاب غياب أي سجل أثري يتعلق بهذه اللحظة الفاصلة في تاريخ المنطقة. هذا الغياب ساهم بقوة في تحقق الإجماع على إسقاط هذا الماضي المتخيل لأنه دعم الحكم المتحيز للمؤرخين التوراتيين الذي يفيد أن كتابة التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة. لكن، مرة أخرى، وكما صرح غاربيني وليتش Leach وفلاناغن Flanagan ، إن الغياب لأي سجل أثري هو الذي يثير أخطر الشكوك حول تصور إمبراطورية إسرائيلية كانت تعبيرا عن حضارة نهوضية مجيدة مما يوحي بأننا بصدد ماض متخيل. إن أي فكرة لها معنى معقول عن إمبراطورية داود، وتحقيق «إسرائيل الكبرى» التي تصور باستمرار على أنها استثناء في تاريخ منطقة الليفانت يوصف بأنه غير مجرى التاريخ، لابد أن تكون قد وجدت ما يؤيدها في الإنتاج البيروقراطي للحضارة المحيطة أو أن تترك شواهد ملموسة في الآثار المادية بالمنطقة[29].

كثيرا ما يقال إنه على الرغم مما ورد في التوراة من أن سليمان قد تزوج من ابنة الفرعون ـ وكان هذا إنجازا لافتا للنظر إذا ما أخذنا في الاعتبار أن مثل هذه الأمور كانت ممنوعة على الملوك الحثيين ـ فإن الوثائق الأثرية المصرية المتوافرة لم تذكر شيئا عن هذه الحادثة المهمة. يرجع

آلستروم (1993:488) عدم ذكر مملكتي سليمان وداود في النصوص القديمة للشرق الأدنى إلى الضعف السياسي لمصر وآشور مما يعني أنها لم تكن على اتصال بالقوة المحلية في فلسطين. ولكن، حتى لو كان ذلك صحيحا، فمن الصعب تفسير هذا الصمت الكامل للسجل الأثري إذ إن دولة كبرى إلى هذا الحد، إن لم نقل إمبراطورية، لابد أن تحدث تغييرات أساسية في التنظيم الاجتماعي والسياسي وهو أمركان ينبغي أن يترك بعض الأثر في الوثائق الأثرية على الأقل. إلا أن آلتسروم (541: 1993) يعتقد أنه على الرغم من عدم وجود الدليل المؤيد، حتى وإن اعترف بمبالغات كتبة التوراة، «فلا ينبغي أن يشك أحد في تاريخية historicity مملكة داود وسليمان». غير أن استنتاجه الأخير لا يختلف عن الكتابات التقليدية في هذا المجال حيث يقول:«ومع ذلك، فإن فترة المملكة الموحدة كانت شيئا استثنائيا في تاريخ كنعان، شيئا لم يحصل من قبل ولن يحصل فيما بعد»[30] (1993:541). هنا نجد «استثناء» في تاريخ المنطقة، لم تتمكن الجهود الهائلة للتنقيبات الآثارية حول فترة العصر الحديدي من كشف الشواهد المادية المؤيدة له لكي تثبت تصريحات مثل تصريحات آلستروم الواثقة، التي تمثل الدراسات التوراتية تمثيلا صادقا كما رأينا منذ قليل.

وتتجلى قدرة خطاب الدراسات التوراتية على تشكيل تصورنا للماضي في تاريخ البحث عن موقع عاصمة شاؤول في جبعة[24*] Gibeah (تل الفول). فقد تباهى أولبرايت، بعد تنقيباته الأثرية في تل الفول في 1922 ـ 1923، بأنه حدد موقع «قلعة شاؤول»، كما كشفت تنقيباته عما اعتبره برجا يعود إلى العصر الحديدي الأول في الجزء الجنوبي ـ الغربي من حصن أرجعه أولبرايت إلى فترة شاؤول. لكن لاب Lapp قلل لاحقا (عام 1965) من صحة هذا الاستنتاج عندما نقب عن هذا الموقع واكتشف أن الوجود المزعوم لذلك الحصن لم يكن أكثر من تخمين. على الرغم من ذلك، انتهى لاب إلى أن تل الفول كان مرتبطا بشكل واضح مع حصن شاؤول. إن الاستعجال في تفسير معلومات يفترض أن تكون موضوعية وخارجة عن التوراة، على أساس افتراضات مستمدة من التوراة، هو شيء يتسم به تاريخ البحث عن إسرائيل القديمة. أما أرنولد Arnold فقدم تقييما أكثر رزانة (52: 1990) واستنتج أنه بناء على تقارير التنقيبات الأثرية، فإن تل الفول كان لها في

العصر الحديدي الأول «برج للمراقبة ذو سمات فلسطينية مميزة، وعدد قليل من المباني البعيدة»[31]. وهو استنتاج يختلف اختلافا لافتا للنظر عن ادعاءات معظم «التواريخ التوراتية» والتصريحات الواثقة حول وجود دولة مبكرة حكمها شاؤول [32]. وبالمثل، فإن «إمبراطورية» داود المزعومة، كما صورها نوث Noth وغيره، لم تترك أي آثار مادية تذكر نقب عنها وحدد مواقعها علماء آثار محترفون. بل إن كتابا موجزا ظهر حديثا ويتسم بالتحفظ أشار إلى أنه على الرغم من أن التوراة تقول إن داود حكم لمدة أربعين سنة «فإن مما يدعو إلى السخرية ألا نجد إلا آثارا ضئيلة من فترة داود كما لا توجد أي مبان أثرية ترجع إلى هذه الفترة ».(مازار Mazar 43 : 1984). يفترض مازار أن الجزء الأكبر من التوراة العبرية كتب في فترة المملكة ويتساءل إن كانت إسرائيل مبدعة في المجال المادي مثلما كانت مبدعة في المجال الروحي[33]. ويعترف أنه بالمقارنة مع الحضارات المجاورة ـ الآرامية والحثية الجديدة في سوريا، والفينيقية في قبرص ومع مستعمراتها الخارجية المختلفة عبر البحار وبخاصة آشور وبابل ـ فإن الآثار المادية الباقية «في أرض إسرائيل فقيرة للغاية». كما أنه يلاحظ عدم وجود نقوش على المباني والتماثيل وكذلك عدم وجود القصور الضخمة، والعاجيات المنقوشة بدقة، والحلي والمجوهرات المزخرفة، أو الأواني المصنوعة محليا والتي ترجع إلى فترة المملكة. وينبه إلى أن معظم القطع الفنية كانت مستوردة. وبالمثل تقول كينيون Kenyon:

لايزيد عمر مملكة إسرائيل على ثلاثة أرباع القرن. وكانت الفترة الوحيدة التي أصبح فيها اليهود قوة سياسية مهمة في غرب آسيا. وقد سجلت أمجادها بمباهاة في التوراة، وكان لهذا كله أثر عميق على فكر اليهود وتطلعاتهم. لكن على الرغم من ذلك، فإن المكتشفات الأثرية المتعلقة بهذه الفترة شحيحة جدا.

(كينيون Kenyon 1979:233)

وهذا شيء يشيع في خطاب الدراسات التوراتية الذي اختار أن يتجاهل مسألة عدم وجود الدلائل الآثارية[*25] وطالب بهذا الماضي المتخيل بشكل مبالغ فيه. ينقد وايتمن Whightman (1990) محاولات تعريف «آثار عصر سليمان» بناء على التراث التوراتي. ويرى أن هذا المفهوم تطور من فكرة استندت إلى قراءة للمعلومات الآثارية مستوحاة من الافتراضات المستمدة

من التراث التوراتي حول سليمان. وسرعان ما أصبحت هذه الفكرة حقيقة يعتمد عليها في تاريخ وتعريف المباني «المنتمية إلى عصر سليمان» شأنها شأن مجمع البوابات (gate- complexes) في مجدّو[*26] (تل المتسلم) (Megiddo) أو حازور Hazor أو تل الجزر Gezer[*27]. ثم يكشف وايتمن ذلك النهج من الاستدلال الذي يدور في حلقة مفرغة والشائع في دراسة هذه الفترة والمعطيات الأثرية، هذا النهج الذي أصبح جزءا من الخطاب العام وكان في منأى عن الانتقادات اللاحقة. وقد أكد جيميسون ـ دريك Jamieson - Drake الحاجة إلى إعادة تقييم نقدية لهذه الفترة برمتها وذلك لفضح وهم «امبراطورية داود ـ وسليمان.» وعلى الرغم من أن عمله يبدو في الظاهر كأنه دراسة عن مدارس يهودا الدينية، فإن أبحاثه عن الآثار المتوفرة حول هذه الفترة تدل بشكل مقنع على أنه لم تكن هناك الا شواهد ومبان رسمية قليلة جدا في القرن التاسع أو العاشر. (ق.م). كما لا يجد أية دلائل تذكر تثبت أن يهودا كانت دولة قبل ازدياد عدد السكان والمباني والانتاج والمركزية والتخصص في القرن الثامن قبل الميلاد. (139 ـ 138 : 1991)[34]. وحتى حينئذ، فإن الدلائل الآثارية لهذه الدولة لا تكشف إلا عن بنية لدولة صغيرة جدا. ويعتقد طومسون Thompson، كما اعتقد جيميسون ـ دريك، أن الدلائل أو عدم وجود الدلائل، توحي بأن القدس لم تصبح عاصمة لدولة اقليمية قبل القرن السابع ق.م (140 : 1992a) ولم ترق إلى مستوى العاصمة إلا في الفترة الفارسية. ويثير التساؤلات حول وجود « المملكة الموحدة» التوراتية على أساس أن سكان يهودا لم يكونوا مستقرين، « ولم تكن هناك قاعدة لسلطة سياسية أو اقتصادية يمتد نفوذها إلى مختلف الأقاليم الصغيرة في فلسطين قبل توسع الهيمنة الإمبريالية الآشورية في جنوب منطقة شرق البحر المتوسط (طومسون Thompson 412: 1992a). أما الدراسات التوراتية فقد تجاهلت صمت الوثائق الآثارية واستمرت في تصور إمبراطورية إسرائيلية هيمنت على تاريخ المنطقة وحددت معالمه.

رأى الكثيرون في الاكتشافات الحديثة لجزء من نقش آرامي في تل دان (تل القاضي) Tel Dan[*28] تأكيدا وتبريرا لهذا التصور لماضي إسرائيل المجيد[35]، ونظر إليها البعض على أنها نوع من الدفاع النهائي ضد الكتابات التاريخية التصحيحية التي أثارت شكوكا حول تاريخية التراث التوراتي

(ريني Rainey 1994، لومير Lemaire 1994). ونظر هؤلاء إلى الإشارة إلى «بيت داود» في السطر التاسع من النقش على أنها لاتثبت وجود داود التاريخي فحسب، وإنما تؤكد صحة روايات التوراة حول الملك داود. لكن هذا يتناقض مع المنهج المتحفظ لعلماء الآثار الذين نقبوا عن هذه القطعة ويتعارض مع ما نشروه مبدئيا عن هذا الجزء:

إن طبيعة المصادر التوراتية من جانب، والطبيعة الجزئية لنقش دان من جهة أخرى، لا يسمحان لنا باستنتاجات قاطعة. قد تكون هناك تفسيرات أخرى محتملة، ولن يمدنا بالدليل إلا اكتشاف قطع إضافية من هذا النقش للإجابة عن الأسئلة التي أثارتها اكتشافاتنا لهذه العينة.
(**بيران ونافيه** Biran & Naveh **1993:98**)

أما الادعاءات اللاحقة فكانت مبالغا فيها جدا واهتمت بالسياسة أكثر من اهتمامها بالنواحي العلمية. وقد قيل إنها تبدد من شكوك «المقللين من قيمة التوراة» (شانكس Shanks 1994). وحتى لو سلمنا بأن هذه إشارة إلى سلالة داود و ليست مجرد اسم لمكان، كما يجادل البعض، فإنها تشترك مع لوح مرنبتاح الحجري المنقوش(*26) في أنها لاتكشف إلا القليل جدا من المعلومات التاريخية المفيدة التي لم نكن نعرفها من قبل. وهذا مثال آخر للطريقة التي سيطرت بها المسلمات السياسية والدينية على خطاب الدراسات التوراتية وكيف يمكن الكشف عن المسلمات. إن إشارة وحيدة على لوح حجري منقوش من هذا النوع قد تؤكد وجود سلالة حاكمة تعود إلى مؤسس اسمه داود ولكنها لا تستطيع أن تؤكد تراث القصص التوراتية حول داود كما جاء في سفر صموئيل. إن الاستخفاف بالروايات البديلة للماضي بإطلاق ألقاب ازدرائية أو بإثارة الشبهات حول نزاهة العلماء الباحثين يبين أن الأمرمتعلق بذلك الإحساس بالماضي المرتبط بقوة بالهوية الاجتماعية والسياسية في الحاضر. إنه جزء من خطاب الدراسات التوراتية القديم العهد للمطالبة بماض لإسرائيل. ووجود دولة داود كما صورها التراث التوراتي هو شيء أساسي لهذا المشروع، وبالتالي يمكننا فهم الشراسة التي تهاجم بها أي إثارة للشك حول هذه الرواية الأصل (master narrative). وتتمثل «موضوعية البحث العلمي» في الدفاع عن فكرة وجود الإمبراطورية،

في هجوم ريني Rainey على ديفيز Davies:

يمثل ديفيز Davies ما يسميه هو وجماعة من زملائه المنهج التفكيكي في دراسة التراث التوراتي. وتعد هذه الحالة مثلا مفيدا يكشف عن السبب الذي يتيح لجميع المهتمين بشكل جدي بالدراسات التوراتية والشرقية القديمة أن يتجاهلوا ديفيز وصحبه بلا خوف.

(ريني Rainey **47: 1994)**

المسألة التي يختلف فيها ريني بشكل واضح مع ديفيز هي اعتراضات هذا الأخير على قراءة عبارة «بيت داود house of David» على أنها تعني سلالة داود وادعاءه أن عدم وجود فاصل بين الكلمات يوحي بأن هذا قد يكون اسم مكان. وهذا الخلاف يستعمل بدلا من ذلك كهجوم على التحولات التي طرأت على الدراسات التاريخية التي تهدد سيطرة إسرائيل على الماضي. بل إن أسلوب التعبير نفسه يستخدم عبارة مثل «كل من هو مهتم بشكل جدي» للتدليل على أن ديفيز أو أي واحد من جماعته لايمكن أن يكون «جديا» ويمكن «تجاهله بلا خوف». إن التركيز على كلمة «بلا خوف» هو بمنزلة توجيه إنذار إلى القارئ بأن من الخطر حتى التفكير في إثارة الاسئلة حول تصورات الماضي كما جاءت في التراث التوراتي وهي التصورات التي يحمل ريني Rainey لواءها، ثم يوجه للقارئ تحذيرات قاسية إضافية عن خطر السير في مثل هذا الطريق:

إن اعتراضات ديفيز هي اعتراضات هاو يقف على هامش البحث العلمي المتخصص، ولا يمكن لوم نافيه وبيران Naveh & Biran لافتراضهما أن القارئ لديه معرفة بسيطة بالموضوع. فهما لم يعتادا التعامل مع الهواة من المدرسة التفكيكية. سوف يختلف الباحث المتمكن بلاشك مع بعض تفسيرات نافيه وبيران، أما ديفيز فيمكن تجاهله تماما بلا خوف.

(ريني 1994:47)

وهكذا يتم استغلال الثقل الكامل لخطاب الدراسات التوراتية من أجل إسكات أي مطالبات أخرى بالماضي. وتقدم المسألة الآن وكأنها تتعلق بالكفاءة والنزاهة العلمية وليس بقراءة ديفيز للنقوش، وإنما لإثارته الشكوك حول تصورات الماضي المستوحاة من التوراة. إن هذا الهجوم المحموم الأخير يؤكد أن المسألة الأعم في خطر. إذ يقال للقارئ إن الناس العاديين ومعلمي التوراة teachers of the Bible يريدون أن يعرفوا ماذا «تعني حقيقة» هذا النقاش: أما مغزاه الحقيقي فلا يمكن أن يتكشف إلا للخبراء مثل ريني

الذي يقول:

من جهة أخرى، فإن من واجبي باعتباري أحد دراسي النقوش القديمة في أصولها، أن أحذر القارئ العادي: أن هذه التقليعة الجديدة، وأعني بها المدرسة «التفكيكية» التي يمثلها فيليب ديفيز Philip R. Davies ومن لف لفه هي مجرد مجموعة من الهواة يعتقدون أنه لا يوجد شيء في التراث التوراتي يعود إلى ما قبل الفترة الفارسية، وينكرون بشكل خاص وجود مملكة موحدة، وهذا من صميم خيالهم. ولكن ورود اسم «بيت داود» House of David في حجري تل دان Tel Dan وميشا Mesha [29*] المنقوشين هو ضربة قاضية لغرورهم الظاهر. فمن واحب الدراسات التوراتية والتعليم التوراتي أن يتجاهلا تماما هذه المدرسة التفكيكية لأنها لاتملك شيئا تعلمنا إياه.

(ريني 47:1994)

أما القارئ فلا تقدم إليه أي معلومات عن هوية هؤلاء الهواة، فيماعدا الإشارة إلى طومسون Thompson. إن هذا الهجوم الشخصي العنيف على ديفيز يستخدم وسيلة للحط من قدر هذا التحول في الدراسات التاريخية الذي أخذ يطرأ على هذا الفرع من المعرفة. إلا أن هذه الحركة في رأي ريني Rainey، يمكن تجاهلها «بلا خوف» لأن عدم تجاهلها سوف يقوض تصورات الماضي التي روج لها خطاب الدراسات التوراتية والتي حافظت على مطالبة إسرائيل بالماضي وحققت لها النجاح في استبعاد التاريخ الفلسطيني. قد تؤكد الألواح الحجرية المنقوشة (stele) وجود مملكة يهودية في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ولكن مالا تستطيع أن تؤكده هو نطاق هذه المملكة أو الاعتقاد بأن هذه المملكة كانت «إمبراطورية» من الطراز الأول تحت حكم داود. لا يزال من الضروري فهم مملكتي يهودا وإسرائيل كجزء من التاريخ الفلسطيني الأشمل بدلا من أن يكونا العامل الأساسي والوحيد في تاريخ المنطقة.

من الواضح أن الباحثين التوراتيين وعلماء الآثار كانوا مدركين منذ مدة طويلة لمسألة شح الأدلة الأثرية ولكنهم أصروا مع ذلك على تصور الصرح الهائل لإمبراطورية داود على أنه يمثل إحدى القوى العظمى في العالم القديم [36]. وقد تجاهل خطاب الدراسات التوراتية النقطة التي أشار إليها طومسون (412: 1992) عن عدم وجود مركز قوة سياسي واقتصادي يتجاوز حدود الأقاليم المحلية في فلسطين تجاهلا تاما في بحثه المحموم عن الدولة الإسرائيلية في العصر الحديدي المبكر، وكان من الواجب أن تؤدي

دراسة الأوجه الأعم للإمبريالية إلي موقف أكثرحذرا يخفف من غلواء المطالب الأكثر تطرفا، التي تزعم أن دولة داود كانت إحدى القوى الرئيسية في العالم القديم. كما ينظر إلى مملكة داود وسليمان على أنها قللت من شأن الهيمنة الإمبريالية الخارجية، تلك الهيمنة التي كانت سمة ملازمة لتاريخ فلسطين من العصر البرونزي وحتى عصرنا الحاضر، كما كانت هي الحقيقة الأعم للقوة الإمبريالية والهيمنة التي سعت إلى السيطرة على فلسطين ورسم معالمها طوال تاريخها. على الرغم من ذلك، فإن أنصار اختلاق وجود ماض متخيل لإمبراطورية داود لم يأخذوا في اعتبارهم السمات البنيوية للإمبراطورية. لكن هذا لا يعني أن جميع الإمبراطوريات متشابهة بنيويا، فهناك اختلافات واضحة بين الإمبراطوريات سواء في الماضي أو في الحاضر. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نرى أوجه الشبه وأن نجري مقارنات بين الفترات المختلفة للهيمنة الإمبريالية. لم يطرح خطاب الدراسات التوراتية عددا من الأسئلة المهمة من أمثال: لماذا كانت فلسطين دائما تحت السيطرة الإمبريالية؟ كيف أثر ذلك في اقتصادها، وفي أنماط الاستيطان والسكان فيها؟ هل كانت هناك سمات مشتركة ترتبط بصعود الإمبراطوريات وانهيارها فيما يتعلق بوضعها في المنطقة؟ كيف يمكننا تفسير فترات الفراغ في ميزان القوى إن وجدت مثل هذه الفترات؟ لقد لوحظ أن فلسطين لا يكاد يمكن اعتبارها وحدة واحدة: لأن الفوارق الجغرافية والمناخية، كانت تعني أننا مجبرون على أن نتكلم عن «فلسطينات» متعددة و متنوعة the many diverse Palestines تشكل في مجموعها الكيان المعروف بفلسطين. إن وجود قوة عظمى وحيدة في فلسطين لايمكن فهمه بمعزل عن السمات والقضايا الأوسع والأعم.

لقد كشفت دراسة كينيدي Kennedy (1988) المهمة حول صعود القوى العظمى وسقوطها عن علاقة مهمة جدا بين الاقتصاد والسلطة وهذه الفكرة تتحدى الإصرار على ترويج ماض متخيل لقوة عظمى حكمها داود في العالم القديم. وتضع نوعية الأسئلة التي يطرحها كينيدي (المقدمة، xxiv - xxvii : 1988) عددا من المبادئ المهمة في دراسة الإمبراطوريات العالمية، أو ما يسميه «القوى العظمى». وعلى الرغم من أن دراسته تركز اهتمامها على الفترة الحديثة، من القرن السادس عشر حتى الوقت الحاضر،، فإن

استنتاجاته وثيقة الصلة أيضا بأي شيء يتعلق بتغير ميزان القوى في العالم القديم. والأهم من ذلك كله، أن كينيدي يكشف عن وجود علاقة سببيه بين التغير في موازين الاقتصاد والإنتاج وبين وضع القوى العظمى في النظام العالمي. وهو يسلط الضوء بوجه خاص على انتقال التجارة من البحر المتوسط إلى الأطلنطي وشمال غرب أوروبا من القرن السادس عشر وبعده، وإعادة توزيع حصص الإنتاج العالمي بعيدا عن أوروبا الغربية في العقود التالية لعام 1890. فالتحولات الاقتصادية التي ترتب عليها صعود قوى عالمية جديدة غيرت النظام العسكري والإقليمي، كذلك يدل السجل التاريخي على وجود علاقة واضحة جدا على المدى البعيد بين الصعود والانهيار الاقتصادي للقوة العظمى وصعودها وانهيارها كقوة عسكرية (أو إمبراطورية عالمية). هذه العلاقة واضحة جدا وهي أن الموارد الاقتصادية ضرورية لدعم المؤسسات العسكرية الضخمة. لكن هناك إلى جانب ذلك مبدأ مهما بدوره لا يدعو إلى الدهشة في ذاته وأعني به أن الثروة والسلطة هما دائما أمران نسبيان. لاحظ كينيدي أن القوة الاقتصادية والعسكرية النسبية لأمة ما لاتصعدان ولاتهبطان بشكل متواز. فكثيرا ما كان هناك فارق زمني ملحوظ بين انطلاق القوة الاقتصادية النسبية للدولة وانطلاق هيمنتها العسكرية والإقليمية. فمن الممكن أن تقرر قوة ما تتمتع باقتصاد متوسع أنها تريد جمع المزيد من الثرورة بدلا من الاستثمار في القوة العسكرية. لكن الأولويات تتغير مع مرور الوقت، ويرى كينيدي أنه بعد مرور نصف قرن مثلا فإن عبء الالتزامات الخارجية التي يفرضها التوسع الاقتصادي، أي ضرورة وجود أسواق عالمية والمواد الخام التي يعتمد عليها الاقتصاد، وكذلك القواعد والمستعمرات، كل هذا يعني أنه ينبغي على القوة العظمى أن تستثمر في التسلح لحماية أسواقها وطرق تجارتها وموادها الخام ضد قوة منافسة أخرى ومتوسعة. ويستنتج أنه في الصراعات بين القوى العظمى، فإن النصر يكون حتما من نصيب القوة التي تتمتع بنظام إنتاج أكثر ازدهارا. ويعد سقوط أسبانيا في القرن السابع عشر مثلا جيدا لذلك. فقد عانت الزراعة الأسبانية من أجور باهظة، ومن أعمال نقابة صناع الصوف Mesta[(30*)] ونظام الخدمة العسكرية وهذا الوضع تفاقم بانتشار سلسلة من وباء الطاعون الذي أدى إلى هلاك عدد كبير من السكان

في بداية القرن السابع عشر. في هذه اللحظة بالتحديد، تم جلب الفضة الأميركية إلى أسبانيا مما أدى إلى تضخم في الأسعار وأضر بشدة بالاقتصاد الأسباني. وكما قيل فإن «تدفق المعادن النفيسة من جزر الهند الغربية، كان بالنسبة لأسبانيا مثل صب الماء على السطح ـ فهو ينهمر عليه ثم يجف بسرعة» (كينيدي 70 : 1988). كانت نتيجة كل ذلك هي الانهيار النهائي للقوة العسكرية الأسبانية، الذي لم يتضح تماما حتى 1640، مع أن أسبابها كما يقول كينيدي (70: 1988) كانت قائمة قبل ذلك بعشرات السنين.

إن النتائج التي يستخلصها كينيدي من تحليله الرائع للقرون الخمسة الأخيرة في تاريخ العصر الحديث يمكن أن تنطبق على أي دراسة عن تحول ميزان القوى في العالم القديم ولذلك فهي تستحق أن تقتبس بإسهاب:

إن القضية التي ندافع عنها في هذا الكتاب هي وجود ديناميكية للتغيير، وهذه الديناميكية تحركها أساسا التطورات الاقتصادية والتكنولوجية، وهذه بدورها تؤثر في البنى الاجتماعية والنظم السياسية والقوة العسكرية، وفي وضع الدول والإمبراطوريات. غير أن سرعة هذه التغيرات العالمية لم تكن متجانسة ببساطة لأن معدلات الابتكار التكنولوجي ونمو الاقتصاد هي نفسها غير منتظمة، ومرهونة بظروف المخترع الفرد وصاحب العمل وكذلك المناخ، والأوبئة والحروب والجغرافيا والإطار الاجتماعي، الخ... وعلى النحو نفسه، فإن مناطق ومجتمعات مختلفة كانت معدلات نموها تزداد سرعة أوبطئًا لا حسب تغير أنماط التكنولوجيا والإنتاج والتبادل التجاري فحسب، وإنما أيضا حسب مدى تقبلها للأساليب الجديدة لزيادة الإنتاج والثروة.

وكما ازدهرت بعض المناطق في العالم، فقد تدهورت مناطق أخرى ـ بشكل نسبي وأحيانا بشكل مطلق ـ وليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة: فنظرا إلى أن الإنسان مدفوع بالفطرة إلى تحسين أحوال وضعه، لم يقف العالم في حالة ثبات أبدا. وكانت التحولات الفكرية الحاسمة منذ عصر النهضة الأوروبية حتى الآن، التي دعمها ظهور «العلوم المنضبطة» exact sciences خلال عصر التنوير والثورة الصناعية، كانت تعني ببساطة أن ديناميكة التغيير ستكون أقوى وأقدر على الاحتفاظ بقوة دفعها من ذي قبل.

(كينيدي 1988:566)

من المهم في ضوء هذه الدراسة، أن نبحث في تأثير التطورات الاقتصادية والتكنولوجية في التحولات النسبية في ميزان القوى في العالم القديم، وكيف أثرت هذه في فلسطين في علاقتها بالأنظمة الاقتصادية العالمية». وسيساعد هذا على تفسير السبب الذي لم تصبح فلسطين من أجله قوة

إقليمية أبدا، اللهم إلا في حالات نادرة جدا، كما أن هذا البحث يلقي ظلالا من الشك على الفرضية التقليدية السائدة القائلة إن دولة داود وسليمان كانت قوة عظمى في المنطقة في العصر الحديدي.

وفضلا عن ذلك، فإن النتيجة الرئيسية الثانية التي تفضي إليها دراسة كينيدي (566: 1988) هي أن القوة العسكرية النسبية والمكانة الاستراتيجية للدول يتوقفان على المعدل غير المنتظم للنمو الاقتصادي وهذا عامل مهم في فهمنا ماهية الإمبراطوريات القديمة. قد يبدو من الأمور الواضحة أن القوة العسكرية، والقدرة على تمويل وتجهيز جيش قادر، تعتمد على «قاعدة إنتاجية مزدهرة» وكذلك على تقدم تكنولوجي. على الرغم من ذلك، فإن العديد من الدراسات التقليدية حول فترة حكم داود وسليمان وفترات أخرى من التاريخ الإسرائيلي يبدو أنها تتجاهل ما هو واضح. ومن هنا فإن:

جميع التحولات الرئيسية في موازين القوى العسكرية العالمية قد ترتبت على التغيرات في موازين الإنتاج. وفضلا عن ذلك، فإن صعود وهبوط الإمبراطوريات والقوى المختلفة في النظام العالمي هو أمر أكدته نتائج الحروب الكبرى، حيث كان النصر حليف الجانب الذي كان يملك أغنى الموارد المادية.

(كينيدي 1988:567)

تؤكد دراسة كينيدي ديناميكية العالم من سنة 1500 م حتى اليوم. ومن الجائز أن التطورات التكنولوجية في العالم القديم أو تحولات قاعدة الإنتاج فيه، لم تحدث بتلك السرعة التي حدثت بها في العالم الحديث، وبمعدل تكرار حدوثها فيه، ومع ذلك فإن تاريخ فلسطين وصعود وانهيار «الإمبراطوريات العالمية» منذ العصر البرونزي المتأخر حتى العصر الروماني يوضح أن هذه الديناميكية كانت عاملا مهما في العالم القديم بدوره. ولابد أن يساعد تطبيق بعض العوامل التي ركز عليها كينيدي على مكانة فلسطين في الجغرافيا السياسية للعالم القديم على فهم السبب الذي كانت فلسطين من أجله جزءا من إمبراطوريات متعاقبة: لقد كانت تلك ديناميكية للقوى العالمية تدهور في ظلها عدد من المناطق بشكل مطلق إلى درجة أنه لم يعد بمقدورها أن تحافظ على موقعها في منظومة القوى.

إن السمات الثلاثة الأساسية للإمبراطوريات هي الهيمنة والأرض

والمكاسب، ولسنا هنا بصدد البحث في التبريرات الدينية أو الأيديولوجية للإمبراطورية وإنما في التأثيرات العملية في المنطقة. وهذه العوامل الثلاثة: الهيمنة والأرض والمكاسب، قد تضافرت في حالة فلسطين في تحديد السبب الذي جعل الوجود الإمبريالي في فلسطين عاملا دائما إلى هذا الحد. وحتى نفهم دوام هذا الوجود الإمبريالي ينبغي دراسة بعض العوامل الأساسية في ديناميكية القوى العالمية كما حددها كينيدي، وهي : قاعدة الإنتاج، والجغرافيا والاقتصاد والتكنولوجيا. يركز كوت ووايتلام Coote & Whitelam (1987:64) على أن ضعف البنى التحية لفلسطين بالمقارنة مع جيرانها أصحاب الحضارات النهرية الكبيرة، كان عاملا دائما في خضوعها للقوى العظمى الخارجية. لقد كان الإنتاج الزراعي في الاقتصاديات الزراعية القديمة يعتمد على مر العصور على العمالة المكثفة، وهذا الواقع استمر في العديد من المناطق حتى الوقت الحاضر. هذا يعني أن المناطق التي تتمتع بمزيد من الموارد الزراعية المحلية ومن العمالة كانت تتمتع بأكبر قدر من الانتاج وبميزة حيوية طبيعية أما فلسطين فلم تستطع ببساطة منافسة الاقتصاديات النهرية والتفوق السكاني في مصر وبلاد ما بين النهرين. كذلك فإن المزايا الطبيعية التي تمتعت بها هضبة الأناضول والهضبة الفارسية، وفيما بعد أوروبا متمثلة في اليونان وروما، كانت هي التي هيمنت على فلسطين. فلم يكن بمقدور منطقة ذات بنى تحتية ضعيفة مثل فلسطين أن تنافس القوى العسكرية المعاصرة، في وقت ظل فيه الإنتاج الزراعي والوضع السكاني عاملين أساسيين في ديناميكية القوى العالمية. يجب أن يفهم الماضي المتخيل لإمبراطورية داود في ضوء هذه الحقيقة الجوهرية.

إن معلوماتنا عن السكان غير دقيقة إلى حد كبير ومحدودة لدرجة أنه يستحيل توفير أرقام دقيقة عن السكان. ومع ذلك، فإن حجم السكان هو المهم عندما نقارن القاعدة السكانية والإنتاجية في فلسطين مع ميثلاتها في الإمبراطوريات المجاورة. لقد قدر ماك إيفدي وجونز McEvedy & Jones (1978:622) أن عدد سكان مصر في فترة المملكة الحديثة كان بحدود ثلاثة ملايين نسمة مقارنة مع مالا يزيد عن (000 ,250) في فلسطين.وكان أقصى عدد بلغه السكان في الألف الأول قبل الميلاد حوالي خمسة ملايين ومثل هذه الأرقام لم يتم تجاوزها إلا في الفترة الحديثة[37]. يضاف إلى ذلك، أنه

حتى في أقل تقديراتهما (1978: 149) فإن المنطقة التي هي العراق اليوم قد وصل عدد سكانها في الألف الثاني قبل الميلاد إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف فلسطين بحدود(000 ,750) أو مليون مع زيادة وصلت إلى مليون وربع. شهدت الإمبراطورية الآشورية ازديادا ملموسا في عدد السكان وصل إلى حدود مليونين في القرن السابع قبل الميلاد، وبالمثل يقدر ماك إيفدي وجونز (1978: 152) أن مساحة ايران الحديثة كان عدد سكانها حوالي مليونين في نهاية العصر البرونزي (1000 ق.م). وتجدر ملاحظة أن هذا العدد ازداد من مليونين ونصف إلى أربعة ملايين في الفترة الفارسية. ولكن الاكتشافات الأثرية من فلسطين ومناطق أخرى في الشرق الأدنى القديم تسمح بتكوين صورة أدق.

إلا أن النقطة المهمة، هي الحجم النسبي في مقارنة حجم السكان في منطقة ما بالمناطق الأخرى. لقد تجاهل معظم الباحثين التوراتيين هذا الموضوع في بحثهم للقوى الإقليمية في فلسطين بالقياس إلى ظروف العالم القديم. لقد افتقرت فلسطين إلى القاعدة السكانية والاقتصادية التي تتيح لها منافسة القوى العظمى في العالم القديم(38).

خاتمة الفصل: تحرير التاريخ الفلسطيني

لقد تضافرت عوامل متعددة - مثل تغير أساليب البحث في النظر إلى النص التوراتي، والافتقار إلى الشواهد الآثارية، وضعف البنى التحتية في فلسطين مقارنة مع القوى الأخرى في العالم القديم - هذه العوامل تهدم ادعاءات الدراسات التوراتية التي تزعم اكتشاف وجود إمبراطورية داود، ودولة إسرائيلية هيمنت على تاريخ فلسطين، وهذا يعني أن تاريخ فلسطين حرر من قبضة الماضي المتخيل الذي تدعي إسرائيل وحدها حق المطالبة به.

إن الوضع الذي وصفناه من قبل يوضح قوة هذا الخطاب في عرقلة أي ادعاءات بديلة بالماضي على الرغم من الافتقار إلى أدلة قاطعة لإثبات مثل هذه التصورات المهيمنة. على الرغم من ذلك ظلت الدراسات التوراتية صامتة بشكل غريب في محاولتها تفسير عدم وجود الدلائل الآثارية التي تثبت وجود مثل تلك الإمبراطورية المجيدة، وحاولت بدلا من ذلك استغلال

صمت الأدلة الآثارية بتقديم تصور لهذا الماضي مبني على التراث التوراتي. قد يكون الرد هو أن تحدي التصور المهيمن هو ببساطة «حجة مريحة مرتكزة على الصمت أو الغياب» ولكن الصمت غلاب! ومما يدعو إلى السخرية أننا بصدد مفارقة حول الهيمنة الإمبريالية وتحديد معالم الماضي: نجحت دولة إسرائيلية أو إمبراطورية خيالية في إسكات صوت أي فهم آخر للماضي. إن «الإمبريالية» كما قال إدوارد سعيد (1993:271) «هي في التحليل الأخير عمل عدواني جغرافي يتم عمليا بواسطته اكتشاف كل جزء من العالم، ورسم خرائط له والسيطرة عليه في النهاية». لقد ساهمت الدراسات التوراتية في هذا العمل الإمبريالي من خلال الإسهام في خلق تصور عن الماضي أنكر أي مطالبات أخرى بهذا الماضي. هذا الفهم للماضي كانت له آثار سياسية عميقة إذ أكد وأيد ادعاءات إسرائيل الحديثة في الأرض في مقابل ادعاءات الفلسطينيين في الماضي وفي الأرض. إن الخطاب المهيمن للدراسات التوراتية متورط في عملية تجريد الفلسطينيين من ماضيهم وأرضهم بتكراره المستمر لعدد من الادعاءات التي تربط الماضي بالحاضر: كالادعاء بامتلاك الأرض والتركيز على فساد وعدم كفاءة وفشل الأنظمة السياسية المحلية في الوصول إلى ذروة الحضارة، وتأكيد الحاجة إلى مهاجرين قادمين من خارج فلسطين لتحقيق إمكانيات الأرض، ومفهوم الإمبراطورية «الدفاعية» وكذلك فكرة «إسرائيل الكبرى». إن الإصرار على الاستمرارية بين الماضي والحاضر لا ينظر إليه إلا في إطار الاستمرارية بين إسرائيل التي حكمها داود ودولة إسرائيل المعاصرة. أما الشعب الفلسطيني فليس هناك أي مفهوم مماثل لأي استمرارية له بين الماضي والحاضر. ولن يصبح بإمكاننا بحث وتحقيق وفهم تاريخ فلسطين في العصر الحديدي إلا عندما يتم الاعتراف بأن إمبراطورية داود وهم لا أساس له من الصحة. أي تصور بديل للماضي يجب أن يكون جزءا من الاستمرارية مع فترة الانتقال بين نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي:

وسوف نحتاج إلى أن ندقق في المعلومات الآثارية المتزايدة والمسوح الميدانية، بعد تحريرها من فرضيات وجود مستوطنات «إسرائيلية»، وذلك لفهم التحولات في أنماط الاستيطان والسكان في المنطقة في ضوء التحولات في القوى الإمبريالية في العالم القديم. سوف يكون هذا جزءا من دراسة

وتحقيق إعادة تنظيم المجتمع الفلسطيني، بحيث تكون إسرائيل جزءا من هذا الواقع ولكنها ليست أبدا العامل المهيمن، الذي يستبعد كل الأصوات الأخرى. بعد ذلك، سوف تلتفت الدراسة إلى مسألة العوامل الفاعلة في تحولات أنماط الاستيطان وازدياد الاستيطان في العصر الحديدي الأول، كما في دراسة الفترة الانتقالية من نهاية العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي، بدلا من الاعتماد على التوراة العبرية في تحديد مهام البحث. وسوف تحتاج مثل هذه الدراسة إلى إبداء اهتمام بالاختلافات الإقليمية وبالحقائق السياسية والاجتماعية الأعم يزيد على ما جرى عليه العرف حتى الآن في الروايات التقليدية «للدراسات التاريخية التوراتية».

الحواشي

(*) يقصد الإنشاء، لا الدولة. (المراجع).
(*2) إن «نغمة التقدم لكل السكان» هذه قد ترجمت بعد سنوات قليلة من هذا الإعلان إلى تشريد للفلسطينيين ومجازر قتل فيها عدد كبير منهم، كما في دير ياسين وصبرا وشاتيلا بعد أن امتدت «نعمة التقدم» إلى لبنان، كما تتمثل في هذه الأيام في إخراج سكان القدس من بيوتهم بالقوة وهدم هذه البيوت بالبولدوزرات إذا أبدى أصحابها أي مقاومة. (المراجع).
(*3) الميسينية: أي الإغريقية القديمة التي كان مقرها في جنوب اليونان، على الأرجح، جزيرة كريت القريبة من السواحل الفلسطينية. وقد ازدهرت الحضارة الميسينية (1400 ـ 1100 ق.م). (المترجمة).
(*4) الحشمونيون هم سلالة يهودية يُنسب إليهم المكابيون Maccabees. أما المكابيون ـ حسب الروايات التوراتية ـ فهم السلالة التي حاربت الملك السوري الذي هدد بالقضاء على مملكة يهودا، وذلك في 168ق.م. إلا أن أصول هذه السلالات غير واضحة. (المترجمة).
(*5) العمّونيون شعب سامي كان يقطن شرق الأردن. والمؤابيون والآدوميون هم أيضا شعوب سامية قديمة. (المترجمة).
(*6) قاديش اسم لعدد من المواقع القديمة في فلسطين، وهو اسم سامي معناه مقدس، وقاديش (أو قادش) المعنية هنا هي تلك التي تقع شمال غرب بحيرة الحولة. (المترجمة).
(*7) الإيجيون: الشعب المنسوب إلى منطقة بحر إيجه، وهي مجموعة من الجزر تقع بين تركيا واليونان. وهؤلاء يعرفون بأقوام البحر Sea Peoples. (المترجمة).
(*8) نحمان أفيغاد Nahman Avigad، أستاذ آثار إسرائيلي يدرس في الجامعة العبرية في القدس. (المترجمة).
(*9) ارتكزت الحضارة الإغريقية في بداياتها على ملاحم الشعر مثل هوميروس وهزيود، والنص يشبه دور هذه الملاحم، التي كان يسهل تعلمها لأنها أشعار، بدور التوراة في حالة إسرائيل القديمة. (المراجع).
(*10) من الجدير بالذكر أن كاتبا عربيا وهو الدكتور كمال صليبي اعتمد في كتابه الذي صدر أخيرا إلى حد كبير على التفسير الفيلولوجي للتوراة، وبالتحديد على سفري صموئيل الأول والثاني، في أصله العبري. ونظرا إلى أن القصص التوراتية المتعلقة بمملكتي داود وسليمان قد وردت في معظمها في هذين السفرين، فإن صليبي يرى أن على الباحثين التوراتيين أن يبدأوا بقراءة نقدية للتوراة العبرية وذلك لتحديد ما تقوله هذه التوراة، بل الأهم، لمعرفة ما لا تقوله. ويرى عبث الاعتماد على النصوص الحالية للتوراة دون الرجوع إلى النص العبري، لأن التوراة التي بين أيدينا اليوم هي المعروفة بالترجمة السبعينية (نسبة إلى عدد مترجميها)، والتي تُرجمت من الآرامية (التي كانت آخذة بالحلول محل اللغة العبرية القديمة) إلى اللغة اليونانية. وكان النص العبري قد تعرض إلى الإعلال والتشويه في النطق، وهذه العوامل أدت إلى تشوهات في النص. ولهذا يرى د. صليبي أن التوراة العبرية لم تفهم لغويا بشكل صحيح حتى الآن لهذه الأسباب.

ولهذا السبب أيضا لابد من العودة إلى المعجم العربي، لأن اللغة العربية لغة سامية لها الأصول نفسها التي للغة العبرية، وذلك لإعادة النظر في تفسير ما جاء في التوراة، ولحل بعض المعضلات اللغوية.

ويقول د. كمال صليبي إن الدراسات التوراتية أصبحت بشكل متزايد «مبحثا زائفا» من مباحث علم الآثار التوراتي، وهو زائف لأنه يبحث عما يأمل أن يجده، وعلم اللاهوت المسيحي أيضا هو مبحث زائف، لأن عقائده ليست مبنية على أرض ثابتة، ويلفت إلى أن أتباع هذين الفرعين الزائفين من فروع المعرفة يرفضون اعتبار التوراة نصا عاديا لخشيتهم من أن هذا سيؤدي إلى خراب الفهم التقليدي والشائع للتوراة، والمبني على التراث اليهودي، بل حتى على اللاهوت المسيحي. وهكذا، أصبحت الدراسات التوراتية عقيمة، وتلجأ إلى اللف والدوران والنقاشات الكلامية وتتحرك من طريق مسدود إلى آخر، تتلمس مخرجا. يقول د. صليبي إنه سوف يبين، في كتابه هذا، كيف يمكن إيجاد مخرج دون اللجوء إلى وسائل أخرى غير أسهل الطرق وهو الرجوع إلى نص التوراة بلغته الأصلية.

وعنوان الكتاب هو: «تاريخية إسرائيل التوراتية، دراسات في صموئيل الأول والثاني». The Historicity of Biblical Israel. Studies in 1 & 2 Samuel.، صادر عن Nabu Publications، لندن، 1998. والكتاب غير مترجم إلى العربية (المترجمة).

(*11) الليفانت Levant أو الشرق، يُقصد به ما نسميه الآن سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وبعض مناطق من جنوب تركيا. (المترجمة).

(*12) هدد عزر: اسم آرامي معناه «هدد هو عون»، وهو ابن رهوب وملك صوبة في آرام. وحسب رواية التوراة تحارب مع داود عند نهر الفرات حينما ذهب لاسترجاع مملكاته هناك، وانتصر داود عليه. عبثا حاول الآراميون من منطقة دمشق مساعدته ضد العبرانيين، وتقول الرواية التوراتية إن داود انتصر على الآراميين أيضا (قاموس الكتاب المقدس ص 997). (المترجمة).

(*13) ناحاش: اسم سامي معناه «حنش» أو «حية»، وهو اسم ملك عمّون (قاموس الكتاب المقدس ـ مكتبة المشعل ـ بيروت 1981. ص 943). (المترجمة).

(*14) حازور: مدينة كنعانية قديمة في الجليل الأعلى تبعد حوالي 20كم شمال بحيرة طبريا، واسمها بالعربية هو تل القداح (وأيضا تل الوقاس). وهي من أكبر المدن الكنعانية التي اكتشفت حتى الآن. وعثر فيها على آثار كنعانية في جميع مجالات الحياة، حيث وجدت فيها معابد وفخار إلخ... (المترجمة).

(*15) هناك ذكر لـ عمري وOmri في القواميس المتاحة والأغلب أن هذا هو المقصود بـOmrides. وعُمري اسم عبري معناه «مفلح» وهو ابن باكر من بني بنيامين، وهو أحد ملوك إسرائيل. وطبقا للرواية التوراتية فقد بنى عمري مدينة السامرة، ونقل إليها إدارة البلاد وجعلها عاصمته، لكن عمري عبد الأصنام التي عبدها يربعام، وعمل من الشر ما لم يعمله أي ملك آخر من قبله من ملوك إسرائيل. تحالف عمري مع فينيقية وآشور ومؤآب وسمى الآشوريون مملكة إسرائيل «بيت خمري» نسبة له (انظر قاموس الكتاب المقدس ص 639). وكان عمري قائد قبيلة يساكر خلال حكم داود. أهم إنجازاته هي بناء عاصمة جديدة في السامرة، أكملها ابنه أهاب (Who's who in the Bible. Joan Comay and Ronald Brownrigg N.Y. - 1971). (المترجمة).

(*16) وهو الإمبراطور الروماني قسطنطين (306 ـ 337م) Constantine the Great (Flavius Valerius Constantinus)، الذي نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى بيزنطة، بعد أن أعاد تسميتها

القسطنطينية، وهو الذي أسس كنيسة القديس بطرس في روما. وقد أدخل إصلاحات كثيرة مهمة على إدارة الدولة (المترجمة).

(*17) «السَلسَلة» terracing هي اقامة السلاسل الحجرية بشكل متدرج لمنع انجراف التربة في المناطق الشديدة الانحدار، وهو اسلوب مستعمل في منطقة البحر المتوسط لزراعة المنحدرات الجبلية. و«السلسة» كلمة متداولة في فلسطين والاردن، بينما في سوريا ولبنان تعرف هذه العملية بـ«جلول» او «جل». (المترجمة)

(*18) من الجدير بالملاحظة هنا أن وايتلام، مؤلف هذا الكتاب، ينتقد نفسه في أعماله السابقة ويسلط الضوء على نقاط الضعف فيها. (المترجمة).

(*19) إفرايم: سبط من أسباط إسرائيل هم نسل إفرايم (الابن الثاني ليوسف). حسب الروايات التوراتية عندما بارك يعقوب ابني يوسف وضع يده اليمنى على رأس إفرايم مشيرا بذلك إلى أن السبط الذي يأتي من نسل إفرايم سيكون أعظم من السبط الذي سيأتي من نسل أخيه الأكبر منسّى. كان خليفة موسى، يوشع بن نون، من سبط إفرايم وهو الذي قاد إسرائيل في غزوهم فلسطين. أما المنطقة التي عينت نصيبا لإفرايم فكانت تقع في القسم الأوسط من فلسطين الغربية ويحدها من الشمال منسّى، ومن الجنوب بنيامين ودان، ومن الشرق نهر الأردن، ومن الغرب البحر المتوسط. وأهم مدن إفرايم هي شكيم (نابلس) التي كانت حسب التوراة، عاصمة المملكة الشمالية مدة من الزمن. وكانت شيلوه من أهم مدن إفرايم حيث نصبت فيها خيمة الاجتماع كما كانت مركز العبادة عند إسرائيل في زمن القضاة. ولم يتمكن إفرايم من طرد الكنعانيين من جازر. وقد لعب إفرايم دورا مهما في تاريخ إسرائيل لاسيما في حياة الأسباط التي كانت تسكن في الشمال. وكان صموئيل، آخر قاض عظيم في إسرائيل قبل ظهور المملكة، من سبط إفرايم. وكان اسم إفرايم كثيرا ما يستعمل للدلالة على المملكة الشمالية بكاملها، وبما أن إفرايم اضطلع بدور القيادة. (انظر قاموس الكتاب المقدس. ص 90 ـ 91) (المترجمة).

(*20) منسّى (أو منسّة) بن يوسف هو أحد آباء اليهود وقبيلة إسرائيل انحدرت منه، وكانت أرضها تقع على ضفتي نهر الأردن حسب الروايات التوراتية. (المترجمة).

(*21) وادي جزريل (أو يخديميل) المعروف في العربية بمرج أبي عامر، وهو سهل خصب في شمال فلسطين كانت المنظمات الصهيونية العالمية وشركات شراء الأراضي الصهيونية تسعى إلى شراء أجزاء كبيرة وقرى بأكملها منه منذ بداية العشرينيات من هذا القرن. وكانت مساحات شاسعة منه وقرى كاملة يملكها ملاك أراض غائبون (أي من خارج فلسطين أو لا يقيمون في أرضهم من لبنان وسوريا ومصر)، ولهذا سهل انتقالها إلى شركات الأراضي اليهودية. (المترجمة).

(*22) يلاحظ أن مناحم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي المتعصب، الذي كان يجري المفاوضات مع الرئيس السادات أثناء محادثات السلام في كامب ديفيد، كان يتعمد استفزاز الطرف العربي في هذه المحادثات بإطلاق اسم «يهودا والسامرة» على الضفة الغربية باستمرار تأكيدا لحق إسرائيل «التاريخي» فيها. (المراجع).

(*23) حسب الروايات التوراتية، الهيكل الأول كان ذلك الذي بناه الملك سليمان في القدس وكان مركز العبادة لليهود حتى سنة 70 ق.م وكان يحتوي على تابوت العهد. دمره بنوخذ نصر سنة 586 ق.م، وأعاد بناءه هيرود سنة 538 ـ 515 ق.م، وهو ما يعرف بالهيكل الثاني. لكن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن وجود أي أثر للهيكل الأول أو الثاني والذي يزعم اليهود أن مسجد الأقصى يقع في موقع الهيكل نفسه. (المترجمة).

(*24) جبعة: اسم عبري معناه (تل) وهو اسم لعدة قرى منها تل الفول الحالية التي تبعد 4 أميال شمال القدس في اتجاه نابلس (قاموس الكتاب المقدس ص 245). (المترجمة).
(*25) من حق القارئ علينا ان نوضح سبب استخدام كلمة «اثرية» احيانا و «آثارية» احيانا اخرى فالكلمة الاولى تعني النسبة الى الآثار، اما الثانية فتعني الى «علم الآثار». (المترجمة)
(*26) مجدّو Megiddo تعرف بالعربية باسم تل المتسلم. ومجدو مدينة كنعانية كانت تتزعم الحلف الكنعاني ضد الغزوات الخارجية، وتقع في سهل مرج ابن عامر، على جبل مرتفع. حاول المصريون السيطرة عليها ولم يستطيعوا ثم تمكن الفرعون تحتمس الثالث من الانتصار عليهم بالخديعة. ولا يوجد في مجدّو أي آثار يهودية، إلا أن الدعاية الصهيونية تروج لفكرة وجود آثار يهودية فيها. (المترجمة).
*27) جازر أو جيزر (تل الجزر): تبعد كيلومترين شمال قرية أبو شوشة في قضاء الرملة وهي اسم لمكان (قرية مندثرة)، وقد وجدت في جازر آثار كنعانية. أما علماء الآثار التوراتيون فيروجون، كما فعلوا في مواقع أثرية أخرى، لفكرة أن اليهود احتلوها بعد الكنعانيين وأقاموا فيها حضارة وشيدوا مبان إلا أن حقيقة الأمر هي أن هذه الآثار آثار كنعانية ـ أي فلسطينية قديمة ـ خالصة. (المترجمة).
(*28) تل دان: موقع أثري مهم بجانب جبل الشيخ Mount Hermon على بعد ثلاثة أميال غربي بانياس، وهو المعروف الآن بتل القاضي، وهو النبع الأوسط وأكبر منابع نهر الأردن جميعا، ويرجح أن هذا المكان هو دانة قديما.
وقصة النقوش التي عثر عليها في تل دان في غاية الأهمية لأسطورة وجود مملكة إسرائيلية قديما، وهي إحدى النقوش التي ورد فيها ذكر لداود خارج التوراة (المصدر الآخر هو لوح مرنبتاح الحجري المنقوش الذي ورد سابقا في هذا الكتاب والذي جاء فيه ذكر «إسرائيل»). وعدا عن قصص التوراة، لم يعثر مطلقا على أي ذكر لمملكة إسرائيل أو لملوكها، في الآثار المكتشفة ما عدا هذين المصدرين. ولذلك لا بد من شرح واف لهذه المسألة الخطيرة. يقول طومسون في كتابه الأخير The Bible in History. How Writers Create a Past (1999)، إنه في صيف 1993، اكتشف جزء من لوح حجري منقوش وضمن أشياء أخرى أشار النقش إلى «ملك إسرائيل» على النحو التالي: «... ك بت دود» «... K byt dwd»، ومن دون تردد، وبسرعة، قرأت هذه الأحرف على أنها «ملك بيت داود»، وقد تم تفسير كلمة بيت على أنها «سلالة»، وأُرِّخ النقش ذاته على أنه يعود إلى سنة 883 ق. م، وفُهم على أنه وصف للمعركة التي ذكرت في سِفر الملوك الأول، وروّج علماء الآثار الذين اكتشفوا هذا النقش على أنه أول ذكر لملك إسرائيل، وأنه دليل قاطع على أن داود المذكور في التوراة كان موجودا بالفعل وكان مؤسس سلالة يهودا الحاكمة في القدس. وقد قوبل هذا الاكتشاف بحماس كبير من علماء الآثار والدوريات العلمية المتخصصة. إلا أن المشكلات التي تكتنف هذا الاكتشاف، وأولها قراءة النص ذاته، ثم تأريخه وأخيرا تفسيره هي مشكلات كبيرة لم تُحل حتى الآن. ثم يتابع طومسون فيقول إن الصعوبات تجلت بسرعة بعد ذلك للعديد من العلماء. فقراءة حرف «ك» الواردة في النقش على أنه «ملك»، لا يزيد عن كونه تخمينا، بالطبع. بالإضافة إلى ذلك، فإن لا شيء في هذا النقش يدل على أن الكلمة «بت دود» (byt dwd)†House of David لها أي علاقة بالقدس ويهودا. فقد تشير إلى مكان أقرب إلى تل دان من القدس. إضافة إل ذلك، فإن تفسير كلمة «بت» على أنه سلالة ليس هناك ما يبرره. فكلمة «بت» قد تعني معبد، كما كان شائعا في هذه المنطقة قديما، فمثلا هناك «بيت ايل»، وهي تعني معبد الإله، وبيت دجن وغيرها كثير.

ولا يمكن فهم كلمة «بيت» بالطريقة نفسها التي يفهم بها البريطانيون مثلا House of Stuart. وأيضا، فإن كلمة «بيت» عندما ترد في التورات، مثل House of Saul وأيضا House of David فإنها تعني الكاهن نفسه وعشيرته بينما هو حي. يتابع طومسون تحليله لهذا النقش، ويستنتج أنه مع نشر أجزاء أخرى من هذا النقش، أو نقوش أخرى متصلة به، فإن قراءتنا لكلمة «بت دود» تصبح محيرة أكثر. بل إن هناك علماء آخرين ذهبوا إلى أن هذه النقوش مزورة. ولا يزال هذا الموضوع دون حل وينتظر نتيجة التحقيق الذي تجريه حاليا دائرة الآثار الإسرائيلية.

(ص ص 203 ـ 205 من الكتاب المذكور) (المترجمة).

(*29) ميشا Mesha: قرية جنوب غرب طبريا تبعد ثلاثة أميال شرق دبورية، وميشا أيضا هو اسم لأحد ملوك المؤابيين. (المترجمة).

(*30) عرفت نقابة صناع الصوف في أسبانيا في القرون الوسطى باسم Mesta، وقد أسسها ألفونسو العاشر سنة 1273، وتمتعت بامتيازات وحقوق واسعة، ومنحت أراضي شاسعة وكان لها ممثلون حكوميون لحماية مصالحها. وفي القرن السادس عشر كان نفوذها لايزال قويا، ولم يتم إلغاؤها إلا في سنة 1836. (المترجمة).

5 البحث المستمر

مقدمة

شهدت الفترة من منتصف الثمانينيات حتى آخرها تطور ما يمكن أن نطلق عليه «البحث الجديد» (new search) عن إسرائيل القديمة. وتمثَّل هذا «البحث» الجديد في مجموعة من الإصدارات (ليمحي Lemche 1985، آلستروم Alstrom 1986، كوت ووايتلام Coote & Whitelam 1987، فينكلشتاين Finkelstein 1988)، وقد أُخذت هذه الدراسات على أنها تحد رئيسي للتصورات المهيمنة التي عرضناها في الفصل الثالث، مما أسهم في تحول مهم لرؤيتنا وفهمنا لطبيعة إسرائيل القديمة أو وجودها في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي. تلك هي الأعمال التاريخية التصحيحية (revisionist) أو ما يسمى بالكتابات التفكيكية (deconstructionist) التي يرى ريني Rainey أنه يمكن تجاهلها بلا ضرر يعود على جميع المهتمين جديا بتاريخ إسرائيل. ركزت هذه الأعمال، كل على حدة، على فشل النماذج الثلاثة السابقة المرتبطة بـ (1) أولبرايت وبرايت، (2) آلت ونوث، (3) مندنهول وغوتفالد، في معالجتها للمعلومات الأثرية المتزايدة في المنطقة والتحولات في مناهج البحث فيما يتعلق

بالتوراة العبرية. إن أعمال فينكلشتاين مهمة ومتميزة وذلك لتحديد مسار الجدل في المستقبل، نظرا إلى أنه عالم آثار محترف، قام بنشر وتحليل المعلومات المسحية الجديدة والحيوية. أما مجموعات الأعمال الثلاث التي سبقت هذا العمل، فقد قام بها باحثون توراتيون مختصون كانوا غير راضين عن الكتابات التاريخية التقليدية حول إسرائيل القديمة، وحاولوا أن يتجاوبوا مع التغيرات المهمة التي أخذت بالحدوث في هذا الميدان، وقد تبعتها كتابات تاريخية «جديدة» عن إسرائيل (ليمحي Lemche 1988)، وجمع تركيبي (synthesis) للأبحاث الجديدة عن إسرائيل القديمة (كوت Coote 1990)، ودراسة مستفيضة عن التاريخ الإسرائيلي واليهودي (طومسون Thompson†a 1992)، ودراسة عن التاريخ الفلسطيني لـ (آلستروم Ahlstrom 1993) نشرت بعد مماته، بالإضافة إلى العديد من الدراسات التي نشرت في المجلات المتخصصة[1]. حاول (ديفيز Davies 1992) أن يجمع التحولات في هذا الفرع من المعرفة للتوصل إلى مغزاها، وكذلك الأفكار التي أثارها كل من آلستروم وليمحي وكوت ووايتلام، وفينكلشتاين وطومسون وغيرهم عن تاريخ إسرائيل المبكر.

لقد أسهم الجدل الذي أثارته هذه الأعمال في إعادة تقييم الفترات المبكرة من التاريخ الإسرائيلي. أما التحدي الأكبر فكان تحديا للرواية المستمرة والمهيمنة منذ زمن بعيد التي مفادها أن الدراسات التوراتية هي المرجع الأفضل والوحيد لدراسة التاريخ الإسرائيلي في تلك الفترة. تتجسد أهمية هذا التحدي في كتاب ميللر وهيز Miller & Hayes (1986) حول تاريخ إسرائيل ويهودا، وهو دراسة متحفظة للغاية لفترات ما قبل نشوء الدولة، إذ يركز المؤلفان على صعوبة بناء الرواية في ضوء طبيعة المصادر التوراتية. معظم الأعمال الحديثة التي ذكرناها سالفا تثير الأسئلة حول فائدة التراث التوراتي فيما يتعلق بفهم نشوء أو جذور إسرائيل، وتركز على أن هذا التراث، في شكله الحالي، يفسر أحداثا لاحقة، ويساعد بشكل أفضل على فهم فترة الهيكل الثاني في المملكة أكثر من فائدته في فهم إسرائيل في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. أما السمة المميزة الأخرى فهي أنهما يعملان حسابا لنقد مندنهول وغوتفالد في التركيز على الطبيعة المحلية لإسرائيل في الفترة الانتقالية من العصر

البرونزي المتأخر إلى بداية العصر الحديدي، ويرفضان فكرة وجود ثورة فلاحية ولكنهما يسلمان بأن الدلائل الأثرية الحالية تدل على أن إسرائيل المبكرة كانت تنتمي إلى فلسطين القديمة. وقد ذهب عدد من هؤلاء، بشكل أكثر تحديدا، وأهمهم (آلستروم Ahlstrom 1993)، و(طومسون Thompson†b 1992 ، 1992a)، و(وايتلام 1995b ، 1994 ، 1991) إلى ضرورة دراسة تاريخ فلسطين القديم.

وقد أسهم تحدّيهم لخطاب الدراسات التوراتية المهيمن، وتشكيكهم في الفرضيات الأساسية وفي المواقف التي ينعقد عليها الإجماع فيما يتعلق بنشوء إسرائيل، أسهم ذلك في إيجاد مناخ من الارتباك في هذا الميدان الأكاديمي مما أدى إلى المطالبة بإدخال تغيير أساسي على النموذج المتبع في الدراسات التوراتية. (ديفيز 16 ـ 12 : 1992، طومسون 1992a، وايتلام 58 : 1994، ليمحي 167 : 1994)(2). غير أن تأثير هذا الجدال، على الرغم من أن بعضهم أعلن صراحة اعتزامه دراسة التاريخ الفلسطيني، عزز من البحث المستمر عن إسرائيل القديمة وبذلك عتم بدوره على المطالبات بجدارة التاريخ الفلسطيني بالدراسة من حيث هو موضوع قائم بذاته. فادعاء كوت (1990 : المقدمة viii) أن البحوث الأخيرة عن إسرائيل المبكرة أدى إلى «فهم جديد» و«آفاق جديدة» (new horizon)(*) حيث ركز على مجموعة الافتراضات المتفق عليها، بدلا من التركيز على الاختلافات، إنما هو جانب من الحقيقة. تثار الأسئلة حول ما تمثله هذه «الآفاق الجديدة» في حقيقة الأمر وإلى أي مدى تمكنت من الإفلات من قبضة خطاب الدراسات التوراتية، الذي هيمن على البحث التاريخي معظم هذا القرن. والشيء الأساسي لهذه «الافتراضات المتفق عليها» في آفاق كوت Coot الجديدة هو الربط المستمر بين إسرائيل وتحول أنماط الاستيطان الذي حدث في منطقة التلال في فلسطين خلال فترة الانتقال بين أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي. وقد نبه (طومسون 1992a) إلى أن كل الأبحاث في الواقع منذ آلت Alt وأولبرايت Albright قد أخذت هذا الربط (أي بين إسرائيل وتحول أنماط الاستيطان) على أنه شيء مسلم به. وعلى الرغم من أن هذه الدراسات الجديدة تذهب إلى أن تحول أنماط الاستيطان في إسرائيل في العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي هو شيء داخلي ولم تتسبب

به دوافع خارجية، فإنها تظل مقيدة بخطاب الدراسات التوراتية المهيمن. إن الاستنتاج القائل إن إسرائيل كانت عاملا محليا indigenous في فلسطين يعتمد على تفسير الثقافة المادية في المواقع القروية في منطقة التلال الوسطى وفي الأطراف. إلا أن الاستنتاج السابق أن سكان هذه المواقع «إسرائيليون» لا يمكن أن نصل إليه من خلال قراءة المعطيات الأثرية وإنما من الافتراض المهيمن المستنبط من التوراة العبرية، والذي مفاده أن إسرائيل استوطنت خلال هذه الفترة في مناطق معينة من فلسطين، وتحديدا في منطقة التلال الوسطى.

فخطاب الدراسات التوراتية هو الذي قرر أن هذه المستوطنات يجب أن تُقرن بإسرائيل، وبها وحدها. وقوة هذا الخطاب تستمر في تحديد «الأفق» (horizon) وماذا يمكن أن نجده عندما نصل إلى هذا الأفق. إن الطبيعة المهيمنة لهذه «المسلمات المتفق عليها» تتجلى في عناوين الدراسات العلمية التالية: «إسرائيل المبكرة: دراسات أنثروبولوجية وتاريخية في المجتمع الإسرائيلي قبل الملكة»، و«من كان الإسرائيليون»، و«نشوء إسرائيل المبكرة من منظور تاريخي»، و«أيديولوجية المستوطنات الإسرائيلية». تدل كل هذه العناوين على أن إسرائيل هي مركز الاهتمام، وأنها موضع اهتمام الأبحاث «الجديدة». تظل هذه الدراسات حبيسة الخطاب التوراتي المهيمن، كما أنها مكبلة بحجة تدور في حلقة مفرغة وتتحكم في تشكيل استراتيجيات البحث واكتشافاته. وجميع هذه الأعمال ظلت تبحث عن إسرائيل القديمة على الرغم من أنها تتخذ مظهرا نقديا جذريا. وبدلا من الوصول إلى «آفاق جديدة» بالفعل، فإن هذه الدراسات تمثل النقطة النهائية للبحث التقليدي عن إسرائيل القديمة، ذلك البحث الذي لم يُعترف بفشله إلا في الآونة الأخيرة، وفي بعض الأوساط على الأقل. لن يمكن لهذا الجدال أن ينتقل إلى استطلاع إعطاء صوت للمطالب الفلسطينية البديلة بالماضي إلا بعد التخلص من الأفكار المستوحاة من التوراة والتي تربط التحول في الاستيطان في فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي وتقرنه بإسرائيل. ولكن قبل الشروع في دراسة تاريخ المنطقة بعيدا عن قيود المنهج المستوحى من الدراسات التوراتية، ينبغي أن نجيب على سؤال: لماذا فشل هذا الاتجاه الجديد في البحث؟

إن الأعمال النقدية لكل من آلستروم وليمحي وكوت ووايتلام وطومسون، وجميعهم متخصصون في التوراة وليسوا علماء آثار، تعتمد على تفسيرات للمعطيات الأثرية المتزايدة من المنطقة. ومن الضروري أن نعمل حسابا لأركيولوجية إسرائيل القديمة كيما نتمكن من فهم القيود التي انحصرت فيها أعمالهم والتي كانت عمليا عقبة في وجه تحقيق التاريخ الفلسطيني. إن نشر دراسة فينكلشتاين عن المستوطنات الإسرائيلية (1988) باللغة الإنجليزية، وهي الدراسة التي احتوت على معطيات مسحية جديدة مهمة مستمدة من التنقيب الأثري، هذه الدراسة ينظر إليها عادة على أنها تدفع دراسة جذور إسرائيل إلى الأمام وذلك بتوفير معلومات لها أهميتها في تقييم أعمال آلستروم وليمحي وكوت ووايتلام. إلا أن عمل فينكلشتاين ذاته يتقيد بدوره بخطاب الدراسات التوراتية الذي يؤدي إلى استمرار الاعتقاد بالمسلمات الأساسية لأركيولوجية إسرائيل التي حددت مسار هذا البحث. فالبحث الأركيولوجي، وهو جزء أساسي في الدراسات التوراتية منذ أولبرايت، يضم في داخله مجموعة قوية من المسلمات اللاهوتية والسياسية. أما البحث اللاهوتي الذي عبرت عنه بشكل أكثر وضوحا حركة اللاهوت التوراتي فقد اعتمد على الاستكشاف الأثري (الأركيولوجي) للوصول إلى إثبات مادي للأعمال الإلهية في التاريخ. وقد دعم ذلك وأكمله البحث الصهيوني عن إسرائيل لإثبات الحق في الأرض، الذي تعزز منذ إنشاء دولة إسرائيل الحديثة عام 1948م. وقد تحالفت المسيحية الإنجيلية والمحافظة مع الصهيونية السياسية والدينية في بحثها عن الحقيقة المادية لإسرائيل القديمة. وسوف يساعد النظر إلى آثار إسرائيل القديمة، أو على أقل تقدير إلى بعض النماذج الدالة على المسلمات الكامنة في الأعمال الحديثة، على توضيح سبب إخفاق الأعمال النقدية لآلستروم وليمحي وكوت ووايتلام وطومسون في التحرر من إسار الخطاب الذي هيمن على استراتيجيات ونتائج البحث في تاريخ المنطقة في فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي. إنه خطاب كان للبحث عن إسرائيل القديمة موقع الصدارة فيه إلى حد أنه همش الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني بل أسكته فعلا.

آثار إسرائيل المبكرة

لن نبالغ إذا قلنا إن احتمال تحقيق دراسة التاريخ الفلسطيني في هذه الفترات، بوصفه موضوعا قائما بذاته، أصبح ممكنا ـ ولو عن غير قصد ـ من جراء التحول الملحوظ الذي حدث في السنوات الأخيرة في طبيعة الأبحاث الأثرية في المنطقة. لقد أصبح هذا ممكنا بسبب تغيير بؤرة التركيز لدى علماء الآثار من الاهتمام المقتصر على التلال الحضرية المدنية في بداية التنقيبات الأثرية في المنطقة، إلى اهتمام أكثر اتزانا بأعمال المسح الميدانية بالإضافة إلى التنقيبات الأثرية لمناطق حضرية أكبر ومواقع ريفية أصغر ينتمي الكثير منها إلى عصر واحد. لن نعرض هنا لأسباب الاهتمام السابق بالمواقع الأثرية الحضرية وهي موثقة جيدا في دراسات أخرى، لكن يمكننا فهم هذه الأسباب في ضوء الحاجة الماسة إلى التوصل إلى نتائج لافتة للأنظار كي تتمكن هذه المشروعات المكلفة من الحصول على التمويل اللازم. غير أن هذا الاتجاه في البحث كان يتوافق أيضا مع اهتمامات «علم الآثار التوراتي» الذي سعى إلى إلقاء الضوء على التراث التوراتي، وذلك عن طريق ربطه بالحقائق الملموسة للماضي. فالنصوص التوراتية كثيرا ما تشير إلى مراكز حضرية كبرى أو تذكر شيئا عن احتلالها أو تدميرها، ولذلك كان طبيعيا أن يركز «علماء الآثار التوراتيون» على مثل هذه التلال الأثرية لإثبات أحداث الماضي ولإبراز حقائق إسرائيل القديمة والتوراة. إضافة إلى ذلك كان من الطبيعي البحث عن الدلائل التي تؤكد ذلك الوجود في المناطق الحضرية الرئيسية، وهي الدلائل التي تثبت بوضوح وجود دولة إسرائيل في الماضي، حسب اعتقادهم.

إلا أن التحول الجوهري من التنقيب في مواقع أحادية إلى إبداء اهتمام أكبر بأعمال المسح الميدانية، قد أخذ يقدم في الآونة الأخيرة معلومات عن الاستيطان تساعد على دراسة نماذج وإيقاعات الحياة الفلسطينية على مدى القرون[3]. هذا المنهج يسمح للمؤرخ بسرد أوجه الاختلاف والشبه في هذه الإيقاعات على مر السنين. وينطبق على ذلك ما أشار إليه رينفرو وواغستاف Renfrew & Wagstaff (1 : 1982) حين قالا: «إن الأنماط المكانية والزمانية للحضارة الإنسانية لا تظل ثابتة أبدا، وبخاصة إذا ما نظرنا إليها من منظور طويل الأجل. فمن الممكن اكتشاف تغيرات فيها: إذ تظهر

الحضارات ثم تزدهر ثم تذبل». وقد توحي التحولات البطيئة وغير الملحوظة في الاستيطان، عندما ينظر إليها في مدى بضعة عقود، بأن المجتمع ثابت على حاله. إلا أن أنماط التغيير تصبح أكثر وضوحا عندما ينظر إليها على مدى قرون. وفي مناسبات أخرى، تحدث فورات فجائية من النشاط يصحبها هبوط مفاجئ أو توسعات أو تغيرات في الاستيطان في المنطقة. ينبغي على المؤرخ أن يكون واعيا بالمستويات المختلفة للزمن في تاريخ الاستيطان ويجب عليه أن يحلل، ويقارن ويفاضل بين المراحل المختلفة للاستيطان حتى يقترب من فهم القوى والعوامل المؤثرة في تاريخ المنطقة[4]. ويمكن أن يصدق على فلسطين تأكيد سنودغراس Snodgrass لأهمية أعمال المسح الأثرية بالنسبة إلى البحوث الأثرية لليونان:

إن أعمال المسح الأثرية تمكن الباحثين من الإسهام الفعال في فرع مختلف من الدراسة التاريخية يختلف عن ذلك الفرع التقليدي والسياسي الموجه نحو الحدث (event oriented)، بل إنه يمكّنهم من أن يقوموا بذلك، لا على مستوى موقع واحد محدود فحسب، وإنما على مستوى الإقليم كله. وهذا يتيح لهم استكشاف القطاع الريفي في الحياة اليونانية القديمة، وهو القطاع الذي تعالجه المصادر اليونانية القديمة معالجة ناقصة جدا، مما يصحح انحياز علم الآثار اليوناني إلى المناطق الحضرية في القرن الماضي. وهذا يؤدي إلى العثور على القليل من الكشوفات المحفوظة، ولكنه يسفر عن كم هائل من المعلومات التي يمكن استغلالها بلا حدود.

(سنودغراس Snodgrass **99: 1987)**

لكن على الرغم من أن المعلومات التي تستخلص من المسح والتنقيب الأثري هي شيء أساسي لدراسة الاستيطان الفلسطيني، فإننا لا نجد أمامنا مع الأسف، وهذا شيء لا مفر منه، إلا سلسلة من النصوص المجتزأة. ونحن نصف هذه النصوص بأنها مجتزأة لأنه لم يتم مسح جميع المناطق الفرعية بالتركيز نفسه، ولأن المعلومات الجديدة التي أتى بها هذا التحول في الاستراتيجية من التنقيبات الأثرية التي ركزت على التلال لم يبدأ استغلاله إلا مؤخرا في المؤلفات التاريخية الشاملة وفي توليد نظريات جديدة. الأهم من ذلك هو أن هذا التحيز[*2] تحكمه المسلمات السياسية واللاهوتية التي تخطط وتفسر مثل هذه المشروعات. على الرغم من ذلك، فإن هذا الاتجاه هو الواعد أكثر من غيره من الاتجاهات بالنسبة للمؤرخ الذي يحرص كل الحرص على فهم طبيعة الاستيطان والتنظيم والاقتصاد

في المجتمع الفلسطيني القديم. إن كمية المعلومات تتزايد بوتيرة عالية، ولكن يظل صحيحا أن المؤرخ سيواجه دائما بمعلومات مجتزأة، مهما كان شمول التنقيبات الأثرية.

يثير سنودغراس Snodgrass (103 ـ 102 : 1987) سؤالا مهما حول الفروق في أساليب المسح: المسح المركّز، والمسح الواسع النطاق. أما المسح المركز أو المكثف فمن الواضح أنه يحتاج إلى عمالة أكبر وهو أكثر تكلفة بالقياس إلى حجم المنطقة التي يمكن استكشافها. وقد اختار سنودغراس النوع الأول بناء على معلومات تفيد أن أعمال المسح المكثفة في اليونان كشفت عن كثافة في المواقع كانت أعلى بنسبة خمسين مرة أو أكثر من أعمال المسح المتسعة النطاق. ويلاحظ أن هذا يثير سؤالا مهما حول الكمية الكبيرة من المعلومات التي يمكن أن تضيع في أعمال المسح المتسعة النطاق. وهذا يشكل عائقا أساسيا لدراسة أنماط الاستيطان والتحولات في التاريخ الفلسطيني، إذ إن المؤرخ يضطر في هذه الحالة إلى التعامل مع معلومات لا تسمح إلا بتعميمات كبيرة عن الاتجاهات السكانية والاقتصادية والاستيطانية في المنطقة. وعلى الرغم من أننا نتعامل مع قاعدة معلومات متوسعة فإن الصعوبات العملية والمادية سوف تعوق بشدة استكمال أعمال المسح المكثفة للمنطقة كلها. وأفضل ما يمكن أن نتوقعه هو مزيج من الدراسات المكثفة والواسعة النطاق حتى تتم مقارنة المعلومات، وتعديلها عند الضرورة. يشير سنودغراس إلى قصور مهم آخر:

في محاولة فهم وشرح الماضي الكلاسيكي(*3) تقدم أعمال المسح surveys بُعدا جديدا كل الجدة ويبشر بنتائج قيمة. إنه بعد يكشف بوضوح عن علاقة أخرى، ركزت عليها بعض الأعمال غير التقليدية التي ظهرت مؤخرا، وإن كانت قد أهملت قبل ذلك، أعني العلاقة بين الوثائق التاريخية والوقت الراهن. كتب لويس بنفورد Lewis Binford قائلا: «إن الوثائق الأثرية موجودة معنا في الحاضر... وتعليقاتنا عليها تنتمي إلى زماننا الراهن وليست عبارات تاريخية». وقد تكون حقيقة هذه الملاحظة أكثر وضوحا بالنسبة للقائم بأعمال المسح الأثري الذي يدرك بوضوح هشاشة معطياته الخام، وعلاقتها بالنشاط الحديث الموسمي أو سريع الزوال ـ نقول إن علاقة هذه الملاحظة بالقائم بالمسح أوضح من علاقتها بالمنقب عن الآثار، إذ إننا جميعا متفقون بدرجة ما على الوهم القائل إن النزول المتزايد في أعماق الأرض هو رحلة راجعة إلى الماضي. لكنها ليست كذلك: فالرواسب الطفيفة التي كشف عنها النقاب كلها بدأت حياتها كرواسب سطحية،

مهما كانت الفترة قصيرة الأمد، وعلى هذا كانت عرضة لبعض عوامل التآكل، والإزاحة والتفرق ونتيجة لهذا تنتقد المعلومات حول أعمال المسح السطحية، هذا إذا لم نقل شيئا عن التأثيرات المتعددة للعوامل التالية للترسيب post depositional عندما تختفي هذه الرواسب من السطح.

(سنودغراس 130 . 131: 1987)

على أن هناك ارتباطا بالحاضر أهم من ذلك ولكن سنودغراس لا يطور هذه الفكرة. ففي حالة التنقيب عن الآثار اليونانية والتاريخ اليوناني، وبرغم أنها كانت هدفا للتصورات الأوروبية المتعصبة نفسها، فإنها لم تعان مثلما عانت فلسطين من البحث عن «إسرائيل القديمة». فقد أعيق استخدام المخزون الجديد من المعلومات الخاصة بالتاريخ الفلسطيني القديم بسبب المسلمات اللاهوتية والسياسية والمهيمنة التي فرضت البحث عن إسرائيل القديمة. المفارقة هي أن الإمكانيات الجديدة لدراسة وتطوير التاريخ الفلسطيني، التي فتحتها أعمال المسح هذه قد حُجبت من جراء البحث المهيمن عن إسرائيل القديمة. وهذا المخزون الجديد من المعلومات استغلته استراتيجيات البحث نفسها التي اختلقت إسرائيل القديمة، وحددت موقعها الزمني في فترة الانتقال من أواخر العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي.

وكما أن المسلمات اللاهوتية والسياسية الملازمة للبحث عن إسرائيل القديمة قد تحكمت في تحديد استراتيجيات البحث، فإنها تحكمت أيضا في تحديد طبيعة النتائج وكيفية استخدامها. وهذا ينفي عن البحث صفة الموضوعية التي تجعله معلومات موضوعية للمؤرخ مما يمكنه من سرد قصة تعكس رؤية موثوق منها للماضي. فالمؤرخ يواجه بنصوص مجتزأة ومتحيزة بكل ما تعنيه هذه الكلمة. ولنقل مرة أخرى، إن الافتتان بإسرائيل هو الذي هيمن على علم الآثار التوراتي بحيث تم التركيز على المواقع الفرعية والفترات التي كان يعتقد أنها تلقي ضوءا على نشوء وتطور إسرائيل. إن تسلط فكرة «نشوء إسرائيل» كان معناه أن موارد علمية ضخمة ركزت على فترة الانتقال من نهاية العصر البرونزي إلى أوائل العصر الحديدي، فيما يتعلق بأعمال المسح الميدانية والتنقيبات، إذ كان يعتقد أن إسرائيل وجدت في تلك الفترة. يلاحظ أن أكثر أعمال المسح الميدانية تركيزا قد تمت في منطقة التلال الوسطى في فلسطين لأن الاعتقاد ساد، منذ آلت

وأولبرايت وبعدهما، بأن هذه هي المنطقة التي كانت فيها المستوطنات «الإسرائيلية». إن «مسح أرض إسرائيل» The land of Israel survey استمر في القيام بأعمال حيوية في مناطق مختلفة، مضيفا إلى المعلومات القيمة، بينما أعمال المسح الميدانية في الأردن قد بدأت بتزويدنا بمعلومات أساسية حول مناطق لم تكن معروفة من الناحية الأثرية حتى وقت قريب. غير أن المنطقة الساحلية من فلسطين، وهي حيوية جدا في تاريخ المنطقة، لم يتم استطلاعها ومسحها بالدرجة نفسها. لذلك من غير الممكن إجراء المقارنات بين مناطق فرعية قد تكون مهمة جدا. وقد صرح إسرائيل فينكلشتاين Israel Finkelstein، الذي أسهم بالكثير لتوفير المعلومات المسحية والأثرية، بأن المراكز الحضرية «الكنعانية» لم تقل شيئا عن «الاستيطان الإسرائيلي». (23 ـ 22 : 1988)[5]. وبالمثل فإن فينكلشتاين (123 : 1985) حدد هدف تنقيبات شيلوه Shiloh[4*] بأنه «توضيح لتاريخ الموقع قبل فترة العصر الحديدي الأول وظروف تطوره ليصبح مركزا دينيا واقتصاديا وسياسيا إسرائيليا مهما، وكذلك تحديد طبيعته خلال العصر الحديدي الأول وموقعه في نمط الاستيطان العام وكذلك النظام الاجتماعي في تلك الفترة، ومن أجل فهم الثقافة المادية لمنطقة المرتفعات الوسطى في العصر البرونزي الوسيط، وأواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي فهما أفضل». مرة أخرى نجد أن إسرائيل هي التي تهيمن على جدول أعمال البحث، وهي التي تحدد فرضيات البحث الأثري والتاريخي. لقد أثرت الدراسات التوراتية بشكل قوي في الاستثمار الأولي للمصادر الثمينة في الحفريات وأعمال المسح الميدانية، وهي السبب وراء البحث المهيمن عن «إسرائيل القديمة»[6].

يتضح هذا الانحياز في المناطق التي حصلت فيها أعمال مسح مكثفة. فقد حدث في أكثر من حالة، عندما نشرت نتيجة الأبحاث، أن تبين أن التركيز كان على العصر الحديدي، وهي فترة إسرائيل الأساسية (essential Israel). وقد كان الاهتمام الأساسي في نتائج الأبحاث ينصب على تحديد نوعية الاستيطان الإسرائيلي ومداه أو تطور المملكة. أما الفترات السابقة واللاحقة فلم يتم الاهتمام بها بما فيه الكفاية، سواء في مجال نشر نتائج الأبحاث أم في التحليل المفصل للمعلومات[7]. ينبغي أن تدرس أنماط الاستيطان وإيقاعاته، وأن تعرف أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها على

المدى الطويل. ومن المهم جدا محاولة فهم كيف يمكن تحديد موقع أو فترة من الفترات. في تاريخ الاستيطان وذلك بمقارنتها مع الفترات السابقة واللاحقة من العصر الحجري حتى الوقت الحاضر. ولن تصبح هذه المهمة ممكنة قبل استطلاع ومسح كل المناطق بقدر واحد من الاهتمام والتركيز. وما لا يقل أهمية، هو نشر جميع المعلومات المتعلقة بتلك الفترات، وليس فقط تلك المعلومات التي يهتم بها علماء الآثار التوراتيون بشكل أساسي لأنها تتعلق بنشوء إسرائيل وتطورها. فأعمال المسح الجزئية أو النشر الجزئي للمعلومات الأثرية لا تخدم أهداف هؤلاء الأخيرين لأنها تستبعد مقارنات مهمة على المدى الطويل.

لقد وصف فينكلشتاين التطورات التي حصلت في علم الآثار منذ تنقيبات أولبرايت Albright في تل الفول، بأنها «ثورة حقيقية» في مجال دراسة «الاستيطان الإسرائيلي» (20: 1988). كما أنه أسهم إسهاما كبيرا في البحث عن طريق اختياره الوقت المناسب لنشر المعلومات التي وردت في بحث له بعنوان: «مسح أرض إسرائيل» Land of Israel Survey وتنقيباته في «عزبت سرته» [5*] وشيلوه Izbet Sartah and Shiloh إلا أن ثورته على الأبحاث السابقة، مثلها مثل الأفق الجديد عند كوت Coote، ليست حقيقية بقدر ما هي ظاهرية. وهذا هو التعبير الذي يمكن أن نصف به التزايد السريع في نوعية وكمية المعلومات منذ الفترة التي ازدهرت فيها أعمال أولبرايت في هذا المجال. إلا أن الفرضيات الأساسية التي كانت دعامة البحث الأثري في المنطقة في فترة نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي لم تتغير بشكل أساسي. وإذا حدث أي تغيير، فإن هذا التغيير كان في اتجاه تقوية البحث السياسي عن حقيقة إسرائيل القديمة منذ 1948م، مما ساعد في تقوية الدوافع الدينية التي وجهت أعمال أولبرايت وعدد من علماء الآثار التوراتيين. وهكذا فإن هذه الثورة المزعومة تعاني من الارتباك نفسه الذي يعاني منه البحث عن إسرائيل القديمة واختلاقها، والمشكلات التي تنطوي عليها محاولة تحرير البحث التاريخي في المنطقة من القيود التي فرضتها عليه التوراة العبرية وخطاب الدراسات التوراتية، وهي القيود التي ظل البحث التاريخي يعاني منها طوال هذا القرن[6*]. فقد أدى التحول من البحث عن المواقع الأثرية إلى أعمال المسح الميدانية، أو إلى الجمع

بينهما - أدى إلى تكثيف وليس تخفيف البحث عن إسرائيل القديمة. فالطريقة التي استخدمت بها المعلومات، ذات الأهمية الحيوية في تحقيق التاريخ الفلسطيني لذاته، من أجل الاستمرار في البحث عن إسرائيل وإسكات التاريخ الفلسطيني - هذه الطريقة تتمثل في الصفحات الافتتاحية من دراسة فينكلشتاين. فمسلماته التي يصوغها الخطاب المهيمن تعني أن الماضي ملك لإسرائيل، مما يسكت بالفعل أي تصور بديل للماضي، ويتجلى ذلك بكل وضوح في العبارات التي يقول فيها:

«إن استيطان الإسرائيليين في القرن الثاني عشر والحادي عشر ق. م، وتحولهم من مجتمع مكون من قبائل متفرقة إلى مملكة منظمة، هو واحد من أكثر الفصول إثارة وإلهاما وفي الوقت نفسه إثارة للجدل في تاريخ أرض إسرائيل».

(فينكلشتاين 15: 1988)

وهناك دلالة مهمة للمصطلحات التي يستخدمها فينكلشتاين ولا يشرحها إلا جزئيا في أحد هوامش كتابه (هامش رقم 1, 15: 1988)، فهو يستعمل تعبير «استيطان» (بحرف كبير) Settlement لكي يشير إلى الاستيطان الإسرائيلي، بينما يستعمل التعبير نفسه بحرف صغير settlement ليعبر عن المعنى المألوف. وهذا يوحي على الفور بأن هناك شيئا خاصا في الاستيطان الإسرائيلي، بينما استيطان الفئات الأخرى لا أهمية خاصة له أو على أقل تقدير يجب ألا يلقى اهتماما بأي شكل خاص. إضافة إلى ذلك، فإن هذه الأرض هي «أرض إسرائيل». ويكتمل إنكار أي حق فلسطيني في هذه الأرض عن طريق التلاعب بمفهوم الزمان: «فالمفهوم التاريخي المعروف بـ«فترة الاستيطان» أو «فترة الاستيطان والقضاة» يرادف «الفترة الإسرائيلية المبكرة» وهو أيضا مرادف للتعريفين الأثريين: العصر الحديدي الأول «Iron I»، والعصر الحديدي المبكر «Early Iron Age»، (فينكلشتاين هامش رقم 1، 15 : 1988). ثم يضيف فينكلشتاين أن هذا مرادف للفترة الممتدة من أواخر العصر البرونزي إلى بداية فترة المملكة الإسرائيلية، «وأيًّا كانت التسمية». إن هذا التعليق الأخير يوحي للقارئ بأن فينكلشتاين يسرد بالفعل سردا واقعيا للأحداث، مؤكدا عدم وجود متنازع عليه هنا. ولكن التسميات، كما رأينا، هي شيء جوهري. كما أن الألفاظ ذاتها ليست حيادية: فهي تعبيرات تنطوي ضمنا على ادعاءات في الأرض والماضي وتنكر ادعاءات منافسة

أخرى. إن الإشارة إلى «فترة الاستيطان والقضاة» تدل فورا على هيمنة التقسيمات الزمنية (Periodization) كما جاءت في التوراة العبرية، وتنبه القارئ إلى احتمال أن التراث التوراتي كان له في تأويل المعلومات الأثرية دور يفوق بكثير ما يبدو للوهلة الأولى. كذلك فإن الإشارة إلى أن عبارة «العصر الحديدي الأول» (Iron I) وكذلك عبارة العصر الحديدي المبكر (Early Iron Age) ترادفان «الفترة الإسرائيلية المبكرة». هذه الإشارة تؤكد الفكرة القائلة إن هذا هو تاريخ إسرائيل. لكن قبل العودة إلى هذه المسألة، ينبغي فهم الطرق التي هيمنت بها أعمال المسح الحديثة على تحديد مفاهيمنا لتاريخ إسرائيل القديم، ولهذا يجب إلقاء الضوء عليها.

هناك مفارقة تتجسد في أعمال المسح التي تمت حتى الآن، فهي أساسية في البحث عن التاريخ الفلسطيني، ولكنها أيضا تعبير عن الحق (الإسرائيلي) في الأرض عن طريق رسم الخرائط والتصور المجرد لهذه الأرض. ولذا اضطلع الباحثون الإسرائيليون بأعمال مساحة في منطقة «مناشه» Manasseh (قام بها زرتال Zertal)، وإفرايم (فينكلشتاين Finkelstein)، ويهودا (أوفر Ofer)، وفي الجليل الغربي، قام بها (فرانكل Frankel) والجليل الجنوبي (غال Gal). مرة أخرى، نجد أن الاصطلاحات مهمة جدا نظرا إلى الادعاء بأن أعمال المسح هذه تتعلق «بمناطق قبلية» تتجسد في أسماء منسّى، وإفرايم، ويهودا، هذه التسميات تعزز البحث عن إسرائيل القديمة وتدعم الاعتقاد بأن هذه هي أرض إسرائيل. ويؤدي تركيز الجهود على الضفة الغربية المحتلة إلى دعم البحث عن إسرائيل القديمة كما يتخيله التراث التوراتي. إنه ادعاء بالحق في الأرض عن طريق إطلاق الأسماء ورسم الخرائط. فمن أول الخرائط التي قام بها كوخافي Kochavi في منطقة التلال الوسطى والجولان خريطة كان عنوانها: «يهودا، والسامرة والجولان: مسح أثري 1967 ـ 1968»: «Judea, Samaria, and Golan: Archaeological Survey 1967 ـ 1968». إن يهودا والسامرة هذه هي يهودا والسامرة التي كان يرددها مناحم بيغن، والتي تجسد في اللغة السياسية المعاصرة، الادعاء التاريخي بالحق في الإقامة في أرض «إسرائيل التوراتية». فاكتشاف المواقع «الإسرائيلية» في هذه المنطقة الحساسة سياسيا لابد أن تكون له نتائج سياسية في الحاضر. وتجدر الإشارة إلى أن جميع المناطق التي يعتقد أنها

كانت «كنعانية»، خاصة في منطقة السهول الساحلية، لم تكن هدفا لمثل هذا البحث المركز. بل إن فينكلشتاين (23 ـ 22: 1988) يعترف بالاستعمال الانتقائي للمعلومات الأثرية في تحليله فيقول: «لقد عبرنا سابقا عن الرأي القائل إنه مهما كانت الدلائل كبيرة عن وجود تلال[(*7)] (Mounds) كنعانية كبيرة، ومهما كانت تسهم في فهم أفضل للظواهر المختلفة في نهاية العصر البرونزي، فإنها لن تساعد كثيرا في دفع عملية دراسة الاستيطان الإسرائيلي إلى الأمام». إن احتلال أرض إسرائيل هو المهم، أما الآخرون الذين سكنوا في هذه الأرض أو ادعاءاتهم في تلك الأرض فليست ذات أهمية. ولا يصح استعمال كلمة استيطان Settlement في حالتهم كما أنه لا أهمية لهم في فهم الاستيطان الإسرائيلي. فانحياز البحث الأثري تحدده المواقع التي يتم التنقيب عنها أو نوعية المناطق التي يتم استكشافها ومسحها: فما يجري البحث عنه يحدد ما يتم الاهتداء إليه، إلى حد بعيد. إنها عملية تضفي الشرعية على بعض أوجه الماضي، لا على الأوجه الأخرى: وهي تستهدف تحديد موقع إسرائيل ولا يهمها إيضاح التاريخ الفلسطيني بشكل عام.

إن تحديد هوية المواقع «الإسرائيلية» والآثار المادية «الإسرائيلية» جزء أساسي، سواء بطريقة واعية أو غير واعية، من التخطيط السياسي لعلم الآثار. كما أن البحث عن هذه الحقائق المادية وتحديد موقعها في أمكنة مختلفة من العالم، كما رأينا، هو عامل حاسم في بناء الهوية الاجتماعية أو تأكيدها. فاكتشاف الماضي يوفر عامل التحام يساعد على تأكيد الحاضر. (قارن رولاندز Rowlands 130 : 1994، إيلون Elon 1994).

وكاما لاحظ رولاندز (133 : 1994)، فإن «أمة بلا ماض» هو تعبير ينطوي على تناقض في الألفاظ، كما أن علم الآثار هو أحد المصادر الرئيسية للمواد الخام اللازمة لإعادة بناء ماض في ضوء الصراعات الحديثة من أجل إقامة دول قومية. ويشير إيلون (14 : 1994)، على سبيل المثال إلى أن جميع الرموز الوطنية الإسرائيلية الأساسية كختم الدولة، والميداليات والنقود وطوابع البريد، مشتقة في واقع الأمر من الآثار. فالآثار لا تقوي الشعور بالهوية وتؤكده فقط ولكنها تؤكد أيضا الحضور المادي والحق في الأرض. ومن هنا كان ذلك جانبا مهما من جوانب اختلاق إسرائيل القديمة منذ بداية التنقيب الأثري التوراتي، ولكن أهميته ازدادت منذ بدء الهجرة

الصهيونية إلى فلسطين في العشرينيات وخاصة منذ إنشاء دولة إسرائيل سنة 1948. يروي إيلون (14: 1994) قصة اكتشاف فسيفساء كنيس يهودي في مستوطنة بيت ألفا[*8] Beit-Alpha سنة 1928 أثناء بناء شبكة للري فيها. فقد ثار جدل بين سكان المستوطنة، الذين كانوا ينتمون إلى حركة «الحارس الفتى» (هاشومير هاتصعير) الاشتراكية، حول ما إذا كان يتعين إخفاء هذا الاكتشاف لكونه رمزا دينيا غير ذي أهمية. وفي النهاية، تقرر الاحتفاظ به كرمز سياسي، وكنصب تذكاري صهيوني يثبت الوجود اليهودي في الأرض ويؤكد «شرعية الادعاءات الصهيونية»[8]. وفي الخمسينيات والستينيات أصبح علم الآثار أكثر من مجرد تسلية للهواة، وأصبح هاجسا وطنيا (إيلون Elon 16: 1994، سيلبرمان Silberman 136 ـ 78: 1989). ولكن هذا الهاجس المتعلق بالبحث عن إسرائيل القديمة دعم الادعاءات الصهيونية في الأرض وساعد في صوغ إحساس بالهوية المشتركة فيما بين شعب متباين. إن البحث الأثري حول فترة أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي خلال السنوات الأخيرة ما هو إلا حكاية تروى حول امتلاك الماضي. وقد تسترت هذه الحكاية المروية تحت قناع الموضوعية والبحث العلمي مما يخفي قوة التخيل الكامنة فيها (انظر مثلا بوند وجيليام Bond and Gilliam 1994). وهكذا فإن بحث الدراسات التوراتية الغربية المدفوع بدافع ديني، الذي يرمي إلى تأكيد الأعمال الإلهية في التاريخ، تلاقى بطريقة وثيقة مع البحث عن إسرائيل الحديثة المدفوع بدوافع سياسية. فتحوُّل علم الآثار بحيث يخدم الحاضر قد أحرز في إسرائيل تقدما يفوق ما أحرزه في أي مكان آخر في العالم الحديث[*9]. ويعد هذا تعبيرا عن حاجة دولة ـ المدينة إلى إثبات شرعيتها وامتلاكها الحاضر عن طريق اكتشافها لذاتها في الماضي.

إن البحث عن إسرائيل القديمة قد اكتسب طابع الحقيقة عن طريق مادية عملية التنقيب عن الآثار. ولكن المفارقة الحقيقية تكمن في أن الانتقال إلى أعمال المسح الميداني هو الذي فتح الباب لإمكان إحراز تقدم في إثبات حقيقة التاريخ الفلسطيني، والإفصاح عنه، على حين أن النتيجة العملية لهذه الأعمال كانت ترسيخ وجود إسرائيل القديمة في الماضي، وخلق حضور حقيقي لها من خلال «حقها التاريخي» في الأرض. وقد أضافت أعمال

المسح المكثفة الأخيرة قائمة ضخمة من المواقع التي عززت «حقيقة» إسرائيل. فكيف يمكن استبعاد هذا التاريخ على أنه تاريخ متخيل إذا كانت الحقائق الملموسة للحضور والامتلاك واضحة جدا في أعمال المسح عند كل من فينكلشتاين، وغال Gal، وزرتال Zertal، وفرانكل Frankel، وأوفر Ofer؟ أما وضع قوائم بمئات من مواقع العصر الحديدي الأول وتحديدها بأنها إسرائيلية، وخاصة في منطقة المرتفعات، أي منطقة «يهودا والسامرة» المعاصرة، فلم يؤد إلا إلى تأكيد حق إسرائيل في الأرض في الماضي وفي الحاضر. أي أن الدراسة الأثرية لإسرائيل القديمة قد أكدى بالفعل، في نظر معظم الباحثين، أن الماضي هو ملك لإسرائيل.

إن الاعتراف بأن مثل هذا الاستدلال على حقيقة وجود إسرائيل في الماضي هو في صميمه استدلال يدور في حلقة مفرغة. هذا الاعتراف هو وحده الكفيل بأن يوضح أن تفسير المعطيات التي تقدمها أعمال التنقيب والمسح الأثريين قد أدت إلى اختلاق ماض متخيل. ويمكننا أن نضرب مثلا على ذلك منذ أول مسح كبير لمنطقة الجليل الأعلى قام به أهاروني Aharoni في الخمسينيات. فقد اكتشف أهاروني عددا من المواقع الصغيرة المتقاربة تقاربا وثيقا وحدد زمنها بأنه الفترة الانتقالية من العصر البرونزى المتأخر إلى أوائل العصر الحديدي، وذلك بناء على مجموعات الأواني الفخارية في خربة الطُليل[*10] Khirbet El-Tuleil، (هورفات هارسيم Horvat Harashim بالعبرية). وبناء على ذلك استنتج أهاروني أن «هذه الموجة من الاستيطان من بداية العصر الحديدي هي موجة إسرائيلية» (149 : 1957). لاحظ أنه يشير إلى موجة من الاستيطان، ويحاكي الفرضية الرئيسية، المنتشرة في ذلك الوقت، وهي أن التغير الاجتماعي كان نتيجة موجة من الهجرات السامية البدوية القادمة من الخارج. إلا أن النقطة الجوهرية هنا هي أن ذلك الاستنتاج، المأخوذ من قراءة للتراث التوراتي بدلا من أن يكون مبنيا على دلائل الاكتشافات الأثرية وحدها، يسير في خطى آلت Alt وأولبرايت Albright في اعتقادهما أن مواقع العصر الحديدي الأول تلك يجب أن تكون إسرائيلية. وهذا استدلال يدور في حلقة مفرغة كي يحافظ على مفهوم الهوية والأرض: فتعريف الثقافة الإسرائيلية والمواقع الإسرائيلية تم تحديده بواسطة علم الآثار، ولكن التوراة العبرية هي التي تحدد المواقع التي كانت

إسرائيلية خلال فترة العصر البرونزي المتأخر، والمواقع التي كانت في تلك المناطق إسرائيلية، والآثار المادية الثقافية الإسرائيلية تحدد على أنها الثقافة المادية في المواقع الكائنة في المناطق التي تحددها التوراة العبرية بأنها إسرائيلية، وأخيرا فإن اكتشاف هذه المواقع يؤكد تاريخية الروايات التوراتية. إن الجدل القائم ضمن علم الآثار لم يهتم بهوية السكان، فهذه كانت مسألة مسلما بها وواضحة حتى عهد قريب. أما الاهتمام فقد تركز على تحديد تواريخ مواقع معينة واتجاه الاستيطان[9]. ولن يمكننا أن ندرك بوضوح النتائج الكاملة للمعلومات الأثرية في الفترة الأخيرة إلا بعد الاعتراف بأن الجدل يدور في حلقة مفرغة. لكن قوة خطاب الدراسات التوراتية هي التي عملت على إخفاء هذه الدائرة المفرغة.

لقد أكدت التقارير العديدة المتعلقة بأعمال المسح والتنقيب عن مواقع مستوطنات العصر الحديدي الأول، بنسب متفاوتة، على الاستمرارية بين حضارة نهاية العصر البرونزي، وبخاصة المجموعات الخزفية، والمكتشفات الأخرى في هذه المواقع. أما أي تصور مختلف للماضي يحاول فهم كل المعلومات ذات العلاقة بالموضوع، وبخاصة تلك التي لا تنسجم مع التصورات المهيمنة، فقد ظل مكتوما، أو أعطيت له مكانة هامشية في هذا الفرع من المعرفة. لقد احتاج عدد لا يستهان به من الباحثين إلى وقت طويل لكي يصلوا إلى النتيجة القائلة إن الدلائل تشير إلى حدوث تطور من الداخل. إن خطاب الدراسات التوراتية، وشبكة الارتباطات والمسلمات التي تفرعت عنه وعززتها المعتقدات الدينية والسياسية، هذا الخطاب وتفرعاته كان من القوة بحيث ساد الاعتقاد بأن تلك المواقع يجب أن تكون مرتبطة بإسرائيل. ولكن النقاش الحاد حول وجود نماذج مختلفة لجذور إسرائيل ورد الفعل العدائي الذي قوبلت به الأفكار التي تقترح وجود عوامل وأصول محلية على هيئة ثورة فلاحية، لم يؤديا إلا إلى مزيد من التعتيم على المسألة الأهم المتعلقة بالنتائج بعيدة المدى للمعلومات الأثرية التي نشرت حديثا.

إن القبضة الحديدية لخطاب الدراسات التوراتية الذي يتحكم في التفسير ويمنع الباحثين من الإفلات من أسر النماذج المهيمنة والمسلمات المسيطرة تتضح في مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأعمال الأثرية المنشورة. من المفيد البدء بعمل فينكلشتاين Finkelstein الرئيسي (1988) عن النتائج

التي استخلصها من «مسح أرض إسرائيل» Land of Israel Survey، والتنقيبات المرافقة في عزبت سرته وشيلوه (Izbet Sartah and Shiloh). هذا العمل يعد الآن أشمل عرض وتفسير للدلائل الأثرية المتعلقة بنشوء إسرائيل وهذه أساسية للبحث المستقبلي في المنطقة. يبدو للوهلة الأولى أن فينكلشتاين يتمكن من الإفلات من القبضة المنهجية للتوراة العبرية، التي صبغت الأبحاث السابقة بصبغتها. فهو يرفض فشل «علم الآثار التوراتي التقليدي» في إعادة بناء «عملية الاستيطان الإسرائيلي». وعلى الرغم من اعترافه بأهمية التوراة العبرية لدراسة تاريخ إسرائيل، فهو يعتقد أن سِفر يشوَّع Johsua، «المصدر التوراتي الرئيسي» الذي كتب بعد عدة قرون، يقدم فهما عن الاستيطان الإسرائيلي في نهاية فترة المملكة، أكثر من كونه سجلا معاصرا للفترة الانتقالية من نهاية العصر البرونزي المتأخر إلى أوائل العصر الحديدي (22: 1988، انظر أيضا 56: 1991). وهكذا يبدو وكأنه يطعي أفضلية منهيجة لتفسير المعلومات الأثرية: أما تأثيرات هذه المعلومات في فهم الروايات التوراتية فلا يمكن استخلاصها إلا بوصفها خطوة ثانوية في استراتيجية البحث.

لكن المحك الحقيقي لهذه الاستراتيجية يتمثل في معالجته لموضوع «الهوية الإسرائيلية» والمعنى الدقيق لتعبير «إسرائيل» في إطار علم الآثار. يعتقد فينكلشتاين (27: 1988) أن تكوين الهوية الإسرائيلية كان «عملية طويلة ومتشابكة ومعقدة»، لم تكتمل إلا في بداية فترة المملكة. ومع ذلك فإن تعريفه للهوية الإسرائيلية يسبق مراجعته وتحليله للمعلومات الأثرية التي يسفر عنها المسح والتنقيب في جميع مناطق البلاد. ومعنى ذلك أن استراتيجية البحث المزعومة قد انقلبت رأسا على عقب ونسفت:

> وهناك مرحلة وسطى مهمة لبلورة الهوية الإسرائيلية ترتبط بتكوين مراكز مقدسة تتجاوز نطاق القبيلة في فترة القضاة. أهم تلك المراكز كانت موجودة في شيلوه Shiloh كما أوضحت التوراة في سِفر صموئيل الأول وهذا يعد باعتراف الجميع عملا تاريخيا.
>
> **(فينكلشتاين** Finkelstein **27: 1988)**

إن الدلائل الأثرية التي عرضها فينكلشتاين في تقريره التمهيدي حول تنقيبات شيلوه Shiloh (234 ـ 205: 1988)، لا تؤيد استنتاجاته الجريئة التي تفيد أن شيلوه كانت «مركزا مقدسا يتجاوز نطاق القبيلة» أو أن هذا الموقع

لعب دورا حاسما في بلورة الهوية الإسرائيلية. إن دليله على وجود هذا المركز المقدس هو الأبنية ذات الطوابق المتدرجة في المنطقة ج (C) التي يعتقد أنها «تدل على الطابع المادي لهذا المعبد المقدس» (234: 1988 قارن أيضا 170 ـ 167 : 1985a). يعتقد فينكلشتاين أن هذه الأبنية لم تكن «بيوتا عادية»، وهي تمثل الأبنية الرسمية الوحيدة التي تم العثور عليها في موقع استيطاني «إسرائيلي». لكن (ديفر Dever 82: 1991) يرفض هذا الزعم قائلا إنه «لا يزيد عن أن يكون تفكيرا بالتمني Wishful Thinking، غير جدير بتلك الواقعية الصارمة التي يعبر عنها فينكلشتاين في مواضع أخرى». إن محاولة الكشف عن آثار المعبد في شيلوه محكومة بقبوله لمكانة ذلك المعبد في التراث التوراتي في سِفر صموئيل، إلا أن الدلائل الأثرية هزيلة للغاية، كما يشير ديفر. على الرغم من ذلك، يعتقد فينكلشتاين أن هذا الموقع لم يكن معبدا وإنما كان «مركزا مقدسا يتجاوز القبيلة». ما الذي يشير إلى مثل هذا الاستنتاج في السجل الأثري أو أي دليل ينبغي على المنقب عن الآثار أن يجده حتى يبرر مثل هذا الزعم؟ يتضح من استراتيجية بحث فينكلشتاين أن التراث التوراتي له أولويات منهجية. ذلك لأن قبوله للمكانة التي ينسبها سِفر صموئيل إلى شيلوه يجعل لديه ميلا مسبقا إلى أن ينظر إلى الأبنية ذات الطوابق المتدرجة في المنطقة ج (C) على أنها الآثار الباقية لهذا المعبد. وفضلا عن ذلك فإن قبوله النظرية القائلة إن إسرائيل هي تنظيم قبلي يدل على تأثره بالتراث التوراتي أكثر من تأثره بنتائج المعلومات الأثرية. هذا الادعاء ينطوي على افتراض صريح بأن «إسرائيل» كانت نوعا من التنظيم القبلي والوحدة الدينية. إن تأكيده أن «الجميع متفقون» على أن سِفر صموئيل الأول هو «عمل تاريخي» لا يعكس اتجاهات البحث الحديثة حول هذا النص في السنوات الخمس عشرة الأخيرة[10]. إن القبضة الخانقة لخطاب الدراسات التوراتية واضحة تماما في سلسلة مسلماته التي تسيطر، والتي لها أولوية منهجية، على تفسيراته للمعطيات الأثرية. يتجلى هذا في استعماله للتقسيم الزمني المستوحى من التوراة حول «فترة القضاة». فإطلاق التسميات بهذه الطريقة هو تأكيد لادعاءات إسرائيل في الماضي مما يعوق دراسة المعلومات الأثرية لفهم العمليات المؤثرة في تحول الاستيطان الذي حصل في المجتمع الفلسطيني في نهاية العصر البرونزي وبداية العصر

الحديدي.

كذلك فإن تفسير اكتشافات غال Gal التمهيدية في كتاب فينكلشتاين «مسح أرض إسرائيل» Land of Israel Survey يتقيد أيضا بشبكة المسلمات المتجسدة في خطاب الدراسات التوراتية. فهو يشير إلى استيطان يساكر[*11]

Issachar، وبهذا يربط فورا تفسيراته للمعلومات الأثرية بقراءة للتراث التوارتي: فتسمية الأرض في ضوء تحديد قبلي مستوحى من التوراة هو تعبير عن ادعاءات إسرائيل بالماضي. كما أن تقريره النهائي، الذي يتضمن معلومات مسحية عن العصر الكالكوليثي Chalcolithic حتى الفترة الفارسية، يركز بدوره على الاستيطان في هذه المناطق «فيما يتعلق بالقبائل التي خصصت لها منطقة الجليل» (غال Gal المقدمةviii: 1994). وبما أنه لا يعبر عن ذلك بصراحة، فبإمكاننا استنتاج أن هذا تأكيد لحق إسرائيل في الأرض استنادا إلى أمر إلهي. يفتتح غال التقرير التمهيدي السابق ذكره بعرض مختصر للمواد التوراتية، ويشيرإلى يساكر في ضوء أعمال المسح الأثري التي أجراها في «منطقة راموت يساكر» Ramoth Issachar، التي تغطي المنطقة من وادي هارود[*12] Harod Valley في الجنوب إلى وادي جبنيل[*13] Jabneel Valley في الشمال، ومن وادي جزريل (مرج ابن عامر) في الغرب حتى وادي نهر الأردن في الشرق» (80: 1982). وعند هذه المرحلة يكون التراث التوراتي وادعاءاته قد أصبحت له الهيمنة الكاملة. يقول غال إنه «لم تكن هناك مواقع يمكن إرجاعها إلى فترة الاستيطان - ولا حتى إلى فترة العصر البرونزي المتأخر». إن تعبير «استيطان» (settlement) لا يحتاج إلى كتابته بحرف كبير أي (Settlement) كما فعل فينكلشتاين، نظرا إلى أن الافتراض المهيمن هو أن أي استيطان في هذه الفترة يجب أن يكون «استيطانا إسرائيليا»[11]. يشكل غياب الاستيطان معضلة بالنسبة لـ غال Gal: فحسب توقعاته، لو كانت هذه هي أرض يساكر كما يفترض، فإن هذا يعني أن ممتلكات إسرائيل ستكون واضحة في الآثار المادية للماضي، ولكن هذا غير مؤكد. وعلى ذلك يجد غال نفسه مضطرا إلى محاولة جعل التراث التوراتي مفهوما في ضوء هذا الغياب للآثار المادية:

أما السبب في غياب أي مواقع إسرائيلية في فترة الاستيطان في المرتفعات البازلتية فيكمن دون شك في ارتباطها بمصير المدن في السهول المنخفضة. فإذا كانت تلك المدن قد وقعت تحت

السيطرة الإسرائيلية في القرن الثاني عشر أو بداية القرن الحادي عشر ق.م، فمن المعقول أن تكون راموث[*14] يساكر Ramoth Issachar قد وقعت بدورها تحت السيطرة الإسرائيلية. وبما أن أعمال المسح التي قمنا بها لا تبرهن على أن الإسرائيليين قد استوطنوا في المرتفعات في ذلك الوقت، فمن المنطقي إذن أن نستنتج أنهم لم يستوطنوا منطقة السهول أيضا في ذلك الوقت.

(غال Gal 80: 1982)

إلا أن استنتاجاته وحججه غير مقنعة. فالقوة الدافعة لها هي المسلمات الأساسية المستوحاة من التراث التوراتي، ومفادها أن أي استيطان في هذه الفترة ينبغي أن يكون استيطانا إسرائيليا. يفترض غال أنه لو كان الإسرائيليون مسيطرين على زمام الأمور في المدن، لكانوا استوطنوا المناطق المرتفعة المطلة على هذه المدن. لكن استدلاله هذا يدل بوضوح على الأسلوب الذي يتم به إسكات التاريخ الفلسطيني بشكل فعال، فهو لا يطرح أبدا السؤال التالي: لماذا لم يتوسع سكان المدن الفلسطينيون غير الإسرائيليين في منطقة المرتفعات. يبدو من وجهة نظره أن هذا السؤال لا ينبغي إثارته إلا فيما يتعلق بإسرائيل. أما الحالة الأخرى فلا تشكل معضلة بالنسبة لـ غال Gal: فالتاريخ الفلسطيني لا ينبغي أن يُسمح له بإسماع صوته.

يحاول غال أن يثبت صحة استنتاجاته بعرض موجز لمواقع السهول، مؤكدا أن الإسرائيليين لم يكونوا يسكنونها. وهكذا يتضح إلى أي حد كانت تفسيراته للدلائل متسقة ومنطقية. ففي حالة مجدّو (تل المتسلم) Megiddo، يستنتج غال أنه على الرغم من اكتشاف الأواني ذات الحواف المقلوبة collared-rim ware في طبقة (6) (Stratum VI) في العفولة، فإن هذا لا يكفي لاستنتاج أن تلك الطبقة تدل على وجود قرية إسرائيلية، وبخاصة عندما تدل المؤشرات الأخرى على استمرارية التراث الكنعاني. (غال Gal 80 :1982). إلا أن الغياب «اللافت للنظر» للأواني ذات الحواف المقلوبة في الطبقة (3أ) IIIA في العفولة، بالإضافة إلى وجود مجموعة خزفية «لها السمات المميزة نفسها لخزف أواخر الفترة الكنعانية» يؤكد أن هذا الخزف ليس إسرائيليا. (غال Gal 82 :1982). فغياب الأواني ذات الحواف المقلوبة في أحد المواقع يؤكد أن هذا الموقع لم يكن إسرائيليا، ولكن وجود مثل هذه الأواني في موقع آخر ليس كافيا لتأكيد أن هذه المواقع كانت إسرائيلية. كم من الأواني ذات الحواف المقلوبة ينبغي أن تكتشف حتى يتأكد الوجود الإسرائيلي؟

فالعامل المهيمن في تحديد إثنية (ethnicity) السكان في المواقع الأخرى في الوادي مثل تل قادش[*15] Tel Kedesh، تل قيري[*16] Tel Qiri، تل قيشيون[*17] Tel Qishion، وتل منوراه[*18] Tel Menorah، هو استمرارية وجود مجموعات خزفية في العصر البرونزي المتأخر. يحاول غال بعد ذلك أن يربط نتائج كشوفه في أعمال المسح بإعادة تفسير التراث التوراتي فيما يتعلق بيساكر. فعدم ذكر يساكر في قصة ملاحقة جدعون Gideon لشعب مِدّين (Midianites) أو معركة دبورة[*19] Deborah (سفر القضاة 4) يُنظر إليه على أنه تأكيد لغياب يساكر عن الأرض التي فُتحت لها. ولا يجد غال سببا للحيرة في عدم وجود قبيلة في الأرض التي أطلق اسم هذه القبيلة عليها. وبدلا من ذلك، فإن الإشارات إلى علاقة يساكر الواهية بتلال السامرة (الأزمان الأول 7:1، الملوك الأول 15:27) تؤدي به إلى الادعاء أنه يمكننا أن نستنتج «في ضوء هذه الدلائل الأثرية والتوراتية، أن يساكر استقرت مع منسّى Manasseh في المنطقة التي كانت تقطنها هذه الأخيرة في التلال الشمالية في السامرة» (غال 83: 1982). انتقلت بعض عشائر يساكر إلى المرتفعات البازلتية في المنطقة الشرقية من الجليل الجنوبي بعد تدمير المدن الكنعانية في بداية القرن التاسع عشر قبل الميلاد (غال 83: 1982). ويرى غال، أن يساكر انتقلت ـ على ما يبدو ـ إلى منطقة كانت قد سميت باسمها قبل أن تصل إليها! إن فهمه للتراث التوراتي وليس للدلائل الأثرية هو الذي يحكم افتراضاته فيما يتعلق بتحديد موقع إسرائيل وقبائل معينة. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد في المعطيات الآثارية ما يسمح بربط مواقع معينة بيساكر أو إسرائيل: أما وجود أو عدم وجود أنواع معينة من الأواني الخزفية فليس له تأثير على الاستنتاجات. كذلك فإن الكشوف التي أسفرت عنها أعمال المسح، وبخاصة عدم وجود مواقع تعود إلى فترة العصر الحديدي الأول في المنطقة، يجب أن تؤدي إلى إثارة الأسئلة حول عملية الاستيطان والعوامل التي تؤثر فيها. فهل كان سكان هذه المواقع سكانا أصليين، وهل تكشف هذه المواقع عن مؤشرات واضحة تدل على استمرارية مادية، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا ظهرت هنا مواقع تنتمي إلى العصر الحديدي الأول؟ لكن بدلا من الإجابة عن هذه الأسئلة، نجد أن الاهتمام ينصب على محاولة ربط كل هذا التراث التوراتي. فعلى الرغم من كل المشاكل الملازمة لتفسير

المعلومات الأثرية، لم يخطر بباله احتمال وجود علاقة بين هذه الآثار المادية والبحث عن التاريخ الفلسطيني.

تتسم الاستدلالات المتضمنة في عدد من الدراسات الدالة ذات التأثير القوي التي عالجت آثار فترة الاستيطان الإسرائيلي المبكر بأنها تدور في حلقة مفرغة، وتنبع المشكلة الرئيسية من خطاب الدراسات التوراتية في بحثه عن هذا الماضي المتخيل لإسرائيل القديمة. والتنقيب الذي تم عن موقع قروي صغير في غيلوه Giloh[*20] ـ يقع على حافة مرتفعة إلى الجنوب الغربي من القدس بينما تقع بيت لحم في الجنوب الشرقي ـ يثبت ما نذهب إليه (مازار Mazar 36 ـ 1 : 1981 , 178 ـ 167 : 1982). يؤكد مازار أن هذا الموقع هو «الموقع الوحيد في الجزء الشمالي من يهودا الذي يمكن ربطه بيقين كبير مع أوائل المستوطنات الإسرائيلية في هذه المنطقة» (2: 1981) إلا أن هذا اليقين يعتمد على فهم للآثار المادية في الموقع في ضوء تراث التوراة العبرية. هكذا نجده يتحدث عن مواقع «يمكن إرجاعها إلى أوائل المستوطنين الإسرائيليين» (4: 1981)، مثل تل الفول، وخربة ردانة Khirbet Raddanah[*21]، وخربة أم الطلعة[*22]، التي تقع في مناطق معزولة[12]. لكن هذا كله جزء من الجدل الذي يتسم بالدور المنطقي (circular argument)، كما يتمثل في تفسيره للآثار المادية وتحديد هوية سكان ذلك الموقع. يقول مازار إن المنزل ذا الغرف الأربع، الذي عثر عليه في غيلوه Giloh في «مناطق غير إسرائيلية من البلاد» (10 : 1981) مثل تل كسيلة Tel Qasile[*23] وتل سيرا Tel Sera[*24] وطبقة (مجدّو) السادسة (ب) Megiddo stratum VIB، ولكنه يصر على أن وجود مثل هذه البيوت أيضا في خربة ردانة Khirbet Raddanah وعزبت سرته Izbet Sartah وتل المشاش Tel Masos[*25] يدل على أن هذا التصميم كان شائعا في مواقع العصر الحديدي الأول الإسرائيلية (10: 1981). ولا يؤدي به إدراك أن هذا الطراز المعماري واسع الانتشار في جميع أنحاء فلسطين (11: 1981)، إلى الاستفسار عن هوية سكان غيلوه Giloh[13]. وبالمثل، فإن البحث الذي نشره عن مجموعات الفخار المكتشفة في غيلوه يؤكد استمرارية الأشكال الخزفية مع تلك التي تعود إلى فترة العصر البرونزي المتأخر. وهو يشير إلى المشكلات المتعلقة بقبول الأواني ذات الحواف المقلوبة على أنها مؤشر على الاستيطان الإسرائيلي مع العلم بأنها موجودة في

منطقة سحاب في الأردن، في مواقع مثل تل مجدُّو Tel Megiddo وتل كيسان Tel Keisan[(26*)]، وغير موجودة في مواقع النقب الشمالي. لكنه يستنتج من ذلك ما يلي: «على أي حال إن حقيقة الأمر تظل أنه في مواقع الجبال الوسطى التي يمكن ربطها بثقة بالمستوطنات الإسرائيلية، كانت هذه الأواني الفخارية الكبيرة واسعة الانتشار، بل إنها كانت أكثر أنواع الأواني استعمالا» (30: 1981). إلا أن ثقته لا ترجع إلى المعطيات الأثرية إذ لا يمكن اعتبار هذه المواقع إسرائيلية إلا إذا سلمنا بالصورة التي يقدمها التراث التوراتي. يلاحظ (مازار 30: 1981) الأهمية الاجتماعية الاقتصادية للأواني الخزفية الكبيرة (Pithoi) ذات الحواف المقلوبة المستعملة في التخزين، والمكتشفة في مثل هذه المواقع ولكنه لا يتوسع في هذه الملاحظة لأن البحث عن إسرائيل القديمة، وليس تفسير المعطيات والمعلومات الآثارية التي يتم الكشف عنها، هو المسيطر سيطرة تامة.

توصف غيلوه Giloh بأنها «قرية رعاة محصنة» (32: 1981) مما يضيف إلى فهمنا «لعملية الغزو والاستيطان الإسرائيلي المعقدة». (36: 1981). والأمر الذي يثير الانتباه في العرض الذي يقدمه مازار هو أنه على الرغم من أنه طرح بعض التعليقات المتحفظة حول مشكلات التفسير أو مغزى المعلومات، فإنه يعرض الدلائل الأثرية وكأنها هي التي تبرهن على وجود إسرائيل القديمة. ويزداد موقفه سوءا عندما يعرض نتائج تنقيباته في بحث لقي رواجا أكثر (178 ـ 167 : 1982)، حيث يشير إلى طراز المنازل على أنه طراز شبيه بذلك الذي أصبح سائدا في فترة «عصر القضاة» (169: 1982). أما مشكلة توزيع الأواني الخزفية أو الطرز المعمارية فيتغلب عليها بأن يخبر القارئ بأن «ربط الاستيطان» بعشائر يهودا الأولى التي استوطنت هذه المنطقة هو شيء لا يحتاج إلى إثبات لأنه يفرض نفسه على الذهن بشكل طبيعي (170 : 1982). ولكن ما السبب الذي يجعل ذلك استنتاجا لا مفر منه؟ هنا ننتقل بشكل مفاجئ من العبارات المشروطة المتعلقة بالسمات المادية المستخدمة في تحديد هوية مجموعات معينة إلى حقيقة وجود إسرائيل القديمة وسيطرتها على الأرض، وفي هذا الصدد يقول مازار: «إن الطراز المعماري للمنزل الخاص الذي تم اكتشافه، والذي هو على ما يبدو نموذج مبكر للطراز المعماري الإسرائيلي للمسكن الخاص، يعزز هذا

الاستنتاج، فالموقع في غيلوه Giloh يدل بوضوح على الاستيطان الإسرائيلي في منطقة التلال الوسطى» (170 : 1982). على الرغم من ذلك، فإن المعلومات الأثرية الغامضة لا تثبت أيا من هذه الاستنتاجات. مثل هذا التأكيد القاطع يعتمد على عوامل خارجة عن المعطيات الأثرية، وبالتحديد على الفكرة المستوحاة من التوراة والقائلة إن إسرائيل التاريخية كانت موجودة في منطقة التلال الفلسطينية.

كما أننا نواجه مشكلات مماثلة في تفسير موقع صغير يعود إلى فترة العصر الحديدي الأول في مرتفع في الجزء الشمالي من منطقة المرتفعات الوسطى. إذ يصف مازار (27: 1982) هذا الموقع، في الفقرة التي يستهل بها بحثه، بأنه «مكان عبادة مفتوح يقع على تلة في أرض منسَّى Land of Manasseh ويعود إلى فترة القضاة. وهكذا يتم إسكات صوت التاريخ الفلسطيني قبل أن يجد فرصة للكلام: فالتسميات والأوصاف المستعملة مفادها أن ذلك الزمان وتلك الأرض ملك لإسرائيل. ويركز مازار على التماثيل البرونزية التي عثر عليها في هذا الموقع، وعلى الرغم من ارتباطها الواضح بالأشكال التي استخدمها الفلسطينيون الأصليون لأغراض دينية فإنه ينسبها إلى الإسرائيليين ويظهر ذلك في قوله:

> يمكن تفسير استعمال المستوطنين الإسرائيليين للتماثيل البرونزية الراقية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد في ضوء معرفتنا لاستمرارية علم سبك المعادن الكنعاني خلال العصر الحديدي الأول، كما توضح مكتشفات مجدو وبيسان وتل السعدية.

(مازار 32: 1982)

يبدو أن الإسرائيليين حصلوا على تلك التماثيل إما عن طريق التجارة، أو هناك تفسير آخر أقل معقولية هو أن حرفيين إسرائيليين استوحوا أعمالهم من التراث الكنعاني. مرة أخرى نجد أن الأواني الفخارية التي تم العثور عليها تؤخذ كدليل على استمرار الأوضاع منذ فترة العصر البرونزي المتأخر. وعلى حين أن مثل هذه الاستمرارية تؤكد في نظر غال Gal أن مواقع «أرض يساكر» لم تكن إسرائيلية، فإن هذا لا يمنع مازار من النظر إلى هذا الموقع على أنه إسرائيلي. على الرغم من ذلك، فإنه ينتقل بنا بسرعة من هذا الموضوع إلى اكتشاف حقيقة إسرائيل القديمة. فيقال إن الموقع الذي كانت تشغله يوجد وسط مجموعة من المواقع التي ترجع إلى

العصر الحديدى الأول «ربما وجب ربطها بعمليات استيطان القبائل الإسرائيلية في المنطقة» (37 : 1982)[14]. هكذا، فإن سلسلة من «الاحتمالات» تُبنى على فرضيات مستقاة من التراث التوراتي، وتنتهي إلى اكتشاف إسرائيل التاريخية. هنا موقع أرض إسرائيل، كما أن هذا هو موقع إسرائيل في الماضي. على أن هذا الماضي المتخيل، وقف حجر عثرة في طريق أي محاولة، مهما كانت تمهيدية، لاستكشاف بناءات وتصورات بديلة للماضي مبنية على الدلائل الأثرية ومتحررة من قيود التوراة العبرية.

يدل نقد مازار (1990) الأخير الشامل لآثار «أرض التوراة» على إدراك متزايد لمشكلات التفسير التي سيطرت على البحث عن إسرائيل القديمة. فهو يقوم بمحاولة واعية لاستخدام تعبير «فلسطين» بدلا من «أرض إسرائيل» للإشارة إلى المنطقة. على الرغم من ذلك، فإن إضافة تعبير «أرض التوراة» إلى لفظ «فلسطين» (هامش 1 ـ 33: 1990) يدل على أن المنطقة لم يكن لها أهمية تذكر إلا كخلفية لفهم التوراة. هذا المجلد كان يهدف إلى تسليط الأضواء على واقعية السرد الذي روته التوراة (المقدمة xv: 1990)، وهذا يعني أن التاريخ الإسرائيلي وليس التاريخ الفلسطيني عموما هو بؤرة الاهتمام. بإمكان مازار أن يشير إلى «الغزو الإسرائيلي» على الرغم من أن معظم المعلقين سلّموا بأن المعطيات الأثرية المتزايدة في المنطقة سددت ضربة قاضية إلى نظريات أولبرايت. ويضيف أنه «من خلال دراسة الجوانب الآثارية في غزو كنعان، سوف نركز على المضمون الفعلي لما ورد في التراث التوراتي بشأن المواقع المختلفة المرتبطة بالغزو» (329: 1990). كما يحذر مازار من محاولة التمييز بين الجماعات الإثنية المختلفة في المواقع المتعددة، ولكنه يستنتج مرة أخرى أن عمليات المسح والتنقيب الجديدة تسمح بفهم أفضل «لعملية استيطان القبائل الإسرائيلية» (329: 1990). وهكذا فإنه يلجأ إلى حيلة بلاغية، كما رأينا من قبل في عدة مناسبات، إذ ينبه القارئ إلى الصعوبات والمشكلات التي تكتنف التفسير، قبل الوصول إلى استنتاج أكثر يقينا. هذه الحيلة تخدم فكرة إقناع القارئ بأن الكاتب يحرص على الموضوعية، وعندما يصل إلى نهاية عملية التدقيق في الآراء المتعارضة يمكنه الإعلان عن رأي جدير بالثقة:

بناء على ذلك كله فإن تعريف الحضارة المادية «الإسرائيلية» بشكل أكثر دقة هو مهمة صعبة.

يجب أن تكون نقطة بدايتنا في هذه المسألة متعلقة بالمواقع التي تعتبر إسرائيلية حسب الرواية التوراتية، خلال عصر القضاة، مثل شيلوه Shiloh، ومصفاة Mizpah[(27*)]، ودان Dan، وبئر السبع. وهكذا يمكن تعريف المستوطنات التي توجد فيها آثار مادية مماثلة في المنطقة بأنها إسرائيلية.
(مازار 353: 1990)

مرة أخرى نلاحظ اللجوء إلى التراث التوراتي للتغلب على مشكلة تحديد الهوية الإثنية. فالنص التوراتي له أفضلية منهجية على الدليل الآثاري. وكما يعترف مازار، ليس هناك أي شيء في السجل الأثري وحده يسمح بأن تُعزى مواقع معينة في الفترة الانتقالية من العصر البرونزي المتأخر إلى بداية العصر الحديدي إلى جماعات إثنية مختلفة. ومع ذلك فإنه يظل يشير إلى إسرائيل خلال هذه الفترة على أنها «هوية وطنية جديدة» (334: 1990). بينما تُنسى محاولته الواعية لاستعمال تعبير «فلسطين» لمصلحة الإشارات إلى «مناطق منسّى Manasseh وإفرايم Ephraim القبلية في منطقة التلال الوسطى المركزية في فلسطين» (335: 1990). يسهم خطاب الدراسات التوراتية ونفوذه المستمر في تماسك هذه الشبكة المتداخلة من الأفكار، على الرغم من التحديات العميقة لفرضياتها الأساسية والتي مفادها أنه ينبغي تحديد موقع إسرائيل في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي. فتحقيق التاريخ الفلسطيني يعوقه العجز عن إدراك أن تعبير «إسرائيلي» ليس له أي معنى من منظور علم الآثار يقف حائلا دون رد اعتبار التاريخ الفلسطيني، ولكن النص التوراتي وادعاءاته هي التي تفرض هذا التعبير رغم كل الشواهد.

أهم محاولة لمعالجة موضوع الإثنية «والهوية الإسرائيلية» هي تلك التي قام بها فينكلشتاين، الذي يعتقد أن الفروق بين الفئات الإثنية في ذلك الوقت ربما «كانت لاتزال غير واضحة المعالم» (27: 1988). لكنه لا يوضح للقارئ طبيعة الدلائل التي تشكل أساس فهمه لكيفية فهم الجماعات المختلفة وتعريفها لهويتها. يقول فينكلشتاين في صدد خلافه مع مازار Mazar «من المشكوك فيه أن يصف إنسان مقيم في غيلوه Giloh في القرن الثاني عشر قبل الميلاد نفسه (أو نفسها) بأنه «إسرائيلي». ويوظف تلك الحيلة البلاغية بالحذر المدروس قبل الوصول إلى استنتاج أقوى إذ يقول: «ومع ذلك، فإننا نشير إلى ذلك الموقع وإلى آثاره المادية على أنها إسرائيلية» (27: 1988). لا

يهم إذا كان شعور هؤلاء السكان بهويتهم الذاتية مختلفا لأن البحث عن إسرائيل القديمة وتحديد موقعها هو شيء بالغ الأهمية. وهكذا، تستطيع إسرائيل الادعاء بامتلاك الأرض بأثر رجعي in retrospect:

الإسرائيلي خلال العصر الحديدي الأول هو أي شخص كان أحفاده ـ منذ أيام شيلوه Shiloh على أبعد تقدير (النصف الأول من القرن الحادي عشر ق. م)، أو منذ بداية المملكة ـ على أقرب تقدير، يصفون أنفسهم بأنهم إسرائيليون.

(فينكلشتاين 27: 1988)

هذا تعريف للهوية الإسرائيلية أقوى وأشمل من أي تعريف صادفناه في أي موضع آخر. إنه تعريف يستعمل للمطالبة بماضي سكان المواقع الموجودة في المناطق التي حددتها التوراة بأنها منطقة المملكة الإسرائيلية: فهؤلاء السكان «إسرائيليون» بغض النظر عن الطريقة التي يفهمون بها ذاتهم، لأن هذه الأرض هي أرض إسرائيل، وأرضها وماضيها هو ملك لإسرائيل. والعامل المهيمن في كل هذا، كما رأينا من قبل، هو قبول الطابع التاريخي الأساسي essential historicity للروايات الواردة في (سفر صموئيل الأول في التوراة) (أنظر ميللر Miller 99 ـ 97: 1991a).

يزداد تحدد معالم التصور المجرد للماضي والسيطرة عليه، على نحو ما هو كامن في تعريفات فينكلشتاين عندما يتصدى للمشكلة التي تطرحها منطقة الجليل الشمالية، وهو ما كان على وعي به (28: 1988). فها هنا منطقة من فلسطين لا تدخل في السلطة الإقليمية للمملكة المبكرة. ولهذا لا يمكن تعريفها بأنها إسرائيلية حسب تعريفه. وفضلا عن ذلك، فإن فينكلشتاين يجادل على العكس من أهاروني، بأن مستوطنات العصر الحديدي الأول في المنطقة كانت تنتمي إلى فترة متأخرة عن تلك التي كان يعتقد من قبل أنها تنتمي إليها (330 ـ 323: 1988). وكما هو معروف، فإن هذه المستوطنات لا تتسم بوجود الأواني ذات الحواف المقلوبة المنتشرة في المناطق الوسطى من منطقة التلال ومناطق أخرى من فلسطين. على الرغم من ذلك، فإن أيا من هذه الاعتراضات الكفيلة بالقضاء على نظرياته قضاء مبرما، لا يمنعه من الإصرار على أن هذه المناطق كانت «إسرائيلية»، لتصبح فيما بعد جزءا من تعريفه لما هو «إسرائيلي»:

كان الإسرائيليون في العصر الحديدي الأول هم أولئك الذين كانوا بسبيلهم إلى الاستقرار

في تلك المناطق من البلاد التي كانت جزءا من مملكة شاؤول، وفي الجليل. لذلك فإن لفظ «إسرائيلي» يستخدم في كتابنا هذا عندما نبحث في فترة العصر الحديدي الأول، وهذا التعبير لا يعدو أن يكون تعبيرا فنيا (اصطلاحيا) (terminus technicus) «يُعرّف سكان المرتفعات الذين كانوا في طور الاستقرار».

(فينكلشتاين 28: 1988)

يبلغ هذا التعريف من الاتساع حدا يجعله يشمل جميع سكان فلسطين في المناطق التي حددت بأنها إسرائيلية[15]. كما أنه لا يعتمد على الدلائل الأثرية وإنما ينبع من قراءة لرواية سفر صموئيل في التوراة العبرية. تنبَّه فينكلشتاين إلى المشكلات الملازمة لمثل هذا التعريف فاعترف بأنه مستعد لحذف تعريف «الإسرائيليين» من معالجته لفترةالعصر الحديدي الأول، والإشارة إليهم بدلا من ذلك باعتبارهم «مستوطني التلال الريفية» hill country settlers وذلك حتى بدء مرحلة الملكية (52: 1991). ولهذا دلالته، إذ إنه يدعم الاعتراف المتزايد باستحالة استخدام الاكتشافات والدلائل الآثارية المستمدة من أعمال المسح والتنقيب الجديدة في التمييز بين الثقافة المادية الإسرائيلية وثقافة السكان الأصليين. فتردد فينكلشتاين أو مازار Mazar، مثلا، في قبول النتائج الكاملة لهذا الاستنتاج يدل على الصعاب التي ينطوي عليها التغلب على خطاب الدراسات التوراتية والإفلات من قبضته. قد يكون فينكلشتاين راغبا في حذف تعبير «إسرائيلي» والاستعاضة عنه بتعبير ينطوي على لف ودوران مثل: «مستوطنو منطقة التلال»، ولكنه لا يستطيع الحديث عن استيطان السكان الفلسطينيين الأصليين. والواقع أن هذه التحفظات ليس لها تأثير عملي في معالجته اللاحقة، إذ إنه يستمر في استعمال تعبير «الاستيطان الإسرائيلي». إلا أن هذا التنازل مهم، لأنه بمجرد استبعاد صفة «إسرائيلي» يتحرر النقاش من هيمنة التوراة العبرية وتصورها للماضي وسيطرتها عليه. وبدلا من ذلك، يمكن للنقاش أن يتحول في اتجاه العمليات التي ينطوي عليها الاستيطان الفلسطيني في فترة الانتقال من أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي والعوامل التي أثرت في هذا الاستيطان. وهذا يسمح بإجراء مقارنة، أو يشجع على وضع استراتيجيات تستهدف المقارنات بين الاختلافات المحلية في الاستيطان في جميع أنحاء فلسطين والمناطق المجاورة. وهذا يستدعي القيام بأعمال

مَسْح مكثفة ودراسة تضاريس جميع مناطق فلسطين، وليس فقط تلك التي يعتبرها خطاب الدراسات التوراتية مناطق إسرائيلية.

إلا أن هذه الفرضيات غير متفق عليها ومن غير المحتمل أن يتم التخلي عنها بسهولة. وقد عبر شانكس عن عدم الارتياح الذي تولده عندما تتسرب ببطء تداعيات هذا التغير في الرؤية عندما صاح شاكيا:

كان لاستيطان كنعان في مناطق التلال الوسطى في العصر الحديدي الأول أهمية خاصة إذ يعتقد أن هذه المستوطنات كانت إسرائيلية. يريد الناس معرفة ماذا حصل هنا وما هو المقصود بأن يكون الإنسان إسرائيليا. إذا لم يكن هؤلاء الناس إسرائيليين، فإن أهميتهم بالنسبة إلينا هي بأهمية سكان العصر البرونزي المبكر نفسه. هذا لا يعني أننا لا نهتم بهم، لكنه يعني اهتماما أقل بكثير بهؤلاء السكان إن لم يكونوا إسرائيليين. باختصار، نريد أن نعرف ماذا تعني كل هذه الدلائل ـ وهناك الكثير منها ـ وماذا تقول لنا على نحو معقول فيما يتعلق بإسرائيل القديمة. يجب أن نكون حذرين بالطبع، ولكن أليس هناك ما يقال لطمأنتنا حتى ضمن حدود الحذر هذه؟

(شانكس Shanks **66: 1999**)[16]

وهكذا نكتشف أن سبب «الأهمية الخاصة» لهذه المستوطنات هو الاعتقاد بأنها كانت مستوطنات إسرائيلية. ما يثير الانتباه أن سكان المستوطنات التي لم تكن إسرائيلية أو تعود إلى عصور أثرية أخرى، والتي يعتقد أنها ذات «أهمية»، يظلون بلا اسم. فهؤلاء هم «سكان أوائل العصر البرونزي الرابع» Early Bronze Age IV People وليسوا فلسطينيين. على الرغم من التظاهر بالاهتمام بالتاريخ الفلسطيني، فمن الواضح أن هذا التاريخ لا يهم على الإطلاق. فالبحث عن إسرائيل القديمة هو المهم: والرسالة التي يعبر عنها شانكس هي أن على الباحثين أن يهتموا بإسرائيل، حتى ولو كان الأمر مجرد «اعتقاد»، لا تدعمه الدلائل، أن تلك المستوطنات كانت إسرائيلية. ولكن من أين أتى هذا «الاعتقاد»؟ الجواب هو أنه لا يمكن أن يأتي إلا من قبول الادعاءات التوراتية في سفري يشوّع والقضاة (Joshua & Judges) على أنها حقائق تاريخية مسلّم بها. ولكن هذا اعتقاد أساسي بالنسبة إلى الفرضيات الدينية والسياسية التي أسهمت في تشكيل خطاب الدراسات التوراتية والمحافظة عليه.

ما رأيناه من خلال الأمثلة التي ذكرناها من قبل ـ وكان من السهل إضافة المزيد إلى هذه الأفكار ـ هو أن وجود أو عدم وجود سمات مادية

معينة يستعمل بشكل مختلف لتحديد موقع إسرائيل في منطقة التلال الوسطى، وفي الجليل والنقب. في بعض المواقع، يقال لنا إن بعض السمات المحدودة للآثار المادية، وبخاصة الأواني ذات الحواف المقلوبة، أو المنازل ذات الغرف الأربع، هي مؤشرات مهمة على الوجود الإسرائيلي إلا أن عدم وجودها في مواقع أخرى لا يعني شيئا. في جميع هذه المواقع يتم الاعتراف بأن لبعض سمات الآثار استمرارية مع أواخر العصر البرونزى، ولكنها تفسر على أنه يبدو أن الإسرائيليين قد اقتبسوا التقنيات والأساليب من السكان الأصليين، الذين كان الإسرائيليون عادة في حرب معهم أو كانوا معزولين عنهم. يتضح من هذه المقارنات أن النص التوراتي، وليس المعلومات الأثرية هو الذي يحدد التعريف. أما القارئ فيترك عادة في عجب من أمره، فكم من الأواني ذات الحواف المقلوبة ينبغي أن تُكتشف أو لا تُكتشف في موقع ما حتى يتم إثبات أو نفي وجود الإسرائيليين فيه. حاول فينكلشتاين أن يتصدى لبعض هذه الإشكالات بالتركيز على المكان الجغرافي للمستوطنة، وعلى موقعها وحجمها، ونمط الاستيطان فيها وعمارتها، وتصميم الموقع (33 ـ 29: 1988) لكي يجعل نقاشه أشد حدة. ولكن ينبغي أن يلاحظ أن القيمة الأساسية للدلائل (الأثرية؟) تكمن في إسهامها في تحديد العوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية التي أثرت في الاستيطان في فلسطين. على أن فنكلشتين لا يذكر دائما أي شيء عن النتائج المترتبة على هذه الملاحظة بسبب بحثه عن إسرائيل القديمة كما يفهمها من خلال قراءته للتراث التوراتي، ودليل ذلك قوله:

«نود أن نشير مرة أخرى إلى أن النص التوراتي التاريخي، لما كان هو المصدر الوحيد المتاح، يوفر الأساس لتحديد المناطق الرئيسية للاستيطان الإسرائيلي، وفي مواقع العصر الحديدي الأول في هذه المناطق، اكتشف الباحثون ثقافة مادية لها سمات مميزة، بعضها مناسب لمجتمع فقير منعزل يمر بأولى مراحل الاستقرار والتنظيم.

(فينكلشتاين 30 ـ 29: 1988)

يلاحظ عدم وجود أي ارتباط منطقي بين جزئي العبارة السابقة. ويتبين بوضوح أن الصمات الأركيولوجية لهذه المواقع لا تحدد الاستيطان في هذه المواقع على أنه «استيطان إسرائيلي». وما يفعله فينكلشتاين هو الاستمرار في الدوران في الحلقة المفرغة لخطاب الدراسات التوراتية كما يتضح في

تأكيده أن «السمات الثقافية الإسرائيلية ينبغي إذن أن تُستنتج من مواقع العصر الحديدي الأول في منطقة التلال الوسطى، خاصة في القطاع الجنوبي، حيث لا يوجد خلاف حول هوية السكان (28: 1988). إلا أن فينكلشتاين، شأنه شأن العديد من علماء الآثار الآخرين، يقول إن جميع هذه السمات المادية لها سوابق أو ارتباطات بسمات في مواقع «غير إسرائيلية» أو تنتمي إلى فترات سابقة وربما حددتها عوامل واعتبارات طوبوغرافية واقتصادية. هذه النقطة الأخيرة مهمة للغاية عند البحث عن التاريخ الفلسطيني، ولكن البحث عن إسرائيل القديمة يؤدي إلى تجاهل النتائج المترتبة عليها. ويظهر ذلك بوضوح في عرضه اللاحق للمعلومات المستمدة من أعمال المسح والتنقيب في المواقع الأثرية، وهو ما يتمثل بجلاء في دراسته «لأرض بنيامين» ولنستمع إليه وهو يقول في هذه الدراسة الأخيرة:

تدل المعلومات الأثرية المتراكمة عن أرض بنيامين، مضافا إليها الوصف التوراتي لعصر صموئيل وشاؤول، على أن النشاط الإسرائيلي الرئيسي في أرض بنيامين في العصر الحديدي الأول كان مركزا في الجزء الشرقي من المرتفع وطرف الصحراء... هكذا كانت مساحة أرض بنيامين مقسمة تقسيما عرقيا. إذ استوطن الحوّيون Hivites(*28) في الغرب والإسرائيليون في الشرق. على كل حال، لا نستطيع أن نفرق في الحضارة المادية بين هاتين الفئتين الإثنيتين اللتين سكنتا في مساحة أرض بنيامين في بداية العصر الحديدي الأول.

(65: 1988).

من الواضح بجلاء أنه على الرغم من الاستخدام المتقن لإحصاءات النسب المئوية للأواني الخزفية وأنواعها، أو مقارنة السمات المادية الأخرى، فإنه لا يوجد أي شيء في سجل علم الآثار يسمح بأن نطلق اسم «إسرائيلي» على موقع ما، أو اسم «حوّيي» Hivite على موقع آخر. وإضافة إلى ذلك فإن فينكلشتاين لا يقوم حتى بمحاولة تحديد الهوية الحوِّية: فهذا اسم مشتق من التوراة العبرية. كما أنه لا يعرف كيف أتى هؤلاء الحويّون إلى المنطقة، أو كيف أصبحت هذه المدن إسرائيلية. إن هذا التمييز الإثني (ethnic) مشتق من التراث التوراتي على الرغم من أنه لا يوجد شيء في علم الآثار يثبت ذلك.

كما رأينا في كل ما سبق، فإن المعضلة بالنسبة لعلماء الآثار هي افتراضهم

سلفا أن إسرائيل القديمة سكنت مناطق معينة من البلد ومن ثم كان ينبغي أن يكون من الممكن تمييز المناطق التي يشغلها إسرائيليون، ومع ذلك فحتى بعد أن اتضح أن أنواعا معينة من الخزف والأشكال المعمارية كانت موجودة في مناطق مختلفة من فلسطين، أو في مناطق لا تعتبرها التوراة إسرائيلية، فإن الاندفاع نحو البحث عن إسرائيل القديمة والعثور عليها قد استمر بلا هوادة. ذلك لأن خطاب الدراسات التوراتية قد شجع هذا البحث الاعتباطي عن تاريخ متخيّل، وتعزز هذا الوضع من جراء احتياج دولة إسرائيل الحديثة، سياسيا، إلى أن تجد لنفسها مكانا في الماضي. على الرغم من أن المكتشفات الأثرية المتزايدة والأبحاث التي نظرت إلى النصوص التوراتية بطريقة نقدية تاريخية ـ على الرغم من أن هذه العوامل أدت إلى تحطيم النموذج المهيمن (dominant paradigm)، فإن هذا النموذج لاتزال له من السيطرة القوية على إدراك الباحثين الغربيين والإسرائيليين ووعيهم ما يجعله يتشبث بمكانته بقوة في وجه هذا التيار المعارض المكتسح. وهذا من أوضح الأمثلة التي تكشف عن قدرة خطاب الدراسات التوراتية على إسكات التاريخ الفلسطيني والوقوف في وجه أي محاولة للإتيان برواية بديلة للماضي.

لقد رفعت الدراسات التوراتية علم الآثار المسيس، الذي توجد له أمثلة في مناطق عديدة من العالم، إلى مرتبة الفن الرفيع. فآندرسون Anderson (183 : 1991) مثلا يقول: إن علم الآثار مهمة بحثية تتغلغل فيها السياسة إلى حد أن من المستبعد أن يكون موظفو دولة استعمارية واعين بهذا التغلغل. أما خطاب الدراسات التوراتية فإنه نادرا ما اعترف بأن علم الآثار يتشكل بالسياسة بهذا القدر من العمق. إلا أن كتّابا سياسيين مثل إيلون Elon لم يكونوا غافلين عن هذه القضية:

> ويظهر الدور الرمزي لعلم الآثار في الثقافة السياسية الإسرائيلية على الفور. فعلماء الآثار الإسرائيليون وكذلك المحترفون والهواة من الإسرائيليين، لا ينقبون عن الآثار لمجرد الوصول إلى المعرفة أو العثور على الأدوات، وإنما لتأكيد جذورهم، التي يجدونها في الآثار الإسرائيلية المنتشرة في البلاد.
>
> **(إيلون Elon 280: 1983)**

كذلك يشير إيلون إلى التعامل مع اكتشاف لفائف البحر الميت على أنها «شيء يحمل طابعا مقدسا»، وعلى حين أن الكثيرين يرون فيها «وثائق

لإثبات الملكية، مثل وثائق التملك لأرض متنازع عليها» (285: 1983)، إلا أن خطاب الدراسات التوراتية حاول عرض البحث عن هذه الجذور، والتنقيب ورسم الخرائط لمواقع عديدة، على أنه بحث موضوعي في المعرفة. أما الموضوع الحساس الذي يشير إليه إيلون، وهو النتائج التي يسفر عنها علم الآثار أو إعادة بناء الماضي بشكل يخدم الصراع المعاصر حول أرض متنازع عليها، فيتم تجاهله أو إنكاره في خطاب الدراسات التوراتية. ولكن سيلبرمان Silberman (1992) في مراجعته للدراسات الأخيرة في الموضوع يكشف عن غير قصد ـ وبشكل غير متوقع وساخر ـ عن القبضة الخانقة لخطاب الدراسات التوراتية، وقدرتها على إخفاء الطابع السياسي الذي يتشكل به الماضي. ومع ذلك فإنه يظل صامتا بشكل مستغرب إزاء تسييس علم الآثار الإسرائيلي الجديد. وفي عرض سيلبرمان لنتائج أعمال المسح التي قام بها فينكلشتاين، يشير إلى «المستوطنات الإسرائيلية» من دون تعليق، وذلك في قوله:

> يمكن النظر إلى الآباء المؤسسين للأمة الإسرائيلية على أنهم مجموعات متفرقة من الرعاة كانوا يعيشون في مجموعات عائلية صغيرة، ويرعون قطعانهم في أعالي التلال والوديان المعزولة في منطقة التلال، ويتفاعلون بطريقتهم الخاصة مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية بعيدة الأثر التي اكتسحت شرق المتوسط بأكمله.
>
> **(سيلبرمان** Silberman **30: 1992)**

لقد أثر علم الآثار الإسرائيلي بكل افتراضاته المخفية، بشكل خبيث، في البحث «الجديد» عن إسرائيل القديمة.

البحث الجديد عن إسرائيل القديمة

أسهم التحول في استراتيجيات البحث نحو تركيز أكبر على أعمال المسح المحلية المركزة، في وقت فضحت فيه العلوم الاجتماعية واتجاهات مختلفة في الإنسانيات الدراسات التوراتية وقوضت مفاهيمها عن النص، في التقليل من شأن بعض التصورات التقليدية لتاريخ إسرائيل المتخيَّل. إلا أن البحث عن إسرائيل القديمة استمر بلا هوداة. ومع أن نقد أوجه من خطاب الدراسات التوراتية المهيمن كما جاء عند آلستروم وليمحي وكوت ووايتلام وديفيز وطومسون وغيرهم ساعد في تصديع هذه النماذج، إلا أن

هذه الدراسات ذاتها تنطوي أيضا على خلط واضطراب متأصل فيها. فبينما تركز هذه الأعمال النقدية على التحديد الزمني لإسرائيل القديمة، سواء أكان ذلك في بداية العصر الحديدي أو آخره، أو على الفترة الفارسية أو الهلنستية، فإن المحاولات التمهيدية لترويج فكرة الحاجة الماسة إلى فصل الدراسة التاريخية للمنطقة عن الدراسات التوراتية لم تُحل معضلتها بعد. وهذا الإرباك يسهم في إسكات التاريخ الفلسطيني(17). لذلك فإن تلك الأعمال النقدية ذاتها متورطة في البحث «الجديد» عن إسرائيل القديمة، بعد فشل هذا البحث الجديد تصبح الحاجة ماسة بدرجة أكبر إلى دراسة تاريخ المنطقة وإعادة صياغة هذه الأعمال وإعادة النظر فيها. فقد تركز الجدل على ثلاث فترات مهمة مرتبطة ببعضها البعض: تاريخ التراث التوراتي وعلاقته بالبناء التاريخي، ومغزى لوح مرنبتاح الحجري المنقوش (Merneptah stele)، وتفسير المعلومات والدلائل الأثرية الحديثة في عملية البحث عن إسرائيل أو تحقيق التاريخ الفلسطيني.

هناك إدراك واسع الانتشار بأن من المسلمات الرئيسية المتفق عليها في البحث «الجديد» عن إسرائيل القديمة ـ وهذا جزء من «الأفق الجديد» (New horizon) لـ كوت Coote ـ رفض التراث التوراتي لإعادة البناء التاريخي لفترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي. فهناك علاقة واضحة ولكن ليس هناك أي إجماع مطلقا على فهم وتأريخ الآثار التوراتية موضع البحث. ونظرة

آلستروم Ahlstrom التي تفيد أن النص التوراتي هو نتاج الإيمان ولم يكن الهدف منه سرد الحقائق التاريخية أو حفظها (2: 1986)، متفق عليها بالإجماع، لكن ليس هناك إجماع مماثل فيما يتعلق بتفسيراته الأيديولوجية لمسألة الخروج Exodus (55 ـ 45: 1986). إضافة إلى ذلك، وبينما يدعي آلستروم أ ن سفر القضاة ليس له إلا قيمة قليلة للمؤرخ في تصوره للماضي، (75: 1986)، فإن مفهومه للمملكة، وتصوره للفترة الانتقالية من العصر البرونزي المتأخر إلى بداية العصر الحديدي، مقيدة تماما بالتراث التوراتي. يبدو آلستروم Ahlstrom في منهجه قادرا على التقاط المعلومات التاريخية الموثوقة وذات الصلة. وعلى هذا نجد أن الهدف الأساسي للنص التوراتي لم يكن، بالنسبة لآلستروم، حفظ الحقائق التاريخية، إلا أن طريقة بحثه

ومعالجته للنصوص لا تختلف جذريا عن الكتابات التاريخية التقليدية حول إسرائيل القديمة. فهو يدعي مثلا أن «أي تصوّر reconstruction لمنطقة التلال الوسطى للفترة الواقعة بين ذكر نقش مرنبتاح لإسرائيل ونشوء المملكة الإسرائيلية تحت حكم شاؤول» (74: 1986) يجب أن يأخذ التراث التوراتي في اعتباره. ويجب أن تُحلَّل بدقة «لفصل الحقائق التاريخية عن قصص الخيال الديني». ويقر آلستروم أن التوراة العبرية كنتاج للإيمان «هي تعبير عن تأملات دينية دُوّنت بعد الحدث» (74: 1986)، ومع ذلك يستطيع أن يميز الحقائق التاريخية الموثوقة التي ترجع إلى الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي. هذا يعني أن آلستروم، هو في الواقع سجين البحث عن إسرائيل القديمة، على الرغم من إنتاجه لكتابه الضخم حول تاريخ فلسطين القديم. فإسرائيل، أو البحث عن كيان بهذا الاسم، هو الذي يهيمن على روايته لفترة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى بداية العصر الحديدي. وتؤدي بؤرة التركيز هذه إلى التعتيم على محاولته هو ذاته لصياغة استراتيجية للكشف عن التاريخ الفلسطيني. وبناء على ذلك يصبح التاريخ الفلسطيني محصورا في تلك الفترات أو المناطق التي لم تكن إسرائيل موجودة فيها بدلا من أن يصبح هو الموضوع الأشمل للدراسة.

أحد أكثر أوجه هذا البحث الجديد عن إسرائيل القديمة إثارة، والذي يعكس الاتجاه المتزايد في هذا الفرع من المعرفة بشكل عام، هو محاولة دفع تاريخ التراث التوراتي إلى فترات لاحقة زمنيا. فقد ذهب وايتلام Whitelam، على سبيل المثال، إلى أن التراث التوراتي فيما يتعلق بفترة ما قبل المملكة، كما يراه الكتاب التوراتيون، لم يكن انعكاسا لحقائق تاريخية بقدر ما عكس الإحساس بالماضي لكتّاب كتبوا في فترات لاحقة. فالإنتاج الاجتماعي للتراث التوراتي، وبخاصة ذلك الذي أنتجته مجتمعات الهيكل الثاني، ازدادت أهميته في السنوات الأخيرة[18]. والمرويّة التراثية القائلة إن جذور إسرائيل ترجع إلى حضارة أتت من خارج فلسطين كما صورها سفر التثنية تتعارض مع المروية التي جاءت في سفر أخبار الأيام، الذي يصوِّر شعب إسرائيل على أنه من سكان المنطقة الأصليين. (وايتلام Whitelam 1986). يفسر وايتلام هذا على أنه انعكاس لنزاعات بين الفئات المتنافسة

والمتنازعة على الأرض بين أولئك العائدين من المنفى في بابل وبين السكان الأصليين في القدس ومحيطها. وكان ليمحي وطومسون وديفيز من أقوى الداعين للرأي القائل إن التراث التوراتي يرجع إلى تاريخ متأخر هو الفترة الفارسية أو الهلّينية. ولكن معظم أولئك المنشغلين بهذا البحث الجديد عن إسرائيل القديمة يسلمون بمبدأ ليمحي القائل «إن الفجوة بين التدوين التسجيلي المكتوب والأحداث المفهومة ضمنا كبيرة للغاية، ولا تسمح بقبول هذا التراث على أنه المصدر الرئيسي لإعادة بناء الماضي» (378 ـ 377 : 1985)[19]. ثم يستنتج ليمحي أن الشروط المسبقة لمفهوم إسرائيل بوصفها وحدة، لم تظهر قبل المملكة وأن الكتابة التاريخية عن إسرائيل في شمولها لا يمكن أن تكون قد ظهرت قبل فترة النفي. (ليمحي Lemche 384 : 1985).

يبدو ظاهريا أن هذا يحرر دراسة التاريخ الفلسطيني فترة الانتقال من أواخر العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي من قبضة التراث التوراتي. لكن على الرغم من ذلك، فإن الجدل الدائر قد انصب اهتمامه على إمكانات كتابة تاريخ إسرائيل القديم وهو ما طغى بشكل فعال على أي اهتمام بالتاريخ الفلسطيني. فالهجوم على المناهج المعتمدة على النصوص text-based approaches في تاريخ إسرائيل القديمة، وتحدي التحليلات الناقدة للمصادر في ضوء مناهج البحث الجديدة، قد ساعد على هدم مشروع إنتاج مجموعة مسلسلة كبيرة من المجلدات عن التاريخ الإسرائيلي في السبعينيات والثمانينيات بطريقة موثوق بها. وعلى أقل تقدير، أدى هذا إلى توفير مهلة للتفكير في طبيعة هذا المشروع[20]. إلا أن محاولات إعادة تعريف طبيعة الكتابة التاريخية باللجوء إلى المعلومات الأثرية المتزايدة عن المنطقة لاتزال سجينة البحث عن إسرائيل القديمة (وايتلام Whitelam 1986، طومسون Thompson 40 ـ 13 : 1987). وقد نبه ديفيز (Davies 169 : 1985) إلى أنه إذا لم تكن هناك مصادر مكتوبة موثوق منها عن الفترة، فإنه لا يمكن كتابة تاريخها. وقد ركز الجدل الدائر على نوع التاريخ الذي كان ممكنا، مما يشكل ابتعادا عن الروايات التي تركز على الأحداث والشخصيات كما جاء في التراث التوراتي واقترابا من طريقة مستوحاة من منهج بروديل Braudel في الكتابة التاريخية، الذي يركز على التاريخ الاجتماعي في أوسع أشكاله (كوت ووايتلام 1987، وايتلام 1989). ولكن في الوقت الذي جادل

فيه البعض بأن دراسة الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي، قد تحررت من قيود التقسيم إلى فترات والتركيز على الشخصيات كما كان يفعل التراث التوراتي، فإن البحث الجديد عن إسرائيل القديمةلم يتمكن من الإفلات من قبضة مسلمات خطاب الدراسات التوراتية المتسلط. وهكذا ظل هذا البحث بحثا عن إسرائيل القديمة بدلا من أن يكون إحياء للتاريخ الفلسطيني[21].

ظل التشويش والخلط بين العلاقة بين التاريخ الإسرائيلي والتاريخ الفلسطيني عقبة كأداء في وجه تحقيق التحولات بعيدة الأثر التي كانت تجري عندئذ في الدراسات التوراتية وفروع المعرفة المتصلة بها. فقد صاغ طومسون رؤيته «للتاريخ المستقل»، في إطار لغة التاريخ الإسرائيلي بدلا من التاريخ الفلسطيني. أما الاستقلالية المبتغاة فهي الاستقلال من هيمنة النص التوراتي في تحديد طبيعة التاريخ الإسرائيلي، والفترات التي ينقسم إليها، واهتماماته الأساسية، كما كانت الحال في «التواريخ التوراتية» التقليدية. ولكن هذه الرؤية كافحت للإفلات من مجموعة من الفرضيات المهيمنة في خطاب الدراسات التوراتية التي صاغت طابع البحث عن إسرائيل القديمة لأكثر من قرن. ومع أن طومسون Thompson يتحدث عن «نموذج جديد في الكتابة التاريخية» (2: 1992b)، فإن التأثيرات الكاملة لهذه المجموعة من التحولات التي يحددها بهذا الاسم تظل غير واضحة بسبب هيمنة إسرائيل على الماضي. فالحديث لايزال يدور في نطاق البحث عن «جذور إسرائيل» (107 : 1992a)، من حيث هو «مختلف منهجيا عن التأريخ اليهودي المتأخر لماضي إسرائيل» (108 : 1992a)، فكانت نتيجة الاهتمام بالبناء الأيديولوجي المتأخر للماضي أن دفعت نقطة بداية التاريخ الإسرائيلي إلى فترات لاحقة، مما أدى بالنتيجة إلى كتابة تاريخ الفجوات. ففي رأي سوغن Soggin، وميللر Miller، وهيز Hayes، أن نقطة بداية التاريخ الإسرائيلي ينبغي أن تؤجل حتى بداية مملكة داود، بينما يرى كل من ليمحي Lemche وطومسون Thompson وديفيز Davies، أن بؤرة الاهتمام تنتقل إلى الفترة الفارسية والهلّينية. والنتيجة هي أنه في حين تصبح الفترات السابقة على ذلك التحديد مجردة من التاريخ، تكون بؤرة التركيز على إسرائيل وتاريخها هي المسيطرة تماما إلى حد أن الفجوات لا تصبح لها أهمية جوهرية مادام

الاهتمام يتركز على تحركات إسرائيل الدنيوية. يشير ليمحي وآلستروم وكوت وطومسون ووايتلام إلى الرغبة في تحقيق أشمل لتاريخ فلسطين، ولكن نادرا ما يتم وضع حد فاصل بين التاريخ الفلسطيني والبحث عن إسرائيل القديمة. فمثلا صرح طومسون أن «مسألة ما إذا كان من الممكن كتابة تاريخ إسرائيل يجب أن تأخذ موقع الصدراة في الجدل المستقبلي» (110 : 1992). إلا أن المنطق في نقاشه، كما هي الحال مع غيره من الباحثين «الجدد» عن إسرائيل القديمة، لا يكتسب القوة التي تكفي للتصريح بأولوية دراسة تاريخ فلسطين القديم بشكل منفصل عن هموم الدراسات التوراتية وهيمنتها. وهكذا فإن البحث الجديد عن إسرائيل القديمة قد كشف عن مدى صعوبة الإفلات من قيود خطاب معين يهيمن على البحث الأكاديمي بأساليب غالبا ما يكون المشاركون فيها غافلين عنها. إذ لم يتم استخلاص النتائج الكاملة لتحديد التراث التوراتي في الفترة الفارسية والهلّينية، أو علاقته بالحقيقة التاريخية، في تحرير الماضي من هيمنة إسرائيل[*29] أو التراث التوراتي. وتحدي الخطاب المهيمن، وكذلك محاولات توفير بناءات بديلة للماضي ظلت مقيدة بالفرضيات المهيمنة التي شكلت البحث التاريخي في الدراسات التوراتية، مما ساعد على تهميش دراسة التاريخ الفلسطيني القديم وإسكاتها.

لقد بدأ لوح مرنبتاح الحجري المنقوش الذي اكتشف عام 1896، والذي اكتشف فيه أول ذكر لإسرائيل في نص خارج عن التوراة، بدأ يكتسب أهمية خاصة في الجدل الدائر مؤخرا يشبه الأهمية التي أوليت لنقوش تل دان في دفاعها عن تراث داود التوراتي. فالإشارة المحرجة إلى هزيمة إسرائيل على يد الفرعون مرنبتاح ومفادها «قُضي على إسرائيل، لكن لم يتم القضاء على ذريتها»[*30] التي تظهر في تراتيل الانتصار على الليبيين، أصبحت مركز الاهتمام في الدفاع عن «إسرائيل التوراتية» في مواجهة النزعة التشكيكية لدى أصحاب حركة «البحث الجديد» في إسرائيل القديمة. يدافع بيمسون Bimson بحماسة (1991) عن تاريخ إسرائيل المستوحى من التراث التوراتي، والمبني على تفسيره لهذا النقش. ويصر بعناد على أنه «لا يوجد أي سبب مطلقا للشك في أن إسرائيل التي وردت في هذا الحجر المنقوش هي إسرائيل التوراتية في فترة من قبل المملكة» (14 : 1991)، ويذهب

إلى أنه «من غير المعقول» إنكار هذه العلاقة. فاللجوء إلى ما هو معقول هو جزء من الخطاب الذي يدعي الموضوعية ليدعم التصور المهيمن فيما يتعلق بتاريخ إسرائيل القديمة كما صوّرها خطاب الدراسات التوراتية. وأي آراء معارضة هي ـ وفقا لذلك التعريف ـ غير معقولة ويجب رفضها. ومع ذلك فإن معقولية استنتاجات بيمسون Bimson ليست واضحة للعيان. فهو لا يسهب في شرح طبيعة «إسرائيل التوراتية»، فيما يتعلق بما إذا كانت هي الصورة التي يرسمها العهد القديم في أسفار موسى الخمسة Pentateuch، أو سفر تثنية الاشتراع Deuteronomistic history، أو سفر يشوع Joshua، أو سفر القضاة Judges، وأخبار الأيام الأول والثاني Chronicles أو مزيج من جميع هذه المصادر وغيرها من المصادر التوراتية. وهو يقر بأن النقش لا يوفر معلومات حول التنظيم الاجتماعي لهذا الكيان الذي يُدعى إسرائيل. ولكنه يظل متأكدا بشكل معقول من أن إسرائيل الواردة في نقش مرنبتاح كانت كونفدرالية قبلية، مثل تلك التي نجدها في نشيد دبورة Deborah (14: 1991). تصعب رؤية ما هو منطقي ومعقول في استنتاجه هذا. فالفكرة القائلة إن إسرائيل كانت تنظيما قبليا هي فكرة مشتقة من فهمه للتراث التوراتي[22]. ولا تكون هذه الفكرة معقولة إلا إذا سلمنا بأن هذا التراث يعكس الحقيقة التاريخية في بعض جوانبه فيما يتعلق بالفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي. ولكن تظل مسألة الربط الواضح وغير المشكوك فيه بين الكيان المذكور في نقش مرنبتاح وبين إسرائيل التوراتية كما يراها بيمسون بحاجة إلى إثبات[23]. فالمعلومات الوحيدة الواضحة التي يوفرها هذا النقش هي أن كيانا ما يُدعى إسرائيل كان جيش الفرعون قد واجهه في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد: ولكن هذا لا يثبت أو ينفي أن إسرائيل كانت تنظيما قبليا أو مساحة جغرافية.

وقد لعب نقش مرنبتاح دورا رئيسيا أيضا عند بعض أولئك المنهمكين في البحث الجديد عن إسرائيل القديمة. فإسهام آلستروم Ahlstrom المتميز في تفسير هذا النقش يكمن في إصراره على أن تعبير «إسرائيل» يدل على تلك المساحة من الأرض في منطقة التلال الوسطى في فلسطين. ويؤكد ذلك بافتراض أن الأسطر الأخيرة في هذا الحجر المنقوش لها طريقة

مميزة في الكتابة تساوي بين العناصر المختلفة، وهكذا تكون حور[*31] Hurru مكوّنة من كنعان وإسرائيل حيث تشير كنعان إلى البقاع المأهولة الأكثر كثافة في المناطق الساحلية في السهول، وتمثل إسرائيل منطقة التلال. وهو يتتبع تطور استعمال تعبير إسرائيل من حيث كونه تعبيرا يتعلق بالأرض إلى تعبير سياسي يدل على الدولة التي أنشأها شاؤول في منطقة التلال الوسطى، إلى التعبير المقيِّد اللاحق الذي يحدد وجود إسرائيل في شمال المملكة حتى سنة 722 ق.م. بعد ذلك أصبح هذا التعبير تعبيرا دينيا يدل على شعب يَهْوه، ثم استُعمل بشكل أكثر تحديدا ليشير إلى العائدين حسب قانون عزرا، قبل أن يتحول هذا التعبير ليصبح تعبيرا أيديولوجيا لليهودية. (آلستروم Ahlstrom 118 : 1986). بناء على فهمه لجذور هذا التعبير على أنه تعبير جغرافي، يتابع آلستروم فيقول «مع نشوء مملكة شاؤول أصبح تعبير إسرائيل يعني كيانا سياسيا» (آلستروم 40 : 1986). كان آلستروم أحد أوائل الباحثين الذين أثاروا شكوكا حول الإطلاق الشائع للألقاب الإثنية على مواقع العصر الحديدي الأول، وهو ما يفترض أن يكون مبنيا على الدلائل الأثرية، وكان أيضا رائدا في ترويج فكرة ضرورة دراسة التاريخ الفلسطيني، وهو مشروع طويل الأمد بدا أنه تحقق في دراسته التي نشرت بعد مماته (1993). ومن المفارقات أنه واصل عملية البحث عن إسرائيل القديمة وادعاءاتها بالماضي. فمن الواضح أنه يركز اهتمامه على إسرائيل وعلى تعريف إسرائيل لذاتها، مما يؤدي إلى تهميش أي بُعد فلسطيني. أما تسمية الإقليم الزراعي الذي يشغل المرتفعات الوسطى بأنه إسرائيل، أي الضفة الغربية المحتلة الآن، فإنه يدعم، ولو بغير قصد، ادعاء إسرائيل (الحالية) بأنها تملك هذا الإقليم، بناء على الحق التاريخي.

كذلك فقد كان لنقش مرنبتاح مركز الصدارة في بحث كوت Coote عن «الأفق الجديد» الذي يرى أنه نتيجة ذلك البحث الجديد. ووصفه لإسرائيل بأنها «قبيلة فلسطينية أو اتحاد كونفدرالي قبلي» مبني على قراءة لنقش مرنبتاح والدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات القبلية (93 ـ 71: 1990). توفر دراسة التنظيم القبلي والعلاقات الاجتماعية والاستيطان أساسا قيما لدراسة التاريخ الفلسطيني بشكل عام. إلا أن كوت استخلص، كما فعل بيمسون Bimson، مجموعة من النتائج المسرفة التي يصعب استخلاصها

من الإشارات الغامضة في نقش مرنبتاح إلى إسرائيل. فإسرائيل تمثل كيانا سياسيا بالنسبة إلى كوت Coote، وعلى حد تعبيره فهي «اسم لبنية ذات سلطة» (كوت Coote 40: 1991)، وهي تنظيم قبلي، كانت مصر الإمبريالية مضطرة إلى مواجهته ومن ثم المحافظة عليه حتى تقوِّي من نفوذها في مواجهة الشعوب البحرية[*32] والحِثِيين في الشمال. (أنظر أيضا 45: 1991). ما يقلل من أهمية دراسة كوت القيّمة حول العلاقات السياسية الاجتماعية في فترة أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي هو الانشغال بالبحث عن إسرائيل القديمة. كما أن لجوءه إلى إجراء تشبيهات أنثروبولوجية لفهم طبيعة المجتمع القبلي - إسرائيل كقوله إن إسرائيل: لم تكن «جماعة دينية موحدة، أو أسرة أو أمة أو جماعة عرقية» (71: 1990) - يحكمه البحث عن إسرائيل. ومن ثم يظل التاريخ الفلسطيني مهمشا وصوته غير مسموع. ويؤكد كوت أن «جذور إسرائيل، إن لم تكن محددة، ليست من وجهة نظري، لغزا». (المقدمة viii: 1990). وبينما يعترف كوت أن الكيان المشار إليه في نقش مرنبتاح على أنه إسرائيل يسبق زمنيا التحول في الاستيطان إلى مناطق المرتفعات (72: 1990)، إلا أنه يستمر في الربط مباشرة بين ذلك الكيان وسكان المستوطنات، مؤكدا بذلك الفرضية التي هيمنت على خطاب الدراسات التوراتية والتي تحكمت في صياغة علم الآثار المتعلق بإسرائيل القديمة: «في القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، كان هناك شعب يدعى إسرائيل استوطن القرى التي كانت قد أنشئت حديثا في مناطق المرتفعات» (72: 1990). أما اللجوء إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية وإجراء التشبيهات التاريخية فلم ينجح في تحرير دراسة تاريخ فلسطين القديم من هيمنة إسرائيل على الماضي. ويبلغ إحكام هذه الهيمنة حدا يسمح لكوت بأن يقول: «كان التماسك السياسي لمعظم فلسطين معتمدا على قدرة إسرائيل على الحياة» (75: 1990).

هناك تشابه كبير بين لوح مرنبتاح الحجري المنقوش ونقوش تل دان Tel Dan[*33]، التي لا تقدم دلائل ملموسة على طبيعة إسرائيل القديمة وموقعها، أو علاقتها بالأحداث والقصص التي جاءت في عدة مواقع من التوراة العبرية. وتنصب المشكلة على مغزى ومعنى التحديد الذي جاءت به النقوش المصرية حول إسرائيل ومقارنتها بكيانات أخرى أو مواقع أخرى ذكرت في

السياق نفسه. يبدو أن إسرائيل مميزة بأسماء المناطق: عسقلان، جازر (جيزر)[34*] Gezer ويانوعام Yano'a^m [35*] برمز للتمييز يُستعمل في مواضع أخرى لتحديد «الشعب» أو «شعب غريب». وقد استعملت هذه السمة لتدعيم الكتابات التاريخية المتخيلة لكل من أولبرايت Albright وآلت Alt، والتي تقول إن قبائل إسرائيل جاءت من خارج فلسطين، مما يدل على أنها مجموعة بدوية، كانت على ما يبدو تتجه نحو الاستقرار، بالإضافة إلى التصورات الأخيرة التي جاء بها آلستروم وكوت والتي تعرض فكرة كون إسرائيل شعبا أصليا في المنطقة. يبدو بوضوح أن هناك بعض الاختلافات، ولكن الاستنتاجات المسرفة والمتعارضة في كثير من الأحيان، والتي استخلصت من هذه الدلائل المغرية تبتعد كثيرا عن الدلائل المتوافرة. فأقصى ما يمكن أن تكشف عنه النقوش هو أن إسرائيل كانت موجودة في المنطقة في ذلك الوقت ومن الممكن أن يكون لها دور مهم نسبيا. لكن يصعب جدا استعمال هذه النقوش لدعم النظريات المفصلة والادعاءات المفرطة التي بُنيت عليها. فنقش مرنبتاح رغم كل ذلك هو نقش ملكي، وهو عرضة لكل التحفظات التي تلازم الدعاية الملكية. من المستبعد أن يكون هؤلاء النسّاخ المصريون قد ركزوا انتصاراتهم على كيانات لا أهمية لها. والنقش يمثل إحساسا معينا بالماضي يجسد ادعاءات أيديولوجية وسياسية لمصلحة الفرعون المصري.

ركزت العديد من الكتابات التي أعادت بناء الماضي على الترتيب الجغرافي المفترض لهذا الجزء من النقش. فالترتيب المفترض المتعلق بالجنوب والشمال كُرس لدعم فرضية وجود إسرائيل في الشمال، وكما رأينا، كانت تلك ادعاءات كوت Coote في أن إسرائيل كانت تنظيما قبليا استخدمه فرعون مصر كحاجز في وجه التهديد الحثّي في الشمال[24]. وهو تحليل لا يكاد يكون مقنعا، إذ إن ذلك التنظيم المتصور يعتمد على ذكر مدينتين أو ثلاثة، وموقع إضافي غير محدد. فموقع يانوعام Yano'am غير معروف بل إنه محل خلاف، مما يعني أن محاولة استنباط استنتاجات بعيدة المدى من التنظيم الجغرافي الوارد في النص وتحديد موقع إسرائيل يذهب أبعد كثيرا مما تكشف عنه الدلائل المتوافرة[25]. ويجب أن تثار الشكوك حول البناء الدائري Ring structure الذي لا يظهر إلا في الجزء

القصير الوارد في نهاية النقش، والذي يأتي مباشرة قبل ذكر القائمة المعتادة للألقاب الفرعونية. حتى لو كان هناك بناء أدبي رسمي، كما يوحي آلستروم Ahlstrom وإيدلمان Edelman وبيمسون Bimson، يصعب التأكد من أن هذا يعكس تنظيما جغرافيا إذا ما أخذنا في الاعتبار العدد الصغير من المواقع التي تم ذكرها. وبالطبع لا يوفر هذا أي معلومات حول التنظيم الاجتماعي، أو المدى الجغرافي للكيان المدعو إسرائيل. على الرغم من ذلك، فإن قراءة نقش مرنبتاح أصبحت جزءا من الشبكة المتداخلة التي تشكل الفرضيات المهيمنة على علم الآثار الخاص بإسرائيل القديمة: ينبغي ربط إسرائيل بالتحول في نمط الاستيطان إلى منطقة المرتفعات في فلسطين في الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي إلى أوائل العصر الحديدي، لذلك يجب أن تكون إسرائيل التي تحدث عنها مربنتاح في منطقة التلال. إنها حلقة مفرغة تثبت نفسها بنفسها، إذ إن الإشارة إلى النقش يتم اللجوء إليها، كما فعل بيمسون Bimson، لتأكيد الارتباط الأثري الذي يُستعمل فيما بعد لتبرير صورة «إسرائيل التوراتية» كما جاءت في سِفري يشوَّع والقضاة. فالكيان المدعو إسرائيل، وهو الكينونات العديدة التي يدّعي فرعون مصر هزيمتها، لا يعد مجرد وجه من أوجه التاريخ الفلسطيني أو أحد العناصر المشاركة فيه، بل إنه يهيمن على التاريخ الفلسطيني برمته ويمنع بناء أي تصور بديل للماضي.

أما الصفة المميزة الأخرى للبحث «الجديد» عن إسرائيل القديمة فكانت تلك المحاولة الداعية لإثارة الشكوك حول البناءات المستوحاة من التوراة في ضوء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وتأويل المعطيات الأثرية المتبقية من المنطقة. فكتاب ليمحي Lemche الضخم عن إسرائيل المبكرة بدأ باعتباره نقدا لأعمال مندنهول Mendenhall وغو تفالد Gottwald، وهو يحتوي على كم هائل من المعلومات الأنثروبولوجية حول طبيعة العلاقات الاجتماعية في فلسطين القديمة. يعترف ليمحي بأن دراسة الأعمال الأنثروبولوجية الحالية تأخذ حيزا كبيرا وغير متناسب من النص (المقدمة XIV :1985)، لكنه يقدم أحد أكثر المعالجات الشاملة للنظرية والمعلومات الأنثروبولوجية كجزء من العمل النقدي الذي يطلق عليه «فرضية الثورة The revolution hypothesis، والبناءات السابقة للماضي التي جاء بها كل من آلت Alt ـ نوث Noth ـ

أولبرايت Albright ـ برايت Bright. بالمثل، فإن كوت ووايتلام Coote & Whitelam (1987)، وكوت Coote (1991) وطومسون Thompson (1992a)، يعتمدون اعتمادا كبيرا على الأنثروبولوجيا الاجتماعية في محاولتهم فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية في فلسطين في نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي. إلا أنه في جميع هذه الأعمال، نجد أن الانشغال باسم إسرائيل، وبالبحث عن إسرائيل القديمة، وقوة خطاب الكتاب التوراتيين في تصورهم لتاريخ إسرائيل المختلق، يستمر في إعاقة البحث عن التاريخ الفلسطيني القديم ويشوهه.

أما آلستروم (1986) فهو أكثر تحفظا في إجراء التشبيهات الأنثروبولوجية، لكنه كان من أوائل الذين أثاروا الشكوك حول صدقية التسميات العرقية المستخدمة في التمييز بين مواقع العصر الحديدي الأول. فقد كان آلستروم على وعي تام بأن علم الآثار وحده لا يثبت شيئا عن أصول إسرائيل وإنما يوفر المعلومات عن أنماط الاستيطان والسمات الثقافية لسكان فلسطين «خلال الفترة التاريخية التي ظهرت فيها إسرائيل». (19: 1986 ,19: 1991a)، منبها إلى أن أيديولوجية إسرائيل الكبرى وجهت تفسير المعلومات الأثرية (24: 1991a)[26]. يفهم آلستروم أن الدافع وراء ازدياد عدد السكان في مناطق التلال القليلة العدد في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد كان الرغبة في الهروب من الحروب والقلاقل في تلك الفترة (أنظر أيضا كالاوي Callawey، كوت ووايتلام Coote & Whitelam)، ويلجأ إلى وثائق العمارنة ليبين أنه يمكن استنتاج أن القلاقل الاجتماعية والثورات كانت عوامل أساسية تسببت في حركة مجموعات من الناس في جميع الاتجاهات. (آلستروم 19 ـ 18: 1986). إلا أن الدلائل المادية المتعلقة بمنطقة التلال الوسطى في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م. كانت كنعانية، كما كانت الآثار المادية في منطقة النقب في 1200 ق. م: ويتضح ذلك من تصميم المنازل والأواني الفخارية (28 ـ 27: 1986)[27]. يردد ليمحي في أعماله (1985) هذه الاستنتاجات (83: 1986) بشأن وجود استمرارية دينية وثقافية من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي المبكر، وكذلك يفعل كل من كوت ووايتلام (1987) وكوت (1991) وطومسون Thompson (1992a).

يبدو ظاهريا أن هذه الأعمال تدل على وجود اهتمام بالسمات العامة للتاريخ الفلسطيني في أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي، ويوضح آلستروم أن التحول في نمط الاستيطان كان ذا دوافع محلية Indigenous ويمكن تفسيره في ضوء العوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة في المنطقة. إلا أن افتتانه المتواصل بالبحث عن إسرائيل القديمة، قد حال بينه وبين تكوين تصور للماضي، والتعمق في دراسة التاريخ الفلسطيني من هذه الزاوية، حتى أنه يصف دراسته بأنها أساسا محاولة «لإيجاد موقع للإسرائيليين في التاريخ» (1: 1986). وعلى الرغم من تشكيكه في العديد من المسلمات الرئيسية للتصورات التقليدية لهذه الفترة، فإنه يظل مكبلا بالتصورات المستوحاة من التوراة حول فترة ما قبل المملكة والفترة الملكية في التاريخ الإسرائيلي. وهكذا يجادل بأن الزيادة في حراثة الأرض في منطقة المرتفعات قد أدت إلى وجود عشائر وقرى أكبر وأدت في النهاية إلى المركزية وإلى «تكون وحدة سياسية شاملة، وهي الدولة الإقليمية». (20: 1986). هكذا تبدأ إسرائيل في الظهور لتهيمن على التاريخ الفلسطيني وتسكته[28].

يشكو ليمحي Lemche من أن هذه التفسيرات تدور في حلقة مفرغة، وهي شائعة في الدراسات التوراتية، ويبين أن الفترة بحدود سنة 1200 ق. م. لا توصف أبدا بأنها طور آثاري Archacological Phase بدلا من أن تكون عصرا تاريخيا:

يبدو أن سبب ذلك هو أن بعض علماء التاريخ يجدون البحث عن «إثبات» وجود إسرائيل أكثر إثارة، إذ ينظرون حتى إلى أقل التغيرات في تفاصيل فن العمارة، أو الأواني الفخارية، أوتصميم المدن وغيرها، على أنها دليل على دخول عوامل جديدة (خارجية) بين السكان الأصيين في ذلك الوقت.

(ليمحي 386: 1985)

يدعو ليمحي Lemche إلى دراسة فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي في فلسطين من «منظور دولي»، بطريقة أعمال المسح التاريخية نفسها المبنية على علم الآثار الذي يبحث في منطقة البحر المتوسط، وبخاصة اليونان[29]. كما أنه يشير مثلما فعل آلت Alt إلى أن مجرد التغير في أنماط الاستيطان لا يؤكد أن هذا التغير كان نتيجة

هجرة خارجية. فالمطلوب هو فهم واضح لاستمرارية، أو عدم استمرارية، الآثار المادية التي ترتبط بمثل ذلك التحول في الاستيطان. ويلاحظ أن ذلك لم يكن ممكنا بالنسبة لـ آلت لأن استنتاجاته مبنية على النصوص المتوافرة، إذ إنه لم يكن مطلعا على المعلومات الآثارية. وذلك أدى إلى استنتاج مهم يتناغم مع غيره من نتائج أبحاث المنهمكين في البحث الجديد عن إسرائيل القديمة:

وهذا الاستنتاج هو:

ليس هناك أي لبس في استنتاجنا: فعلم الآثار والنصوص لا يمكن إدراجهما تحت صيغة واحدة. ولذلك كان من الصحيح استبعاد أهمية الروايات التراثية المتعلقة بموضوع الاستيطان كما جاءت في العهد القديم، والنظر إليها باعتبارها تعبيرا متأخرا جدا عن نشوء الدولة التي ظهرت في الحقبة الأخيرة من فترة المملكة وبخاصة في فترة ما بعد فقدان الاستقلال الذاتي. وينبغي أن تؤخذ نتائج هذه الحقبة بجدية، فليس مقبولا بعد الآن محاولة «حفظ ماء الوجه» لأجزاء معينة من الروايات المتعلقة بالاستيطان. بل ينبغي، بدلا من ذلك، أن نتخلص لأسباب تاريخية، من فكرة الاستيطان ذاتها كما تتجلى في العهد القديم، ففي إعادة بناء مسار الأحداث في نهاية الألفية الثانية، ينبغي على المرء، على أقل تقدير، أن يتجاهل تماما التراث التوراتي، وأن يحاول بدلا من ذلك، إعادة بناء الماضي بناء على المعطيات الآثارية، دون أن يعمل حسابا لمسألة ما إذا كان الكنعانيون أو الإسرائيليون هم الذين كانوا فاعلين في هذا الموقع أو ذاك. إذا كان الوصف الآثاري لحضارة فلسطين في العصر الحديدي يدل على وجود استمرارية بين هذه الفترة وحضارة العصر البرونزي المتأخر، إذن يجب ببساطة أن نتجنب الحديث عن أي هجرة إسرائيلية مركزة دخلت فلسطين في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد. وأعني بكلمة «مركزة» وجود غزو إسرائيلي جماعي كذلك وجود هجرة جماعية غير منظمة للإسرائيليين الرحّل إلى داخل البلد.

(ليمحي 391: 1985)

يبدو أن مثل هذه الأفكار تحرر النقاش من قيود التوراة العبرية ومن البحث عن إسرائيل القديمة. فنحن نجد هنا تعبيرا عن الحاجة إلى دراسة تاريخ المنطقة بعيدا عن التسميات العرقية المقيدة والتي هيمنت حتى الآن على مجرى النقاش وضللته ـ علما بأن ليمحي Lemche لا يفصح عن ذلك بوضوح. مرة أخرى نجد أن استنتاجاته حول أنماط الاستيطان والتغير الاجتماعي توضح مجموعة الفرضيات المتفق عليها، والتي حددها كوت

باعتبارها جزءا من «أفقه الجديد»: فالحضارة الأفقر ماديا التي تلت تدمير المراكز الحضرية المختلفة خلال العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، ليست «مرادفة للحضارة الجديدة ولكنها نتيجة عوامل أقل مؤاتاة بكثير من تلك التي ميزت مجتمعات العصر الحديدي» (ليمحي 400: 1985). فالأحداث المثيرة في المنطقة ليست مرتبطة بالهجرة الإسرائيلية، ولا يوجد أي شيء في السجل الآثاري وحده يدل على وجود كينونة اسمها إسرائيل إذ إن تقييم إسرائيل على أنها ظاهرة سياسية، يعتمد على استخدام التراث التوراتي. ومما يثير الاهتمام أن ليمحي يقول إن «المهمة الأكثر إلحاحا بالنسبة إلينا هي الاعتراف بجهلنا» (414: 1985). هذه الملاحظات ذات الأهمية العامة يتفق عليها عدد متزايد من الباحثين. ويبدو أن ذلك مؤشر على نهاية البحث عن إسرائيل القديمة في الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي حتى بداية العصر الحديدي، وهذا موقف مضاد للعبارات الإيجابية ومحاولات بناء ماض متخيل لدى أولئك الذين يستتكرون سلبية هذا «البحث الجديد». وفي هذا الصدد ينبه ليمحي - عن حق - إلى أنه:

كانت النتيجة دائما سردا لتاريخ إسرائيل في فترة ما قبل المملكة وكان ينبغي إعادة النظر في هذا التاريخ باستمرار، كلما ظهرت نتيجة التنقيبات الأثرية والمعلومات الجديدة أو كلما ظهرت رؤية اجتماعية جديدة. وترتب على هذا عمليا تكوين صورة عن التاريخ المبكر لإسرائيل أخذ الباحثون يبتعدون عنها بالتدريج بعد مجادلات طويلة أظهرت أن الموضوع المتنازع عليه مبني على مواقف لا يمكن الدفاع عنها في ضوء المعلومات الجديدة.

(1985 :414.415)

يقترح ليمكه دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي لفلسطين. لكن المشكلة، كما هي الحال مع جميع هذه الدراسات، هي أنه يتضح بعد حين استحالة الإفلات من قيود التاريخ الإسرائيلي. وهذا يتجلى في رد ليمحي (1991) على الآخرين المنشغلين بالبحث الجديد عن إسرائيل، حيث إن تركيزه على جذور إسرائيل أو نشوئها يؤدي إلى التعتيم على الحاجة إلى متابعة اقتراحاته. فالاهتمام بالتاريخ الفلسطيني يضيع من جراء البحث المتواصل عن إسرائيل القديمة في أي فترة من الفترات.

يقدم البحث المشترك بين كوت ووايتلام (1987) إيضاحا إضافيا حول مشكلة تخليص البحث عن تاريخ فلسطين من سيطرة الخطاب المهيمن

واهتمامه الطاغي بماضي إسرائيل المتخيل. فمعالجتهما لنشوء إسرائيل المبكرة تدخل في إطار فهم عام لتاريخ فلسطين يهتم بأنماط الاستيطان من بداية العصر البرونزي حتى الوقت الحاضر، بالإضافة إلى العلاقات الاجتماعية والجغرافية في تاريخ المنطقة. ومثلما فعل ليمحي، يفصح كوت ووايتلام عن اهتمام بالتاريخ الديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي لفلسطين القديمة. ومع ذلك يظل من الضروري البحث عن إجابة للسؤال: «كيف تتلاءم فكرة نشوء إسرائيل في بداية العصر الحديدي مع مسار الزمن» (كوت ووايتلام 8: 1987). فبعد أخذ مبادئ الدراسة التاريخية في الاعتبار، وكذلك دراسة التاريخ الفلسطيني من منظور بروديل Braudel الخاص «بالمدى الطويل» La Longue Duree، يتركز الاهتمام بقوة على «نشوء إسرائيل: التحول في العصر الحديدي الأول» و«تكوين دولة داود». يحدد المؤلفان أهدافهما بـ «محاولة تقديم رؤية مركبة جديدة لتاريخ إسرائيل المبكر عن طريق دمج اللمحات المستمدة من فروع المعرفة المختلفة، وكذلك الدراسات التوراتية الحديثة... «فنحن نسعى إلى تأييد تصور معين لنشوء إسرائيل وإلى إثبات كيف أن هذا التصور يؤثر في الطرق التي تكونت بها نظريات لاحقة عن إسرائيل، وكيف وظفّت هذه في الأوساط الدينية (كوت ووايتلام 16 : 1987). قد يكون الجدل من منظور التاريخ الفلسطيني المتعدد الأبعاد ولكن تركيزهما على «نشوء إسرائيل» يعني أن البحث راسخ بثبات في إطار البحث عن إسرائيل القديمة، كما حدد وجهته «خطاب الدراسات التوراتية»[*36].

من هذا المنطلق، لا يشكل تاريخ فلسطين إلا خلفية لماضي إسرائيل. فإسرائيل هي التي تطالب بامتلاك الأرض والماضي. وفي صميم هذه الدراسات، وكذلك في أعمال آلستروم وليمحي، صعوبة أساسية في مواجهة هذه المشكلة. فقد حاولا الترويج لفكرة وجود تاريخ فلسطيني كموضوع قائم بذاته ولكنهما في الوقت نفسه، ظلا دواما مقيدين بخطاب الدراسات التوراتية الذي أصر على ادعاءات إسرائيل بحقها في الماضي. كما رُفضت بشدة الفكرة القائلة إننا لا يمكن أن نعرف عن تاريخ إسرائيل في الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي حتى بداية العصر الحديدي إلا القليل أو حتى لا شيء على الإطلاق، أو أن تاريخ إسرائيل في هذه الفترة يجب ألا

يلعب إلا دورا ثانويا في محاولة فهم التاريخ الفلسطيني القديم. ومن هنا استطاع كوت ووايتلام أن يقولا في الفصل الافتتاحي لكتابهما «إننا لسنا معنيين بأسباب نشوء إسرائيل ـ مع أن هذا بذاته ليس موضوعا غير ذي جدوى، بينما نبدي اهتماما أكبر بمجموعة العوامل والظروف التي نشأت إسرائيل في ظلها». (كوت ووايتلام 24: 1987). لكن التشويش والخلط يظل موجودا وهو يتمثل في أنه على الرغم من أنهما يبحثان في العوامل التي أدت إلى التحول في أنماط الاستيطان خلال الفترة الانتقالية من آخر العصر البرونزي إلى بداية العصر الحديدي، ويقارنان هذه التحولات في الاستيطان خلال التاريخ الفلسطيني، فقد افترضا فرضية أساسية وهي أن هذا التحول يخص إسرائيل، وإسرائيل وحدها. لذلك، فإن هذا الخلط يسهم في إسكات التاريخ الفلسطيني. وقد قاما بمحاولة تحليل «أنماط وعمليات التاريخ الفلسطيني» (27: 1987) فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية وكذلك أنماط الاستيطان. ولكن افتراضهما أن «المعلومة» المتفق عليها بوجه عام والمتعلقة بنشوء إسرائيل هي التوسع في القرى والاستيطان الزراعي في منطقة المرتفعات الوسطى من فلسطين منذ القرن الثالث عشر حتى الحادي عشر ق. م ـ هذا الافتراض يضعف تأثير أبحاثهما سالفة الذكر، بل يكاد يُسكتها (28 ـ 27: 1987). كذلك فإن نتائج دراستهما الدقيقة للآثار المادية للمواقع التي نُشرت نتائج اكتشافاتها الأثرية حول هذه الفترة تتفق مع الدراسات الأخرى العديدة لأولئك الباحثين الذين ذهبوا إلى أن جميع المؤشرات تدل على استمرارية الثقافة المادية من أواخر العصر البرونزي حتى أوائل العصر الحديدي. ويثير كوت ووايتلام الأسئلة حول استخدام التسميات العِرقية Ethnic Labelling مثل «إسرائيل» لوصف سكان العديد من هذه المواقع ولكنهما يقولان في الوقت نفسه إنهما يعالجان مسألة نشوء إسرائيل. ويطوران تفسيرا لهذا التحول في نمط الاستيطان في ضوء الفوضى الاقتصادية التي تفشت في معظم أنحاء شرق البحر المتوسط خلال الحقبة الأخيرة من العصر البرونزي، وهذا وجه مهم لفهم العمليات التي أثرت في أنماط الاستيطان الفلسطيني خلال هذه الفترة والفترات اللاحقة. إلا أن كوت ووايتلام ألقيا ظلا من الغموض على هذه القضية بادعائهما «أن الاستيطان في القرى في المناطق الداخلية من البلاد أخذ

شكلا سياسيا وإثنيا أوليا في الاتحاد الفضفاض للشعب الذي أطلق على نفسه اسم إسرائيل». (136 : 1987). لقد وقفت قوة خطاب الدراسات التوراتية في بحثها عن إسرائيل القديمة في وجه الوصول إلى فهم واضح للنتائج التي تنطوي عليها النقاط الأساسية في بحثهما. فقد كان من المستحيل الإفلات من خطاب الدراسات التوراتية السائد حتى حينما يتضح أن هذا الخطاب واجه تحديات أساسية. كما أن كوت ووايتلام يتطرقان (177 ـ 176 : 1987) إلى الأسباب التي أدت بالدراسات التوراتية ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر وبعد ذلك، إلى الاحتفاظ بالتصور التوراتي حول نشوء إسرائيل المبكرة وتوحدها، دون أن يخطر ببالهما أنهما أسهما في الحفاظ على هذا التصور.

إن فهم سكان إسرائيل على أنهم سكان من أهل المنطقة هو الخيط المشترك بين كل هذه الأعمال، وكان هذا الرأي يُعد في ذلك الحين متطرفا، لأنه ارتكز على أعمال مندنهول وغوتفالد وقام بنقدها. إلاأننا يجب أن ننتبه إلى أن هذا التطرف بحد ذاته هو الذي حجب النتيجة البالغة الأهمية والتي كنا نشير إليها تلميحا طيلة الوقت، وهي على وجه التحديد: محاولة الترويج لدراسة التاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته، وتوفير تصور بديل للماضي يتحدى الفهم الشائع للحاضر الذي يكون فيه الماضي والحاضر ملكا لإسرائيل. يلمح كوت ووايتلام (176 : 1987) إلى هذه المشكلةولكنهما غير قادرين بتاتا على التعبير عنها بشكل واضح: «فرضيتنا التي يشترك معنا فيها العديد من المؤرخين وعلماء الآثار، والتي تفيد أن نشوء العديد من المواقع القوية في منطقة المرتفعات وأطراف فلسطين خلال الفترة الانتقالية من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي يجب الربط بينها وبين شعب واحد فقط هو الشعب الإسرائيلي. وهذا بحد ذاته مصادرة على المطلوب، فهما يسألان: لماذا تعتم هذه الروايات التراثية على طبيعة نشوء إسرائيل ولكنهما لا يسألان عن عملية التعتيم الكبرى، وهي إسكات التاريخ الفلسطيني. وبالمثل، يذهب كوت ووايتلام في أحد هوامش مقدمة كتابهما (هامش13 , 197 : 1987) إلى ما يلي: «نحن لا نفترض أننا عندما نشير إلى الاستيطان في بداية العصر الحديدي في مناطق المرتفعات على أنه «إسرائيلي»، أننا قلنا شيئا وصفيا عن إسرائيل المبكرة. إننا نركز في بحثنا

لتاريخ «إسرائيل» على المستوطنات الواقعة في المرتفعات لأن هذه هي أوضح معلومات أثرية تسبق ظهور مملكة إسرائيل ويهودا فيما بعد». إن استخدام علامات الاقتباس ينم عن عدم ارتياح إلى استعمال لفظ إسرائيل ولكن ذلك لا يساعد عمليا في تحرير الجدل الدائر حول تاريخ المنطقة من هيمنة الدراسات التوراتية[30].

لقد أخذ يتضح الآن أنه حالما تتم إزالة لفظ «إسرائيل» من الجدل الدائر، فإن هؤلاء الباحثين يصفون أو يحاولون وصف العوامل السياسية والاجتماعية التي أدت إلى إعادة تنظيم Realigment المجتمع الفلسطيني. فمحاولة كوت Coote (1990) اللاحقة لترويج فهمه للاتجاهات الشائعة في البحث الجديد عن إسرائيل القديمة توضح النقطة التي نرمي إليها. ولكن عنوان عمله، وهو «إسرائيل المبكرة، أفق جديد» Early Isreael: New Hirizon، يوضح أين يقع مركز الاهتمام في حقيقة الأمر. فهو يلاحظ أن حجر مرنبتاح المنقوش وانتشار الاستيطان كانا معروفين لوقت طويل، ويصر على أن «تلك المستوطنات الجديدة كانت تضم معظم السكان المدعوين بالإسرائيليين في النصوص الدينية المبكرة». فالفرضية المهيمنة في قراءة نقش مرنبتاح والدلائل الآثارية هي فهمه الخاص للعديد من المواد التوراتية التي أنتجت في بلاط داود الملكي. وهذا جزء من هيمنة خطاب الدراسات التوراتية التي تخيلت ماضيا جاهد العديد من الباحثين التوراتيين وعلماء الآثار للإفلات منه ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك. يتضح هذا في تفسير كوت Coote لأفقه الجديد، فعلى حين أنه يقر بأن سكان المستوطنات هم سكان محليون إلى حد بعيد يدعي أن «إسرائيل كانت اتحادا قبليا قويا طوره زعماء مصريون وفلسطينيون» (5: 1990)، أو أن «سكان تلك المستوطنات الجديدة زادوا من حجم قبائل إسرائيل، التي كان الفلسطينيون الغربيون يعتبرون زعماءها البديل الشرعي للحكم الأوروبي والأناضولي» (5: 1990). يعترف كوت أن إسرائيل ومستوطنات مناطق المرتفعات لم يكن لها الامتداد الجغرافي نفسه ويحاول تفسير ذلك بقوله:

على الرغم من ذلك، فإن انتشار الاستيطان وجذور إسرائيل لم يكونا يعنيان الشيء نفسه. فحجم الاستيطان لم يكن له امتداد إسرائيل نفسه، وإسرائيل كانت قوة قبلية قبل التحول في أنماط الاستيطان، وانتشار الاستيطان في مناطق كثيرة غير تلك التي أصبحت إسرائيلية قبل

انتشار القرى في منطقة المرتفعات. كان للإسرائيليين علاقات هناك، ولكن معظم الإسرائيليين كانوا متواجدين في مناطق أخرى، في منطقة السهول الشمالية والمستوطنات البعيدة. وفضلا عن ذلك لم يكن هناك أي شيء مميز في انتشار الاستيطان أنتج إسرائيل التي سكنت المرتفعات. وقد كان مجتمع إسرائيل الذي سكن المرتفعات مثل شعبها، امتدادا لإسرائيل الفلسطينية في القرن الثالث عشر ق. م. من الصحيح أن استيطان المرتفعات كان مرتبطا ببقاء اسم إسرائيل القديم العهد ولكن ليس له أي علاقة بجذور إسرائيل.

(كوت 115: 1990، وقد أكد ذلك مرة أخرى في كتابه الآخر 45: 1991)

لكن المشكلة تظل في استخدام لفظ «إسرائيل» المضلل والادعاءات بمعرفة الحقيقة فيما يتعلق بطبيعة التنظيم الاجتماعي لهذا الكيان بناء على نقش مرنبتاح والتراث التوراتي. ليس هناك أي دليل يثبت وجود اتصالات لإسرائيل في منطقة المرتفعات قبل حدوث التحول في الاستيطان. وقد استعيض عن الافتراض السابق القائل إن التحول في الاستيطان مرادف لنشوء إسرائيل بفرضية أخرى هي أن ذلك كان امتدادا لإسرائيل القبلية. هكذا، تظل إسرائيل نقطة التركيز الأساسية والمهيمنة على مجمل التاريخ الفلسطيني. بعد ذلك يبتعد كوت عن استنتاجات كوت ووايتلام التي تقول إن التحول في الاستيطان كان مرتبطا بالفوضى الاقتصادية التي تفشت في شرق البحر المتوسط في تلك الفترة، ليؤكد أن التحول في الاستيطان كان سببه تغير في الظروف السياسية حيث كانت «إسرائيل القبلية كيانا سياسيا تسمح له ظروفه بالإشراف على التوسع في الاستيطان والزراعة في المناطق التي أصبحت فيما بعد إسرائيل المرتفعات، ولا بد أن تكون قد تأثرت بالتغيرات السياسية». (44: 1991 , 116: 1990). يستنتج كوت أن هذا أدى إلى تحول من الاتحاد القبلي في مناطق السهول الشمالية الواقعة عند حدود فلسطين، والمرتبطة بمصر، إلى اتحاد قبلي موجود أساسا في مناطق المرتفعات الوسطى، كان في البداية مرتبطا بمصر، ثم تحرر منها فيما بعد وذلك بعد سقوط المملكة الجديدة. هذا الكيان الأخير هو الذي كان منغمسا في صراع السيطرة على مناطق الفلستيين الساحلية. وتدل العديد من تحليلاته هذه على نوعية المسائل وعمليات التحول في الاستيطان، والتنظيم الاقتصادي والسياسي الذي ينبغي أن يكون محور التاريخ الفلسطيني لهذه الفترة. على الرغم من ذلك، فإن التاريخ الفلسطيني تم إسكاته بفعالية

بسبب عدم القدرة على الإفلات من قبضة البحث المهيمن عن إسرائيل القديمة التي تسيطر على الماضي عن طريق إعاقة أي روايات بديلة عن الفترة الانتقالية من العصر البرونزي المتأخر إلى بداية العصر الحديدي. أما ما يطلق عليه كوت تعبير «أسس الثورة» (1990:7) فليست ثورة من وجهة نظرنا وفهمنا لطبيعة إسرائيل المبكرة، فيما عدا كونها إيضاحا لدعوة ليمحي إلى الاعتراف بهذا الجهل. إن أهمية دراسة كوت للمجتمع القبلي دون الإشارة إلى «إسرائيل»، لا تكمن في بحثه عن إسرائيل القديمة بقدر ما تكمن في اهتمامه بالتاريخ الفلسطيني المحرر من سيطرة هذا الماضي المتخيل، كما شيدته الدراسات التوراتية قياسا على فهمها للدول القومية الأوروبية وظهور الصهيونية في القرن التاسع عشر.

يتضح هذا الخلط المستمر وعدم القدرة على الإفلات من قيود البحث عن إسرائيل القديمة، أو الخروج عن إطار خطاب الدراسات التوراتية، في عمل طومسون T.L. Thompson (1992) بعنوان: «التاريخ المبكر للشعب الإسرائيلي: من المصادر المكتوبة والآثارية»[37*] The Early History of the Israel People: From the Written and Archaeological Sources. فهذا العمل نقد شامل للكتابات التاريخية التوراتية يتفق في العديد من جوانبه، كما يختلف كثيرا مع، أعمال كل من آلستروم، وكوت، وليمحي ووايتلام[31]. يشير طومسون، في محاولة وصف ما يطلق عليه «البحث عن نموذج جديد New Paradigm لتاريخ إسرائيل» (105 : 1992a)، إلى «أزمة التأريخ التي أدى إليها التفكيك السريع للتاريخ التوراتي» ابتداء من السبعينيات وحتى الآن. على الرغم من ذلك فإن دراسة طومسون، شأنها شأن العديد من الأعمال الأخرى، مقيدة بذلك التشويش والخلط الذي يؤدي إليه البحث عن إسرائيل القديمة كما يوحي عنوان كتابه. هكذا نجده يصف الوضع الحالي بالكلمات التالية:

> هذه الأبحاث الأخيرة، منذ منتصف الثمانينيات تأخذ منحى جديدا يبدو أنه واعد للغاية، ويبتعد بنا عن ذلك التاريخ المعتمد على تحليلات هشة للأبحاث التوراتية ونتائج التنقيبات عن الآثار التي اعتمدت أكثر مما ينبغي على تاريخية المنظور التوراتي، ويوجهنا نحو تاريخ مستقل حول جذور إسرائيل.

(طومسون 107: 1992)

يستنتج طومسون - في معرض ثنائه على دراسة فينكلشتاين، ضمن نقد

أشمل ـ أن كتاب فينكلشتاين يؤسس لقاعدة صلبة لنا جميعا نستطيع أن ننطلق منها لبناء تاريخ دقيق ومفصل وصائب منهجيا لإسرائيل (161 : 1992a). ولكن كيف يتسنى ذلك، إذا كانت صفة «إسرائيلي» سوف تُستبعد من تفسير المعلومات، وإذا كان هناك اتفاق على عدم وجود فرق بين هذه الحضارة المادية لشعب فلسطين المحلي وغيرها من الحضارات المادية التي كانت موجودة من أواخر العصر البرونزي حتى بداية العصر الحديدي؟ هذا لا يوفر أي قاعدة. ولكنه يوفر بدلا من ذلك، معلومات مهمة لدراسة الفترة الانتقالية من العصر البرونزي المتأخر إلى بداية العصر الحديدي في فلسطين، بوصفها جزءا من تاريخ المنطقة تحرر من خطاب الدراسات التوراتية والبحث عن إسرائيل القديمة. والواقع أن طومسون يقدم الخطوط العريضة لهذا المشروع، أو على أقل تقدير إحدى الصياغات الممكنة لهذا المشروع، في الصفحات اللاحقة من كتابه (164 ـ 162 : 1992a)، لكن قوة نظريته تفقد من قوتها لأنها تشكل موضوعا فرعيا لاهتمامه بالبحث في «تاريخ مستقل لإسرائيل ويهودا». إن الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني يتم إسكاته بشكل أكثر فاعلية من خلال الادعاء: بأن «الأعمال المنشورة الأخيرة تدل بوضوح على أن تاريخ نشوء إسرائيل يمكن كتابته الآن، بشكل موضوعي نسبيا، وبأسلوب وصفي، حالما يتم الفصل بين القضايا المتعلقة بالتأريخ وبين التراث التوراتي اللاحق في هذا الموضوع». (طومسون Thompson 169 ـ 168 : 1992a). لكن الكتابة التاريخية يجب ألا تكون مجرد عملية وصفية ولا ينبغي أن يكون هذا هدفها. فالنتائج المترتبة على الكم الهائل من المعلومات الأثرية التي يقوم طومسون بمراجعتها. تشهد على حقيقة أننا لا نعرف شيئا عن جذور إسرائيل. على الرغم من ذلك، يعتقد طومسون أن الأبحاث الأخيرة كانت بمنزلة «بناء الأساس للتاريخ الجديد لإسرائيل القديمة» (169 : 1992). ويعترف بأن التاريخ الإسرائيلي يشكل جزءا من تاريخ فلسطين، بغض النظر عن الفترة التي يعالجها. وعلى هذا يلاحظ أن «التركيز في هذا الكتاب كان على نتائج البحث التاريخي المشترك بين فروع علمية مختلفة Interdisciplinary في فلسطين، على أمل تطوير فهم لتاريخ «إسرائيل» في إطار جغرافيا تاريخية إقليمية شاملة لفلسطين». (204 : 1992a). إلا أن المشكلة الكامنة في هذا العمل وغيره من الأعمال المتعلقة بالبحث الجديد

عن إسرائيل القديمة هي أن مثل هذه المشاعر ليس لها تأثير كبير في تحقيق تاريخ فلسطين القديم. فكل هذه الأعمال مقيدة بسبب فشلها في الإفلات من هذا التشويش المتأصل والمتعلق بمحاولتها بناء تصورات بديلة للماضي. فعدم القدرة على التحرر من قيود الخطاب المهيمن يؤكد سيطرة إسرائيل وهيمنتها على الماضي.

خاتمة الفصل

هيمن على التاريخ الفلسطيني القديم كيان واحد اسمه«إسرائيل القديمة»، وربما كان أهم سمات هذه الهيمنة هو أن الذي قام بها لم يكن كيانا سياسيا قويا أو كيانا له امتداد جغرافي، فالذي أسكت التاريخ الفلسطيني هو كيان صغير بمعنى الكلمة.

ففي الأعمال المختلفة المرتبطة بالبحث «الجديد» عن إسرائيل القديمة منذ منتصف الثمانينيات حتى الآن، نجد أن الأجزاء التي تقدم تصورات إيجابية حول إسرائيل في الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي إلى أوائل العصر الحديدي قليلة بشكل لافت للنظر. (أنظر كوت 42: 1991). ففي حالة دراسة ليمحي، وهي بحدود (500) صفحة خصص لهذا التفسير البديل لجذور إسرائيل ما لا يزيد عن (24) صفحة، وذلك في ما يسميه «إسرائيل التطورية» Evolutionary Israel. هذا العدد من الصفحات يرتفع إلى (49) صفحة إذا ما أضفنا إليه معالجته للدلائل الآثارية. وبالمثل فإن كوت ووايتلام (138 ـ 117 : 1987) لا يخصصان سوى (21) صفحة من أصل (188) لـ «نشوء إسرائيل». أما طومسون (1992) فيصعب الحكم عليه لأن فرضياته مبعثرة في النص على هيئة مراجعة شاملة وواسعة النطاق للجدل العلمي ونتائج التنقيبات الأثرية، علما بأنه حتى هذا لا يشكل إلا جزءا بسيطا من عمله الضخم. فمعظم هذه الأعمال لا تهتم باكتشاف التاريخ الفلسطيني وإنما بتحليل أوجه الشبه الأنثروبولوجية والتاريخية، ونتائج التنقيبات الأثرية والاستطلاعات، وبتقديم عروض ومراجعات للدراسات السابقة. لكن التركيز ينصب في كل هذه الأعمال، على البحث عن إسرائيل القديمة بينما تظل فكرة وجود تاريخ فلسطيني بعيدة عن الأضواء.

إن إعادة التقييم المرغوبة للفترة الفارسية والهلينية بوصفها الفترة

الزمنية التي تطورت فيها وتبلورت كثير من المواد التوراتية، قد فتحت المجال أيضا للبحث في الأيديولوجيات التي شكلت هذه الروايات الذاتية. لكن ما تم تجاهله، لدرجة كبيرة، هو الدور الذي لعبته الأيديولوجيات السياسية والدينية المعاصرة في التشكيل الأيديولوجي لتاريخ المنطقة. فالاختبار الدقيق للمصادر القديمة من أجل تحديد مدى جدارتها بالثقة لم يأخذ في اعتباره - أو تجاهل عن عمد - العوامل السياسية والاقتصادية والدينية التي أثرت في طرق البحث العلمية المعاصرة. إن طومسون يقدر بحق أهمية فهم التاريخ الإسرائيلي والفلسطيني كجزء من التراث الثقافي العام، خاصة في ضوء «التطورات السياسية المعاصرة». وهذا، من وجهة نظري يلخص المشكلة التي كانت بؤرة اهتمام كتابنا هذا: وهي مشكلة الصراع المعاصر على الأرض والهوية الوطنية بين إسرائيل والفلسطينيين والتي تظل غير مصرح بها في الدراسات التوراتية، أو على أحسن الفروض لا تثار، كما جاء في عبارة طومسون الختامية، إلا بصوت هامس. أما «التطورات السياسية الحالية» فتظل غير محددة. لقد رفضت الدراسات التوراتية الاعتراف بمشكلة الصراع الفلسطيني من أجل تقرير المصير أو مواجهتها. فمسألة دولة إسرائيل المعاصرة ومعاملتها للفلسطينيين ظلت مسألة حساسة للغاية لم يثرها خطاب الدراسات التوراتية. وتهدد هذه المشكلة في بعض الأحيان بالظهور على السطح، ولكن في كل مرة تُمنع بنجاح. لن يتحقق المشروع الذي بدأ قبل بضع سنوات لإعادة النظر في مفهومنا لتاريخ إسرائيل القديمة، ولتطوير تاريخ فلسطيني كموضوع قائم بذاته ومتحرر من قيود الدراسات التوراتية، إلا إذا عالجنا هذه المسألة الجوهرية بصراحة، وأعني بها الطبيعة السياسية للماضي والطبيعة الاستشراقية لخطاب الدراسات التوراتية.

على أن ديفيز، يتوافق مع بعض الأوجه الأيديولوجية لهذا التصور للماضي:

لقد نجح تصدير بناء فكري وغرسه في فلسطين العصر الحديدي - نجح ذلك في تكوين «تاريخ إسرائيل القديمة» ولكنه أيضا تعارض مع تاريخ فلسطين الحق، الذي هو الآن «فرّوج فصيح في العش يصيح». بالطبع وكما ذكرت سابقا، كان هناك بالفعل سكان في فلسطين خلال العصر الحديدي وكانت هناك مملكة تُدعى إسرائيل، وناس حقيقيون عاشوا هناك، وملوك

حقيقيون حكموا، وحدثت حروب حقيقية وكذلك حدثت عمليات إبعاد حقيقية من وإلى البلاد قامت بها الجيوش المحتلة والحكام. هؤلاء هم الناس والمجتمعات الذين يكتشف علماء الآثار والمنقبون آثارهم عندما يبحثون عن «إسرائيل القديمة». إذا كان واضحا أن الباحثين التوراتيين لا يكتبون تاريخهم هم فمن سيكتبه؟ من سيكتب تاريخ شعب أزالت البناءات الفكرية سماته الحقيقية؟ إذا كان ما أقوله صحيحا، فإن الدراسات التوراتية مذنبة بتهمة الإمبريالية الناظرة إلى الوراءالتي تزيح شعبا غير معروف لا يكترث به أحد لمصلحة بناء ذهني أيديولوجي.

(ديفيز Davis 31: 1992)

فالدراسات التوراتية ليست متورطة في «الإمبريالية الناظرة إلى الوراء» Retrojective Imperialism وحسب، بل إنها تآمرت في عملية السلب، أو على أقل تقدير، إذا ما اقتبسنا عبارة من إدوارد سعيد، تواطأت بالصمت في عملية السلب. إن بناء الكيان الذهني المختلق «إسرائيل القديمة» الذي يشير إليه ديفيز، قد أسكت تاريخ السكان الأصليين في فلسطين في العصر الحديدي المبكر. ويلاحظ كيف افترض الباحثون التوراتيون لمدة طويلة أنه لا يوجد فرق بين «إسرائيل القديمة» وسكان فلسطين في العصر الحديدي المبكر: «بالطبع، لم يقم أي من الباحثين التوراتيين بأي شرح لهذا التمييز» (32 : 1992). سوف نحتاج إلى التعمق والإسهاب في هذه الفروق إذ أريد لفكرة وجود تاريخ فلسطيني أن تتحقق. لكن لا يمكن لهذه الفكرة أن تتحقق إلى أن يتم تحديد ومواجهة التأثيرات الأيديولوجية الكامنة في كل الدراسات والروايات التاريخية. فالامتناع عن توضيح هذه الفوارق وعدم القدرة على الاعتراف بأن بناءات الماضي التي هيمنت على خطاب الدراسات التوراتية في القرن الأخير أو أكثر قد تشكلت بمواقف سياسية واجتماعية، كل هذا كان من شأنه أن يضمن طمس التاريخ الفلسطيني وإسكاته.

الحواشي

(*) يقصد المؤلف هنا وفي الصفحات التالية الاشارة الى عمل كوت coote بعنوان «اسرائيل المبكرة، افق جديد» Early Israel: A New Horison، الذي سيشير الية في الصفحات اللاحقة. (المترجمة)

(*2) يقصد المؤلف التحيز الناجم عن اختيار نصوص بعينها تفيد في دعم وجهة نظر معينة. (المراجع).

(*3) يطلق اسم العصر الكلاسيكي عادة على العصر الإغريقي والروماني القديم. (المراجع).

(*4) شيلوه: اسم عبري معناه «موضع الراحة»، وهو اسم مدينة من أصل كنعاني تقع على بعد عشرة أميال شمالي بيت أيل على الطريق بين نابلس والقدس. وقد تكون شيلوه هي خربة سيلون التي تبعد 17 ميلا شمال القدس. كانت شيلوه موطن النبي صموئيل، وقد وضع يشوّع بن نون تابوت العهد فيها، وكانت هذه المدينة المركز الديني والإداري أثناء فترة الاستيطان الأول. وكان العبرانيون ـ يحجون إليها ويقضون فيها العيد إبان حكم القضاة. ومنذ أن اختطف الفلستيون من شيلوه تابوت العهد، لم يرجع هذا التابوت إليها، ففقدت مكانتها الدينية، وانتقل مركز العبادة إلى القدس. (عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ص 117). (المترجمة).

(*5) عزبت (أو عزبيت) سرته، تقع على بعد حوالي 20كم شمالي الرملة، إلى الشمال من مستعمرة روش هاعين (رأس العين). وتعريب الكلمة باجتهاد المترجمة.

(*6) يلاحظ أن السطرين الأخيرين يلخصان وجهة نظر المؤلف، من حيث هو مؤرخ، وجوانب الخلاف بينه وبين مدارس المؤرخين الأخرى التي ظل في سجال معها طوال أجزاء كبيرة من هذا الكتاب. (المراجع).

(*7) أصبحت كلمة Tell بالإنجليزية متعارفا عليها وتعني التلال الأثرية في منطقة شرق البحر المتوسط القديم. وأسماء التلال التي سترد في هذا الفصل جميعها مواقع تلال أثرية. (المترجمة).

(*8) بيت ألفا: تقع 20كم إلى الجنوب من جبل طابور و8 كم غرب بيسان، وتعرف بحزبة بيت ألفا. (المترجمة).

(*9) نستطيع ان نقول انه حدث في المانيا النازية ربط مماثل بين مقتضيات التاريخ المعاصر، ووقائع التاريخ القديم. وهو ربط زائف في كلتا الحالتين. ويتصح ذلك مما عرضه التلفزيون البريطاني، في القناة الرابعة في 1999/8/19 في برنامج بعنوان: «بحث هتلر عن الكنائس المقدسة» Hitlers Search For the Grail حيث يتضح ان هتلر بدأ نشاطه السياسي عضوا في جماعة صغيرة ذات اهداف دينية محافظة، تعتقد بان العنصر الجرماني اصله الى قارة اطلنطا المفقودة ـ اي انها تربط نشأة هذذا العنصر بأسطورة اطلنطا المعروفة ـ وبعد غرق القارة فإن المطلوب هو احياء هذه الحضارة القديمة، وكان ذلك هو الهدف الذي تنادي به الجماعة الصغيرة التي كان هتلر ينتمي اليها في البداية. ويبدو ان هذا النوع من التفكير ظل يلازم هتلر بعد اعتلائه الحكم في المانيا سنة 1933، لانه اصدر تعليمات مشددة الى كل المشتغلين بعلوم الاثار في المانيا لكي ينقبوا بحثا عن اي آثار تثبت وجود هذه الاسطورة في الواقع القديم. ولكن جهود هؤلاء العلماء لم تسفر عن

اي شيء، اي ان هتلر استخدم علم الآثار من اجل تبرير اسطورة تُبني عليها الدولة الجرمانية الحديثة التي هي اعادة احياء لأمجاد الجنس الجرماني القديم. وكل مذهب فاشي يحتاج الى اسطورة لدعم افكاره الاساسية، وكسب تأييد الجماهير بواسطتها، بعد تخدير عقولهم بالاسطورة. (المراجع).

(*10) خربة التليل (الطليل): تقع على شاطئ بحيرة الحولة التي جففت في الستينيات. (المترجمة).

(*11) يساكِر (القرن 16 ق.م)، تاسع أبناء يعقوب وخامسهم من ليئة Leah، وقد اشترك مع إخوته في بيع أخيهم يوسف للعبودية في مصر. وحسب قاموس الكتاب المقدس، لا يعرف تماما مدى اتساع أرض يساكر (التي تعني في العبرية «يعمل بأجرة» ولكنها على الأرجح كانت تشتمل على سهل يزرعيل الخصب، أي مرج ابن عامر. وكانت تضم ست عشرة مدينة (قاموس الكتاب المقدس، ص 1064). (المترجمة).

(*12) وادي هارود: يقع قرب جبل جلبوع في مرج ابن عامر، وكما جاء في التوراة، كانت الموقع الذي هزم الفلسيتون فيه شاؤول.

(*13) وادي جبنيل: وادي قريب من بيسان، ويقع حوالي 5كم غرب سمنح الواقعة جنوب بحيرة طبريا، وتقع خربة يمّة مكان جبنيل القديم. (المترجمة).

(*14) راموث: اسم عبري معناه مرتفعات. (المترجمة).

(*15) Tel Kedesh تل قادش (مدينة كنعانية): تل قديم من العصر البرونزي الأول ذكر في حروب تحتمس الثالث المحفورة على جدران معبد الكرنك. قريب من موقع قرية قدس Qadas الفلسطينية في قضاء صفد والتي دمّرها الإسرائيليون سنة 1948. (المترجمة).

(*16) Tel Qiri تل قيري: لم أتمكن من العثور على هذا الموقع والتعريب باجتهاد المترجمة. (المترجمة).

(*17) Tel Qishion تل قيشيون: يقع هذا التل بجوار نهر المقطع (كيشون) الذي يصب قرب حيفا ويقع التل بجوار النهر. (المترجمة).

(*18) Tel Minorah تل مينوراه: لم أتمكن من العثور على هذه المواقع. (المترجمة)

(*19)تعتبر دبوره (معناه بالعبرية نحلة) من قضاة العبرانيين وأنبيائهم وقادتهم العسكريين وتوصف بأنها أم إسرائيل، وتعتبر دبوره Deborah نبية على الرغم من عدم وجود أي نبوءات لها. ويعد نشيد دبوره (القضاة) الذي يُنسب إليها من أقدم نماذج الشعر العبري القديم (انظر عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، م4 ص 147 ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1999). (المترجمة).

(*20) Giloh: بالقرب من القدس، وقد أنشئت عليها مؤخرا مستعمرة غرب جبل أبو غنيم. (المترجمة).

(*21) خربة ردانة Khirbet Raddanah: (لم أتمكن من العثور على مكان هذا الموقع والتعريف باجتهاد المترجمة).

(*22) خربة أم الطلعة Khirbet um et Tala: جنوب غرب بيت جبرين في جنوب فلسطين وتبعد مسافة قريبة جدا (1كم) إلى الشمال من قرية القبيبة في قضاء الخليل. (المترجمة).

(*23) تل كسيلة Tel Qasile: غربي رأس العين شرقي يافا بالقرب من الساحل وهي مدينة كنعانية قديمة أسست في القرن 12 ق.م. (المترجمة).

(*24) تل سيرا Tel Sera: تل يقع حوالي 8كم إلى الجنوب الشرقي من غزة، والتعريب باجتهاد المترجمة. (المترجمة).

(*25) Tel Masos: وهي خربة المشاش بالعربية. تقع على بعد 12كم شرق بير السبع، على تل مساحته 5 دونمات، والآثار المكتشفة فيه هي آثار رومانية وبيزنطية وبعض بقايا من العصر الحجري. (المترجمة).
(*26) تل كيسان: موقع أثري يقع على بعد 8 كم جنوب شرق عكا، وميلين غرب الدامون. (المترجمة).
(*27) مصفاة Mizpah اسم لمكان قديم في منطقة بنيامين، وتعتبر مكانا مقدسا منذ عصر القضاة. وقد تجمع فيها العبرانيون قبل هجومهم على الفلستيين. بعد انقسام المملكة، وقعت مصفاة تحت حكم يهودا. وقد حدد بعض الباحثين موقعها في النبي صامويل الحديثة، ولكن يعتقد الآن أن موقعها هو في تل النصبة. (المترجمة).
انظر قاموس الكتاب المقدس وانظر أيضا: The New Standard Jewish Encyclopedia, Oxford, 1992.
(*28) الحوِّيون: هم أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي قطنت شمالي أرض كنعان حينما تسلل إليها العبرانيون. وانظر الهامش، ص 219 من هذا الكتاب. يقول د. المسيري إن كلمة «حوّي» عندما ترد في التوراة قد تكون في معظم الأحيان تحريفا لكلمة «حوري»، وهناك رأي آخر يقول إن الحويين كانت تربطهم صلة قربى بالآخيين وأن الاسمين مترادفان، ويبدو أن علاقة الحويّين بالعبرانيين كانت طيبة (عبدالوهاب المسيري، «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، مج 4، ص 105). (المترجمة).
(*29) يقصد المؤلف أن تأخير التراث التوراتي حتى مرحلة متأخرة، يؤدي حتما إلى سؤال لم يجب عنه الباحثون الذين يتحدث عنهم، وهو: ألم يكن التاريخ السابق على هذه الفترة المتأخرة تاريخا فلسطينيا؟ (المراجع).
(*30) قام الفرعون منفتاح أو مرنبتاح (1236 ـ 1223 ق.م.) وهو خليفة رمسيس الثاني، بإخماد ثورة كنعان في أواخر القرن الثالث عشر ق. م. واحتفالا بهذه المناسبة تظهر أول إشارة في التاريخ إلى كلمة «يسرائيل» إذ تقول: «يسرائيل شعب صغير لقد دمرته وانمحت ذريته فلا وجود له» (انظر للمزيد: عبدالوهاب المسيري، «موسوعة اليهود واليهودية» مج 4، ص 84)، وفي مصادر أخرى وردت الترجمة على نحو مغاير حيث قرأت: «قضي على إسرائيل ولم يقض على ذريتها». (المترجمة).
(*31) الحوريون أقوام جبلية لا يزال أصلها مجهولا، وقد ظهروا في منتصف الألف الثالث ولعبوا دورا مهما في الألف الثاني، في الفترة التي شهدت انحسار النفوذ الحثي عن سوريا، وضعف الدولة الآشورية، وسقوط دولة بابل. وقد هاجر الحوريون إلى فلسطين، واختفوا في حوالي القرن السادس ق. م. (عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج 4، ص 109). (المترجمة).
(*32) بالنسبة للروايات التوراتية، فإن تعبير الشعوب البحرية Sea Peoples يعني الفلستيين، Philistines. ولكن الأصول التاريخية لهذه الشعوب تظل غير واضحة وغير مثبتة تاريخيا. (المترجمة).
(*33) انظر الهامش ص 259
(*34) جازر او جيزر: اسم لمدينة قديمة في فلسطين تقع الى الشمال الغربي من القدس، وحسب الرواية التوراتية، كان الفرعون المصري اهداها الى سليمان مهرا لابنته. (المترجمة)
(*35) Yono am يَنْعُم: مدينة كنعانية ذكرت في وثائق «تل العمارنة»، وكانت تقوم على «خربة تل النعامة» الواقعة علينهر الاردن الى الشمال من بحيرة الحولة. وهذه الحربة ـ اليوم ـ هي عبارة عن تل انقاض وآثار ممر وطريق قديمة. (مصطفى الدباغ ـ بلادنا فلسطين ـ جـ 1)
(*36) يدعو الكتاب الحالي من بدايته الى نهايته الى هذا التحرر من الدراسات التوراتية. فهل

يعني هذا نوعا من النقد الذاتي بمعنى انه هو نفسه وقع في مرحلة سابقة من حياته العلمية في الخطأ نفسه الذي يعيبه على جميع الباحثين فب التاريخ القديم لإسرائيل وعلاقته بالتاريخ الفلسطيني القدم؟ (المراجع)

(37*) يبدو أن طومسون وفي كتابه الذي صدر مؤخرا بعنوان The Bible in History: How Scholars Create a Past . (التوراة في التاريخ: كيف يختلق الباحثون ماضيا) عن دار النشر Cape 1991، إنه قد تمكن في هذا الكتاب الجديد من تطوير نظريته (المترجمة).

6 رد الاعتبــار للتاريــخ الفلسطيني

تقديم تاريخ فلسطين

لقد استأثرت الدراسات اللاهوتية والدينية، من خلال خطاب الدراسات التوراتية، بحق تمثيل التاريخ الفلسطيني القديم في فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي وفترات أخرى كثيرة غيرها. ولقد كان ذلك استمرارا لحق ادعاه الرحالة الأوروبيون خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وخلال هذين القرنين أيضا، أصبح التاريخ الفلسطيني أحد التواريخ الكثيرة «المستبعدة» من التاريخ، من جراء التسلط الذي مارسه المتخصصون في الدراسات التوراتية والمؤرخون وعلماء الآثار على تاريخ فلسطين والشرق الأدنى. (انظر بوورستوك 164: 1988). وكانت نتيجة ذلك حرمان التاريخ الفلسطيني من مكان خاص به في الخطاب الأكاديمي الغربي. ولقد تزامن اهتمام أوروبا الاستراتيجي بفلسطين مع سعيها لمعرفة جذور حضارتها كما حددتها إسرائيل القديمة والتوراة. وفي قبول المتخصصين التوراتيين، بشكل عام، بتصوّر الماضي كما جاء في التراث التوراتي، فقد

بدأوا بالبحث عن الوجود المادي لإسرائيل من خلال الآثار والمباني الباقية في تلك الأرض. فكان ما وجدوه، أو ما كانوا ميالين إلى أن يجدوه، هو إسرائيل شبيهة بدولهم القومية: فقد صُورت إسرائيل بأنها دولة ناشئة بحيث تبحث عن وطن قومي، تستطيع أن تعبر فيه عن وعيها القومي. وفي القرن العشرين، هيمن هذا الإسقاط لإسرائيل القديمة على فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي. وقد ازدادت أهمية هذا التمثيل للماضي وأصبح أكثر نفوذا مع صعود الحركة الصهيونية، التي هي في جوهرها مشروع أوروبي، وكان تاريخها يُنظر إليه على أنه مرآة عاكسة لغزو إسرائيل القديمة للأرض الذي أعقبه إنشاء دولة قومية تمكنت بسرعة من السيطرة على المنطقة(*). وبشكل عام، فإن ما نراه هنا هو رواية أصل master narrative كانت في جوهرها جزءا من «النتائج الحتمية» للدراسات التوراتية، وقد ظلت حتى السبعينيات، دون أن يشك أحد في صحتها على الرغم من إعادة النظر في العديد من التفاصيل. فعلى سبيل المثال يمكن أن تُثار الأسئلة حول طبيعة إسرائيل القديمة، والطريقة التي اكتسبت بها الأرض، ولكن بالنسبة لخطاب الدراسات التوراتية، لم يكن هناك أي شك في أن هذا التاريخ هو تاريخ «إسرائيل» والأرض هي أرض «إسرائيل». أما حق الشعب الأصلي في هذه الأرض أو حقه في معرفة تاريخه فلم يكن له أي أهمية تذكر في ذلك السياق.

لقد أصبح تصوير الماضي على هذا النحو حقيقة يصعب الشك فيها، نتيجة لتكرارها المستمر على ألسنة أهم الأكاديميين المتخصصين في المجال التوراتي، وكذلك في الكتب الأكاديمية والشعبية معا. وقد أصبحت هذه الحقيقة واضحة في نظر العديد من طلاب الجامعات والدراسات العليا، وكذلك في نظر الأكاديميين والقرّاء العاديين المهتمين بالموضوع، وفي «كتب التاريخ الجماهيرية» massed histories وهو تعبير مستمد من إدوارد سعيد مع شيء من التصرف (26: 1994)، تلك الكتب التي ذاعت على أوسع نطاق في عملية النشر المحمومة التي اشتدت في السبعينيات والثمانينيات. معظم تلك «التواريخ التوراتية «لإسرائيل القديمة كررت أو جاءت بصياغات مختلفة للقصص التي وردت في التوراة العبرية. وقد كانت هذه التواريخ، كما عبر عنها (ديفيز Davies 14 : 1991) «تواريخ مِدراشية(2*) في المحل الأول، وكانت

هناك بعض الشروح العقلانية الخادعة التي أعيدت صياغتها في إطار القصة التوراتية». ومع ذلك فإن عدم الارتياح المتزايد من مصداقية هذه المشاريع، كما يتمثل في نقد ديفيز Davies قد تزامن مع رواج حركة نشر الكتب التاريخية الجديدة المعدلة. وقد ساعد تصدع الإطار الذي بُنيت فيه مثل هذه الروايات (ساسون Sasson 1981)، وما رافقه من تغيرات أخرى حصلت داخل هذا التخصص الأكاديمي في الكشف عن مدى اختلاق هذا التاريخ المُتخيَّل بناء على نماذج من التجربة المعاصرة. كما أسهم تفكك الاتحاد السوفييتي، والجدل الدائر حول مستقبل أوروبا ووحدتها، والانتفاضة الفلسطينية بشكل خاص، في استمرار تحطيم الأسس الفكرية التي كان لها أثرها البالغ في تكوين تلك الرواية التاريخية السائدة.

غير أنه مما يلفت النظر أن تطور الكتابات التاريخية في فترة ما بعد الاستعمار، لم يكن له إلا تأثير قليل جدا في مشروع الكتابة التاريخية لدى علماء الدراسات التوراتية. وقد حافظ البحث العلمي الأمريكي والإسرائيلي في الجزء الأخير من القرن العشرين على ذلك التحكم القوي في الماضي الذي حققته الدراسات العلمية الأوروبية، وذلك حين صُوِّر هذا التاريخ بأنه فترة نشوء إسرائيل وسيطرتها على المنطقة بصفتها القوة الأساسية فيها. لقد أشار إدوارد سعيد في مقدمة كتابه (1992) إلى المدى الذي تمتعت فيه إسرائيل منذ إنشائها عام 1948بسيطرة مدهشة على البحث الأكاديمي، بالإضافة إلى مجالات أخرى كثيرة. إن توظيف الطاقات الهائلة، العقلية والمادية، للبحث عن إسرائيل القديمة لا يقابله أي بحث مماثل عن التاريخ الفلسطيني للفترة نفسها ولأي من الفترات اللاحقة. وهكذا تضافرت الدوافع الدينية والسياسية وراء بحث الغرب وإسرائيل على إنكار حق الشعب الأصلي في أن يكون ممثلا في التاريخ. إن تاريخ فلسطين القديم هو موضوع تم استبعاده بواسطة اللاهوت كما تجاهله التاريخ. أما السعي وراء كتابة التاريخ التي تتماشى مع عصر ما بعد الاستعمار، وكذلك محاولة إعطاء صوت للعديد من التواريخ التي حُكم عليها بألا تكون جزءا من التواريخ المعتمدة رسميا، فليس مجرد ضرب الميت، كما يقول غلنر (Gellner 47 :1992). لم يمت الاستعمار ما دامت فرضياته بالتفوق وحق استعمال القوة لا تزال متأصلة في خطاب الدراسات التوراتية، ذلك الخطاب الذي تبنته ودعمته

الدراسات الإسرائيلية بعد عام 1948. إن هذا الخطاب البلاغي الذي سُمح له بأن يشكل الماضي المُتخيَّل لفترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي في فلسطين، قد أنتج تصويرا للماضي يحط من قدر الثقافات والتواريخ المحلية ولا يزال يدافع عن هذا التصوير. فخطاب الدراسات التوراتية، شأنه شأن الخطاب الصهيوني المعاصر، يرفض الاعتراف بالقيمة الكامنة للثقافة المحلية وحقها في أن يكون لها تاريخها الخاص.

لقد أخفق النضال من أجل «السماح بسرد التاريخ» الفلسطيني المعاصر (إدوارد سعيد 247 ـ 268: 1994)، ومثل هذا النضال خاضه أنطونيوس Antonius ومُصلح Muslih، وطيباوي Tibawi وخالدي Khalidi، وأبو لغد Abu-Lughud وسعيد Said[3*]، بالإضافة إلى كثيرين غيرهم، أخفق في استعادة الماضي القديم من قبضة الغرب وإسرائيل. وقد لخص ذلك (بوورستوك Bowerstock 184: 1988) في تقييمه الذي يفيد أن الفترات الرومانية والبيزنطية قد شهدت اهتماما متجددا في المنطقة، وذلك في محاولتها استعادة جزء من هذا التاريخ المستبعد. وهو يحدد هذه الفترة بأنها الفترة التي ترجع إلى آخر «العصر التوراتي» حتى مجيء النبي محمد. تجدر ملاحظة أن التاريخ الفلسطيني من «الفترة التوراتية»، وهي الفترة التي سبقت الفترة الرومانية والبيزنطية، قد تم التخلي عنها لمصلحة الغرب وإسرائيل. إن إسرائيل التي تم اختلاقها والتي تعود إلى فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، قد ألقت بظلال سيطرتها بأثر رجعي لكي تتمكن من المطالبة بفترات سابقة باعتبارها «تاريخها السابق» وهذا جزء من المشروع التطوري، سواء أكان دنيويا أو سياسيا أو دينيا، وهو ما أثر وأسهم في إزاحة التاريخ الفلسطيني القديم. إن عدم رضا إدوارد سعيد عن الوضع الحالي يمكن أن ينطبق أيضا على بناء الماضي القديم وتمثيله:

> هكذا، فإن إسرائيل تستطيع أن تطالب بحضورها التاريخي بناء على ارتباطها الأبدي بمكان ما، وهي تدعم عالميتها بالرفض التام لأي ادعاءات تاريخية أو زمنية، مضادة (وهي في هذه الحالة الادعاءات الفلسطينية العربية) مستعينة في ذلك بالقوة العسكرية
>
> **(سعيد 17: 1994)**

لقد كانت الدراسات التوراتية جزءا مهما من النظام المعقد والعوامل الأكاديمية والاقتصادية والعسكرية، التي أنكرت على الفلسطينيين مكانا

في العالم المعاصر وفي التاريخ. كما رأينا سابقا، فإن عددا لا يحصى من الأكاديميين قد أشاروا إلى المنطقة في الفترة البرونزية المتأخرة وفترة العصر الحديدي على أنها فلسطين، بما في ذلك «الاقتصاد الفلسطيني» و«المرتفعات الفلسطينية» أو «الساحل الفلسطيني»، ولكن الشعب نفسه ظل بلا اسم أو أُلصق به وصف عرقي معين، مما دعم الفرضيات التطورية التي روجت فكرة أن إسرائيل قد حلت محل هذا الشعب أو تجاوزته. يشكو إدوارد سعيد من أن أهم مظاهر نجاح الحركة الصهيونية كان «غياب أي تاريخ رئيسي لفلسطين العربية ولسكانها. وكأن شبكة تفاصيل الصهيونية ومسلسل أحداثها قد خنقت الفلسطينيين، واستبعدتهم ليس فقط من العالم بل من أنفسهم أيضا» (إدوارد سعيد 35: 1994). والواقع أن صمت التاريخ أكثر عمقا حتى مما عبر عنه إدوارد سعيد. ذلك أن اهتمام سعيد ينصب في المقام الأول على التاريخ المعاصر لفلسطين ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر، لكي يرد على الادعاءات الصهيونية وعلى تلك المتأثرة بها. ولكن بحث أوروبا عن نفسها، الذي اقتبسته الصهيونية وعملت به في محاولتها إضفاء الشرعية على جذورها، قد استبعد أي مطالبة فلسطينية بفترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، ويبلغ هذا الاستبعاد حدا من القوة يجعل فكرة وجود تاريخ فلسطيني لا تخطر حتى ببال الكُتاب المهتمين بنقض الفكر الصهيوني المعاصر. إن الثقل المستبد لهذا الصمت يتخلل الدراسات التوراتية برمتها. وأي اهتمام بالسياق الذي تعمل في إطاره الدراسات التوراتية وكذلك الأعمال الأثرية، وكذلك بالصراع الحالي حول الأرض وتقرير المصير، هو شيء غائب تماما. وعندما تطفو هذه الأمور على السطح، فإنها تظهر في شكل أسف أو ألم نفسي حول هذه الأرض المضطربة الأمل في تحقيق سلام لشعوبها. إلاأن هذا الاعتراف هو اعتراف بالحقائق ومضامين الصراع السياسي الدائر بين إسرائيل والفلسطينيين، والذي لا يُسمح له بالتعدي على التمثيل (الموضوعي) للخطاب الأكاديمي. إن مضامين تصوير التاريخ الإسرائيلي حول الصراع الدائر حاليا لا يزال شيئا غير مصرح به على نطاق واسع، فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة المهمة، والتي تتلخص في اعتراف سيلبرمان (Silberman 1989 ، 1992) بالمضامين السياسية لأعمال أولبرايت ويادين، ولكن سيلبرمان

ذاته لم يعالج المسائل نفسها ولم يراجع الفرضيات الحديثة حول أصول إسرائيل (سيلبرمان 1992)[1].

إن الدليل على نفوذ خطاب الدراسات التوراتية ونجاحها في إخفاء هذه المشكلات هو فشل الدراسات التصحيحية الحديثة في الخروج عن تسلط الدراسات التوراتية في رؤيتها للماضي. أما المفارقة في أعمال مندنهول Mendenhall وغوتفالد Gottwald فتتجلى في أنهما يَعِدان بإعطاء صوت لفلاحي فلسطين، ولكن هذه المحاولة تُخنق ولا يتسنى لها الظهور من جراء الإصرار على أن الطبيعة الأساسية لإسرائيل مستمدة من عقيدة ثورية أو نظام اجتماعي جاء من خارج فلسطين، ومكن إسرائيل من تجاوز فشل النظام المحلي سواء أكان ذلك على الصعيد الاجتماعي أو السياسي أو الديني. وعلى نحو مماثل فإن المحاولات المتعثرة لكل من آلستروم Ahlstrom وليمشه Lemche وكوت Coote وطومسون Thomson، وويبرت Weippert ووايتلام Whitelam لإشاعة التاريخ القديم لفلسطين، قد حادت هي الأخرى عن هدفها من جراء بحثها المستمر عن إسرائيل القديمة. وببطء وتردد يتضح أن الدليل الذاتي الفعال (فوكو Foucault) لشبكة الأفكار والافتراضات التي حافظت على خطاب الدراسات التوراتية، هو نتاج المصالح الذاتية وغير الموضوعية. وقد ألقى مانهايم Mannheim الضوء على معضلات الهروب من خطاب مهيمن، ومشكلة تبني منظور مختلف للإتيان برواية بديلة وذلك عندما قال:

> ويمكن أن يصبح تفكير الفئات المهيمنة منصبا على ذاتها بقوة بالغة حتى أنها ببساطة لم يعد بمقدورها أن ترى حقائق معينة يمكن أن تقلل من إحساسها بسيطرتها على الأمور... إن اللاشعور الجمعي collective unconcious لجماعات معينة يخفي عن نفسه وعن غيره أحوال المجتمع الحقيقية.

(مانهيم Mannheim 40: 1985)

لقد أُعيق تطور التحول البطيء والمؤلم والمحسوس أيضا، نحو تاريخ إقليمي لفلسطين لعدم وجود خطاب بلاغي مناسب يمكن بواسطته تمثيل هذا الماضي البديل. ولقد كان الخطاب الوحيد المتاح هو خطاب الدراسات التوراتية في بحثه عن إسرائيل القديمة. أما النموذج اللاهوتي للتاريخ التوراتي فقد تم الحفاظ عليه بواسطة إجماع المتخصصين في الدراسات

التوراتية، من خلال مواقعهم في كليات اللاهوت وحلقات البحث وهم الذين أسهموا، بل أيدوا ادعاءات إسرائيل بامتلاك الحقيقة (ديفز Davies 16 - 15 : 1992). لم يكن هناك وجود لخطاب بديل يعبّر عن التاريخ الفلسطيني القديم ويبحث فيه.

تدل ردود الفعل الحادة على التواريخ التي تسعى إلى تصحيح هذا الوضع منذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات على أن الإجماع قد بدأ بالتصدع، وأن الرواية الأصل لم يعد من الممكن الإبقاء عليها والدفاع عنها إلا بصعوبة. إن الاتجاه منذ الثمانينيات وحتى الآن نحو نشر مؤلفات أصغر حجما بكثير حول تاريخ إسرائيل القديم وتاريخ يهودا، وهي المؤلفات التي تتصدرها عادة مقدمات نقدية أطول، يدل على أننا وصلنا الآن إلى نقطة حرجة في تمثيل تاريخ المنطقة. وحتى يُعطى صوتٌ لتاريخ فلسطيني بديل، وإلى قراءة ما بعد استعمارية متجانسة ومنسجمة لتاريخ فلسطين القديم فإنه لا غنى عن بناء خطاب بلاغي للتاريخ الفلسطيني خاص به.

استعادة التاريخ الفلسطيني

سبق أن أشرنا إلى أن البحث الجديد عن إسرائيل القديمة قد أظهر أن عددا متزايدا من الباحثين، قد أثاروا التساؤلات حول التفسيرات المستوحاة من التوراة للمعلومات الأثرية والدراسات الاستطلاعية والحفريات. إن الفرضية الأساسية منذ «آلت Alt» و«أولبرايت Albright»، التي تفيد أن نشوء المستوطنات الفلسطينية في المرتفعات يجب أن يقترن بإسرائيل، ولكن الاعتراف المتزايد بأن سكان هذه المستوطنات كانوا شعوبا محلية قد قلل من أهمية هذه الفرضية. أما تعبير «إسرائيلي»، لوصف هذه المستوطنات، فقد أصبح بلا معنى، وكما يرى (طومسون Thomson 310 : 1992a) فإنه «شيء مضلل أن نستعمل تعبير «إسرائيلي» في السياق الأركيولوجي للعصر الحديدي المبكر في فلسطين». فالمعلومات الأثرية حول فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، تمدنا بمعارف قيمة حول الديموغرافيا (السكان) والمستوطنات، والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي للمجتمع الفلسطيني. وهذه المعلومات لا تثبت صراحة وجود كيان يُدعى إسرائيل، حتى لو أن لوح مرنبتاح Merneptah الحجري المنقوش[*4] يكشف

عن وجود «كينونة» ما بهذا الاسم كانت موجودة في المنطقة. على أي حال، فإن قبول (فينكلشتاين Finkelstein 53 : 1991) بأنه مستعد للتنازل عن تعبير «إسرائيلي» Israelite والاستعاضة عنه بتعبير أشمل مثل «مستوطنو المرتفعات»، لا يعدو أن يكون حيلة لفظية تستمر في إنكار التاريخ الفلسطيني. ومن الجدير بالملاحظة أن فينكلشتاين لا يطلق اسم «فلسطيني» على هذه المواقع، والسكان الآن في نظره سكان بلا اسم يقطنون المرتفعات. فعدم وجود الخطاب البلاغي الذي يمكن بواسطته التعبير عن التاريخ الفلسطيني القديم، يعني أن هذا التحول في الاستيطان لم يتم فهمه على أنه جزء من تحول عام للمجتمع الفلسطيني في أواخر العصر البرونزي المتأخر، مما كان له أثر بعيد المدى على فترات كبيرة من العصر الحديدي.

إن البحث عن إسرائيل القديمة قد جعل المؤرخين وعلماء الآثار يميلون إلى التأكيد على أن الانقطاع في الآثار المادية، هو دليل على عدم الاستمرارية من النواحي الثقافية والعرقية أيضا. وقد اتفق ذلك جيدا مع النظرية القائلة إن الانقطاع الثقافي والعرقي الذي حصل مع بداية الاستعمار الأوروبي، وبعد ذلك من جراء الهجرة الصهيونية إلى فلسطين قد كان له ما يناظره في الماضي القديم. فتمثيل فترة العصر البرونزي المتأخر على أنها فترة انهيار حاد للمدنية وللثقافة لتحل محلها الثقافة الراديكالية الجديدة، التي وفرت عوامل ولادة الديانة التوحيدية والتوراة العبرية يبدو أنه يؤكد ويعكس الأوضاع التي كانت سائدة خلال العقود المبكرة من القرن العشرين. إلا أن أهمية استمرارية الثقافة المادية، التي عرفها جيدا علماء الآثار الذين عملوا في المنطقة، قد تم تجاهلها والإقلال من شأنها. ففكرة الانقطاع المفاجئ في الحياة الثقافية في حدود عام 1200 ق.م، تزيد من تأكيد مفهوم للتاريخ على أنه دراسة غير متصلة للأحداث ولوحدات زمنية مميزة بوضوح. (قارن بلوخ Bloch 183 : 184). لقد اقترنت الأدلة المتزايدة باستمرار وبقوة، والتي تبرهن على الاستمرارية في الثقافة المادية في مواقع الحفريات بين فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، اقترنت بعدم الارتياح المتزايد من الافتقار إلى الدقة في تحديد تاريخ الأواني الفخارية (فريتز Fritz 89 ـ 86: 1987)، وقد أظهرت أن التحول في الاستيطان في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي كان جزءا من

عملية طويلة الأمد، يجب أن تُفهم في سياق الأحداث المعقدة والقوى التي كان لها تأثير في شرق البحر المتوسط خلال قرن من الزمان أو أكثر. فقد لفتت ويبرت (Wieppert 1988) النظر إلى أن المشكلات الحاسمة في تحديد تاريخ الآثار الفلسطينية، تقلل من شأن التقسيم الحاد للعصور الزمنية المترتب على التصوّر التوراتي لهذه الفترة. وإصرار ويبرت على أن مناطق مختلفة من فلسطين ربما شهدت معدلات متفاوتة من التطور ويبرت (Wieppert 27 ـ 26 :1988) قد أكدته دوثان (T. Dothan 14 ـ 1 :1989)، في إعادة تقييمها مؤخرا حول الظهور الأوَّلي واستيطان الفلِستِيين وشعوب بحرية أخرى في فلسطين. وتوحي اكتشافات ويبرت Wieppert بأن الانتقال من فترة العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي الأول لم يكن متجانسا ولم يحدث في وقت واحد في المنطقة ككل، ولكنه اتسم بطابع معقد لأن الثقافات المحلية والمصرية والفِلستِية تداخلت في بعض الحقب الزمنية.

وكما ينبغي أن نتوقع فإن إعادة تنظيم مجتمع العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي وتحوله كانا عملية معقدة جدا. وبالنظر إلى أن شرق البحر المتوسط كان عبارة عن شبكة متداخلة جدا من مجموعات القوى والكيانات المحلية، فإن أي تغيير هيكلي على نطاق واسع كان من المحتم أن يؤثر في المجتمع الفلسطيني. وكان من الضروري أن يؤدي تفشي الفوضى في منطقة واسعة من شرق البحر المتوسط في العصر البرونزي المتأخر على جميع مستويات النشاط الاجتماعي والسياسي إلى التأثير في فلسطين أيضا. فقد كانت فلسطين تحتل مركزا استراتيجيا في المحور التجاري العالمي، وكانت حركة التجارة هذه في العالم القديم شبكة معقدة تربط البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي [2] منذ أقدم العصور. إلا أن موقع فلسطين على طريق العبور (الترانزيت) كان يعني أن فلسطين كانت تتأثر بشكل أقوى بأي خلل أو ضعف. ووجود مثل هذا الاقتصاد العالمي المتكامل وبخاصة في شرق البحر المتوسط خلال العصر البرونزي المتأخر، كان يعني أيضا أن أي خلل يقع في أي جزء من الشبكة التجارية لا بد أن يؤثر في المناطق الأخرى. لقد كانت فلسطين تلعب دائما دورا تابعا في التجارة، إذ كانت جسرا بريا ومحورا مائيا لاقتصاديات القوى الكبرى في القارات الرئيسية. لذلك كانت التجمعات

المدنية الفلسطينية حساسة وتتأثر بدورات التجارة العالمية، وقد عانت بشدة من الخلل الذي حصل في العالم الميسيني، وأيا كانت الأسباب [4]. فإن من غير الممكن، إذن، تركيز الاهتمام على التحولات في الاستيطان نحو المرتفعات الفلسطينية في بداية العصر الحديدي الأول دون أن نأخذ في الاعتبار التحولات الهيكلية التي أحدثتها التغيرات في الشبكات الأوسع. إن تدهور التجارة والاقتصاد، والظروف التي أحاطت بها، كانت أساسية في التحول الاقتصادي والسياسي، وكذلك العلاقات الاجتماعية في فلسطين.

ولقد كان نمو المستوطنات في المرتفعات أوضح نتائج إعادة تنظيم المجتمع الفلسطيني، ولكن يصعب وصفها بأنها نتيجة فريدة أو بأنها نجمت عن غزو مجموعة عرقية جديدة من الناس. فقد حصلت تحولات مشابهة في الاستيطان في أماكن أخرى من شرقي المتوسط (ديزبورو Desborough 88، 82, 41, 29, 20 ـ 19: 1972، وسنودغراس Snodgrass 34, 40: 1971)، وكانت دائما جزءا من دورة النمو، والركود والذبول والتجدد في تاريخ فلسطين، وهي الدورة التي كانت تستغرق قرونا. (كوت ووايتلام Coote & Whitelam 28 ـ 27: 1987، بروديل Braudel 34, 35: 1972). أما السمة الأساسية في دراسة التاريخ الفلسطيني لهذه الفترة فينبغي أن تكون التحقيق في السمات الاجتماعية ـ البيئية والاقتصادية للمستوطنات في المنطقة ككل. فظهور واستعمال المباني ذات الأعمدة، ومخازن الغلال وخزانات المياه، وتسوية الأرض المرتفعة على درجات Terracing، وأشكال الأواني الخزفية مثل الأواني ذات الحواف المقلوبة، يمكن تفسيرها من خلال العوامل الطوبوغرافية والبيئية التي واجهت سكان المرتفعات والمستوطنات الهامشية، في إطار الخلل الذي كان يطرأ على الاقتصاديات المحلية والإقليمية (انظر أيضا ديفر Dever 84 ـ 83: 1991). إن الحلول التكنولوجية المبتكرة والمهارات العالية التي تجلت في استعمال خزانات المياه، وتسوية الأرض المرتفعة، أو بناء المباني ذات الأعمدة تخالف النظريات التي تدعي أن سكان هذه المواقع كانوا بدوا رُحلا في طريقهم إلى الاستقرار (كوت ووايتلام 124 ـ 123: 1987). والأدلة التي قدمها فينكلشتاين، إذا ما جردناها من الشعارات العرقية التخمينية الشوهاء تقدم إلينا دليلا آخر يؤيد النظرية القائلة إن التحول

الاستيطاني الذي حصل في نهاية العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، كان رد فعل على خلل طرأ على الحياة الاقتصادية كان له أثر كبير في كل جوانب المجتمع الفلسطيني ومستوياته، ولم يكن نتيجة مباشرة لصراع طبقي أو غزو وتغلغل خارجي.

ينبغي على المؤرخين انتظار نتائج المعلومات الإضافية للأبحاث الأثرية، وبالأخص الدراسات المساحية الوافية حول مناطق السهول والمناطق الساحلية بالإضافة إلى التنقيبات المقارنة للمواقع في أحجامها المختلفة، وذلك كي يتسنى الوصول إلى صورة محلية أشمل لأنماط الاستيطان. إن عدم وجود مسوح ميدانية وافية لكل مناطق فلسطين، وبخاصة منطقة السهول، هو عائق كبير في محاولتنا فهم العوامل المؤثرة في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. يؤكد لندن (London 42: 1989) أن علماء الآثار كانوا يكتفون حتى الآن بمقارنة المواقع القروية في منطقة التلال مع المواقع الحضرية في السهول، ومن ثم عزوا الفرق إلى المجتمعات الإسرائيلية بدلا من المجتمعات الكنعانية. ولكن الأهم هو أن هذه الفروق تعبِّر عن الاختلاف بين أسلوب الحياة القروي وأسلوب الحياة في المدينة[4]. إن وجود القرى في الأطراف المكشوفة والمعرضة للخطر في المرتفعات، أو القرى الأخرى المحصنة أو غير المحصنة، تشير إلى أن الصراع الاجتماعي كان مجرد جزء من المرتفعات التي تفسر هذا التحول في الاستيطان. والتقدم في هذا المجال يتوقف الآن بشكل أكبر على قيام علماء الآثار بنشر نتائج كشوفهم باستمرار، حتى يتمكن المؤرخون من تفسير المعطيات في سياق مقارن ومشترك بين فروع المعرفة المختلفة. إلا أن جزءا مهما من هذا البحث يجب أن يفضح جزئية هذه المعطيات وتحيزها، والدوافع والمصالح التي أضفت طابعا خاصا على أعمال الباحثين وعلى تخطيطهم لاستراتيجيتهم في البحث وما يلي ذلك من عرض وتفسير للمعطيات.

ولا بد من مراعاة هذا النوع نفسه من التحري والاستقصاء عند بحث المراحل اللاحقة من العصر الحديدي حتى نحرر دراسة المنطقة من قبضة التاريخ التوراتي. يجب أن يُعاد النظر بشكل جذري في ما يُعرف بفترة المملكة المتحدة. لقد أدى وهم «إمبراطورية داود» وإسقاط دولة إسرائيل الحديثة على العصر الحديدي، إلى تشويه تام في عرض تاريخ المنطقة.

كذلك يجب أن يُنظر إلى انتشار الاستيطان في العصر الحديدي على أنه من العملية المستمرة المرتبطة بإعادة تنظيم المجتمع الفلسطيني، الذي أدى إليه الاختلال الذي طرأ على فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي. لقد أخفق المؤرخون في التحقق من العملية التي أدت إلى هذا التحول في الاستيطان، وما رافقها من تدمير، وهجرة، وتحصين للمواقع(*5). ونادرا ما كانوا يهتمون بدراسة الدلائل التي توحي بوجود دولة كبرى مركزية في المنطقة. وبدلا من ذلك سُمح للادعاءات الاحتكارية للتوراة العبرية بأن تملي شروطها على أي تصور للماضي. وكان هناك تسرع غير لائق في ربط المكتشفات الأثرية بالتراث التوراتي. وربط هوية أي شيء مدمر بإحدى المعارك المذكورة في التوراة، أو الربط بين تحصين موقع ما وبين البرنامج الإعماري لأحد ملوك يهودا أو إسرائيل ممن وردت عنهم بعض العبارات في التاريخ التوراتي في سِفر التثنية. أما العوامل الاجتماعية البيئية، وتذبذب الدورات الاقتصادية، فقد تم تجاهلها لمصلحة البديل السهل، وهو قبول، واستكمال وبناء الماضي حسب ما تقدمه التوراة العبرية.

والشيء المثير في التوراة العبرية هو أنها تبدو كما لو كانت تحتوي على رؤى متضاربة للماضي، وبالأخص كما جاء في تاريخ سِفر التثنية وأخبار الأيام(*6)، مما يوحي بوجود أوضاع معاصرة متنافسة. إلا أن الأهم من ذلك هو أنها وسيلة للوصول إلى رؤية للحقيقة لشريحة متميزة ومثقفة في المجتمع، وهي تكشف عن القليل مما سماه هوبزباوم Hobsbaum ثقافة «أشباه الأميين» أو الحركات المترسبة في قاع التاريخ. وعلى هذا فإن قيمتها للمؤرخ كمصدر للمعلومات لا تكمن فيما تقدمه من معلومات، وإنما تكمن في أنها تقدم رؤية لإدراك الشريحة المثقفة في المجتمع وإدراكها لذاتها، وبالأخص في العصرين الفارسي والهلّينستي. لذلك، فإن أهميتها لا ترجع إلى ما تفصح عنه بقدر ما ترجع إلى ما لا تفصح عنه. إننا لو اخترنا كمؤرخين، أن نقبل شهادة هذه الرواية للماضي، لكننا عندئذ نسهم في إسكات روايات أخرى للماضي. فنحن نعرف مثلا، أن عنصر الرعاة الرحل كان عنصرا ثابتا في الاستمرارية الاجتماعية في المنطقة. إلا أن هذا العنصر في المجتمع لا يشكل جزءا من النظرة إلى الذات لأولئك المسؤولين عن تطور المأثورات. وعلى حين أن البداوة كانت عاملا دائما في تاريخ

المنطقة، فإن الصفوة المتعلمة قد أسكتت مكانتها في التاريخ، وكذلك في الحاضر. في فترة الهيكل الثاني، أو أي فئة كانت مسؤولة عن بناء هذا التصورللماضي. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التراث لا يقول لنا كثيرا أو حتى لا يوضح أي شيء عن كيفية ارتباط إسرائيل أو يهودا أو المنطقة بشكل عام بالاقتصاد الأعم، سواء أكان ذلك الاقتصاد مصريا أو آشوريا أو بابليا أو إخمينيا(*7) أو هلينستيا أو رومانيا. وبالطريقة نفسها فإنه تراث لا يمدنا بأي معلومات حول الوضع السكاني أو أنماط الاستيطان، أو اتجاهات الاقتصاد، وهي أفضل المؤشرات على حركة التاريخ الحقيقية لأنها تمدنا بمنظور أعم نستطيع من خلاله رؤية الاتجاهات القصيرة المدى، والتي تمثل بؤرة التركيز الحتمية لتراثنا المكتوب. ولا بد أن يساء فهم هذا الرأي أو يحرَّف على أنه إنكار للتاريخ الإسرائيلي، كما يدل النقاش حامي الوطيس حول نصب تل دان Tel Dan (تل القاضي). والدراسة الحالية ليست إنكارا لملكتي إسرائيل ويهودا: وإنما هي محاولة لإعادة التوازن بعد أن تم تصوير التاريخ الإسرائيلي واليهودي على أنه تاريخ المنطقة الوحيد، بدلا من أن يكون جزءا من تاريخ فلسطين القديم الأشمل.

ينبغي تطبيق العملية نفسها على الفترة الفارسية الهلّينستية المتأخرة، إذ نجد مثلا، أن ادعاءات مقاطعة يهودا الصغيرة قد سُمح لها بأن تُسكت كل الادعاءات المنافسة الأخرى. (ديفز Davies 58 : 1994). إن الخطر الكامن في إعادة تقييم الفترة الفارسية والهلينستية هو تكرار أخطاء منهجية حول الماضي في هذه الحالة بدورها. والخطر هو في إرجاع نقطة بداية التاريخ الإسرائيلي إلى نقطة أبعد في التاريخ، بحيث تصبح الفترة الفارسية بمنزلة سدادة لملء الفراغ، ولو بشكل مؤقت. إن تحديد التقاليد التوراتية في الفترة الفارسية والهلّينستية، بدلا من فترة النشوء أو الملكية، يسمح لخطاب الدراسات التوراتية بالاستمرار في الادعاء بالسيطرة على تاريخ إسرائيل. إن إصرار هذا الخطاب على أن النصوص المكتوبة تشكل أساس كتابة التاريخ يعني الدوران في دائرة مفرغة وأن منهجية البحث عن تاريخ إسرائيل المبكر سوف يُنقل، في أغلب الظن، إلى الفترة الفارسية. كما أن الكيان الذي خلقه الدارسون المتخصصون المعروف بـ «إسرائيل القديمة» والذي عتم على تاريخ فلسطين القديم في فترة العصر البرونزي المتأخر وأوائل

العصور الحديدية، سوف يُسمح له بأن يحقق أهدافه نفسها ولكن في فترات زمنية لاحقة. فقد سُمح لمقاطعة يهودا الصغيرة جدا (آلستروم Ahlstrom 844 ـ 843: 1993)، بأن تحتكر وتهيمن على دوائر النقاش المتعلق بتاريخ المنطقة، وهذه الفترة بحاجة ماسة إلى إعادة النظر حتى نحرر التاريخ الفلسطيني من طغيان خطاب الدراسات التوراتية.

سوف يوفر خطاب التاريخ الفلسطيني فهما أكثر إيجابية للمنجزات المادية والحضارية لسكان هذه المنطقة ككل. فالنظرة التطورية التي افترضت حلول الحضارة الإسرائيلية محل الحضارة الكنعانية هي مكيدة تؤدي إلى الحط من قدر المميزات الجمالية والثقافية في الآثار الفنية للأواني الفخارية والخزف المزخرف والزجاجيات والحلي وغيرها، مما نراه في آثار فلسطين.

أما اكتشاف الأشكال والتماثيل النسائية الصغيرة في طبقات مختلفة من مواقع أثرية فلسطينية فيُقدم دوما على أنه دليل على انتشار عبادة الخصوبة fertility cult[5]. والمعنى الضمني لهذا هو أن تلك الديانات المحلية المنحطة واللاأخلاقية قد استُبدلت بها ديانة التوحيد: تلك الديانة التوحيدية التي يُنظر إليها على أنها منبع الحضارة الغربية. وعلى النحو نفسه، فإن إسرائيل قد حلّت محل السكان الأصليين أي الكنعانيين. ليس هناك أي اهتمام بالمزايا الجمالية لأشكال التماثيل الآدمية، أو ما تكشفه مثل هذه التماثيل عن القيم الجمالية أو منجزات الفنانين أو المجتمع الذي كان هذا الفنان جزءا منه. إن العوامل الإيجابية في النظام الديني المحلي، والاهتمام بالأشياء الهامشية أو غير الممثلة تمثيلا صحيحا، أو مفهوم الانسجام، يتم إخفاؤها بتصوير حضارة ثابتة على حالها ومنحطة من المحتم أن يتم استبدالها. ولكن عدم وجود أي خطاب مناسب لتمثيل المنجزات الثقافية المحلية كان يعني أن الخطاب الوحيد المتوافر هو الذي تم الأخذ به: وهذا الخطاب صُمم خصيصا للحط من أي إنجاز ثقافي يُعتقد أنه يعود إلى ديانة غير الديانة الإسرائيلية التي شكلت أساس الديانة اليهودية والمسيحية اللاحقة.

لقد ركزنا على الفترتين الحاسمتين two defining moments للدراسات التوراتية لأن هاتين الفترتين هما اللتان حددتا سيطرة إسرائيل على الماضي. إن «اللحظة الأولى من الحضارة الحقة»، كما يقول داروادكر (Dharwadker

175 : 1993) لها مغزى حاسم في تاريخ أي شعب. من الناحية التاريخية ومن ناحية التدوين التاريخي فهي اللحظة الحاسمة التي حين تُفهم برمتها، توفر قاعدة فهم كل التاريخ اللاحق. وقد احتلت فترات «نشوء» إسرائيل في فلسطين وتطور دولة إسرائيلية هذه المكانة في الدراسات التوراتية. فهي تحدد الطبيعة الأساسية لإسرائيل وشعورها بهويتها القومية، وتصور على أنها ثابتة لا تتغير خلال الفترات اللاحقة من التاريخ، وذلك بربط الحاضر بالماضي. إن بناء الماضي، إذن، هو صراع حول تعريف الهوية التاريخية والاجتماعية. إذا تمكنا من تغيير المنظور الذي تنبع منه هذه التصورات لنبين أن خطاب الدراسات التوراتية قد اختلق تاريخا كثيرا ما يعكس حاضرها في كثير من جوانبه، عندئذ فقط يمكن أن نحرر التاريخ الفلسطيني ونتقدم باتجاه خطاب يسمح ببناءات وتصورات بديلة للماضي. وهذا سيحرر أيضا الفترات السابقة واللاحقة للمنطقة من قبضة التاريخ الإسرائيلي.

تحديد موقع للتاريخ الفلسطيني

كان إنتاج «رواية أصل» master story لإسرائيل القديمة جزءا من المشروع اللاهوتي الذي تم الأخذ به أساسا في كليات العلوم الدينية واللاهوت في الجامعات الغربية. يثير إدوارد سعيد نقطة جوهرية تتعلق بجمهرة قراء هذا الفرع من المعرفة إذ يقول: «لم يتوجه أي من المستشرقين الذين أكتب عنهم - على ما يبدو - بكتاباته إلى إنسان شرقي كقارئ. إن خطاب الاستشراق، وتجانسه الداخلي وإجراءاته الصارمة، كلها كانت مصممة وموجهة لقراء ومستهلكين في عواصم المدن الغربية» (إدوارد سعيد 4: 1995). وهذا ينطبق أيضا على الجمهور المستهدف أو الفعلي للأعمال المتدفقة التي تعالج تاريخ إسرائيل القديم، تلك الأعمال التي استعرضناها في الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس من هذا الكتاب. هذه الأعمال لا تخاطب الجمهور الفلسطيني أو غير الغربي أو غير الإسرائيلي. بل إن الجمهور الذي تخاطبه هو الجمهور المسيحي واليهودي بخاصة. وكما قال براكاش (Prakash 384 : 1990) «كان الاستشراق مشروعا أوروبيا منذ بدايته الأولى». وكانت الدراسات التوراتية جزءا من الخطاب الاستشراقي وامتدادا له في نواح عدة. ولم

يحدث في أي وقت من الأوقات أن القارئ الفلسطيني أو أي قارئ غير غربي كان هو المقصود مخاطبته في هذا الخطاب، أما القارئ الذي يتوجه إليه فهو القارئ الأوروبي والأمريكي والإسرائيلي. تختبئ هذه الكتابات التاريخية وراء ستار لغوي يتسم بالمعقولية والموضوعية والنزاهة غير المنحازة دينيا. ولكن كجزء من الخطاب المتشابك والأعم للاستشراق فإن هذه الكتابات التاريخية متورطة في تقديم الماضي بشكل مسيَّس. أما الثقافات المحلية لفلسطين فتصور على أنها غير قادرة على العمل الموحد أو مفتقرة إلى الوعي الوطني، بل توصف صراحة ودون خجل بأنها لاأخلاقية. وكثيرا ما نجد «الفلسطينيين» شعبا بلا اسم، وفي أحيان نادرة فقد يُطلق عليهم اسم «فلسطينيون»، وهم النقيض التام للغربيين رفيعي الثقافة والعقلانيين الذين يتمتعون بالموضوعية والذين لديهم فكرة واضحة عن هويتهم الوطنية. وقد قويت هذه الأفكار خلال القرن الحالي مع نمو الدراسات الإسرائيلية التي تستمر في ترويج النظرية القائلة إن إسرائيل هي كيان قائم بذاته. ومنفصل عن بيئته، وهي التي أدخلت الحضارة والتقدم إلى المنطقة، وقد وصلت إلى درجة من التطور السياسي كان السكان الأصليون غير قادرين على الوصول إلى مثلها. لقد طورت الدراسات التوراتية، كأحد فروع المعرفة، خطابا لتصور الماضي وتقديمه نُقل إلينا دون تدقيق وتمحيص، وهذا الخطاب استولى على أرض الفلسطينيين كما سيطر على تاريخهم. إنه خطاب القوي، وإذا نظرنا إلى هذا الخطاب من منظور غير غربي وبخاصة من المنظور الفلسطيني، وجدناه خطابا قد استبعد الأغلبية العظمى من سكان هذه المنطقة في خضم البحث عن جذور أوروبا، (وفي الآونة الأخيرة) البحث عن جذور إسرائيل. إنه أيضا خطاب اكتسب ثقلا كبيرا من خلال موقعه المركزي في كليات اللاهوت وعلوم الدين، وتمتع بسلطة الجامعات الغربية.

لكن تبقى مسألة مهمة: أين يمكن تعيين موقع لتاريخ فلسطين القديم، ومعه تواريخ إسرائيل ويهودا. إذا لم يكن من الممكن بعد الآن عزل التاريخ الفلسطيني عن الخطاب التاريخي، وإذا كان التاريخ الفلسطيني سيشكل جزءا من روايات الماضي المتنازع عليها، يجب أن يكون له موقع خاص به يمكن أن ننطلق منه. إذن تحديد موقع لسرد الروايات البديلة للتاريخ هو شيء حاسم، حيث إنه اعتراف بجواز سرد الرواية البديلة. إذا كان سيتسنى

للتاريخ الفلسطيني أن يتحرر من طغيان خطاب الدراسات التوراتية، فمن الواجب أن يتحرر أولا من القيود اللاهوتية التي هيمنت على تاريخ المنطقة. هذا يعني أنه ينبغي أن نجد له موقعا بديلا، خارج نطاق الدراسات التوراتية. ينبغي الاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته، وكجزء من دراسة التاريخ وخطاب «الدراسات الحضارية» cultural studies إذا كان سيُعطَى صوتا خاصا به يمكنه من تحدي اختلاق تاريخ إسرائيل القديمة. ولكي يفند تاريخ فترة العصر البرونزي المتأخر وأوئل العصر الحديدي.

إن حركات التحرر في القرن العشرين قد أعطت صوتا للفئات الهامشية والمعدمة في المجتمع والتاريخ. ومن المفارقات التي أدى إليها كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد أنه بينما يركز موضوع الكتاب على الشرق الأوسط، فإن النجاح الأكبر فيما يتعلق باسترداد الماضي قد تحقق في مجال التأريخ الهندي. لكن في الوقت نفسه ليست هناك أي مادة متوافرة يمكن مقارنتها بما قدمه سعيد في نقده لفرضيات الاستشراق في خطاب الدراسة التوراتية أو التاريخ القديم للشرق الأدنى. مثال ذلك أنه، حتى لو كان سعيد نفسه يعترف بأن الدراسات التوراتية جزء من المشروع الاستشراقي. (17, 18, 51: 1985). على حين أن الماضي قد أصبح مساحة متنازعا عليها في فروع أخرى عديدة من فروع المعرفة، وكذلك في تخصصات تاريخية مختلفة، فإن هذا لم ينطبق على الدراسات التوراتية. لا يزال الصراع حول التاريخ الفلسطيني في بداياته الأولى. وحتى يُكتب له النجاح، سوف يكون من الضروري تعرية المصالح السياسية والدينية التي كانت الدافع وراء اختلاق إسرائيل القديمة في خطاب الدراسات التوراتية. سوف يحتاج التاريخ الفلسطيني أيضا إلى أن يخلق لنفسه فضاء حتى يتمكن من إنتاج روايته الخاصة للماضي، وبهذا يساعد في استعادة صوت السكان الأصليين الذي تم إسكاته في خضم اختلاق إسرائيل القديمة.

إن المشروع المعروف باسم سبالترن Subaltern (أي المشروع المتفرع البديل) لتاريخ الهند قد نجح في تحدي النماذج المهيمنة على ذلك التاريخ، والتي كانت ـ حتى ذلك الحين ـ مشتقة من تاريخه الاستعماري، إذ تمكن من المطالبة بالسياق الأكاديمي الذي انطلق منه والذي مكّنه من هدم الروايات «الرسمية». وتمكن أيضا من خلق منبر، وهو: «دراسات سبالترن: كتابات

حول تاريخ ومجتمع آسيا الجنوبية» Subaltern Studies: Writings on South Asian History and Society، كي يقدم ويطور استراتيجيته واستنتاجاته في البحث التاريخي. كما تم تحديد موقع للأكاديميين المشتغلين في هذا المشروع بدرجة كبيرة، في أقسام التاريخ في الجامعات. وقد تنافسوا على فضاء التاريخ القديم والحديث. على النقيض من ذلك، فإن محاولات الترويج لتاريخ فلسطين القديم، لتحدي الروايات المهيمنة حول تاريخ إسرائيل القديم، قد جاءت من المتخصصين التوراتيين من خلال مواقعهم في أقسام الدراسات التوراتية في الجامعات. إذا كان سيتسنى للتاريخ الفلسطيني أن يتحرر من قيود الدراسات التوراتية، وهذا شيء لا بد منه ولو شئنا أن يكون له صوت مسموع، فلا بد له أن يخلق فضاءه الخاص به أو الدخول في منافسة مع المواقع الموجودة حاليا. ليس من الواضح أين سيكون موقع هذا الفضاء الذي سيسمح بسرد تاريخ فلسطين القديم. ولا بد في البداية، من أن يحدث النزاع في المواقع الأكاديمية الموجودة الآن، ضمن أقسام الدراسات التوراتية والموضوعات القريبة منها. وهذا يعني في المحل الأول أنه سيحدث داخل أقسام وكليات اللاهوت. إن سبب هذا هو أن المهمة الأكثر إلحاحا هي حاجة القائمين على تلك الدراسات إلى إعادة النظر في مهمتهم فيما يتعلق بتطور الدراسات التوراتية في سياق المشروع الاستيطاني. والمهمة المطلوبة هي إيضاح الدوافع السياسية للدراسات التوراتية وتصورها للماضي. وسوف يحتاج هذا أيضا إلى التحقيق في المادة الموجودة والمتوافرة في السجلات حتى نتيح إعادة النظر للدوافع والمصالح التي ظلت من وراء الستار في الكتابات العامة لهذا الفرع من المعرفة.

إن إنجاز هذه المهمة بجدية كافية هو وحده الذي سيجعل من الممكن انتزاع التاريخ الفلسطيني وتحريره من قبضة المصالح التي ساهمت في إسكاته طوال هذه المدة الطويلة من الزمن. إلا أن مسألة تحديد موقع للدراسات الفلسطينية يظل شيئا في غاية الأهمية. إذ لا يوجد منبر، من داخل التخصصات العلمية، يمكن مقارنته بمشروع التأريخ الهندي المعروف باسم سبالترن الذي يسمح بسرد رواية التاريخ من وجهة نظر مختلفة. وأيضا لا يُسمح للتاريخ الفلسطيني بأن يسرد وجهة نظره ضمن أقسام التاريخ في الجامعات. وحتى نتمكن من تحقيق هذه الفكرة، سيكون من

المحتم التحرر من قبضة وقيود الدراسات التوراتية، ومن ثم المطالبة بموقع للتاريخ الفلسطيني ضمن الخطاب الأكاديمي في أقسام التاريخ، والذي تجاهله هذا التاريخ على أساس أنه جزء من تاريخ إسرائيل القديمة المستند إلى التوراة. لكن التحدي الرئيسي يظل في إعادة اكتشاف التراث الحضاري والثقافي والفني لفلسطين القديمة، والذي نشهده من خلال النصوص المكتوبة وأشكال التراث الأخرى، (ومنها التوراة العبرية)، والأواني الفخارية والمصنوعات اليدوية، والأبنية التذكارية، والآثار المادية، وهذه كلها تشهد على منجزات سكان فلسطين. وهذه بالتأكيد، فكرة تستحق السعي وراءها.

حواشي

(*) المقصود «بالمنطقة» هنا هو مساحة الأرض التي كانت إسرائيل القديمة تريد إقامة مملكة عليها. (المراجع).

(*2) المِدراش Midrach هوعلم وتفسير النصوص التوراتية. وهي مشتقة من الكلمة العبرية «درش». (المترجمة).

(*3) المقصود: جورج انطونيوس ومحمد مُصلح وعبد اللطيف طيباوي ووليد الخالدي وإبراهيم أبو لغد وإدوارد سعيد. (المترجمة).

(*4) ويقول طومسون في كتابه الذي صدر مؤخرا بعنوان The Bible in History في تفسيرة للنقش الذي ورد على لوح مرنبتاح الحجري أن اسم إسرائيل يرجع إلى القرن 13 ق. م. حيث كانت اسما لشعب كنعان (فلسطين الغربية)، الذي يقول النقش إن جيش الفرعون المصري دمرهم.

ويضيف طومسون إن ربط «إسرائيل» بكنعان في هذا النقش المصري المبكر لا يمكن اعتباره مرادفا لإسرائيل الواردة في التوراة. إن ما يقدمه هذا النقش هو مجرد أول ورود تاريخي لاستخدام اسم إسرائيل معروف لدينا.

وهذا لا يشير إلى إسرائيل التي نعرفها من الكتابات الآشورية والنصوص الفلسطينية القديمة. فإسرائيل تلك كانت دويلة محلية سيطرت على المرتفعات شمالي القدس وقد ظهرت للوجود بعد بضعة قرون من الفرعون مرنبتاح. وهذا لا يمكن اعتباره مرادفا لإسرائيل التوراتية، فإذا كان نقش مرنبتاح يعبّر عن أي حقيقة تاريخية فإن التوراة لا تذكر عنه شيئا (ص 79). (المترجمة)

(*5) يذهب روبرت دروز Robert Drews في كتابه بعنوان «نهاية العصر البرونزي: تغيرات في أساليب الحرب وكارثة 1200 ق. م. The End of the Bronze Age: Changes in Warfare and the Catastrophe CA. 1200 B.C. (Princeton Univ. Press 1993)، إلى أن حضارة العصر البرونزي في شرق البحر المتوسط شهدت فاجعة كبرى سنة 1200 ق. م، وكانت هذه إحدى اللحظات الأكثر رعبا في التاريخ البشري لمن عايشوها، وكانت نقطة تحول أساسية. ويذهب إلى أنه في تلك الفترة، دمرت تقريبا كل مدينة ذات أهمية وكل قصر في شرق البحر المتوسط تدميرا تاما. وبعد عرض الأسباب المتعددة التي يمكن أن تكون قد أدت إلى هذه الكارثة الكبرى، يرجح أن تطور صناعة الأسلحة كان من أهم الأسباب. (المترجمة).

(*6) أخبار الأيام (الأول والثاني) Chronicles من أسفار التوراة التي تدون تاريخ إسرائيل ويهودا منذ البدء وحتى العودة من النفي (536 ق. م) (المترجمة).

(*7) السلالة الإخمينية حكمت بلاد فارس من (553 ـ 330) ق. م، وانتهت بهزيمة داريوس من قبل الإسكندر الأكبر (المترجمة).

الهوامش والملاحظات

المقدمة

1 ـ يذكر براكاش (Prakash 401: 1990) «أن من الأفضل مساءلة التقييم الذاتي للماضي، بدلا من رؤية هذه الأحداث كأحداث مهمة لأنها اعتبرت جديرة بالاهتمام في الماضي... والغرض من كشف هذه المعلومات هو كتابة تلك الأحداث التاريخية التي أهملها التاريخ والتدوين التأريخي».

2 ـ للاطلاع على خلفية المناقشة والأدبيات ذات الصلة بالموضوع، انظر (ديفر Dever 1985 , 1992)، لقد زعم منذ وقت قريب أن علم «الآثار القديمة السوري ـ الفلسطيني»، قد بلغ رشده (Dever ، 1993).

3 ـ يكشف البحث في العناوين الأخيرة من International Dessertation Abstracts أن عددا متزايدا من أطروحات الدكتوراه في الدراسات التوراتية والمجالات المماثلة، يشتمل حاليا على كلمة «فلسطين» في عناوينها مقارنة بإسرائيل أو إسرائيل القديمة. إلا أنه ليس واضحا ما إذا كان هذا يشير إلى تغير جذري في المنهج أم لا. إن استعمال مصطلحي «فلسطين» أو «فلسطيني» ليس ضمانة بأن التاريخ الفلسطيني قد وجد تعبيرا عنه. وسيتناول الفصل الثاني الأساليب التي استعملت لتفريغ هذه المصطلحات من المعنى في أحوال كثيرة وبالتالي إنكار مفهوم التاريخ الفلسطيني.

4 ـ انظر (وايتلام Whitelam: 1995b) فيما يتعلق ببحث هذا التغير والأساليب التي أسهم بها ما يسمى «بالمدخل الاجتماعي إلى التاريخ الإسرائيلي في إيضاح الحاجة لتقصي التاريخ الفلسطيني».

5 ـ يعتقد (طومسون Thomson: 1992b) أن ثمة تأثيرا قويا من جانب Tubingen and Chicago. لكنه يعتبر، وعن حق، أن ذلك بمنزلة تقارب بين علماء مختلفين مستمد من دراسات توراتية، وعلم الآثار القديمة، والساميات وليس نهجا مستقلا. انظر (Whitelam: 1995b) بشأن الرأي القائل إن ذلك نشأ على الأخص في سياق أوروبي يرتبط بعلماء أوروبيين وبأصحاب الصلات الوثيقة بأوروبا.

6 ـ حول أهمية مفهوم «الزمن الغابر» deep time، انظر الفصل الأول. إن إسرائيل القديمة لا تمثل، من هذا المنظور، سوى لحظة ضمن السياق الأوسع للتاريخ الفلسطيني.

7 ـ لا يعني ذلك الاهتمام بشكل خاص بالتقاليد القومية «للعالم الثالث» بل على العكس الإيحاء بأهمية امتلاك صيغ تاريخية تنافسية من جميع المنظورات. ويبين إدوارد سعيد أن «الغربيين صاروا يدركون أخيرا فقط أن ما يتعين عليهم قوله بشأن تاريخ وثقافات الشعوب «الأقل أهمية»، يمكن الاعتراض عليه من جانب الشعوب نفسها، هذه الشعوب التي ظلت حتى سنوات قليلة مضت مندمجة ببساطة، ثقافة، وأرضا، وتاريخا، وكل شيء، في الإمبراطوريات الغربية الكبرى، ونصوصها المكتوبة الصارمة». (Said 235: 1993).

ويوضح براكاش (Prakash 399: 1990) أن «الأصل القومي ليس مطلبا ضروريا لصياغة مكانة ما بعد الاستشراق» Post-Orientalist position، مبينا أن غالبية الذين شاركوا في مشروع سبالترن البديل Subaltern project تقريبا يقيمون في الهند، وبريطانيا، وأستراليا وأنهم حصلوا على تعليم أو خبرة أكاديمية في العالم المتحضر.

8 ـ انظر المجلدات المتنوعة من دراسات سبالترن Subaltern Studies التي يشرف على تحريرها Guha، وكذلك المقالات المختارة في Guha and Spivak (1988).

9 ـ يلاحظ (إدوارد سعيد xii-xiii: 1992) أن «أحد الملامح الخاصة بشعب صغير غير أوروبي يتمثل في فقر الوثائق، أو التواريخ، والسير الذاتية والتسلسل الزمني للوقائع وما إلى ذلك. ويصدق هذا على الفلسطينيين، وهو ما يفسر الحاجة إلى وجود نص موثوق به عن التاريخ الفلسطيني». إنه يتحدث عن استرجاع التاريخ للفلسطينيين (Said 17 : 1988) إلا أنه لا يزال يفضل، كما يبدو، التفكير بلغة التاريخ الحديث وليس التاريخ القديم. ويحتاج التاريخ القديم إلى غربلته وتنقيته وإعطائه صوتا معبرا، بعد أن حجبته عن الأنظار ثقافة صاغت رواية مؤثرة تحتفظ بالماضي لإسرائيل.

10 ـ لاشك أن دعاوى كتابة «تاريخ جديد» هي دعاوى نسبية، كما توضح ذلك إشارات إلى أعمال من هذا القبيل في العشرينيات. انظر (فوجل Fogel 17 ـ 16 : 1983). لكن المشكلة الحاسمة عند الحديث عن تاريخ جديد ليست، إلى حد كبير، مشكلة النسبية. فالسؤال الذي يتطلب إجابة هو الذي طرحه روبرت يونغ (Robert Young 119 : 1990): «لكن كيف يكتب تاريخ جديد؟ بينما، كما لاحظ (سيزار Cesaire 54: 1972)، التاريخ الوحيد تاريخ أبيض»؟

11 ـ يوضح يونغ (Young 10 : 1990) أن إدوارد سعيد انتقد تاريخ العالم كما خبره بروديل Braudel، وواليرشتاين Wallerstein، ووولف Wolf، وآندرسون Anderson، كما لايزال مستمدا من مشروع الاستشراق ومن علم الأنثروبولوجيا، الرفيق المتواطئ للاستشراق، الذي رفض أن يواجه ويطرح للمساءلة علاقته الخاصة كسوط في يد الإمبريالية الأوروبية. وبالنسبة لسعيد (Said 22: 1984)، فإن المشكلة هي الفشل في تقييم العلاقة بين الإمبريالية وتمثيلها للثقافات الأخرى، والتي نتج عنها ما يسمى التأريخية (historicism) والعولمة «(universalism) وتوكيد شرعية الذات التي كانت مستوطنة لها».

الفصل الأول

1 ـ يشير ويكام (Wickham 8 ـ 4: 1990) إلى رد بعض المؤرخين على اعتراضات أهل البلاد الأصليين القدامى على الاحتفالات الأسترالية بالذكرى المئوية الثانية، باعتبارها «عملا فاشيا من أعمال الإرهاب الفكري». ويلفت النظر إلى أن ذلك يوضح كيف أن المعرفة التاريخية بأستراليا «جزء من تاريخ الماضي الأسترالي»: وهو تاريخ يحظر المساس به. ويحاول أن يبرهن على أن رد فعل كهذا يتستر في الحقيقة خلف الماضي لكي يحمي من الشك هدفا سياسيا يستند إلى معلومات تاريخية «رسمية» معينة. هذا الهدف السياسي هو ترويج معارف بعينها على حساب معارف أخرى. وبالمثل، يعرض سعيد (Said 378: 1993)، في حديثه عن دراسات سبالترن Subaltern Studies، صامويل Samuel (1989)، وبيرنال Bernal (1987) النقطة التالية: «إن الفكرة من وراء هذه المؤلفات هي أن روايات التاريخ التقليدية ذات السمة الرسمية القومية والمؤسساتية تميل أساسا إلى تحويل روايات التاريخ المؤقتة القابلة للشك بصورة كبيرة إلى هويات ذاتية رسمية». وعلى نحو مشابه، فإن الأحداث التاريخية المعتمدة عن إسرائيل القديمة والتي وردت ضمن دراسات توراتية، وهي نفسها روايات تاريخية قابلة للشك إلى حد بعيد، أخذت شكل سلطة مرجعية لتفسيرات الماضي التي صودق عليها رسميا.

2 ـ عرض لونغ (Long (n.d هذه النقطة في بحث قرأه أثناء الاجتماع السنوي لـ SBL في سان فرانسيسكو، نوفمبر 1992.

3 ـ ويمضي قائلا:

لا ريب في أن مواقف كهذه تشكل أساسا لإنكار مندنهول الأخير بشدة وجود صلة بتحفة غوتفالد الفنية الرائعة، التي حددت بوضوح توجهها الماركسي واهتماماتها الاجتماعية المعاصرة ـ والقضية هنا ليست مدى اختلافات التفسير التاريخي في حد ذاته (إذا كان يمكن أن توجد فكرة مجردة كهذه)، وإنما على العكس الجدل الذي يصاغ فيه التفسير ونتائجه على المواقف الدينية والسياسية اليوم. (إيدن Eden 291: 1989).

4 ـ أدى اتفاق غزة ـ أريحا أولا، الذي وقعته منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة إسرائيل منذ فترة قريبة، إلى إقامة دائرة ناشئة للآثار، ومهما يكن، فسيمر وقت طويل قبل أن يتوافر الدعم المالي الجوهري لعلم الآثار القومي الذي يضارع الدول القومية الأخرى في المنطقة.

5 ـ لايزال (تريغر Trigger 386: 1984) مترددا بشأن أنسب وصف للآثار الإسرائيلية، نظرا لأنها تضم عناصر من كل الآثار «القومية» والاستعمارية. ويلاحظ أن «الإسرائيليين يزعمون وجود جذور تاريخية قوية في الأراضي المحتلة». وستُبحث تداعيات هذا الزعم فيما يتعلق بالثقافة التوراتية في بقية هذه الدراسة.

6 ـ يصف سيلبرمان Silberman أهمية المسادا في العبارات التالية:

بالنسبة للإسرائيليين المعاصرين، المهتمين بشدة بقضايا السيادة والاستقلال، قدمت اكتشافات المسادا أداة ربط مادية بين الماضي والحاضر. إن حقيقة أنه بعد قرابة ألفي سنة من النفي عاد اليهود ليظهروا روعة ومأساة وجود قومي غابر عند ذلك الجبل البعيد في الصحراء اليهودية، جعلت المسادا رمزا سياسيا قويا. (Silberman 87: 1989).

لقد واجه تفسير يادين Yadin بشأن البراهين الأثرية واستخدامه رواية يوسفوس Josephus نقدا لا يستهان به. (انظر مثلا، سيلبرمان Silberman 9 ـ 95: 1989. كوهين Cohen 1982).

7 ـ تبين زروبافل Zerubavel كيف أن النواحي الإشكالية للرواية، كالانتحار الجماعي، جرى تجاهلها أو أعيد تفسيرها فيما بعد «كموت وطني»، وتلاحظ أيضا تطور القصص المضادة. انظر أيضا شوارتز SchwartZ، زروبافل Zerubavel، بارنت Barnett (1986) حول الجوهر المتغير للقصة في المجتمع الإسرائيلي.

8 ـ توحي (زروبافل Zerubavel 85: 1994) أن «الذاكرة الإسرائيلية تعيد بذلك تركيبا متصلا زمنيا متماسكا بين المسادا وإسرائيل المعاصرة: إن نهاية العصور القديمة تنفتح رمزيا، بصورة تقود إلى بداية الإحياء الصهيوني الحديث».

9 ـ لقد راجع فيما بعد رأيه هذا (48 ـ 9: 1991)، معترفا بالحاجة إلى إجراء مسوح شاملة للأراضي المنخفضة كي تتلاءم مع العمل الذي نفذ في مناطق المرتفعات. إن الانقسام الثنائي بين «إسرائيل» و«كنعان» والوسائل التي تحل بها إحداهما محل الأخرى ستناقش فيما يلي. ويتيح ذلك أداة مهمة للربط بين الانتحال الأوروبي للماضي الإسرائيلي باعتباره أصل التراث الأوروبي الثقافي الخاص والتاريخ الإسرائيلي. وتؤكد غالبية علوم «الآثار القديمة الإمبريالية» في دراسة تريغر (Trigger 363 ـ 8: 1984) على الطابع البدائي والجامد للثقافات الأخرى بالمقارنة مع التطور السريع لثقافتها الخاصة، وهي أوروبية في هذه الحالة. إن الثقافة الكنعانية هي التي تصوَّر على أنها جامدة فقط من أجل أن تحل محلها في الثقافة الأوروبية والإسرائيلية ديناميكية «إسرائيل القديمة». ويلتفت

Trigger إلى أن إنجازات حضارات الشرق الأدنى القديمة قد انتحلت لمصلحة أوروبا الغربية بزعم أن الأوروبيين الغربيين وليس السكان الذين عاشوا في الشرق الأدنى اليوم كانوا الورثة الروحيين الحقيقيين لهم. ويتم تقديم إسرائيل، بوصفها ممثلة للدولة القومية الأوروبية، كبديل عن ثقافة كنعان الجامدة بالطريقة نفسها التي حلت بها الحضارة الأوروبية محل ثقافات الشرق الأوسط الجامدة.

10 ـ الأدبيات حول نمو القومية ضخمة. انظر الدراسات الكلاسيكية بقلم آندرسون (Anderson 1991) وهوبزباوم (Hobsbawm 1990) فيما يتعلق بمناقشة القضايا المعقدة. يقول بروديل Braudel مستشهدا بلستوكوي (Lestocquoy 14 : 1968) في سياق مناقشته لتطور وحدة فرنسا إن:

المفهوم الحديث للوطن La patrie، مع ذلك، نادرا ما ظهر في القرن السادس عشر، وأخذت الأمة أول شكل انفجاري لها مع الثورة. وظهرت كلمة قومية nationalism فقط بقلم بلزاك Balzac حين كان لايزال في الإمكان محاولة الرهان على كل شيء. (Braudel 18 : 1990).

11 ـ إن ملاحظته بشأن وجود ارتباطات تاريخية مؤكدة بين إسرائيل الجديدة والقديمة هي ملاحظة مثيرة للجدل بوضوح. بل إنه من المشكوك فيه وجود ارتباط مباشر بين الكيان المسمى إسرائيل على لوح مرنبتاح الحجري المنقوش في نهاية العصر البرونزي المتأخر، والدولة الملكية أو الكيانات اللاحقة في فترة المعبد الثاني (وايتلام Whitelam 1994). إن الاعتقاد المنتشر بوجود متصّل مباشر بين ماضي إسرائيل القديمة وبين الدولة المعاصرة هو أداة بلاغية مهمة لعبت دورا خطيرا في طمس التاريخ الفلسطيني.

12 ـ يطرح شاكرابارتي (Chakrabarty 19 : 1992) السؤال المثير للفضول حول سبب جعل التاريخ حصة إجبارية من التعليم الحديث في جميع البلدان، بما فيها تلك التي استغنت عن ذلك بسهولة إلى وقت متأخر حتى القرن الثامن عشر. ويبين أن السبب يكمن في ائتلاف الإمبريالية الأوروبية وقوميات العالم الثالث وهو ما نتج عنه عولمة الدولة القومية كأفضل شكل مرغوب فيه للجماعة السياسية:

إن للدول القومية القدرة على فرض قواعد اللعب الخاصة بها، والجامعات، على الرغم من تحفظها الحرج، جزء من مجموعة المؤسسات المسايرة في هذه العملية. فـ«علم الاقتصاد» و«التاريخ» هما شكلا المعرفة المتطابقان مع المؤسستين الكبيرتين اللتين أعطاهما للعالم صعود النظام البورجوازي (وفيما بعد العولمة)، وهما النمط الرأسمالي للإنتاج والدولة القومية. (Chakrabarty 19 : 1992).

13 ـ يناقش كليمنتس (Clements†ff. 122 : 1983 , 3: 1989)، إيغرز (Iggers 1980)، أيضا تطور التدوين التأريخي الألماني.

14 ـ ينبغي أن نتذكر أيضا القول المأثور الشهير لأرنست غلنر (Ernest Gellner 169 : 1964)، إن «القومية ليست إيقاظ الشعور بالذات لدى الأمم: إنها تخترع الأمم حيث لا تكون موجودة».

15 ـ وهكذا فإن أي تاريخ لفلسطين يجب أن يتعامل مع هؤلاء الناس، على حد قول إدوارد سعيد (75 : 1993)، «الذين يعتمد عليهم الاقتصاد ونظام الحكم الذي تدعمه الإمبراطورية، إلا أن واقعهم تاريخيا وثقافيا لم يتطلب الاهتمام».

16 ـ يقرر شاكرابارتي Chakrabarty أن على المؤرخ الانتقادي أن يجتاز هذه المعرفة، ولذلك فإنه يحتاج إلى فهم الطريقة التي يتم بها تبرير الحالة من خلال السرد. ويضيف أنه: لما كانت هذه الموضوعات ستعيدنا دائما إلى الافتراضات الكلية للفلسفة السياسية الحديثة (الأوروبية) حتى

إن علم الاقتصاد «العملي»، الذي يبدو الآن طبيعيا في تفسيراتنا للنظم العالمية تضرب جذوره (إلى هذ الحد نسبيا) في أفكار علم الأخلاق في أوروبا القرن الثامن عشر ـ فإن المؤرخ الذي ينتمي إلى العالم الثالث، مجبر على أن يعرف أوروبا باعتبارها الموطن الأصلي للفلسفة الحديثة بينما لا يواجه المؤرخ الأوروبي مأزقا مشابها فيما يتصل بماضيات الجنس البشري. (Chakrabarty 19 : 1992).

17 ـ يلفت ديفيز (Davies 13 : 1992) النظر إلى أن محاولات فهم الماضي، التي تصاغ عادة في شكل قصصي، ليست أبدا «عرضا بريئا للعالم الخارجي». ويتبقى السؤال الحاسم عن سبب سرد القصة.

18 ـ يلاحظ ليفنسون (Levinson 4: 1993) أن أي «قراءة للماضي إذا لم تكن أيضا وعلى نحو متكامل عملية منعكسة على الحاضر فإنها تضلل مقدماتها المنطقية المسلم بها تاريخيا» ويؤكد ديفيز (Davies 13 : 1992) بالمثل، أن التدوين التأريخي، كفرع من فروع الأدب، شكل ذو دافعية أيديولوجية من أشكال الإقناع الذي يعبر عن أفكار صاحبه.

19 ـ عمقت المناقشة التي أعقبت كتاب «الاستشراق» Orientalism الذي كتبه إدوارد سعيد الوعي بالموضوعية المفترضة للثقافة الغربية. وهذه قضية رئيسية لم تتناولها الدراسات التوراتية. فنقاد الأدب، الذين صرفوا جل عنايتهم إلى المواد التوراتية، لم يعالجوا إلا مسائل الذاتية والسلطة في أثناء قراءتهم للتوراة. لكن دور الدراسات التوراتية في المشروع الاستعماري لايزال في حاجة إلى العرض.

ويحاول بولوك (Pollock 85 ـ 6: 1993) أن يثبت أن انفصال «الحقيقة» fact عن «القيمة» value، الذي نتج عن نزع الثقافة من سياقها الواقعي التاريخي هو الذي أتاح «لأسوأ أشكال الثقافة تشوها في التاريخ أن تظهر إلى الوجود». ويستطرد لإبداء نقطة مثيرة حول الأزمة داخل الدراسات التاريخية والأدبية الهندية التي قد تكون على صلة بالأزمة الحالية في الدراسات التوراتية:

وفي كلمات أخرى، فإذا كانت الدراسات المعرفية الهندية قد تعايشت تاريخيا مع المؤسسات الزائلة للسلطة القمعية، فإن ثمرة مثل هذه المعرفة ما عادت تفيد الهدف الأساسي المحدد لها. وربما يوحي هاجسنا مع الاستشراق طوال العقد الماضي بأن أصحاب الدراسات الهندية، الذين بدأوا يدركون الآن فقط تورطهم التاريخي في السيطرة التي انتهى عهدها، ما عادوا يعرفون لماذا يفعلون ما يفعلونه. (Pollock 111 : 1993).

وقد يساعد هذا أيضا في شرح أزمة الثقة في تفسير تاريخ إسرائيل والتي ظهرت في الثقافة الغربية التوراتية، مقارنة بالإحساس القوي باليقين و«الحيادية» في الثقافة الإسرائيلية التاريخية: لقد غدت الثقافة الغربية التوراتية فاقدة للثقة في دورها ووظيفتها مع فقد الغرب تدريجيا دوره الاستعماري مقارنة مع الثقافة الإسرائيلية، التي ما انفكت متورطة في التجربة الاستعمارية.

20 ـ ينبغي ملاحظة أن هالبرن (Halpern 13 ـ 3: 1988) يقر بأن كتابة التاريخ عملية انتقائية وخيالية. والفرق الحاسم لديه هو ما إذا كان المؤلف قد حاول أم لا أن يصوّر الماضي بأفضل ما لديه أو ما لديها من قدرة، وليس أن يحاول عن عمد خداع القارئ بشأن هذا الماضي. «وخلاصة القول، إن التاريخ معرض للتزييف، وللخلاف حول دقة تفصيلاته وتقييم علاقاتها المتبادلة». (10: 1988). والمعايير التي يوردها هي كما يلي: ولكن حين لا يستبدل نص مجرد من المحسنات أصلا بلغة مجازية.. فإنه يستحق أن يبحث كتاريخ. إن الاقتصاد، في سرد سياسي ـ تاريخي، إحدى علامات القصدية في التدوين التأريخي (13: 1988). وهو يعتقد أنه على الرغم من أن ذلك لا

يثبت فحوى ما كان المؤلف ينوي كتابته إلا أنه يقدم دليلا على تلك النوايا. وهكذا، فإنه يدافع عن سفر مؤرخ التثنية Deuteronomistic Historian لدى نوث Noth «كمفكر شجعه اقتناع مخلص على أن يفرض نظاما له مغزاه على ماضي أمته»، (31: 1988). على النقيض من التصور الذي عرضه فان سيترز Van Seters عن «متشرد ودجال» (31: 1988).

21 ـ ومع ذلك، لاحظ إنكار إيلتون Elton هذا القياس اللغوي مع المحكمة في نزاعه مع فوغل Fogel حول المنهج:

كما أننا لا نستنطق أو نستجوب الدليل الذي بحوزتنا كما نتعامل مع أحد الشهود، لو أن الجانب الأكبر من دليلنا لم يأت من قبل أناس يعنيهم الإدلاء بالشهادة دعما لحقيقة أو كذبة: إنه صادر عن أناس يقومون بعمل الأشياء، وليس بملاحظتها أو التعليق عليها. وبناء عليه، فإن النموذج القانوني، في أفضل الأحوال، يغطي جزءا صغيرا فقط من مساحة عمليات المؤرخ التقليدي، وهو حتى في أفضل أحواله عرض هزيل لما يحدث بالفعل حين يقيّم مؤرخ ما الدليل الذي لديه ويسعى لإثبات صحة قضيته (Elton 92: 1983).

22 ـ يلاحظ صامويل وطومسون (Samuel and Thompson 4: 1990)، عقب التحليل الذي أجراه (تونكن Tonkin 1990)، «الفشل في الاعتراف بالواقعية العقلية باعتبارها الأسطورة الخاصة بالثقافة الغربية».

23 ـ إنني مدين بهذه الملاحظة لبيرك لونغ Burke Long الذي أوردها في دراسة قرئت أمام الاجتماع السنوي للـ SBL في سان فرانسيسكو، نوفمبر 1992.

24 ـ من المشكوك فيه للغاية أن تثبت النقوش القليلة المتناثرة والكتابات على الجدران انتشار معرفة القراءة والكتابة في إسرائيل القديمة، كما زعم البعض، يركز هاريس (Harris 1989) على معرفة القراءة والكتابة لدى اليونانيين والرومان، ويطرح أسئلة مهمة حول المستويات العامة لهذه المعرفة في العصور القديمة. وكما هو معروف جيدا من خلال دراسات متنوعة (غودي Goody 1968)، (كيبولا Cipolla 1969)، (أونغ Ong 1982)، فإن انتشار معرفة القراءة والكتابة يعتمد على مجموعة معقدة من العلاقات المتبادلة التي يساندها استثمار ذو طابع مركزي أو حكومي مهم جدا، كما هو الحال في اليابان بعد استعادة حكم الميجي Meiji أو في كوبا ونيكاراغوا (Harris 12 ـ 11 : 1989). ويلاحظ Harris أن المؤلفات التأريخية البارزة لا تظهر في العالم الإغريقي حتى القرن الخامس ق. م. وهو ما يوضع في موضع التغاير مع افتراض عام يرد في دراسات توراتية بأن المؤلفات التأريخية البارزة ظهرت في بلاد داود في القرن العاشر ق. م. إن الدور الذي قامت به مراكز المدن في انتشار معرفة القراءة والكتابة وتطور المؤلفات التأريخية يحتاج إلى دراسة متأنية. ويوحي عمل هاريس (Harris 1989) بأهمية الفترات الفارسية والهلّنستية في الكشف عن تطور التأريخ التوراتي كما يرد في مناقشات كل من فان سيترز Van Seters وديفيز Davies وليمكه Lemche وطومسون Thompson.

25 ـ كان ذلك جانبا من مقابلة نشرت في Woman's Own) (1987 October).

26 ـ يناقش غولد (Gould 2: 1987) مغزى مصطلح ماك فّي Mc Phee (1980) فيما يتعلق بالبحث الجيولوجي.

27 ـ يلفت بوهانان (Bohannan 327 ـ 9: 1967) النظر إلى أن قبيلة تيف في نيجيريا Tiv of Nigeria لا يربطون إجمالا بين الأحداث أو بين فترة زمنية لا تتجاوز جيلا واحدا أو جيلين. وليس ثمة رغبة في إظهار الزمن في الماضي البعيد بأي قدر من الدقة يزيد عما هو الحال بالنسبة

للمستقبل. ويدرس بوكوك (Pocock 304 : 1967) المشكلة حينما يعرف الناس أنهم تغيروا ويواصلون، مع ذلك، العيش في عالم تعتمد قيمه على الثبات: «يتعين علينا هنا أن نختار إما أن نعزو إلى هؤلاء الناس طاقة هائلة على خداع الذات، وهي القدرة على العيش في تعارض مستمر مع تجربتهم، وإما أن نعيد بحث الافتراضات التي تشكل هذه الحقائق في ضوئها مشكلة ما». لكن القضية الحاسمة هي الاستعمال الأنثروبولوجي للزمن. انظر (فابيان Fabian 1983) لنقد الاستخدام الأيديولوجي للزمن في الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وسيتناول الفصل الثاني هذه المشكلة فيما يتصل بالتاريخ الفلسطيني.

28 ـ يذكرنا (لورد Lord 29 : 1965) بأن «الصورة التي تظهر ليست في الواقع صورة صراع بين حماة التراث والفنانين المبدعين، والأصح أنها صورة حماية التراث عن طريق التجديد المتواصل له».

29 ـ كما يلاحظ تونكن (Tonkin 25: 1990): «الأسطورة هي عرض للماضي الذي يعترف به المؤرخون، لكنها عموما ليست بديلا عن التاريخ الأصلي. أعتقد أن علينا أن ننهي هذا الانقسام». غالبا ما تفهم الأسطورة كقصة عن الآلهة أو كتصور شبه قصصي للماضي لإيضاح حقيقة مهمة وإن لم يكن من الممكن التحقق منها. انظر، مثلا، (هيوز Hughes 3 : 1990) الذي يشكو من أن كثيرين من الدارسين التوراتيين يرفضون استعمال مصطلح «أسطورة» فيما يتعلق بالكتاب المقدس لأن من الشائع وصفه بأنه قصص عن الآلهة، في حين أن التوراة العبرية تُصور كأنها غير أسطورية وتوحيدية. وهو يحاول أن يبرهن أن الكرونولوجيا التوراتية أسطورية في الأساس من حيث إنها «تستخدم القصص التاريخي للتعبير عن معتقدات أيديولوجية». وسيدرك كل من حاول تعريف مصطلح «أسطورة» مدى تعقد المشكلة. ويؤكد روجرسون (Rogerson 174 : 1974) على الطابع «متعدد الأبعاد»، للأسطورة، وينصح على غرار ليفي شتراوس Levi-Strauss بعدم تقديم تعريف رسمي. ومع ذلك، تظل المشكلة هي استمرار استعمال المصطلح في تضاد مع التاريخ، بما يعني ضمنا أن التاريخ موضوعي ولا علاقة له بالقيم في تباين مع أساطير المجتمعات القديمة التي ولدت بصورة أيديولوجية.

30 ـ ويتابعون مضيفين:

نستطيع، بالروح نفسها، أن نعيد دراسة كيفية ادعاء الأساطير الجمعية لنفسها الحق في الماضي وإعادة تشكيله. ونحن كمؤرخين في حاجة إلى تأمل مسألة الأسطورة والذاكرة، ليس فقط كمفاتيح خاصة للماضي، وإنما وبصورة مساوية كنوافذ على تكوين وإعادة تكوين الشعور الجمعي الشخصي الذي يشغل كل من الحقيقة والخيال، والماضي والحاضر جزءا فيه. إنها تفسح لنا في المجال لرؤية نادرة لهذه العمليات الحاسمة، التي أهملناها حتى الآن: نحو إمكانية فهم أفضل للنضال المستمر حول الماضي، الذي يمضي قدما باتجاه المستقبل، دونما نتيجة مؤكدة دائما. (صامويل وطومسون Samuel and Thompson 21: 1990).

31 ـ انظر (وايتلام Whitelam 1989) لدراسة التعاليم الأصلية المختلفة في التوراة العبرية كصور للخلافات الحزبية حول حق ملكية الأرض في فترة الهيكل الثاني.

32 ـ انظر Whitelam (1995b) لبحث مدلولي «المدخل السسيولوجي» و«المدرسة السسيولوجية» في الثقافة التوراتية الحديثة كاستعمالات مغلوطة للأسماء.

33 ـ يحاول (غاربيني Garbini 51: 1988) أن يثبت أنه من دون استعمال التوثيق الخارجي يستحيل تحديد الأجزاء الصحيحة في القصص التوراتي. وبناء عليه، فلا يمكن من غير توافر مصادر خارجة عن التوراة كتابة تاريخ إسرائيل. ومع ذلك، لا يبدو أن غاربيني يقدر تقديرا عاليا الفارق

المهم الذي أدخلته الدراسة الأدبية الحديثة إلى هذا الفرع من فروع المعرفة، وصعوبات استعمال النصوص لإعادة التفسير التاريخي.

34 ـ ينبغي الاحتفاظ بالعبارة للمناقشات الخاصة بالتطور التاريخي للنصوص التوراتية ذاتها، وليس كوصف مميز فيما يتعلق بمناقشة تاريخ الجماعات التي أنشأت الأدب.

35 ـ يبين (شاكرابارتي Chakrabarty 1 : 1992) الازدواجية في أي استعمال من هذا القبيل: بقدر ما يتعلق الأمر بالخطاب الأكاديمي للتاريخ ـ أي «التاريخ» كخطاب منتج في مقر المؤسسة الجامعية ـ فإن «أوروبا» تظل الموضوع النظري المهيمن في كل التواريخ، بما في ذلك ما نطلق عليه التاريخ «الهندي» و«الصيني» و«الكيني» وغيرها. إن هناك طريقة معينة تميل جميع هذه التواريخ الأخرى من خلالها لأن تصبح تنويعات على القصة الأم التي يمكن تسميتها «تاريخ أوروبا». وبهذا المعنى، يكون التاريخ «الهندي» ذاته في موقع التابعية، ويستطيع المرء فقط أن يبين بوضوح مواقع موضوع تابع باسم هذا التاريخ. (Chakrabarty 1 : 1992).

الفصل الثاني

1 ـ يقدم إدوارد سعيد (Said 413 ـ 20 : 1994a) نقدا لاتفاق غزة ـ أريحا الذي يترك الفلسطينيين من دون سيادة أو حرية.

2 ـ يؤيد ديفيز (Davies ≤n. 23 : 1992) استعمال مصطلح «فلسطين» بينما يرفض البديل الشائع «أرض إسرائيل» على أساس أن الأول كان مستعملا منذ الفترة الآشورية وأن الثاني غير ملائم لأن جزءا صغيرا فقط من المنطقة كان محتلا لفترة قصيرة من قبل ما يدعى «إسرائيل». ويستطرد مضيفا أنه ينكر «الاهتمام بأي خلاف سياسي في هذا الكتاب». ومع ذلك، فإن الكتاب الحالي يأمل أن يوضح أن الثقافة لا يمكن أن تتنصل من اهتمام كهذا بما أن اختيار المصطلحات يحمل دلالات سياسية مهمة للغاية.

3 ـ تبين مجموعة المقالات التي حررها ميللر Miller، هانسون Hanson ماك برايد McBride (1987) إعادة التقييم التي تجرى حاليا للديانة اليهودية. ويوضح ديفير Dever (1987)، وكوغان Coogan (1987) الصلات الحاسمة بين الديانة اليهودية و«الكنعانيين»، أي الفلسطينيين الأصليين. وقد أكد (ليمكه Lemche 1984 , 1988) على الديانة اليهودية كظاهرة أصيلة.

4 ـ يبين (إندن Inden 405 : 1986 , 50 : 1990) كيف أن أوروبا الغربية رأت أن الشرق الأدنى السامي وفارس الآرية ثقافات توحيدية وفردية مماثلة للغرب ومتباينة مع الشرق الأقصى في الهند والصين واليابان. ويستشهد بكامبل (Campbell 1962) كنموذج تقليدي للاعتقاد بأن حضارات الشرق الأدنى القديم كانت متواصلة مع الغرب. ومهما كان، فإن التواصل الثقافي لا يمتد إلى الثقافة الفلسطينية القديمة.

5 ـ هذه صورة متكررة وتبرير لدولة إسرائيل المعاصرة. يقدم ريفنبرغ (Reifenberg 1955) مثالا تقليديا على الفكرة القائلة إن الدولة المعاصرة هي التي تسترد حضارة قديمة في أعقاب الأفول المفترض خلال الفترة العثمانية. هناك العديد من المقالات النقدية للأفكار التي تجاهلت حجم ودور السكان الأصليين في فلسطين قبل وبعد الحركة الصهيونية والتأسيس اللاحق لدولة إسرائيل المعاصرة. (خالدي Khalidi 1984)، أبو لغد Abu Lughod، (إدوارد سعيد Said 9 ـ 7 : 1992) ويقدم هوتروث وعبدالفتاح (Hutteroth & Abdulfattah 1977) تقييما أكثر إيجابية للفترة العثمانية.

6 ـ يستعمل إيدلمان (Edelman 6 ـ 3 : 1991)، بالمثل، مصطلح عبر الأردن (Cisjordan) في محاولة للعثور على مصطلح فني محايد لوصف المنطقة. وكما رأينا، من ناحية ثانية، لا يوجد مصطلح يحدد المكان ويمكن وصفه بالحياد.

7 ـ يناقش بالي (Baly 1984) علاقة الجغرافيا بالتاريخ في الفترة الفارسية في أحد مجلدات سلسلة كامبريدج حول التاريخ اليهودي Cambridge History of Judaism. وعلى الرغم من أن المقال نشر في عام 1984، إلا أنه استكمل بحلول عام 1973. وهو يشير إلى «فلسطين كاملة، أي مساحة الاستيطان اليهودي الفعلية» (2: 1984)، الممتدة من دان Dan إلى بئر سبع، ومن يافا Joppa إلى الأردن. ويقابل هذا «بمساحة فلسطين» كلها التي تمتد من دان Dan إلى إتيون جابر Ezion-Geber (الاسم القديم لمدينة إيلات ـ المترجمة). ومن يافا إلى فيلادلفيا (عمان الحديثة).

8 ـ يحمل استعمال المصطلحات لتحديد الزمن دلالات عميقة لأي فهم لتاريخ فلسطين. ونتناول هذا في القسم التالي.

9 ـ استخدمت العبارة ذاتها أيضا في الكتاب الأبيض الذي أصدرته الحكومة عام 1939 (Laqueur and Rubin 68: 1981). وتظهر عبارة مماثلة هي «وطن طبيعي في أرض الأسلاف» ضمن رد الفعل الصهيوني على الكتاب الأبيض، في بيان أعدته الوكالة اليهودية لفلسطين في عام 1939 (لاكير وروبين Laqueur and Rubin 76 ـ 7: 1981).

10 ـ يسترعي الانتباه أن العديد من أصحاب الإجابات في المؤتمر اختاروا تجاهل الحجج التي قدمها دوثان Dothan، وركزوا بدلا من ذلك على عرض قدمه ردفورد Redford حول التأثير المصري على المنطقة. ويفضي هذا إلى الإيحاء بأن تلك المسألة عادة ما ينظر لها كمسألة حساسة إلى حد لا يسمح بتناولها: وتظل مشكلة الدلالات السياسية لخطاب الدراسات التوراتية فيما يتعلق بالنزاعات المعاصرة على الأرض مفهومة ضمنا. لقد كان سيغر (Seger 158 : 1985) استثناء جديرا بالملاحظة، إذ رفض مصطلح Dothan على أساس أن «هذه التغييرات تؤكد على الارتباطات الإثنية التي تُعد من الناحية الآثارية الأكثر صعوبة من حيث تعريفها وتقييمها بصورة وافية».

11 ـ ينبغي ملاحظة أن بالي Baly يشير إلى «الجماعات الفلسطينية» (2: 1984) و«السكان الفلسطينيين» (20: 1984) في بحثه عن الفترة الفارسية.

12 ـ استشهد إدوارد سعيد بذلك (79: 1992) وأخذت أطروحة غير منشورة بقلم ميريام روزن Miriam Rosen بعنوان «الحملة الصليبية الأخيرة: علم الآثار البريطاني في فلسطين» The Last Crusade: British Archaeology in Palestine. ولم أستطع الحصول على نسخة من مؤلفها.

13 ـ يتردد صدى إنكار غولدا مائير الشهير في عام 1969 وجود الفلسطينيين (Said 4 ـ 5: 1992) في محاولات بيتر (Peter 1984) لإزالتهم من التاريخ.

14 ـ علق آكرويد (Ackroyd 248 : 1987) على الاستعمال المضلل وغير الدقيق لمصطلحات مثل «نفي» و«استعادة»، وكما أشار، فإن مصطلح «نفي» مصطلح متميز ويشجع المزاعم القائمة على قراءة ساذجة تتسم بالخطورة للنصوص التوراتية. فهذه المصطلحات تؤيد النظرة التوراتية الأساسية تجاه المنطقة التي تلقى فيها الأغلبية الساحقة من السكان التجاهل.

15 ـ فيما يتعلق بتصور التاريخ الهندي كشيء جامد، انظر (إندن Inden 423: 1986).

16 ـ رسم (وايتلام Whitelam 70 ـ 45: 1986) الخطوط العريضة لمفهوم التاريخ عند الحوليين The Annalistes فيما يتعلق بمشكلة إعادة خلق تاريخ إسرائيل القديمة. ويعتقد (ميللر Miller n3. 57: 1987) أن هذا المشروع متفائل أكثر مما ينبغي ويعرض جدول أعمال غير واقعي.

17 ـ استعار بروديل Braudel هذا المفهوم من (ولفرام ايبرهارد Wolfram Eberhard 13 : 1965).
18 ـ ينتقد (فوكو foucault 87: 1984) فكرة «التاريخ الكلي» total history التي تزعم القدرة على إظهار الماضي كتطور مكتمل يمكن فهمه ككل على الرغم من الوقوف خارج التاريخ ذاته.
19 ـ النقطة المهمة التي يعنى بها هي أن جانبا كبيرا من استقلال الدولة التي عاشت في المنطقة قرابة عشرة في المائة من الفترة الزمنية موضوع البحث كان محض وهم (2: 1984). ويتناول الفصل الرابع بحث موضوع دولة إسرائيل المستقلة في فلسطين القديمة.
20 ـ يشير إيغرز (Iggers 10 : 1979) إلى أن مؤرخي الحوليات Annales كانوا يطمحون إلى إرساء قواعد تاريخ «شامل/ كلي» لمنطقة ذات وحدة جغرافية أكبر مثل البحر المتوسط. لقد كانت القوى المادية ذات الأولوية في التعامل بين السكان والعوامل الاقتصادية هي التي وفرت الأسس الموحدة لدراسة من هذا القبيل ولم تكن السياسة أو الأيديولوجيا. يؤيد ماك نيل (McNeil 75 ـ 89: 1982، 30 ـ 45: 1961) «التاريخ العالمي»، الذي يتيح نظرة بانورامية شاملة يمكن بها اكتشاف الإيقاعات والأنماط التي لا تظهرها الدراسة الاقتصادية التفصيلية لأجزاء التاريخ المختلفة. ومع ذلك، ينبغي أن تظل انتقادات سعيد وفوكو Foucault في الذاكرة حتى لا تجرد فلسطين من قيمة متأصلة وبالتالي يستمر إقصاؤها عن الخطاب التاريخي.
21 ـ يعتقد ديفيز Davies أن ميللر وهيز (Hayes & Miller 1986) يمثلان ذروة «الكتابات التاريخية التوراتية»، بما أنه من غير المحتمل كتابة هذا النوع الخاص من التاريخ على نحو أفضل بكثير. ويستطرد مضيفا:
إن الطريق إلى الأمام ـ إن وجد ـ سيبدو رهنا بالمناهج (المتوافقة) للعلوم الاجتماعية: علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، وعلم الآثار القديمة. وستقلب النتائج مكانة الأدب التوراتي: بدلا من السؤال عن كيفية تفسير التاريخ بواسطة الأدب، ينبغي أن نسأل عن كيفية تفسير الأدب بواسطة التاريخ. وإذا كان البحث الأدبي يدير وجهه بعيدا عن التاريخ، بالتركيز على ما في النص، وليس على ما وراء النص، تظل للمؤرخ، مع ذلك ، مهمة مشروعة، لكن هذه المهمة ستنفصل تدريجيا عن النقد الأدبي (Davies 4 : 1987). ويعتقد غن Gunn أيضا أن دراسة التاريخ ستمضي قدما بطريقة مماثلة. ويتكهن بأن «النتائج لن تشبه ما الذي حدث ـ التاريخ التالي، إذ سيكون تقسيم التاريخ إلى فترات أكثر رحابة، وسيعتمد على النقد الأدبي (بما في ذلك النقد البنيوي) في تخصيصه للنصوص». (غن Gunn 67 : 1987).

الفصل الثالث

1 ـ ينتقد أسد (Asad 274 : 1975)، انظر أيضا سعيد (Said 85 : 1994a) الدراسة التي أعدها كوهين A. Cohen تحت عنوان «القرى الحدودية العربية في إسرائيل Arab Border-Villages in Israel، لاستخدامها الحمولة (أي العشيرة) Hamula للتأكيد على أن القرى العربية في إسرائيل كانت مجرد مجموعات عشائرية قروية غير مؤهلة للهوية القومية. ويحاول (Cohen 149 : 1965) أن يثبت أن عددا من العوامل حالت دون نمو جبهة سياسية عربية موحدة، لاسيما أن «العرب في إسرائيل لا يشكلون مجتمعا محليا، متكاملا». وهذه الصورة للتنظيم السياسي المعاصر، أو للافتقار إليه، انعكست ضمن خطاب الدراسات التوراتية.
2 ـ يرد في الفصل التالي بحث الجزء الرئيسي من المعطيات الآثارية ودلالاتها بالنسبة لتحقيق

تاريخ فلسطين القديمة.

3 ـ تقدم مجموعة المقالات المنشورة في Biblical Archaeologist (1993) نظرة أشمل للمخطط المقصود وراء نشر أفكار أولبرايت Albright. وقد أتيح أيضا الحصول على بحث غير منشور لـ بيرك لونغ Burke Long حول Albright والحلقة الدراسية التوراتية.

4 ـ يصف آلكاليه (Alcalay 52 ـ 35: 1993) كيف أن السكان اليهود الأصليين في فلسطين والمشرق حرموا من تراثهم الثقافي عقب الهجرة والسيطرة الصهيونية في المنطقة. ويكشف النقاب عن وجود تراث ثقافي عربي ويهودي خصب في أنحاء المشرق قبل الفترة الحديثة.

5 ـ يمكن العثور على إعادة التقييم البارزة لدى رننغ وفريدمان Running and Freedman (1975)، Van Beck (1989)، وفي دورية: Biblical Archaeologist (1993).

6 ـ يوضح (فريدمان Freedman 33: 1989)، في تقييمه لأولبرايت Albright كمؤرخ، أنه كان مدافعا عن وجهة نظر تقليدية إلى حد ما، بل مهجورة، وكانت معتقداته ومفاهيمه التاريخية الأساسية توليفة اعتمدت على توما الأكويني Aquinas، سانت أوغستين Augustine وكالفن Calvin.

7 ـ هذا التأثير واسع النطاق، فكثيرون من طلابه يهيمنون على الدراسات التوراتية الأمريكية عن طريق تعيينهم وترقيتهم إلى المراكز الأكاديمية العليا. وتعني مطبوعاتهم وتدريب أجيال لاحقة من الطلاب أن وجهات نظر أولبرايت Albright وثقافته قد تركت أثرا يتعذر محوه في هذا المجال. وقد استكشف بيرك لونغ Burke Long الآليات التي نشرت بها آراء أولبرايت في بعض أعماله غير المنشورة، حتى الآن. إن إنشاء وصيانة هذه الشبكة عامل أساسي أيضا في مشكلة المكان الذي يمكن أن توضع فيه مستقبلا دراسة التاريخ الفلسطيني القديم حين تتحرر من تحكم الدراسات التوراتية.

8 ـ يقدم رننغ وفريدمان (Running and Freedman 377 ـ 8: 1975) معلومات إضافية عن آراء أولبرايت السياسية التي تلقي ضوءا قيما على وجهات النظر السياسية التي كونت تفسيره للماضي. وقد نقل عن البروفيسور أفيرام Aviram قوله إن أولبرايت نصح الحاضرين في حفل عشاء أقيم تكريما له في منزل الرئيس الإسرائيلي في شهر مارس 1969، بعدم التخلي عن أي أراض جرى الاستيلاء عليها في حرب الأيام الستة. وبصورة فاضحة، يذكر ملامات Malamat أن أولبرايت حرض إسرائيل في عام 1967 على عدم إعادة سيناء إلى الروس. وكان رأي Malamat أن قناة السويس بالنسبة لـ أولبرايت تمثل خط الحدود التي تفصل العالم الغربي عن الشرق الشيوعي. وكانت إسرائيل، وفق فهمه، الحاجز بين الحضارة الغربية والديمقراطية وبين الشرق اللاديموقراطي، غير المتمدن. ويستشهد المؤلفون أيضا بـ يادين Yadin إذ يشكو من أن أولبرايت كان «على هواه وغير متحفظ في تأييد إسرائيل سياسيا، حتى في المؤتمرات الصحفية العامة، بل لقد اضطررت لتحذيره لكي يكون أكثر حرصا من هذه الناحية» (Running and Freedman 378: 1975). وهو يصف أولبرايت كمدافع عن إسرائيل، وإن كان أحد الذين يدركون المشكلة التي سببها إنشاء دولة إسرائيل المعاصرة للعرب. لكن بعد وزن جميع العوامل، كما اعتاد باستمرار أن يقول، ومع افتراض أن هناك قضيتين عادلتين هنا، إلا أن مبرر حصول إسرائيل على دولة كان المبرر الأقوى، (Running and Freedman 380: 1975). ويتضح من الآراء المشار إليها هذه ومن التصريح الوارد في New Palestine أن تفسير أولبرايت Albright للماضي كمرآة للحاضر، قد شكلته وجهات نظره السياسية.

9 ـ استعمال رايت Wright للتحول من أجل وصف خصوصية إسرائيل يحتاج إلى أن يوضع في

تضاد مع الفهم البيولوجي المعياري للتحول كتغير في التركيب الكيميائي للمورث gene وهو نادرا ما يكون مفيدا. إن التغيرات الأحيائية الأساسية في الجينات عشوائية، ومن المرجح أن يكون التغير العشوائي في آلية حساسة كهذه ضارا وليس مفيدا. (Keeton 54 ـ 2: 1967). ويحاول Wright معارضة ذلك بأن يثبت، مثل أولبرايت Albright، أن التطور محكوم إلهيا وهكذا فإن التحول الإسرائيلي ليس وليد المصادفة وإنما جزء من خطة التطور الموجهة من لدن السماء.

10 ـ في مكان آخر، ينفي خصوصية التجربة التاريخية الإسرائيلية. إلا أن من المثير، من ناحية ثانية، أنه يقارن ذلك بتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. فتجربة إسرائيل القديمة تعكس تجربة الولايات المتحدة الأمريكية.

بل إن شعوبا أخرى كان لها بعيدا عن الأنظار أحداث مماثلة. ونحن في الولايات المتحدة لنا آباؤنا المؤسسون، وهجرتنا الجماعية من القهر الأوروبي، وتعهدنا في الدستور ومرسوم الحقوق Bill of Rights وفتحنا لأمريكا، وسلسلة متعاقبة من عظماء الرجال الذين كانوا الآباء لوطننا، مبتدئين على نحو جلي بجورج واشنطن. وبكلمات أخرى، فإن الحدث التوراتي كحدث تاريخي ليس مثيرا للعاطفة بأكثر مما ينبغي فيما يتعلق بخصوصيته (Wright 10 ـ 11: 1960).

إن الخصوصية لا تأتي في الحدث ذاته، وإنما في الحدث ككشف عن الخطة الإلهية. ويمكن رؤية الطريقة التي يشكل بها الماضي فهمه للحاضر والعكس بالعكس.

11 ـ راجع برايت (Bright 137 ـ 43: 1981) فهمه للغزو الإسرائيلي في طبعات تالية عن طريق دمج جوانب من فرضيات مندنهول Mendenhall حول وجود الثورة.

12 ـ في تصديره للطبعة الأولى، يقرر صراحة أن «إعدادها تم مع الأخذ في الاعتبار الحاجات الخاصة للطالب اللاهوتي الذي لم يتخرج بعد». (10: 1960). أما خاتمة كتابه فهي عبارة عن مناقشة للدلالات اللاهوتية لتاريخ إسرائيل أو، على حد تعبيره، «المكانة اللاهوتية لهذا التاريخ» (447: 1960). وهذه ليست أسئلة يجيب عنها المؤرخ بفحص المعطيات، وإنما هي «لكل إنسان طبقا للدين الذي يعتنقه»، (447: 1960). ويشير «تاريخ الخلاص» Heilsgeshchichte هذا إلى «الوعد المستقبلي بالانتصار النهائي لحكم الرب في العالم»، (448: 1960). ويفترض Bright وجود إجابتين منطقيتين على السؤال التالي «إلى أين يفضي تاريخ إسرائيل؟» والإجابة الأولى هي الإجابة اليهودية وهي أن هذا التاريخ يستمر في الديانة اليهودية، في حين أن الثانية، وهي الأهم لـ برايت Bright، فهي الإجابة المسيحية التي تجد تحققها اللاهوتي في المسيح وتعاليم الإنجيل:

وهكذا، فإن هناك إجابتين متعارضتين على السؤال ذاته: إلى أين يفضي تاريخ إسرائيل؟ وحول هذا السؤال، ينقسم المسيحي وصديقه اليهودي. فلنبتهل من أجل أن يفعلا ذلك في حب واهتمام متبادلين، كوريثين للتراث الديني نفسه يعبدان الرب ذاته الذي هو ربنا جميعا. (Bright 452 ـ 3: 1960).

وواضح من ذلك أن الدافع الأصلي لمشروع برايت Bright التاريخي هو معتقداته اللاهوتية أساسا، بينما يؤكد للقارئ طوال الوقت على «موضوعية» الثقافة. إن إسرائيل هي الأصل اللاهوتي لفهم برايت لحاضره المسيحي، وهكذا، فإن أصول إسرائيل، «هذا الشعب المميز»، حاسمة بالنسبة لإيمانه. ولا يندهش المرء، إذن، من أن طمس التاريخ الفلسطيني مسألة لا تثار في هذه الرواية أو في غيرها من روايات مدرسة بالتيمور Baltimore.

13 ـ اتسعت دائرة بحثه التحليلي على أيدي غوتفالد (Gottwald 1979) و(ليمكه Lemche 1985)، و(كوت Coote 1990)، بين آخرين، ضمن الجدل حول التصور المجرد لمجتمعات البداوة وقابلية

تطبيقه في فهم إسرائيل القديمة.

14 ـ انظر أيضا مندنهول (Mendenhall 175 : 1973). لكن، لاحظ قوله (183 : 1973) إنه على الرغم من أن الدراسات كانت لاتزال تحبو، «فإن هذه الطريقة توضح فائدة الدراسة الجديدة التطورية في الأنثروبولوجيا»، وهي التي صار عمرها حاليا بضعة عقود زمنية. وقد أقر مندنهول Mendenhall، من خلال احتكامه إلى عمل سيرفيس Service، بأن الانتقال من التنظيم القبلي إلى الزعامة كان يمكن أن يسير في حركة عكسية.

15 ـ تذكر مقدمته المنطقية اللاهوتية، المؤيدة لتحليله التاريخي، أن «رفض الرب هو رفض للحب وطبعا، للحياة» (164 : 1973).

16 ـ يقدم إصرار مندنهول على التفسير الاجتماعي للإثنية تصحيحا مهما للافتراضات المعتادة في الدراسات التوراتية:

لم يكن هناك شيء من قبيل جماعة «الإسرائيليين» الإثنية في تلك الفترة المبكرة. فطوال التاريخ، كان الشعور بالهوية الإثنية محصلة عملية طويلة جدا ومعقدة من الاستمرارية والتجاور. إن قاعدة التضامن تتغير مع تغير طبيعة النظام الاجتماعي. والشيء الذي كان في البداية وحدة دينية وإثنية نابعة من السكان شديدي التنوع، الذين لم يكونوا حتى يتكلمون لهجة الغرب السامي نفسها، أفسح الطريق لوحدة سياسية هشة سرعان من انقسمت إلى قسمين. ولم تتحول القاعدة مرة أخرى إلى مفهوم الوحدة الإثنية إلا بعد تدمير النزعة النظامية السياسية والدينية عقب فترة طويلة من النفي البابلي، وهو ما واجهته حركة الإصلاح، التي ندعوها الآن المسيحية بالرفض والتحدي على نحو شامل. (Mendenhall 8 ـ 27: 1973). لكنه، مرة أخرى، عقد صلة مباشرة بين الديانة اليهودية وبين المسيحية بما يعني ضمنا أن الأخيرة هي التعبير الحقيقي عن الثورة التوراتية.

17 ـ لفت (ليمكه Lemche 433: 1985) النظر إلى أن رسما كاريكاتوريا كهذا يفشل في إدراك الأهمية الأساسية للعدالة الاجتماعية، وحماية الفقراء، والأرامل، والأيتام، وأهمية توافق المجتمع في مثل هذه النظم الدينية. وبدلا من ذلك تعتبر معنية فقط بطقوس اللهو والعربدة الجنسية والأمور الاجتماعية البغيضة.

18 ـ في رده على اعتراضات متنوعة بشأن نموذج التمرد، لاسيما القول إنه يفتقر إلى الدليل التوراتي ويلقي إلى الخلف بالأيديولوجية الماركسية، يعي غوتفالد Gottwald جيدا التأثيرات الذاتية على تفسير التاريخ:

إن هذا الاستشهاد بعلم اجتماع المعرفة يحتوي على تحذير مهم ينطبق، دون ريب، بالتساوي على كل محاكاة نظرية. وبالمثل، لابد أن يفكر المرء في احتمال أن يكون نموذج الغزو مدفوعا في أحيان كثيرة بالرغبة في توكيد صدقية التوراة، وقد يُطرح السؤال أيضا عن احتمال تحريض نموذج الهجرة لإعادة تفسير التاريخ والتطور الاجتماعي عن طريق أساليب حديثة الطراز إلا أنها أساليب غير صحيحة ولم تخطر على بال الناقد بداية عند قراءة المعطيات التوراتية. وفضلا عن ذلك، فقد يرد بسهولة بأن أولئك الذين يرفضون في عجرفة نموذج التمرد ربما يكونون متأثرين بخوفهم من الاضطراب الاجتماعي المعاصر، أو بمقتهم له إلى حد أنهم يرفضون النظر إلى الدليل التاريخي فيما يتعلق بأصول إسرائيل. لكن إيضاح مغزى التأثيرات المهيئة لقالب المفسر الاجتماعي والثقافي من أجل نظرة أو أخرى على المادة لا يسوي المسائل، فهي ببساطة تتطلب ضوابط أكثر دقة على هذه الاستعدادات المسبقة التي ستأخذ الفحص الدقيق للمناهج

والاستنتاجات في الحسبان. إن الكفاية النظرية ـ وأعني بذلك، القدرة على تفسير المعطيات على أوسع نطاق وبأكثر الأساليب ترابطا ـ هي الإجابة الوحيدة على الارتياب في المسلمات الفاسدة. وبينما يصح أن تؤدي الحالة النفسية الحالية إلى تفسيرات مشوهة للماضي، فإنه قد يصح أيضا أن يكون المزاج الحالي هو العامل المساعد المطلوب بالضبط من أجل رؤية الأمزجة والقوى المتماثلة وهي تعمل في أزمنة أخرى وأماكن أخرى. إن النظير قد يختلق النظير حقا، لكن النظير أيضا قد يكتشف النظير (غوتفالد Gottwald 219ـ 218: 1979).

19 ـ إنه يقدم (187 ـ 45: 1979) تحليلا مستفيضا لمصدر التعاليم التوراتية، إلا أنه تحليل تقليدي جدا يعترف بتأثير آلت Alt ونوث Noth وفون راد Van Rad.

20 ـ يعكس هذا العرض صورة إسرائيل كمجتمع مساواتي من الطبقة الاجتماعية الدنيا للجناح اليساري، والأيديولوجية العلمانية وإلى حد بعيد للصهيونية الأوروبية وحركة الكيبوتز.

21 ـ يورد ذلك فيما يتعلق بغزوة الفِلِستيين وفرض ارستقراطية عسكرية قوية على دول المدينة الكنعانية. ومع ذلك، فهو يلمح، مثلما فعل آلت Alt، إلى أن الفلستيين فشلوا في تحقيق الانتقال النهائي للوصول إلى وضع الدولة statehood، لأنهم «ورثوا التقسيمات الفرعية الداخلية الكنعانية القديمة عن طريق دول المدينة ودمجوا تلك الكيانات المدينية للدولة، كأسلوب للسيطرة كما فعل المصريون قبلهم» (411: 1979).

22 ـ إنه يحدد فروقا بين ما يطلق عليه «الإقطاع الكنعاني» و«الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى» (391 ـ 4: 1979). والمهم هو جوهر القياس الذي يجريه. وهو يؤكد كذلك على العلاقات المتبادلة بين الإقطاع الكنعاني والإمبريالية المصرية ضمن نظام الاستغلال ككل (391 ـ 4: 1979). ومرة أخرى، فإن من المثير ملاحظة خطوط التوازي مع فترة الهجرة الصهيونية كفترة إمبريالية تركية أولا ثم أوروبية في المنطقة. يصف إيلون (Elon 56 ـ 41: 1983) الظروف الوحشية لليهود الذين عاشوا في أوروبا الشرقية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، مؤكدا على الشكل الصارم لنزعة المساواة في الشتتل shtetl (المدينة اليهودية الصغيرة في أوروبا الشرقية ـ المترجمة)، الذي نشأ عنها: «في الشتتل، كانت الحياة مع الناس. كان التضامن الإنساني منبع قوة الشتتل للبقاء كجزيرة ثقافية محاطة بالكراهية. إن شبح الشتتل يتجول ببطء في المؤسسات المعاصرة الحية في إسرائيل» (Elon 47: 1983).

الفصل الرابع

1 ـ حتى في الفترة التالية للحرب العالمية الأولى، وهي فترة مؤثرة في تطور الدراسات التوراتية، كانت فكرة التواصل بين الماضي والحاضر واضحة. ويشير سايدبوتام Sidebotham (1918) إلى هزيمة الأتراك في بلاد ما بين النهرين وإلى الحاجة إلى ضمان حدود يمكن الدفاع عنها في مصر التي قد تؤدي إلى «إعادة إنشاء دولة يهودية في فلسطين». وتتردد أوضح العبارات عن تقليل عدد سكان البلاد الأصليين وثقافتهم:

وليس هناك أي حضارة أصلية في فلسطين يمكنها أن تحل محل الإمبراطورية التركية فيما عدا حضارة اليهود، الذين يبلغ عددهم حاليا سُبع عدد السكان، والذين أعطوا فلسطين كل ما كانت تمتلك من قيم العالم. (Cited in Khalidi 1971:126).

2 ـ أوضح وينشتاين (Weinstein 1981) أن النفوذ المصري كان أكثر تشبثا واستمر أكثر مما كان

يعتقد من قبل في المنطقة.

3 ـ يوسع برايت (Bright 1976) وجهة نظره بشأن إمبراطورية إسرائيل القديمة مؤكدا على المزاعم المشتركة مع آلت Alt ونوث Noth حول إقامة الملكية.

4 ـ تهيمن هذه الفترة في عبارات قصصية أيضا. ففي رواية برايت Bright التي يبلغ عدد صفحاتها 444 صفحة، هناك حوالي 123 صفحة مخصصة لظهور إسرائيل (فترة القضاة)، أما تكوين دولة إسرائيلية بلغت ذروتها في عهد داود وسليمان فيشغل قرابة ثلث صفحات السرد. وبالمقارنة، فإن دراسته تغطي الفترة تقريبا من عام 2000 إلى عام 164ق.م، وهي حوالي 1800 سنة، يغطي فيها ظهور إسرائيل وحتى موت سليمان (من حوالي عام 1200 إلى 922ق.م) قرابة قرنين ونصف قرن: أي فقط 13 ـ 15 في المائة من الفترة الزمنية.

5 ـ فيما يتعلق بالجدل حول المناورات السياسية لحكومتي بريطانيا وأمريكا من بداية القرن حتى إنشاء دولة إسرائيل في عام 1948، انظر خالدي Khalidi (xxxiii ـ 1 xxi: 1971)

6 ـ في هذا تسليم بأن جماعات بحر إيجه كانت أيضا تنظيما قبليا. إلا أنه ليس واضحا وجود دليل لديه يؤيد مثل هذا الإصرار.

7 ـ إنه يشير فيما بعد إلى الفلِستيين باعتبارهم يحكمون «إمبراطورية شاسعة» (182 : 1966).

8 ـ هناك وفرة من الأدبيات عن تكوين الدولة: انظر Cohen وService 1978 وClaessen وSkalnik 1978 وJones وKautZ 1981 وHass 1982.

9 ـ يفضح تشومسكي (Chomsky 103 ـ 99, 328 ـ 181 : 1983) حقيقة الإدعاءات الخاصة بالحروب «الدفاعية» لإسرائيل المعاصرة، لاسيما غزو لبنان عام 1978 وعملية «سلام الجليل» عام 1982.

10 ـ يؤكد سفر صموئيل الأول (8 و12) ضمن غيره من التراث على تقييم سلبي لإقامة الملكية كرفض لثيوقراطية يهوه. وعلى عكس ذلك، يقدم Eslinger (1985) تحليلا أدبيا مغايرا يدرس فيه الآراء المختلفة في النص.

11 ـ يلاحظ نوث (Noth 1960:238) أن الفلستيين حاولوا الإفادة من انقسام ما يسميه عن طريق الخطأ «إمبراطورية داود وسليمان و«حتى لو أن الهيمنة السابقة للفلستيين قد دمرت على يدي داود نهائيا، فإن ما نجم عن ذلك كان مناوشات حدودية ليس لها أثر بعيد. ويحدد (مازار Mazar 1984:53) أهمية الاستقرار الفلستي في القرن العاشر ق.م. إن أشمل بحث عن ثقافة فلسطين القديمة كتبته دوثان (T. Dothan 1982). وللحصول على نتائج وتقييمات أكثر جدة. انظر M. Dothan (1989) وT. Dothan (1989) وM. and T. Dothan (1992).

12 ـ نتناول بالبحث، في مكان لاحق من هذا الفصل، التنقيبات الآثارية الحديثة، التي تقوّض تفسيرات من هذا القبيل.

13 ـ تصنّف الفترة التي أعقبت الفتح العربي على أنها فترة أفول: «تراجعت القدس ببساطة لتأخذ وضع مدينة محلية. وغدت أهميتها الوحيدة نابعة من مغزاها الديني بالنسبة للإسلام، وبالتركيز على المسجد والحرم المقامين داخل سياج الهيكل». (1983:260). ويظهر المعنى الضمني هنا أن الإسلام ذو أهمية هامشية.

14 ـ يتكافأ هذا مع «رؤية» بن غوريون لحدود إسرائيل كما ورد وصفها في صفحة 126.

15 ـ يحاول نوث Noth أن يميز، من دون أن ينجح، بين الأفكار الشرقية عن شخصية الملك المقدس والأيديولوجية الملكية الإسرائيلية القديمة. ويزعم أن استعمال صيغة الإقرار في المزمور الثاني، الآية السابعة يبين أنه «بينما طرحت الملكية الداودية دعاوى ضخمة في إسرائيل تماما كما فعلت

الملكية في مكان آخر من الشرق القديم، إلا أنها كانت مختلفة نوعيا (224: 1960). أما فكرته بشأن تصور أن رب إسرائيل القائم بدور في التاريخ كانت مختلفة عن تصورات الطبيعة المقدسة لشخصية الملك في الشرق الأدنى القديم، فقد قوضتها دراسة آلبركتسون (Albrektson 1967) والأعمال اللاحقة.

16 ـ يقدم van Seters (1983) فهما مغايرا بصورة جذرية لتطور كتابة التاريخ الإسرائيلي، في حين تلقي دراسة هاريس (Harris 1989) عن معرفة القراءة والكتابة في اليونان وروما شكوكا جدية، على الافتراض غير المدروس بأن إنتاج مؤلفات تأريخية بارزة قد تطور قبل الفترة الهلينية.

17 ـ من المثير للاهتمام أن هيرمان (Herrmann 141: 1975) يشير إلى شاؤول وأتباعه الفلسطينيين الرئيسيين.

18 ـ يعترف Herrmann (38 n. 171: 1975) بأن الوصف مأخوذ من دراسة آلت Alt المبكرة بعنوان DasGrossreich Davids.

19 ـ يبرر ذلك (42 ـ 1984) بأن المعلومات الاقتصادية والسياسية تبدو وثيقة الصلة بالموضوع إلى حد يصعب معه الاعتقاد بأنها ربما كانت مختلفة. ومهما يكن، فإن هذه الحجة التي تحتاج إلى إثبات تقوم على الاحتمال فقط.

20 ـ إنها لا تستعمل مصطلح «فلسطين» بل تدور بحرص حول المعنى لتصف المنطقة: شريط الأرض الضيق بين نهر الأردن والبحر المتوسط، إن تجنبها الحريص لمصطلح «فلسطين» في سياق الجدل حول الطبيعة الدفاعية للإمبراطورية الإسرائيلية يوحي بقوة أنها تدرك الدلالات السياسية وظروف كتابة مؤلفها إلا أنها ترفض توضيح ذلك.

21 ـ من المثير للانتباه أن آلستروم (Ahlstrom 438: 1993)، الذي ينتقد عن حق باحثين آخرين لتفسير الدلائل الآثارية استنادا إلى النص التوراتي، يفسر خربة الدوارة Khirbet ed Duwwara بصعود شاؤول على الرغم من عدم وجود ما يثبت فهما من هذا القبيل.

22 ـ يلاحظ Ahlstrom (96: 1986 , 449 n2: 1993) أن إنجنل Engnell أطلق على شاؤول لقب أول بناة الإمبراطورية.

23 ـ يوحي استعماله لمصطلح «إمبراطورية» بين علامتي اقتباس في أحد العناوين الفرعية (n1 488 , 480: 1993) بعدم قبوله هذا الوصف العام.

24 ـ توصف هذه القصص بأنها «أساطير شعبية». ومن المؤكد أنها لا ينبغي قراءتها كمدونات تاريخية، (152: 1986) إنهم يعترفون بأن أي محاولة لإعادة تفسير داود «التاريخي» ستكون بالضرورة تأملية إلى حد «بعيد»، (159: 1986). إلا أنه على الرغم من وصفهم للقصص كأساطير شعبية، فإنهم يعتقدون أنها تستند جوهريا إلى شخصيات ووقائع تاريخية حقيقية، (159: 1986)، ويدرك ميللر وهيز Miller and Hayes أن مسلمتهما لا يمكن إثباتها، ويمثل تفسيرهما «أفضل تخمين فقط». (160: 1986).

25 ـ يحدد Miller ®b 1991) بعض المشاكل المنهجية البحثية التي تدخل في محاولة تقييم الموثوقية ـ التاريخية (Historical reliability) للتقاليد التوراتية بغرض تفسير حكم سليمان. ويمثل هذا جزءا من المقايضة مع ميلارد (Millard 1991) الذي يؤيد التقييم الإيجابي لتاريخية التعاليم التوراتية. ويرتاب (وايتمن Wightman 1990) في شبكة الافتراضات التي غذت فكرة «الآثار السليمانية القديمة»، وينتقد بشدة قول أهاروني (Aharoni 302: 1972) إن ستة مداخل مزودة بحجرات شكلت نقطة إسناد ميقاتية ثابتة للآثار الحضارية القديمة للقرن العاشر ق.م، كحالة نادرة يمكن فيها

تحديد تاريخ بناء ما تحديدا دقيقا من دون دليل منقوش. وعلى العكس من ذلك، يصف وايتمن (1990:9) ذلك بأنه مثال غير نادر كثيرا في الآثار التوراتية القديمة، حيث يتحدد التاريخ الدقيق للبناء من خلال الاستدلال الذي يدور في دائرة مفرغة. ويعطي ميللر وهيز (Miller & Hayes 1986:210) تقييما رصينا للمادة الآثارية البارزة، المتصلة بالفترة السليمانية من حيث صعوبات التفسير و«الأثر النفسي» لمشروعات البناء معا.

26 ـ يلفت ميللر (Miller 95 :1991a) النظر إلى عدم وجود دليل على مملكة داودية ـ سليمانية منفصلة عن التعاليم التوراتية. ويسلم المؤرخون الذين يشيرون إلى هذا الكيان بمعلومات مستقاة من التوراة العبرية.

27 ـ يصدق هذا أيضا على مجموعة المقالات التي حررها غوتفالد (Gottwald 1986)، على الرغم من تعارضها مع كثير من الافتراضات القياسية عن تكوين دولة إسرائيلية. ويحاول كوت ووايتلام (Coote and Whitelam 1987:113) أن يثبتا أن هذه العملية ينبغي أن تُبحث كجزء من الاستمرارية في سياق التاريخ الفلسطيني الأوسع. ومن ناحية أخرى، تجدر ملاحظة أن هذا لايزال تاريخ المنطقة التي تسيطر إسرائيل عليها والذي هو في الواقع تاريخ إسرائيل القديمة وليس فلسطين القديمة.

28 ـ يورد فلاناغن (Flanagan 1988) أربعة أسباب «لضعف الثقة فيما يتعلق بداود والملكية» (1988:18)، فقد أظهر مندنهول، وغوتفالد أن الملكية دخيلة، وتعرضت قصص داود للهجوم بعد نصف قرن من الثقة النسبية مما أسهم في فقد الثقة في التاريخ التوراتي، وفشل علم الآثار القديمة في تقديم أي أدلة على المركزية التي يمكن إرجاع تاريخها بثقة تامة إلى القرن العاشر ق.م ومع ذلك، يقدر فلاناغن Flanagan أهمية هذه الفترة في تشكيل الماضي ووجود تفسيرات بديلة لهذا الماضي: سيطر الافتراض الشائع بأن الملكية الإسرائيلية بدأت بداود، أو ربما شاؤول، على طريقة تفسير التاريخ الطويل المدى والقصير المدى. ولو كانت محاولة فهم المصادر قد تحققت من دون التسليم مقدما بروح جماعية ملكية، لأمكن تفسير الكثير من التفاصيل، كما أعتقد، على نحو مغاير، ولظهرت بالفعل صورة مختلفة. (Flanagan1988:21).

ويحاول فلاناغن (Flanagan 75 ـ 1988:6) تحديد ما يعنيه «بالدراسات الاجتماعية العالمية»، كي تؤخذ في الاعتبار المصادر الكثيرة المختلفة المتاحة لاستكشاف العصر الحديدي. وهو يبتعد عن التركيز الضيق على تاريخ إسرائيل المدون بإيحاء توراتي إلا أنه لا يمضي بعيدا إلى حد الإشارة للتاريخ الفلسطيني.

29 ـ يؤكد غاربيني (Garbini 19 ـ 16 :1988) الحقيقة المذهلة بشأن الافتقار إلى النقوش الإسرائيلية واليهودية فيما يتعلق بفترة المملكة. ويتعين الآن تخفيف تصريح غاربيني مع اكتشاف نقوش تل القاضي Tel Dan (انظر ص 8 ـ 166)، لكن ذلك لا يغير حقيقة أن هذه المسماة إمبراطورية داود وسليمان المجيدة لم تترك إلا النزر اليسير أو لم تترك شيئا من الآثار القديمة، لاسيما من حيث مردود بيروقراطيتها المفترضة.

30 ـ إنه يورد (n. 3 1993:541)، بموافقة على ما يظهر، كلمات هيرمان (Herrmann 1984:268) عن أن دولة داود «ما كان يمكن أن تقوم من دون داود». هذا هو تاريخ عظماء الرجال من الدرجة الأولى.

31 ـ يقدم آرنولد (Arnold 1990) وصفا تفصيليا ونقدا لتاريخ البحث عن هوية جبعة (تل الفول) Gibeah بمشكلاتها النصية والآثارية المتعددة.

32 ـ انظر نوث (Noth 1960:168) أو برايت (Bright 1972:186) الذي يقول إن مقر شاؤول «كان أقرب إلى الحصن منه إلى القصر».

33 ـ كثيرون كانوا سيقبلون هذا كتصريح غير مثير للجدل حتى وقت قريب جدا. إنه يواصل كي يبرهن (55 ـ 6 :1984) على أن نظامي الدفن والمياه كانا نظامين إسرائيليين فريدين، جنبا إلى جنب مع تصميمات لتحصينات معينة كالجدران المدرعة والبوابات ذات الحجرات الست من القرن العاشر ق.م، لكن الجدران والبوابات من القرن التاسع تماثل التحصينات السورية.
34 ـ يدير آفي عوفر Avi Ofer المشروع المسحي للمرتفعات اليهودية. وتحتاج نتائج عمله، التي لم تُنشر بعد، إلى مقارنتها باستنتاجات جيمسون ـ دريك Jamieson Drake. ومن شأن المعطيات التي جمعها وألمح إليها في كلماته أثناء المؤتمر أن توفر، مثلها مثل المعطيات المقدمة من فينكلشتاين Finkelstein وزرتال Zertal وغال Gal، وآخرين ممن شاركوا في دراسات مسحية مهمة، الأساس في المستقبل لاستقصاءات عن تاريخ المنطقة. ويتبقى أن يُدرس تفسير هذه المعطيات والاهتمامات والبواعث التي أملت تصميم استراتيجيات البحث.
35 ـ نشرت النقوش أصلا بواسطة بيران Biran ونافيه Naveh (1993). وجذب النشر على الفور قدرا كبيرا من الاهتمام، وأثار نقاشا حاميا فيما يتصل بتاريخ النقوش وتفسيرها.
(Davies 1994, Rainey 1994, Lemaire 1994, Cryer 1994, Shanks 1994)
وقد قيل إن المقالة المنسوبة إلى شانكس Shanks تستند إلى بيران ونافيه Biran and Naveh (1993)، مع استكمالها بمادة أخرى قدمها Biran.
36 ـ من المعترف به أن هناك صعوبات بارزة في حفريات القدس بالنظر إلى أن المدينة كانت محتلة باستمرار، واقتران ذلك بالحساسيات الدينية التي كثيرا ما عرقلت الكشف عن الآثار القديمة. ويشير مازار Mazar (1984) إلى هذه الصعوبات ومشاكل «آثار داود القديمة». بيد أن هذه الظروف كانت تتطلب المزيد من الحذر وليس أقل من حيث تفسير الماضي.
37 ـ يضع جونز وماك ايفدي (McEvedy & Jones 1978:228) قاعدة لمقارنة شاملة. أما معطيات المسح المحلي فستشكل أساسا لدراسة أكثر تفصيلا عن ديموغرافية فلسطين.
38 ـ يمكن تفسير حقيقة أن الدولة المعاصرة، كقوة دولية ذات مكانة، تبدو كاستثناء لهذا بالمعونات الضخمة المقدمة لاقتصادها العسكري من جانب الولايات المتحدة الأمريكية. ويعطي تشومسكي Chomsky (1983) أرقاما تفصيلية. ويمكن مقارنة الفترة المعاصرة بفترتي الرخاء المادي الروماني والبيزنطي الذي كان نتيجة لاستثمار خارجي هائل.

الفصل الخامس

1 ـ قدم هـ. وم. ويبرت and H.M. Weippert (1991) عرضا مفصلا للأدبيات الحديثة التي يمكن استكمالها بمساعدة ببليوغرافيا كوت Coote الواسعة. وتوضح مجموعة المقالات في إيدلمان Edelman (1991) وفي مجلة Scandinavian Journal of Old Testament (1991)، اتجاه النقاش جنبا إلى جنب مع تصاعد الاختلافات بين المواقف المتنوعة.
2 ـ كان تأثير الدراسات الأدبية الجديدة أوسع وصار أكثر وضوحا في أعمال ديفيز Davies وطومسون Thompson ووايتلام Whitelam، بينما ظل تأثيره أقل في دراسات آلستروم Ahlstrom، وليمكه Lemche، وكوت Coote.
3 ـ يشير آلت Alt (1959) أيضا في مقال نشر لأول مرة في عام 1944 إلى إيقاعات التاريخين السوري والفلسطيني.

4 ـ انظر Coote and Whitelam (1987) فيما يتعلق بمراجعة تاريخ استيطان فلسطين منذ العصر البرونزي الأول حتى الوقت الحاضر. يعرض Whitelam (1994) مقترحات لتقصي التاريخ الفلسطيني من خلال دراسة الاستيطان (1992cf. Dever).

5 ـ قدم رؤية مماثلة في (1985b:80). لكنه اعترف مؤخرا، كما يلاحظ في ص (n.9 241)، بأن الدراسة المسحية لعموم المنطقة، بما فيها الأراضي المنخفضة، منذ العصر البرونزي الثاني المتوسط II إلى العصر الحديدي الثاني II تمثل مشكلة ملحة تحتاج إلى المعالجة (1991:48). ويجب الاعتراف بأن فينكلشتاين Finkelstein يقدم معطيات قيمة عن الفترات الأخرى، وأن تقاريره نموذج للوضوح باستمرار وتتيح للمؤرخ الإفادة من المعطيات في إعادة التركيب التاريخي. بيد أن النقطة المثارة هنا هي الطريقة التي جعلت البحث عن «إسرائيل القديمة» عقبة كبيرة في الاعتراف بإمكانات وأهمية المعطيات فيما يتعلق بتاريخ فلسطيني إقليمي.

6 ـ وجه السخرية في هذه الدراسات أنها تصور تعليق حاكم الهند اللورد كيرزون Curzon على البريطانيين في الهند، عند بداية القرن: «... كما أن من واجبنا أن نحفر وأن نكتشف، أن نصنف، أن ننتج من جديد وأن نصف، أن ننسخ وأن نحل الشفرة، وأن نحتفظ في الذهن وأن نصون، (استشهد به Anderson 179 :1991). ويتيح رسم الخرائط التفصيلية تبويب الماضي والهيمنة عليه. ويكشف رسم خرائط مواقع العصر الحديدي I ، التي صورت على أنها إسرائيلية، عن أن جذور إسرائيل المعاصرة عميقة في الماضي. وهذا هو الجزء الخاص من الماضي الذي يجري التعلق به وصونه. فالمقصود منه تقديم إيضاح «موضوعي» للاستمرارية بين الماضي والحاضر.

7 ـ تميل المعطيات إلى التشتت في مطبوعات وصحائف متخصصة، والأمر يحتاج إلى توليفة شاملة من آخر النتائج المسحية مرتبة طبقا للفترة والمنطقة لتسهيل إجراء المقارنات.

8 ـ يواصل إيلون Elon فيصف تفجر الحماس لعلم الآثار القديمة كوسيلة لاكتشاف وتأكيد المطالبات الصهيونية بالحق في الأراضي. ويورد ذكريات اليعاذر سوكينيك Eliezer Sukenik، حفار الآثار، والتي تصور البواعث آنذاك:

فجأة رأى الناس أشياء لم تكن ملموسة أبدا من قبل... كان ثمة شعور بأن هذه القطعة من الأراضي، التي عانى الناس الكثير من أجلها، ليست مجرد قطعة من الأرض بل هي جزء من التراب الذي عاش فوقه أجدادهم قبل ما بين ألف وخمسمائة وألفي سنة. وقد أضفى ذلك على عملهم الحالي لونا مختلفا، وكشف النقاب لهم عن تاريخهم ليروه بأم أعينهم. (Elon 14 :1944).

9 ـ انظر، على سبيل المثال، المناقشة بين أهاروني Aharoni (1979) ويادين Yadin حول تحديد تاريخ تلك المستوطنات وعلاقتها بتدمير حازور Hazor.

10 ـ يسترعي ميللر (Miller 9 ـ 97: a 1991) بالمثل الانتباه إلى استعمال Finkelstein للتراث التوراتي، مثل ذلك المسمى «قصة تابوت العهد» Ark Narrative (في صموئيل الأول 4 ـ 6) وصموئيل الثاني 6)، للتأكد من تفسير المعطيات الآثارية (انظر أيضا Dever 79 :1991).

11 ـ يشي هذا التوقع بقدر كبير من الأعمال الأثرية الخاصة بالعصر الحديدي الأول. ويعتقد Gal (1992:88)، مثلا، أن قبائل زبولوم ونفتالي Zebulum وNaphtali، التي كانت مواريثها ضمن هذه المنطقة الفرعية، قد تم توطينها طوال جيل أو جيلين بعد تدمير هاتين المدينتين الكنعانيتين، ويبلغ هذا الاستدلال المتأثر بإيحاءات توراتية مداه فيما نشره دار Dar عن مسح السامرة في الفترة من 800 ق.م حتى 63 ميلادي The Survey of Samaria for 800 BLE to 63CE، والذي يخمن فيه أن بيت المزرعة في العصر الحديدي الأول كان «نموذجا مميزا للاستيطان بواسطة علاقات القرابة

(الأسر الممتدة) لقبيلة يوسف» (1966:2). وهو لا يحاول أن يبرهن فقط على أن البيت ذا الحجرات الأربع كان اختراعا إسرائيليا، بل أيضا أن بيت المزرعة الريفي قد لحقه التحسين والتطوير على أيدي الأسر القبلية من إفرايم ومنسّى. وعلى نحو مشابه، فإن قبول الحصص القبلية واضح من قراءة المعطيات الأثرية في مناقشة غارسيل وفينكلشتاين Garsiel and Finkelstein (1978) للتوسع الغربي «لقبيلة يوسف». ويثير الدهشة أنه يمكن العثور عليها كذلك في مراجعة (سيلبرمان Silberman 8 ـ 192 :1992) للدراسة الحديثة عن الأصول الإسرائيلية. وعلى الرغم من عنايته بالجوانب السياسية لعلم الآثار القديمة والدراسات التوراتية، فلا يزال قادرا على أن يزعم أن عمل زرتال Zertal في منطقة قبيلة منسّى قد استكمل بدراسات مسحية مهمة جديدة في الجليل ومناطق قبيلتي إفرايم ويهودا.

12 ـ يلتزم كالاوية (Callaway 1971 وCallaway and Cooley 1969 ـ 1970) جانب الحذر الشديد من ناحية هوية سكان عاي Ai وردانة Raddanah.

13 ـ انهار اعتقاد (شيلوه Shiloh 1970) بأن البيت ذا الحجرات الأربع كان اختراعا إسرائيليا عقب اكتشاف هذا البيت في عدد كبير من الأماكن في جميع أرجاء فلسطين.

14 ـ هذه الاستنتاجات بناها على معطيات مأخوذة من مسح سابق أجراه كوخافي (Kochavi 1972).

15 ـ انتقد (Skjeggestad 159 ـ 1992:65) بالتفصيل فهم فينكلشتاين Finkelstein للإثنية.

16 ـ هذا رد في Biblical Archaeologist Review على جلسة الـ SBL/ASOR، التي نشرت دراستها في Scandinavian Journal of the Old Testament (1991).

17 ـ هناك توضيح لهذه النقطة في مراجعات لهذه المؤلفات قدمها بيمسون (Bimson 1991 ,1989) وميللر (Miller: 1991a) وتركز على استعمالهم للتراث التوراتي وصلته الوثيقة بتركيب تاريخ إسرائيل في الفترة المبكرة، وهم لا يعيرون اهتماما لقضية التاريخ الفلسطيني وعلاقته بالدراسات التوراتية.

18 ـ كان كارول (Caroll 1991) صريحا جدا في تأييده للتوراة اليهودية كثمرة لفترة الهيكل الثاني. كما أنه ينتقد بقسوة محاولات تركيب تاريخ من نصوص كهذه: «تظل الفجوة بين النصوص وعالم الواقع فجوة لا يمكن التغلب عليها كما كان الحال دوما». (1991:124). أما كوت Coote، فعلى العكس، يعتبر العديد من النصوص التوراتية نتاجا للبيروقراطية الداودية في القرن العاشر ق.م (Coote and Coote 1990, Coote and Ord 1991)

19 ـ أكد من جديد رأيه أثناء ندوة شيكاغو بشأن النصوص باعتبارها متأخرة ومن ثم فهي ذات قيمة ضئيلة فيما يتعلق بتركيب تاريخ إسرائيل المبكر (Lemche 1991a :14)، مضيفا أنه لم يعتقد أن مؤرخي العهد القديم كتبوا تاريخا. كما أضاف إلى ذلك في مقالات عديدة ومطبوعات لاحقة (1991b, 1994).

20 ـ إن الضيق المتزايد من محاولات كتابة تواريخ توراتية عن إسرائيل القديمة يغلف داخل الأزمة المنهجية البحثية الممثلة في مؤلفات سوغن Soggin وميللر Miller وهيز Hayes (cf. Davies 1985).

21 ـ استطاع وايتلام (Whitelam 1986:47) أن يصرح بأن «من المهم أن نلفت الانتباه وأن نفند المزاعم بأن دراسة تاريخ إسرائيل لا يمكن أو لا ينبغي الشروع فيها، وأن نقرر بوضوح أن ذلك يظل مهمة أساسية للبحث والتعليم» (Contra Davies 1985:172).

22 ـ يثير روجرسون (Rogerson 1986) ومارتن (Martin 1989) أسئلة مهمة حول الافتراض المألوف

بأن إسرائيل كانت كونفدرالية قبلية.

23 ـ انظر وايتلام (Whitelam 1994) فيما يتعلق بمناقشة بعض المشكلات الخاصة بمحاولة تفسير العمود الحجري المنقوش. لقد اعتبر شانكس (Shanks 16:1991) أن إثارة الشكوك حول مبان إسرائيلية في فترة ما قبل الملكية نزوة عابرة. وأكد، بصورة صاعقة، أن هؤلاء «المؤرخين الهدامين» يودون أن «يرسلوا شخصا ما إلى متحف القاهرة لكي ينسف عمود مرنبتاح الحجري المنقوش»، حتى تحل جميع مشكلاتهم فيما يتصل بإسرائيل قديمة العهد. (16:1991).

24 ـ إنه يبني الكثير من تحليلاته على فهم فينكلشتاين Finkelstein للتطور الكرونولوجي «للاستيطان الإسرائيلي».

25 ـ لفت إمرتون (Emerton 1988) الانتباه إلى التعارضات والمشكلات المرتبطة بمحاولة تعريف بنية دائرية في النقوش.

26 ـ يورد (n14 24 :1991a) التقرير الختامي من خربة حازور Hazor الذي قام به يادين وآخرون Yadin et al (29 ,25 :1985) الذي يزعم بأن الطبقة الثانية عشرة، بحفرها العديدة الخالية، مع ذلك، من الأبنية، كان يحتلها غزاة إسرائيليون شبه رحل. وليس في السجل الأثري ما يؤيد مثل هذا التفسير. ويحاول آلستروم (Ahlstrom 1993) أن يثبت أنها ربما كانت ببساطة ناشئة عن الناجين من حازور Hazor، الذين كانوا يفتقرون إلى الأدوات والمهارات اللازمة لإعادة البناء.

27 ـ زعم آلستروم (Ahlstrom 19 : 1991a) أن مؤلفات فينكلشتاين Finkelstein وليمكه Lemche ايدت اقتراحاته. وقد وافق على أن الدليل الأثري أشار إلى بعض الجماعات غير الفلسطينية من الشمال وفقا للأعراف الديموغرافية للبلاد. وهو يرتاب في استعمال مازار Mazar لمصطلح «إسرائيلي» في وصف سكان غيلوه Giloh (29:1986)، ويصف الثقافة المادية بأنها كنعانية (35 ـ 6:1986).

28 ـ تتضح الأساليب البارعة التي يستطيع من خلالها السياق المعاصر، أو الاستعمال اللغوي، تشكيل إدراكات الماضي من محاولته الاعتراض على استعمال النعت الإثني «إسرائيلي» في وصف سكان هذه المستوطنات الجديدة:

سيكون النعت الدقيق للمستوطنين الجدد للمرتفعات هو «الرواد». إن الافتقار إلى أي ثقافة مادية «إسرائيلية» خاصة (بمعنى غير كنعانية) في مواقع الحفريات في المرتفعات فيما يتعلق بالقرن الثاني ق.م، قد يعزى إلى نقص الخبرة والمعلومات عن الأساليب المتقدمة التي استخدمها الاختصاصيون الذين ظلوا في المراكز المدينية (Ahlstrom 19 : 1986)

إن مصطلح «رواد»، على الرغم من انتشاره في لغة الاستيطان في أجزاء مختلفة من العالم/ذو دلالات، بطبيعة الحال، في الصراع المعاصر على الأرض. ويستخدم المصطلح كثيرا لوصف المستوطنين الصهاينة في الكيبوتزات والمستوطنات الزراعية خلال الهجرات الأولى إلى المنطقة.

29 ـ إنه يلجأ (387:1985) إلى وصف سنودغراس Snodgrass لليونان في الفترة التي أعقبت الحضارة الإيجية المسينية القديمة (1400 ق.م ـ 1100 ق.م) كمثال.

30 ـ كثيرا ما يشير وايتلام (Whitelam 1991)، في مناقشته لمشكلات التاريخ والأدب، إلى «إسرائيل» بطريقة رمزية ما، ويتحدث عن تاريخ إقليمي لفلسطين. إن قوة الخطاب لاتزال ظاهرة لكن تطور نظريته الحالية موجود بالفعل:

يدعم الحجم المتنامي للأدلة الأثرية المأخوذة من المنطقة الرأي القائل إن قرى مرتفعات عصر الحديد الأول، التي توصف عادة بأنها «إسرائيل»، قد نشأت في فلسطين نتيجة لمجموعة من

العمليات المحلية والضغوط الخارجية، وتوج ذلك بإعادة تآلف المجتمع الفلسطيني. وتعني حقيقة أننا غير قادرين على أن نحدد، في مصطلحات إثنية، سكان تلك القرى أن علينا ترويض أنفسنا على دراسة إعادة تآلف المجتمع الفلسطيني وأسباب تحول الاستيطان وليس تفسير ظهور إسرائيل في ذاته. (كووت ووايتلام Coote and Whitelam 3 ـ 1987:62). يمكن فهم دلالات ذلك بصورة أوفى لدى وايتلام (1994Whitelam†a).

31 ـ فيما يتعلق بالرد على النقد الذي وجهه طومسون Thompson إلى كوت ووايتلام (Coote & 1987 Whitelam)، انظر Whitelam (1995 a).

الفصل السادس

1 ـ لم أستطع الحصول على نسخة من كتابه الجديد عن النشاط المهني ليادين Yadin. ويتضح من مراجعات الكتب (Elon، 994 على سبيل المثال)، أنه يتناول مباشرة موضوع أساليب يادين السياسية فيما يتصل بالآثار القديمة.

2 ـ الصلات المتبادلة في أنحاء شرقي البحر المتوسط خلال هذه الفترة ومراحل كثيرة أخرى موثقة جيدا في مخازن الآثار، على الرغم من أن الصلات المحددة، وتنظيمها، والتحقق منها ليست مفهومة بوضوح كاف تقريبا. كما أن تحري اقتصاد فلسطين القديمة هو أحد المجالات البحثية الرئيسية في المستقبل.

3 ـ يستكشف كوت ووايتلام (Coote & Whitelam 71 ـ 49 :1987) بعض العوامل المحتملة المؤثرة، مع إيلاء تأكيد خاص لتأثير تقلبات التجارة في متغيرية الاستيطان. ويساور طومسون (Thompson 18 : 1992a) الشك في أن انهيار التجارة الدولية عند نهاية العصرين البرونزيين الأول والأخير، ربما كان له تأثير مشابه في الاقتصاد الفلسطيني بسبب «الاضطراب الذي حاق بتجارة الجملة في شتى أرجاء المنطقة، لاسيما في كثير من المناطق الفرعية (كالمرتفعات الريفية والنقب الشمالي»)، بما أن مناطق كهذه كان تأثرها بطرق التجارة هامشيا. وهو يعتقد (1992:215) أن الدليل يشير إلى تغير مناخي كبير أدى إلى جفاف ومجاعة من عام 1200 ـ 1100 ق.م تقريبا. ومن الواضح أن المناخ عامل مهم بالنظر إلى الطبيعة الهامشية للمناطق الفرعية في فلسطين، حيث يمكن أن تُحدث التغييرات الضخمة في سقوط الأمطار على مدى عامين أو أكثر آثارا مدمرة. لكن المجاعة ليست دائما نتيجة مباشرة لفترات الجفاف فهي تحدث في أحيان كثيرة من جراء العوامل الاجتماعية ـ السياسية كما يتضح ذلك بجلاء من الأحداث المأساوية في بعض مناطق أفريقيا المعاصرة. (cf Thompson 20 ـ 219 :1992). كذلك شهدت فلسطين تغيرات مهمة في الاستيطان خلال فترات حديثة ظل خلالها مناخ المنطقة مستقرا. ويشير Thompson (1992 a:261) إلى أن المدن الفينيقية استطاعت البقاء بعد الجفاف من دون أن تنهار بالكامل، ويعزو استقلالها الذاتي السياسي والاقتصادي إلى عزلتها الجغرافية النسبية. وقد يوحي ذلك بأن العوامل الاجتماعية ـ السياسية هي التي تكتسب أهمية أكبر في فهم التحولات في الاستيطان وليس تغير المناخ. إن العزلة الجغرافية ليست درعا ضد التغير المناخي ذي الأبعاد الفاجعة.

4 ـ يعتقد ديفر (Dever 1991:78) أن غياب الأواني ذات الحواف المقلوبة في المواقع الكبيرة مثل جازر Gezer، مقارنة بكثرتها في مواقع ريفية أصغر يشير إلى انقسام اجتماعي ـ اقتصادي لا إلى انقسام إثني. ويبين فينكلشتاين Finkelstein أن كسيلة Qasile وأفيق Aphek (وهي رأس العين

بالقرب من يافا ـ المترجمة)، اللتين عادة ما وصفتا بأنهما من المراكز المدينية، لم تكونا أكبر من عزبت سرته Izbet Sertah.

5 ـ تعد الدراسة المسحية الأخيرة التي قام بها مازار (Mazar 1990) للآثار القديمة في المنطقة، حجة مقنعة من حيث الطريقة التي يصور بها أي تمثال صغير كجزء من عبادة الخصوبة.

المؤلف في سطور:

كيت وايتلام

* أستاذ الدراسات الدينية، ورئيس القسم، بجامعة استيرلنج.

* صدر له (بالاشتراك مع R.B. Coote) كتاب: نشوء إسرائيل القديمة من منظور تاريخي، 1987).

* كتب سلسلة من المقالات عن اليهودي القديم والتاريخ الفلسطيني.

المترجمة في سطور:

د. سحر سليم الهنيدي

* بكالوريوس علوم سياسية، الجامعة الأميركية في بيروت 1978م.

* دكتوراه في التاريخ من جامعة مانشستر 1995.

* عملت في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت منذ العام 1987 حتى 1998، مديرة تحرير لـ سلسلة «عالم المعرفة»، ثم مديرة لإدارة النشر بالمجلس.

* الإنتاج العلمي:

- لها أعمال منشورة تأليفا وترجمة، ولها تحت الطبع كتاب

A Broken Trust: Herbert Samuel, Zionism and the Palestinians 1920 - 1925,

الذي سيصدر عن دار نشر I.B. Tauris البريطانية.

- صدر لها في حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت: «وعد بلفور في الوثائق البريطانية، 1922 ـ 1923، رؤية جديدة لخلافات قديمة» (باللغة الإنجليزية)، الحولية



تاريخ إيران السياسي
بين ثورتين (1906-1979)
تأليف: د. آمال السبكي

التاسعة عشرة، الرسالة 136 (1998 ـ 1999).

المراجع في سطور:

د. فؤاد زكريا

* ولد في بورسعيد ـ ديسمبر 1927.

* تخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة عام 1949، ونال درجتي الماجستير (1952) والدكتوراه (1956) في الفلسفة من جامعة عين شمس.

* عمل أستاذ ورئيسا لقسم الفلسفة بجامعة عين شمس حتى عام 1974.

* عمل أستاذا للفلسفة الحديثة والمعاصرة بجامعة الكويت.

* ترأس تحرير مجلتي «الفكر المعاصر» و«تراث الإنسانية» في مصر.

* عمل مستشارا لشؤون الثقافة والعلوم الإنسانية في اللجنة الوطنية لليونسكو بالقاهرة، كما شارك في عدة مؤتمرات لمنظمة اليونسكو، وقد انتخب نائبا لرئيس الهيئة الاستشارية لدراسة الثقافة العربية.

* من أعماله المنشورة: اسبينوزا ونظرية المعرفة، الإنسان والحضارة، التعبير الموسيقي، مشكلات الفكر والثقافة، ترجمة ودراسة لجمهورية أفلاطون، وللتساعية الرابعة لأفلوطين.

* ترجم مؤلفات متعددة منها: «العقل والثورة» (ماركيوز)، و«الفن والمجتمع عبر التاريخ» في مجلدين ـ هاوزرا.

* له الكثير من المقالات والدراسات المنشورة في صحف ومجلات سياسية وأكاديمية.

هذا الكتاب

عندما سئل إدوارد سعيد عن أفضل كتاب قرأه عام 1996، قال إنه كتاب كيث وايتلام «اختلاق إسرائيل القديمة». وقال عن الكتاب إنه «عمل أكاديمي من الطراز الأول، يتميّز كاتبه بجرأة كبيرة في نقده للعديدمن الفرضيات حول تاريخ إسرائيل التوراتي.

ومن أهم النتائج التي يصل إليها هذا الكتاب المهم أنه يقلب صورة العلاقة التاريخية بين اليهود والفلسطينيين القدماء رأسا على عقب، فبعد أن كان الباحثون الذين زيفوا تاريخ تلك الفترة لخدمة مصالح سياسية تتعلق بأحداث التاريخ المعاصر، بعد أن كانوا يسكتون تماما عن التاريخ الفلسطيني القديم ولا يتناولونه إلا بقدرارتباطه بدولة إسرائيل القديمة (التي اختلقوها) وتمهيده لها، يؤكد وايتلام أن التاريخ اليهودي القديم هو مجرد جزء من التاريخ الكنعاني - أو الفلسطيني القديم - وينتهي إلى ضرورة إحياء هذا التاريخ ودراسته كموضوع قائم بذاته، لا كمجرد إطار للسياق الذي ظهرت فيه مملكة إسرائيل القديمة التي يشكك المؤلف في وجودها أصلا ويراها مجرد اختلاق قام به باحثون مغرضون تحركهم دوافع سياسية ومصالح تتعلق بالأوضاع الحاضرة.

والكتاب يهم دراسي التاريخ والدراسات الدينية وعلماء الاجتماع والمهتمين بالسياسة المعاصرة في الشرق الأوسط وكل المتهمين بالتاريخ القديم لفلسطين وإسرائيل.